مذاهب فكرية معاصرة

عرض ونقد

الدكتور / محمود محمد مزروعة
أستاذ العقيدة والأديان بجامعتي الأزهر وأم القرى



مكتبة كنوز المعرفة
ص . ب : ٢٠٧٤٦ جدة : ٢١٤٨٧
هاتف : ٦٥٧٠٧٢٢ - ٦٥١٤٢٢٢ فاكس : ٦٥١٦٥٩٢

اسم الكتاب : مذاهب فكرية معاصرة
عرض ونقد : د/ محمود محمد مزروعة

رقم الإيداع :
الترقيم الدولي :

الطبعة الأولى
1425 هـ - 2004 م

الطبعة الثانية
1427 هـ - 2006 م

مكتبة كنوز المعرفة
المملكة العربية السعودية
هاتف : 6510421 - 6514222
فاكس : 6516593
ص.ب (30746) جدة (21487)

مقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رحمة الله إلى العالمين وخير خلق الله أجمعين. وعلى إخوانه وآله وصحابته والتابعين.

أما بعد؛

فإن الشرق الإسلامى كان خيرًا على العالم الغربى النصرانى بكل المقاييس، بينما كان الغرب النصرانى شرًّا وضُرًّا على العالم الإسلامى ـ أيضًا ـ بكل المقاييس وفى جميع الحالات. فقد كان المسلمون فى أوج حضارتهم العلمية والتقنية، يفتحون مغاليق العلوم والمعارف فى كافة مجالاتها التى لم يكن العالم كله ـ وإلى ألف عام بعد ذلك ـ يعرف عن هذه العلوم والمعارف شيئًا. فبينما كان الغرب النصرانى غارقًا فى ظلمات الجهل والتخلف كان الإسلام قد فتح للمسلمين أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، ودفعهم دفعًا إلى فتح مغاليق العلوم والمعارف، فيما كانت النصرانية ـ فى المقابل ـ قد ـ أعمت أعين الغرب النصرانى، وأصمت آذانه، وضربت به أطناب الجهل والتخلف والضلال والغى. وجعلت الغرب يغرق فى ظلمات بعضها فوق بعض، بل ووقفت بالمرصاد للغربيين كلما حاول أحدهم أن يفتح على العلم كوة نور وضياء، كانت الكنيسة ورجالها يغلقونها ويحيلون صاحبها إلى محاكم التفتيش. وقد ظل الغرب النصرانى على ذلك ما ينيف عن الألف عام أو يزيد. تلك الحقبة التى عرفت فى تاريخ الفكر بالعصور الوسطى المظلمة، ظل الغرب فيها حبيس ظلمات الجهل التى فرضها عليه رجال الكنيسة، حتى بدأ ما سمى بعصر النهضة، حيث بدأ الغربيون يتلمسون طريقهم إلى نور العلم والمعرفة مهتدين بنور العلم والمعرفة لدى المسلمين الأوائل الذى وصل إلى الغرب عن طريق الفتوحات الإسلامية فى

الأندلس، ثم فى البلقان، ثم عن طريق الحروب الصليبية، ثم جهود المستشرقين فى نقل العلوم التى أنارت بها الكثير من غيابات الجهل والتخلف لدى الغرب النصرانى.

بدأ الغربيون خُطَا العلم والمعرفة يغذون السير معلنين الحر ب على الكنيسة ورجالها، وحينما كتب النصر فى هذه الحرب للمفكرين الغربيين على الكنيسة ورجالها. حينذاك انطلق الغربيون كقطيع من الحيوانات التى طال سجنها وحبسها. فاقدين الخلفية العلمية والثقافية، وفاقدين الاتزان والهداية.

ذلك أن الحرية الفكرية لم تأتهم تدريجيًا، بل جاءتهم فجأة، فانطلقوا كقطيع فقد الهداية والدليل. كلٌّ يفكر حسب ما يعن له، وكان أن نشأ عن ذلك عشرات أو مئات من الأفكار الارتجالية، والمعارف غير الناضجة، والتى سميت بعد ذلك بالمذاهب. وكانت السمة الجامعة، والقاسم المشترك لهذه المذاهب كلها هو الإلحاد والكفر والعداء الشديد للدين والمتدينين، وكان عداؤهم للنصرانية بخاصة، ثم لجميع الأديان بعامة.

نشأ عن ذلك ـ إذن ـ كم هائل من الأفكار والمعارف التى سميت فيما بعد بالمذاهب، والتى ما كان لها أن تنتشر أو حتى تدرس لولا أن تلقفتها أيدى اليهود حينما رأوا فيها الكمَّ الهائل من الكفر والعداء للدين. وهذا ما يريده اليهود للأميين.

وحين أردنا أن نكتب فى هذا عارضين وناقدين، قابلتنا مشكلة الكثرة الهائلة فى هذه المذاهب، وكان الحل ـ من وجهة نظرنا ـ أن نجمع كل ما تشابه من هذه المذاهب فى اتجاه معين عارضين من هذا الاتجاه أشهر مذهب يوضحه ويعبر عنه، مثل الاتجاه التشاؤمى فى الفلسفة الغربية حيث أخذنا عنه مذهب "شوبنهور" باعتباره أشهر الممثلين لهذا الاتجاه، وهكذا.

ثم قابلتنا مشكلة أخرى حيث وجدنا بعض هذه المذاهب قد تعدّى طور الفكرة إلى طور التطبيق الفعلى إما نظام سياسى أو اتجاه عملى، وذلك مثل الفكر الماركسى فجعلنا ذلك قسمًا خاصًا وحده.

هذا ما يسر الله ـ تعالى ـ به فى موضوع المذاهب الفكرية، التى ساعد الإسلام الغرب على الخروج من سباته وجهله؛ فكان أن رد له الغرب ذلك الجميل وتلك اليد، بنقل هذه المذاهب إليه هدية سوء وجهل وإلحاد.

وقد عرضنا ما عرضناه ونقدناه من وجهة النظر الإسلامية، راجين أن نكون قد قدمنا شيئًا ذا نفع وفائدة، حتى إذا انتهى القارىء الكريم منها ـ حين ينتهى ـ يجد نفسه غير نادمٍ على الوقت الذى أنفقه فى قراءتها، وربما شكر الله أولا ثم صاحبها بعد ذلك.

والله من وراء القصد وهو ـ سبحانه ـ حسبنا ونعم الوكيل.

دكتور

محمود محمد مزروعة

القسم الأول

مدخل لدراسة المذاهب

المبحث الأول

تعريف بمفردات العنوان

أولاً: كلمة مذاهب فى اللغة

مذاهب جمع مذهب:

والمذهب فى اللغة: مصدر ميمى من: ذهب. ويصح أن يكون اسم مكان، أو اسم زمان من نفس الفعل: ذهب. والمراد هنا المصدر الميمى.

وقد فصلت معاجم اللغة المعانى المختلفة للفعل: ذهب.

يقال: ذهب ذهابًا، وذهوبًا، ومذهبًا: مَرَّ ومضى.

ويقال: ذهب الأثر: زال وَانمحى.

ويقال: ذهب به: أزاله ومحاه. وفى القرآن المجيد يقول ـ تَعَالَى:

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٧].

والمذهب ـ أيضًا ـ الطريقة والمعتقد والرأى يذهب إليه ويختار.

يقال: ذهب مذهبًا حسنًا، وذهب مذهب فلان: أى سار على رأيه، وقصد قصده، وسلك طريقه.

ويقال: ذهب فى الدين مذهبًا: أى رأى فيه رَأيًا، أو ابتدع فيه بدعة

ويزاد فى الفعل: "ذهب" همزة فيصير متعديًا: فيقال:أذهب عنا الأذى. وفى القرآن العظيم يقول الله ـ عز وجل:.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٤].

والمذهب ـ أيضًا ـ الطريقة والمعتقد والرأى، وقد يطلق ـ أيضًا ـ على السلوك يقال: ما يدرى له مذهب: أى رأى أو فكر أو معتقد.

ويقال: اختلطت مذاهبه: أى اختلطت آراؤه، وتشتتت أفكاره، وتضاربت أقواله، وتناقضت أفعاله وأعماله.

والمذهب - أيضًا - الأصل، والانتماء، أو الجماعة التى ينتمى إليها.

يقال: ما يدرى له مذهب: أى أصل، أو انتماء، أو جماعة ينضم وينتمى إليها

المذهب فى اصطلاح العلماء

للعلماء فى تعريف "المذهب" آراء كثيرة ومختلفة، وذلك تبعًا لاختلاف تخصصاتهم ومجالات اهتماماتهم ودراساتهم.

لكنا وسط اختلافاهم هذه نستطيع أن نبين اتجاهين أساسين فى المراد بالمذهب عندهم.

الاتجاه الأول: اتجاه العلماء الذين يصدرون عن مبدإ واحد، وتجمعهم عقيدة واحدة. وتؤلف بينهم أصول يتفقون عليها، ويدينون بها، وينطلقون منها. ولا يختلفون حول هذه الأصول.

وإنما يأتى اختلافهم، وتتعدد مذاهبهم وآراؤهم، بسبب اختلافهم حول فهمهم هذه الأصول، وحول شروحها، وما يتفرع عنها أو يتفرع عليها.

يتضح من هذا أن أصحاب هذا الاتجاه ليسوا مبتدعين ولا منشئين، وإنما هم متبعون. وما يقع من خلاف بين مذهب ومذهب إنما يكون فى فرع أو فروع لأصل من الأصول التى يعتقدونها ويصدرون فى كل آرائهم عنها.

ويدخل فى هذا الاتجاه أصحاب المذاهب الفقهية، فإنهم جميعًا يصدرون عن الأصلين الأساسين: الكتاب، والسنة، ويجتهدون فى إطارهما.

وقد يدخل فى ذلك - مع كثير من التحفظ - المذاهب الكلامية.

الاتجاه الثانى: هو اتجاه الباحثين فى الفلسفة والاجتماع والنفس والأخلاق والاقتصاد والسياسة، والإنسانيات بصورة عامة.

وهؤلاء لا يصدرون عن مبدأ واحد، ولا ينطلقون من أصل متفق عليه فيما بينهم، بل لكل منهم رؤيته الخاصة، ومذهبه المعين، الذى قد لا يتفق مع غيره فى أصل ولا فرع.

ويعرف المذهب عند هؤلاء بأنه: "مجموعة من الآراء والأفكار حول موضوع معين ارتبط بعضها ببعض بشكل يجعل منها وحدة متسقة".

وبدهى أن كلمة "المذاهب" فى عنوان مادتنا الدراسية، إنما يراد بها المعنى الثانى أو الاتجاه الثانى.



ثانيًا: كلمة: فكرية.

وكلمة "فكرية" نسبة إلى: فِكْر. وقد ورد فى المعاجم بجانب هذه الكلمة:

"فَكَرَ" فى الأمر فِكْرًا: أعمل عقله فيه ليصل إلى حل مشكلة عرضت له، أو أعمل عقله مرتبًا بعض الأمور المعلومة ليصل من خلالها إلى أمور مجهولة. واسم الفاعل من فَكَرَ: "فَاكِر".

و: "أَفْكَرَ" فى الأمر: فَكَرَ فيه. واسم الفاعل: "مُفْكِر". و"فَكَّر" فى الأمر: مبالغة فى فَكَر. واسم الفاعل: "مُفَكِّر".

فهى ثلاثة أفعال: فَكَر، أَفْكَر، فَكَّر، لكن الفعل الثالث: "فَكَّر" أكثرها شيوعًا وأوسعها استعمالاً.

يقال: فَكَّر فى الأمر: أورد الأمر بباله، وشغل به ذهنه، وفَكَّر فى المشكلة يبحث عن حل لها عن طريق إعمال عقله فى الحلول الممكنة والمتاحة لهذه المشكلة. و"تَفَكَّر" فى الأمر: فكَّر فيه لبحثه أو دراسته، أو ليصل فيه إلى قرار.

و"افْتكَر": تذكر الأمر بعد سهو أو نسيان.

و"التفكير" إعمال العقل فى بحث أمر أو مشكلة للوصول إلى حل لها، أو إلى قرار فيها.

و"الفِكْر" وكذلك: "الفَكْر" شغل العقل بمشكلة ما.

و"الفِكْر" و" الفَكْر" و"التفكير" و"الإِفْكَار" هو الوظيفة الأساسية للعقل.

وفى القرآن الكريم يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

و"الفِكْرة" هى التصور الذهنى لأمر مَّا، أو هى الصورة الذهنية. ويقال: إنسان "مُفْكِر" و"مُفَكِّر" و"فِكِّير"؛ أى: كثير التفكير.

فالفكر هو إعمال العقل ـ كما ذكرنا ـ لكنه يطلق ـ أيضًا ـ على ثمرة إعمال العقل، وعلى النتيجة التى توصل إليها العقل بعد عملية التفكير.

فإذا ما أعملتُ عقلى فى حل مشكلة مَّا، فإعمال عقلى هذا يسمى فكرًا.

وحين أصل إلى حلٍّ لهذه المشكلة، فالحل الذى وصلت إليه ـ والذى هو نتيجة إعمال عقلى يسمى: فكرًا ـ أيضًا ـ.

ويتضح هذا حين نقول: فكر المتكلمين، أو فكر الفلاسفة. فيصدق هذا الإطلاق على عملياتهم العقلية، أو إعمالهم عقولهم، كما يصدق ـ أيضًا ـ على ناتج هذه العمليات العقلية. نقصد به الركام الهائل الذى خلفوه وراءهم من فكر ونظريات ومذاهب.

وكلمة "فكرية" قيد فى العنوان تخرج ما عدا المذاهب الفكرية، مثل:

١ ـ المذاهب الفقهية.

٢ ـ المذاهب الكلامية.

ويدخل معنا فى العنوان:

١ ـ المذاهب السياسية. لأن دراستنا تشمل بعضًا منها مثل: الديمقراطية ـ القومية.

٢ ـ المذاهب الاقتصادية. لأن دراستنا تشمل الشيوعية والرأسمالية وغيرها. وهى مذاهب اقتصادية كما هى أيضًا مذاهب سياسية.

والواقع أن الفروق تكاد تكون مطموسة غير واضحة بين المذاهب السياسية والمذاهب الاقتصادية.. وكلا الطائفتين من المذاهب هى فى الأصل مذاهب فكرية، لذلك كانت متضمَّنة داخل عنوان المادة الدراسية.



ثالثًا: كلمة: المعاصرة

فى اللغة:

نسبة إلى "العصر" والعصر" له معان كثيرة منها:

ـ الوقت من أواخر النهار إلى احمرار الشمس. فهذا عصر.

ـ والعصر كذلك: صلاة العصر. وكلمة العصر تؤنث إذا أريد بها صلاة العصر فيقال: حَضَرَت العصر. أى: جاء وقت صلاة العصر.

ـ والعصران: الغداة والعشى. أى طرفا النهار.

ـ والعصران: كذلك: الليل والنهار.

ـ والعصر: الدهر.

ـ والعصر: فترة زمانية تنسب إلى ملك أو دولة. يقال: عصر معاوية ـ رضى الله عنه ـ. عصر الرشيد. ويقال: عصر الدولة الأموية، أو عصر الأمويين.

ـ والعصر: فترة زمانية تنسب إلى تطورات علمية. فيقال: عصر البخار، عصر الكهرباء.

ـ والعصر: فترة زمانية تنسب إلى تطورات اجتماعية. فيقال: العصور المظلمة أو المتخلفة.

ـ والعصر: فترة زمانية تنسب إلى تطورات تاريخية. فيقال: العصور الوسطى، أو الحديثة.

- والعصر فى الجيولوجيا يقدر بملايين السنين - حسب تقديرات العلماء فى ذلك.
فيقال: العصر الكربونى أو الفحمى، العصر الطباشيرى.

المعاصرة فى عرف العلماء:

اتضح مما سبق أن كلمة "معاصرة" تعنى: أمورًا كثيرة باعتبارات عديدة.

وأوضح ما تصدق عليه الكلمة هو اللحظة الآنية، أو الوقت والزمان الحاضر، فإن الزمان الحاضر هو أظهر ما يعاصرنا.

لكن العلماء ذهبوا إلى التوسع فى مدلول "المعاصرة" إلى ما يسبق الزمان الحالى بقرنين ونصف إلى ثلاثة قرون.

وهذا أمر هام وضرورى بالنسبة للأفكار والمذاهب. ذلكم أن الأفكار لا تولد فى لحظات، ولا تخرج إلى الناس فى أيام، ولا تنتشر وتذيع فى شهور أو سنين. وإنما ميلاد الأفكار والمذاهب، وصقلها ونضوجها يستغرق سنوات وسنوات. ثم إن صياغة تلك الأفكار فى قوالب لفظية مقبولة، ونشرها بين الناس، واهتمام الناس بها شيئًا فشيئًا، ومناقشتها ونقدها.. إلى آخر ذلك، يستغرق عشرات من السنين.

ثم إن انتقال هذه الأفكار من مواطنها الأصلية التى فيها نشأت، وهجرتها إلى مواطن أخرى، واجتيازها القارات لتصل إلينا فى ديار الشرق الإسلامى، ذلك - أيضًا - يستغرق سنوات.. ثم إن دبيب هذه المذاهب الكافرة على الأرض المسلمة على استحياء أولاً، ثم شيئًا فشيئًا تكشف عن وجوهها القبيحة فى تبجح وتوقح - كما هو حاصل الآن - ذلك أيضًا يستغرق عشرات السنين.

لذلك قلنا إن التوسع فى مدلول المعاصرة ليصل إلى ثلاثة قرون فى المضى أمر مقبول ومعقول.

* * *

الآراء حول تدريس المذاهب الفكرية

تختلف الآراء حول دراسة أو تدريس المذاهب والآراء التى تخالف الدين، وتتعارض مع الشرع الشريف.

ومن تلك المذاهب والمواد والآراء التى تخالف الدين وتختلف الآراء حولها:

المنطق اليونانى، والفلسفة بأنواعها، وبخاصة ما يسمى بالفلسفة الإلهية أو ما وراء الطبيعة، والفكر المادى أو الفلسفات المادية بكافة أشكالها وصورها، المذاهب الفكرية، والاتجاهات الإلحادية التى تحارب الدين وتنشر الإلحاد والزندقة. إلى غير ذلك من العلوم أو المواد التى تماثل ما ذكرنا أو تتصل به.

ونستطيع أن نحصر الآراء حول دراسة أو تدريس تلك المذاهب والعلوم التى أشرنا إليها فى ثلاثة اتجاهات.

الاتجاه الأول:

وموقف أصحاب هذا الاتجاه الرفض التام لدراسة ذلك النوع من العلوم والمذاهب الفكرية والفلسفية. وذلك بحجة أن تدريسها يؤدى إلى المحظورات الآتية:

١ـ أن فى تدريسها إشاعة لهذه الأفكار، وإذاعة لما تحويه هذه العلوم من مفاسد ومضار، ونشرًا لما تحويه من أضاليل. فكأن فى تدريسها إسهامًا فى نشرها، ومساعدةً لواضعيها فى تحقيق أهدافهم، وإيصالها إلى قطاعات من الشباب المسلم من المتعلمين ما كان لهم أن يطلعوا عليها أو يتأثروا بها لولا إتاحتنا الفرصة لنشرها بينهم، وفرض دراستها عليهم.

٢ ـ أن هذه المذاهب والآراء مليئة بالأضاليل والزيف والفساد. وقد وضعها أصحابها بطرق أخاذة خادعة، وعرضوها بأساليب خبيثة ماكرة، وصاغوها

بطرق قائمة على التمويه والتضليل، ومَلأُوا نظرياتهم، وأقاموا مذاهبهم وآراءهم هذه على أدلة ملتوية تظهر الحق باطلاً، والباطل حقًّا، وبخاصة لدى قليلى الخبرة بمثل تلك الأساليب من الشباب المبتدىء من أبنائنا الدارسين، وبناتنا الدارسات، مما يعرض أبناءنا وبناتنا هؤلاء لابتلاء غير مأمون العواقب، وفتنة غير مضمونة النتائج، حيث قد يتأثر بعضهم بتلك الآراء والمذاهب مخدوعين بأساليبها الماكرة، وأساليب أصحابها الشيطانية الخبيثة.

إضافة إلى أننا نضيع عليهم أوقاتًا من أعمارهم كان يمكن أن نملأها بالدراسات الشرعية التى تنفعهم فى دينهم ودنياهم.

٣ ـ وترتيبًا على ما سبق؛ فربما صادفت هذه الآراء والأفكار بعض ذوى النفوس الضعيفة، والذكاء المتدنى، والفهم السقيم، فكان فى دراستهم هذه المذاهب والأفكار فتنة لهم. وسبيل إلى اقتناعهم ببعض ما فيها، ثم تأثرهم بها فى خلق أو سلوك ـ عياذًا بالله ـ.

٤ ـ أن دراسة هذه المذاهب والأفكار ـ فى حد ذاته ـ إثم مبين، وذنب عظيم؛ لأنه ترديد لآراء الكافرين فى تجريح ديننا، وإهانة مقدساتنا. وذلك وحده ـ بصرف النظر عن آثاره ـ ضلال يجب التنزه عنه.

الاتجاه الثانى:

وهو على نقيض الاتجاه الأول.

وموقف أصحابه يقوم على التأييد الكامل، بل والحض على ضرورة دراسة هذه المذاهب والأفكار وتدريسها، وأن يكون ذلك على أوسع نطاق ممكن وذلك للأمور الآتية:

١ ـ أن دراسة هذه المذاهب يدخل فى نطاق العلم والمعرفة، ولا يجوز أن يمنع علم عن متعلم، أو يحال بين المعرفة وطالبيها، وكل علم أو معرفة هى من حق الإنسان ما دام مطيقًا لها.

أما خطر ذلك على الدارس والمتعلم، وتأثير تلك المذاهب عليه، فيجب أن يترك ذلك له، وأن يتحمل مسئولية نفسه واختياره بعد أن يدرس ويتعلم، إما أن يقبلها أو يرفضها، يؤيدها أو يعارضها، فذلك أمر متروك له باعتباره إنسانًا عاقلاً مكلّفًا حرًّا فيما يدع أو يأخذ.

٢ ـ أن هذه المذاهب وما تحويه من أفكار وآراء إنما هى فكر، ويجب أن يواجه الفكر بالفكر المقابل، بمعنى أنه يجب دراستها، وتحليلها، وكشف مواضع الزيف والضلال فيها، ومن ثم يكون القضاء عليها ووقف مدِّها، ومنع انتشارها، ولا يجوز أن تقابل بالصمت وعدم الدراسة.

فها هنا موقفان: إيجابى وسلبى.

الموقف الإيجابى يتمثل ـ كما ذكرنا ـ فى مواجهة هذه المذاهب بدراستها وتحليلها ونقدها وبيان زيفها، وهذا هو الموقف الصحيح.

الموقف السلبى يتمثل فى السكوت عنها ووضع الحواجز بيننا وبينها، وعدم دراستها، واعتبارها غير موجودة، وذلك موقف غير سليم ـ كما سيتضح بعد.

٣ ـ أن هذه المذاهب هى فكر ونظم قائمة بالفعل: سواء درسناها أو لم ندرسها، وهى تشاركنا العالم الذى نعيشه، ونصطدم بها أو بآثارها ليل نهار، ومقابلتها بترك دراستها وعدم مواجهتها هو مثل النعامة التى تدس رأسها فى الرمال هربًا من صائدها، أو مثل رجل رأى أمامه أسدًا متحفزًا لافتراسه، فحتى يتفادى خطره عصب عينيه وظن أنه ما دام لا يرى الأسد، فالأسد غير موجود، والخطر قد زال.

٤ ـ يضاف إلى ما تقدم أن المذاهب والأفكار فى عصرنا هذا لا يمكن الحجر عليها أو منعها من الوصول إلى شبابنا، فلو منعنا تدريسها لطلابنا، فإننا لا نستطيع منع نشرها فى كتاب، أو إذاعتها فى مذياع، أو نقلها على الألسن، فهى تصل إلى الشباب من أكثر من طريق ووسيلة، لذلك كان الأفضل أن نوصلها نحن

إليهم، ثم نحصنهم ضدها ببيان أضاليلها وزيفها؟، وإرشادهم إلى ما تحويه من كذب وتمويه، وتوضيح خطرها على الدين والخلق وذاتية الإنسان المسلم.

وذلك - دون شك - أفضل من أن تصل إليهم، ويطلعوا عليها دون رقيب أو موجه ومرشد، فيفتنون بها أو يقعون فى حبائلها.

الاتجاه الثالث:

وهذا الاتجاه توسط بين الاتجاه الأول والاتجاه الثانى. وأصحاب هذا الاتجاه لم يأخذوا بالاتجاه الأول؛ مستندين إلى أدلة الاتجاه الثانى، وكذلك لم يأخذوا بالاتجاه الثانى، مستندين إلى أدلة الاتجاه الأول، وقد تمثل اتجاههم فى وجوب تدريس هذه المذاهب والأفكار، لكن مع مراعاة الضوابط الآتية:

١ - أن تدرس هذه المذاهب والآراء بصورة مجملة، وبالقدر الذى يكفى فى التعرف على مبدئها وأهداف واضعيها، دون الدخول فى تفصيلات أو تفريعات لا حاجة إليها قد تضر ولا تنفع.

٢ - أن ينتقى لدراستها نوعية معينة من الدارسين يكونون على مستوى ذهنى، وخلفية ثقافية تؤهلهم لفهم هذه المذاهب، وعقل نقدى تحليلى قادر على كشف ما فيها من زيف وأباطيل.

٣ - أن يكون تدريسها تحت إشراف وتوجيه من أساتذة متخصصين فى مثل هذه النوعية من الدراسات، بحيث يبينون للدارسين ما فى هذه المذاهب من كذب وتمويه، ويضعون أيدى الطلاب على أماكن الزيف والضلال فيها، آخذين فى اعتبارهم مساعدة الدارسين على كشف هذه الزيوف والأباطيل بأنفسهم، وإدراك مكامن الخلل والزلل بجهودهم، فإن ذلك أجدى وأشد أثرًا فى نفوس الدارسين.

٤ - ألا يقف الأساتذة عند نقد هذه المذاهب والآراء نظريًّا، بل يجب أن يستعينوا بالواقع العملى والموضوعى لبيان زيف هذه المذاهب وفسادها، موضحين ذلك

بالبلاد التى طبقت فيها هذه المذاهب وما حدث فيها من خراب ودمار خلقى وإنسانى فوق الجوانب الاقتصادية والسياسية. وكذلك بالأشخاص الذين اعتنقوها وما آل إليه أمرهم. وبيان المفاسد التى لحقت بكل مكان نفذت إليه، أو نُفِّذَت فيه.



هذه أشهر الاتجاهات حول تدريس المذاهب الفكرية والآراء المادية لطلابنا.

وقد رأينا التطرف واضحًا لدى كل من الاتجاه الأول والثانى. كما لاحظنا أن الاعتدال هو سمة الرأى الثالث، فلم يحجر التدريس بإطلاق، ولم يفرضه بإطلاق، بل توسط ووضع من الضوابط والتحفظات ما جعله الاتجاه الأَوْلى بالقبول



المبحث الثانى

الفكر المادى وخصائصه

أولاً: التعريف بالفكر المادى:

ينسب الفكر المادى إلى: "المادة"، وهى كل ما هو محسوس من هذا العالم. ويراد بها كذلك ما يقابل عالم الغيب.. ويقصد بالمحسوس عندهم كل ما يمكن أن يدرك ماديًّا، سواء بالحواس العادية، أو بالآلات المساعدة على ذلك، فالأفلاك والإنسان والحيوان والنبات والجماد، وكل العناصر التى تتركب منها هذه الموجودات وتتألف من ذراتها، كل ذلك يدخل فى نطاق ما يسمى بالمادة، وتنسب إليه المذاهب المادية.

وفساد الفكر المادىِّ وعواره لا يتمثل فى إقراره بالعوالم المادية التى ذكرناها، ولكن فساده وضلاله وزيفه يتمثل ويكمن فى اقتصاره على المادة وما تألف منها، وإنكاره كل ما عدا ذلك من عالم الغيب، وعدم إقراره بأى شىء يغيب عن الحواس بحالتها أو بآلاتها وأجهزتها.

ومن ثم يمكن تعريف الفكر المادى بأنه: "الفكر الذى يقوم على اليقين المطلق بعالم الحس، والثقة المطلقة فى المادة التى يتكون منها هذا العالم، ثم الإنكار المطلق لما وراء العالم المادى من عوالم الغيب، وعدم الإقرار بشىء مما فيه".



ثانيًا: خصائص الفكر المادى:

للفكر المادى خصائص كثيرة، ونتائج خطيرة، نوجز أهمها فيما يلى:

١ ـ فى مجال الألوهية.

يقوم الفكر المادى على أساس واضح فى مجال الإيمان بالله ـ سبحانه وتعالى ـ

خالقًا لهذا الكون، ومدبرًا لأمره، وحافظًا إياه، ومستحقًا الطاعة والعبادة من كل ما فيه ومن فيه. كما قال ـ سبحانه ـ.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وكما قال عز وجل فى تسبيح الكون كله بحمده، واستغراقه فى طاعته وعبادته:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

والأساس الواضح الذى يقوم عليه الفكر المادى من قضية الربوبية والألوهية: هو الإنكار الكامل، والرفض المطلق لهذه الحقيقة التى أقر بها الوجود كله من حيٍّ وجامد. كما بينت ذلك الآية الكريمة.

فليس عندهم فى الوجود سوى العالم المادى، وليس وراء هذا العالم قوة خلاقة مبدعة، خلقت وتخلق كل شىء، ودبرت وتدبر كل أمر.

والمادة عندهم هى كل شىء، منها يبدأ كل شىء، وإليها ينتهى، فهى الفاعلة، وهى الصانعة، وهى مصدر الوجود والحياة، وكذلك هى مصدر العدم والفناء.

وقد عبر عن هؤلاء فى بيان عقيدتهم المادية تلك، وإنكارهم الألوهية، "ماركس" مؤسس الشيوعية بقوله: "لا إله، والحياة مادة"، وهذه العبارة هى المبدأ الأول من مبادىء مذهبه هذا الفاسد المفسد.

وطبعىٌّ أنهم إذا كانوا ينكرون الألوهية، فهم بالتالى ينكرون الرسل، وينكرون الرسالات، وينكرون الوحى، وما جاء به الوحى من كتب.

ثم هم ـ كذلك ـ ينكرون العبادات بأنواعها التى يتقرب بها العباد إلى الله. سبحانه وتعالى، فكل هذه الأمور الدينية وما يتصل بها ينكرونها إنكارًا تامًّا.



٢ ـ فى مجال التشريع:

واضح مما سبق فى الحديث عن موقف الماديين من قضية الألوهية، أنهم ينكرون التشريعات التى تأتى من قبل الله ـ تبارك وتعالى ـ وذلك أمر بدهىٌّ؛ لأنهم إن كانوا قد أنكروا وجود الله عز وجل، فإنهم ينكرون كل ما يقوم على ثبوت هذا الوجود،

من كتب إلهية، أو وحى بصورة عامة، وما يحويه الوحى والكتب من تشريعات وأحكام.

والإنسان عندهم هو ـ وحده ـ مصدر التشريع والتقنين فى هذا الوجود، فالأحكام والتشريعات، والنظم والقوانين، كلها من وضع الإنسان، وكل كلام عن تشريعات إلهية فهو كلام مرفوض عندهم. ولذلك كان تاريخهم قائمًا على المعارضة الدائمة، والرفض التام لتطبيق شرع الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى المجتمعات الإسلامية، والماديون كانوا وراء الحركات التى استبدلت القوانين الوضعية بشرع الله ـ تعالى ـ ، وهم كذلك وراء كل القوى الرافضة لعودة شرع الله ـ سبحانه ـ إلى الحكم فى المجتمعات الإسلامية.

يتبع ما قدمنا من رفضهم التشريع الإلهى، بطلان قضية الحل والحرمة عندهم، فليس لديهم ما يسمى حلالاً أو حرامًا، فكل شىء لديهم خاضع لأهوائهم وشهواتهم، فكل مرغوب عندهم حلالٌ، لا يحجزهم عن ذلك شىء سوى قوانينهم الوضعية التى ما أيسر الخروج عليها والنفاذ من ثغراتها الكثيرة.



٢ ـ فى مجال الأخلاق ومسئولية الفرد:

إن الفكر المادى خال من الأخلاق، عار عن القيم، مجرد من المبادىء.

وذلك أمر واضح من طبيعته، فهو قائم على المادة، والقيم والمبادئ والأخلاق. أمور معنوية ليست مادية.

فالقيم من حق وخير، وجمال، وبر، وإحسان، وفضيلة، وحسن، وصلاح، وعدل، وصدق، وحكمة، وعفة، وطهر، إلى غير ذلك من قيم ومبادىء خلقية دينية، أين نجدها فى الفكر المادى؟ وأين محلها عندهم؟

إنه لا صلة بين المادة وهذه القيم، ولذلك قلنا: إنه لا وجود لها عند القوم.

يتبع ذلك أمر هام، وهو أن الحق عندهم نسبى. فلا يوجد عندهم حق ثابت ولا حقيقة محددة متفق عليها، لأنه ما دام الإنسان هو مرجع كل شىء ومصدر كل حقيقة، وما دام الحق يستمد من الإنسان، وتكتسب الحقيقة صفتها منه، فهو ـ إذن ـ

وما يرى، وقد يرى اليوم حقًا ما كان يراه بالأمس باطلاً، وقد يثبت اليوم حقيقة، كان يراها قبل ذلك زيفًا وبهتانًا.

وإذا كان الحق والحقيقة يتغيران بالنسبة للإنسان نفسه فى ظروف مختلفة، وأزمنة متتالية، فأن يتغير ذلك بين الأشخاص العديدين أولى وأوضح، فإن ما يراه حقًا أحد الماديين، قد يراه الآخر باطلاً. وذلك أمر طبعى ومنتظر ما دام الإنسان هو المقياس الوحيد للحق والحقيقة، وليس وراء ذلك تشريع إلهى معصوم.

يتبع ذلك فقدان المسئولية الفردية عند أتباع هذه المذاهب المادية، لأن المسئولية إنما تقوم لدى الفرد على أساس من دينه وضميره وقيمه، دينه الذى يغرس فيه الخوف من الله ـ سبحانه ـ ورقابته. وضميره الذى تربى فى ظل الدين فصار هو الصوت المسموع لدى صاحبه، وضمير الإنسان المسلم هو المعبر عنه بالنفس اللوامة التى تلوم صاحبها وتؤنبه وتحجزه عن ارتكاب المحرمات، ثم قيمه التى تستمد من دينه، والتى يقف الضمير رقيبًا يرعاها وينفذها ويحرص عليها أين ذلك من الإنسان المادى الملحد الذى لا دين له ولا ضمير عنده، وليس لديه من القيم إلا أهواؤه وشهواته ونزواته ونزغاته؟

من أجل ذلك قلنا: إن هؤلاء الذين رفضوا الدين، فقدوا الضمير وخَلَوْا من القيم، فلا مسئولية ولا جزاء، إن أحدهم لا يشعر بمسئوليته تجاه قيمة ما، ولا يشعر بوخز ضمير بسبب تصرف أو فعل ما، ولذلك فهم ينطلقون فى الحياة انطلاق السوائم التى لا تعى ولا تدرك مما حولها سوى ما تدفعه إليها غرائزها.. ونستغفر الله ـ تَعَالَى ، فإنه ـ سبحانه ـ قد حفظ للسوائم والأنعام مكانة أسمى من مكانة هؤلاء، حيث قال عز وجل:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٤ ـ فى مجال النفس والروح:

الفكر المادى ينكر ما يسمى بالروح أو النفس إنكارًا تامًا، ذلك أن النفس والروح غيب عن مداركهم الحسية، لأنها ليست مادية، وكل غيب ينكرونه ولا يعترفون به.

وإذا كان المؤمنون يؤمنون بأن الإنسان ثنائى التركيب، من جسد وروح، وأن الله ـ تبارك وتعالى ـ أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم حين يكتمل فيه العنصران الضروريان لحياة الإنسان. كما قال ـ سبحانه:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

فالسجود لم يكن بأمر الله ـ سبحانه ـ لعنصر واحد وهو الجسد أو الهيكل الخارجى المادى، بل كان للجسد والروح.

نقول: إذا كان ذلك شأن المؤمنين، فإن الماديين الملاحدة الذين ينكرون كل ما ليس مادة، يقررون أن الإنسان أحدىُّ التركيب، مركب من هذا الجسد المادى المحسوس الملموس، ولا شىء سوى ذلك، فليس الإنسان عندهم سوى هذا الكم من اللحم والشحم والعظم، وكما قال قائلهم: إذ أردت أن تعرف من أنت فانظر فى المرآة، فأنت ذلك الذى تراه منعكسًا على صفحة المرآة، ولا شىء هناك سوى ذلك.



٥ ـ فى مجال الحياة والموت:

طبعى أن يعرض سؤال بعد الفقرة السابقة وما قيل فيها من إنكار الماديين النفس والروح، والسؤال الناشىء عن إنكارهم الروح هو: عن الحياة وبم تكون، وعن الموت وأسبابه.

فإن المؤمنين يردون الحياة بنفخ الملك الروح فى الجسد، والموت بنزعها عن الجسد.

فماذا عن الماديين الملاحدة، وماذا هم قائلون تعليلاً وتفسيرًا للموت والحياة؟

إن الماديين ـ كما ذكرنا ـ ينكرون النفس وينكرون الروح، ويردون الحياة والموت إلى المادة. كشأنهم فى إرجاع كل شىء إليها، فهم يذهبون إلى أن الحياة تنشأ فى الكائنات نتيجة تفاعلات كيمائية معينة لخصائص العناصر المادية التى يتكون منها الكائن الحىّ، وهذه التفاعلات الكيمائية إذا تحققت على نسق ونظام معين نشأت عنها الحياة. ويظل الكائن حيًّا بصحة جيدة ما دامت التفاعلات الكيميائية لخصائص المادة على أفضل حال، فإذا حدث خلل ما فى تلك التفاعلات، أو نقص فى العناصر المادية، نتيجة ميكروبات أو فيروسات معينة، مرض الكائن الحى وضعف، فإذا ما وصل الخلل فى التفاعلات الكيميائية لعناصر المواد حدًّا معينًا فقد الكائن حياته ومات.. فهم يرجعون الحياة إلى تفاعلات المادة، والصحة والمرض كذلك، والموت إلى خلل أو عطب يلحق تلك العناصر المادية فيبطل تفاعلاتها وينهى ما نشأ عن هذه التفاعلات من حياة.



٦ ـ فى مجال العقل والفكر والمشاعر والوجدان

لا يختلف الكلام هنا كثيرًا عما قلناه فى الفقرة السابقة عند حديثنا عن موقف الماديين من النفس والروح، والحياة، والموت، فإن الماديين كما ردُّوا قضية الموت والحياة إلى المادة، فهم ـ كذلك ـ يردون قضايا العقل والفكر، وكل ما يتصل بذلك من ذكاء أو غباء، ومن علم أو جهل، ومن تذكر أو نسيان، كل ذلك يردونه إلى تفاعلات عناصر المادة داخل تلك المادة البيضاء الهلامية الساكنة تجويف رأس الإنسان، فهم يقولون إن العقل والفكر وما يتصل بهما يرجع إلى العلميات الكيميائية داخل المخ.

كذلك يرجعون الأحاسيس الباطنة، والمشاعر، والوجدانات من حب وكره، وسعادة أو تعاسة، ورضا أو غضب إلى غير ذلك، كله يرجعونه إلى المادة وتفاعلاتها داخل الإنسان.



٧ ـ فى مجال الدين بشكل عام

إن المـادة هـى كـل شىء لدى الماديين، لا شىء فى الوجود سواها، بل إن كل شىء فى الوجود راجع إليها، حتى قضية الموت والحياة والعقل والفكر.. وغير ذلك.

وما دام الأمر كذلك؛ فلا مجال للكلام عن "عوالم غيبية" من مثل الملائكة والجن والشياطين، بل لا سبيل للكلام عندهم عن الله الخالق المحيى المميت، الذى بيده الخلق والأمر، ولا سبيل كذلك للحديث عن الدين، إلا إذا كان الحديث عن الدين يأتى فى مجال التهكم به والسخرية منه.

والماديون على اختلاف مشاربهم لديهم حساسية شديدة ضد كلمة "الدين . ولذلك يكيلون للدين كل صفات التهكم والسخرية، ويخصونه بكل سمات التحقير والتنقيص، ويرجعون إليه كل أسباب التخلف والفساد الذى لحق أو يلحق بالبشرية، ومن هذه الصفات التى يصفون بها الدين:

"أنه خرافة وأساطير بدائية"

أنه خداع وتضليل وتخلف"

"أنه مخدر الأمم وأفيون الشعوب"

"أن الوحى إلى الأنبياء والرسل حالات من الهواجس النفسية، والأوهام العصبية، وأن الأنبياء مرضى بالصرع، أسرى الوهم والخيال"

هذه آراء الماديين فى الدين، عبر عنها "إنجلز" فى رسالة إلى صديقه "كارل ماركس" فقال: "إن كل دين ليس سوى الانعكاس الواهم فى دماغ البشر للقوى الخارجية التى تسيطر على وجودهم اليومى".

وقال "دافيدهيوم": "لقد رأينا الساعات وهى تصنع فى المصانع، فعرفنا أن لها صانعًا، ولكننا لم نر الكون وهو يصنع فى المصانع، فكيف نسلم بأن له صانعًا ؟

وفى أوائل القرن التاسع عشر أَلَّف عالم الفلك الفرنسى الشهير : "لابلاس" كتابًا عن: علم الحركة العلوية، أو : "الميكانيكا السماوية" كما أطلق عليه، وبمناسبة ظهور كتابه هذا استدعاه "نابليون بونابرت" ووجه إليه سؤالاً عن: "عمل القدرة الإلهية فى تنظيم الأفلاك السماوية".

فقال عالم الفلك مجيبًا سائله الكبير الذى كان يقول بمثل قوله فى الدين قال عالم الفلك: "إنى لم أجد فى نظام السماء ضرورة للقول بتدبير إلهى".

قال العقاد معلقًا على قول "لا بلاس" هذا: "ومضى القرن التاسع عشر إلى نهايته والرأى الغالب فيه بين المشتغلين بالعلم، المؤمنين به، هو هذا الرأى الذى تحدث به "لا بلاس" إلى "نابليون" ومفاده: إن العلم وحده كاف فى تفسير جميع الأسرار"[1].



٨ ـ فى مجال الوجود بصفة عامة

تقوم المذاهب المادية على أساس أن المادة ـ من حيث الوجود ـ تمتاز بالآتى:

أ ـ أنها قديمة أزلية؛ فهى ليست حادثة، ولم تسبق بعدم، بل هى موجودة أزلاً، ووجودها لا أول له.

ب ـ أنها أبدية دائمة؛ بمعنى: أنها لا تفنى على الإطلاق، لأن طبيعتها لا تقبل الفناء أو العدم.

وهاتان الخاصيتان ـ أزليتها وأبديتها ـ هما المعبر عنهما فى علم الكيمياء والفيزياء بالقاعدة الشهيرة عندهم: " المادة لا تفنى ولا تستحدث".

ج ـ أن المادة تملك داخلها إمكانات ديمومتها أزلاً وأبدًا، أى: أن طبيعتها وقوانينها وإمكاناتها تعطيها خاصية الأزلية وجودًا، والأبدية بقاء واستمرارًا.

د ـ أن المادة قابلة للتحول من صورة إلى صورة، وقابلية المادة لهذه التحولات قابلية لا نهائية، فليس هناك نهاية لتحولاتها، ولا نهاية للصور التى تتحول إليها، وهذه القابلية اللانهائية لتحولات المادة، وللصور الناشئة عن هذه التحولات هى التى تعطى المادة صلاحية الديمومة والبقاء.

هـ ـ أن المادة بما فيها من خصائص وإمكانات غنية بنفسها من مدبر يدبرها، أو

---

(١) عباس محمود العقاد. عقائد المفكرين فى القرن العشرين. ص٣٠، ط٣، بيروت ١٩٧١م

حكيم يصرفها، فهى تملك داخلها قوانينها الثابتة، ونظمها المحكمة التى لا تقبل الفساد، ولا يقع بها خلل.

و ـ أن المادة جامدة، لكن الحياة نشأت تحت ظروف معينة، ونتيجة تفاعلات كيميائية لخصائص المادة، ولم تنشأ الحياة فى هذا الكون نتيجة قوة خالقة وراء المادة أو مفارقة لها، فهذه القوة التي يتحدث عنها المتدينون خرافة لا وجود لها، ولا حاجة إليها.

* * *

هذه أهم خصائص المادة لدى الماديين.

وقد سبقها الحديث عن أهم خصائص الفكر المادى بصورة عامة.

ولقد آثرنا توضيح ذلك والتركيز عليه ابتداء. لأن الحديث عن المذاهب الفكرية المعاصرة يدور حول تلك المذاهب المادية التى تشترك جميعها فى سمة الإلحاد وإنكار ما وراء المادة من عالم الغيب. كما سيأتى بيانه ـ بحول الله تعالى ـ.

* * *

المبحث الثالث

عوامل نشأة المذاهب المادية

حين نتحدث عن العوامل التى أدت إلى نشأة المذاهب الفكرية المادية وانتشارها فى عالمنا المعاصر، يجب أن نفرق بين نوعين من هذه العوامل.

النوع الأول: عوامل نشأتها وانتشارها فى العالم الغربى.

النوع الثانى: عوامل انتقالها من مناخ نشأتها فى الغرب إلى المجتمعات الإسلامية، ثم شيوعها فى الكثير من هذه المجتمعات.

إذ من المعلوم أن المذاهب الفكرية المادية لم تنشأ فى العالم الإسلامى، ولكنها انتقلت إليه من الغرب النصرانى حيث نشأت، وهذا يعنى: أننا نبحث فى الغرب النصرانى عن أسباب نشأتها ووجودها، أو بمعنى أدق: نبحث فى الغرب عن أسباب عودتها وظهورها، لأن هذه المذاهب ـ كما سيتضح لنا من خلال الدراسة ـ ليست جديدة تمامًا، بل إنها بكافة أشكالها وصورها ترجع إلى أصول قديمة، وترتد إلى جذور ضاربة فى تاريخ الفكر الغربى، وهى رغم قدمها تعود إلى الظهور متلبسة أشكالاً وصورًا تتناسب مع الظروف الاجتماعية والبيئية التى تظهر فيها.

أما بالنسبة إلى العالم الإسلامى أو المجتمعات الإسلامية، فإن البحث المتصل بها إنما يكون عن العوامل التى أدت إلى انتقال هذه المذاهب إلى ذلك العالم أو تلك المجتمعات، وكذلك الأسباب التى عملت على ذيوع وشيوع هذه المذاهب المادية فيها، رغم عدم ملاءمتها لما عليه هذه المجتمعات من التزام بدين الله الإسلام، أو اعتناق الإسلام دينا ـ على أقل تقدير ـ مع ما تقوم عليه هذه المذاهب من مبادىء تتصادم تمامًا وتتناقض مع دين الله ـ تعالى ـ ومن يدينون به.

وطبعى أن تكون أسباب نشأة هذه المذاهب فى الغرب النصرانى، مختلفة عن أسباب انتقالها إلى المجتمعات الإسلامية اختلافًا واضحًا وبيِّنًا.

وهذا ما سيتضح أكثر عند الحديث عن هذه العوامل بشقيها، ما يتصل بالعالم الغربى النصرانى، وما يختص بالعالم الإسلامى.



وسنبدأ ـ بحول الله ـ تعالى، بعوامل نشأة تلك المذاهب فى الغرب.

ترجع نشأة المذاهب الفكرية المادية فى الغرب إلى عوامل كثيرة ومتشعبة يصعب حصرها.

بعض هذه العوامل يرجع إلى طبيعة الإنسان فى الدول الغربية. ـ ونعنى بوصف "الغربية" هنا: الغربية نظامًا، وليس إقليميًا فقط، ومن ثم يدخل فى إطار ذلك الوصف دول أوربا، وأمريكا شمالها وجنوبها، وأستراليا، وبعضها يرجع إلى نوعية الثقافة والحضارة التى يعيشها الإنسان فى الغرب بما فيها من نظم سياسية، واقتصادية، واجتماعية، كما أن من أهم تلك العوامل الجذور الثقافية والحضارية التى استقى منها الغرب حضارته، وثقافته، ومذاهبه، وفلسفاته، ونعنى بتلك الجذور: الثقافة اليونانية والرومانية، وهما ثقافتان استمد الإنسان الغربى فكره ومذاهبه منهما، ويفاخر دائمًا بانتمائه حضاريًا وثقافيًا إليهما، ثم إن هناك من قبل هذه العوامل كلها ومن بعدها ـ الدين النصرانى الذى يدين به الغرب، ونحن لا نعنى بالنصرانية ما فيها من عقائد وشرائع فقط، بل نعنى ما يرتبط بهذا الدين الباطل من عوامل التحريف والتزييف التى حدثت وما تزال، وكذلك النظام الكهنوتى بكنائسه ورجاله، وما ارتبط به عبر التاريخ من فساد وانحلال وإسفاف، أضحى أشهر من أن ينكر، حتى من النصارى أنفسهم ـ فقد كان للنصرانية عقائد وتشريعات ونظامًا وكهانة ورجال دين ـ الأثر البالغ فى تهيئة الغرب لنشأة هذه المذاهب فيه، بل وفى الإسراع بنشرها، ودفع الناس إلى قبولها.

لدينا ـ إذن ـ عوامل كثيرة، وأسباب عديدة لظهور المذاهب الفكرية المادية فى الغرب أو لدى الغربيين. ونحن ـ من جهتنا ـ نستطيع أن نحصر هذه العوامل فى أربعة، هى على الترتيب:

أولا: الجذور الثقافية والحضارية لدى المجتمعات الغربية.

ثانيًا: النصرانية دين الغرب، وما تحويه من عقائد وشرائع.

ثالثًا: طغيان الكنيسة وفساد رجالها.

رابعًا: الحركة العلمية فى أوربا، والسعى النشيط وراء المكتشفات.

وليست هذه هى العوامل المؤثرة فى نشأة الفكر المادى الغربى فقط، فهناك ـ كما ذكرنا سلفًا ـ عوامل كثيرة وأسباب عديدة، لكن هذه الأربعة هى أشدها فعالية، وأكبرها تأثيرًا فى هذا المجال، كما أن العوامل الأخرى تنبثق من هذه الأربعة، وتعود إليها. وسوف نتناول كلاًّ منها بالتوضيح فيما يلى ـ بحول الله تَعَالَى وتوفيقه ـ.



أولا: الجذور الثقافية والحضارية لدى إنسان الغرب

من المعلوم أن الدول الغربية قد ورثت ثقافتها عن اليونان والرومان، وأن الجذور العميقة، والأصول الحقيقية لثقافة الغرب وحضارته إنما ترجع إلى هاتين الثقافتين: اليونانية والرومانية. وهما ثقافتان متشابهتان فى الفروع والنتائج، وإن اختلفتا فى الأصول والمشارب.

فالثقافة اليونانية ثقافة وثنية مادية مغرقة فى وثنيتها وماديتها، تضرب الوثنية والمادية فى جسدها حتى النخاع.

ومن المعلوم أن الفكر اليونانى بدأ ـ فى الحدود التى وعاها التاريخ ـ بالمدرسة الطبعية، وهى مدرسة أو مدارس ـ كما هو واضح من اسمها ـ كانت عنايتها كلها منصبة على الطبيعة المادية التى صنع منها الكون، دونما اهتمام لما وراء الطبيعة من قوة خالقة مدبرة حكيمة مبدعة. فلم يكن بحثهم عن الله ـ سبحانه ـ خالق الكون، بل كان بحثهم عن المادة التى صنع منها الكون، أما الخالق الصانع المدبر فقد أهملوا البحث فيه فى تلك الحقبة، ولم يكن لهم فكر أو معتقد حول ذلك سوى عقائد وثنية معددة تجعل لكل مظهر من مظاهر الطبيعة إلهًا تعبده، بل كانوا يعبدون الظواهر الطبيعيّة نفسها، وأيًّا كان أمر معبوداتهم العديدة فلم تحظ بشىء ذى بال من تفكيرهم فى هذه الفترة المتقدمة من تاريخهم، لكن تفكيرهم كان ـ كما ذكرنا ـ محصورًا فى البحث عن المادة الأساسية التى صنع منها الكون، وقد انقسموا فيما بينهم حول قضية بحثهم هذه إلى مدارس.

فمنهم من قال: إن أصل الكون هو الهواء.

ومنهم من ذهب إلى أن أصله الماء.

ومنهم من ذهب إلى أن أصله التراب.

ومنهم من ذهب إلى أن أصله النار.

ثم اتفقت مدارسهم أخيرًا على القول: بأن أصل الكون ناشىء عن العناصر الأربعة المذكورة مجتمعة ومتفاعلة: الماء والهواء والتراب والنار.

وفى هذه الحقبة من الزمن لم يؤثر عنهم تفكير ذو بال فيما يتصل بما وراء المادة، أو ما وراء الطبيعة، لكنهم كانوا فى قضية التدين أو الدين منقسمين إلى فريقين:

فريق ملحد زنديق لا يؤمن بدين، ولا يعتقد أن وراء المادة قوة مدبرة خالقة فاعلة، ومن ثم فقد كانت قضية الألوهية بالنسبة له ساقطة ملغاة من قلبه وعقله.

والفريق الثانى يحصر دينه وعبادته فى آلهة وثنية متعددة، هى ـ كما ذكرنا قبلاً ـ رموز لظواهر الطبيعة المحيطة بالإنسان، والتى لها شأن مؤثر فى حياته ومعيشته، من مثل: الأمطار، والرياح، والبروق، والرعود، والزرع، والحصاد، والصيد.. إلخ. فقد كان لديهم لكل شأن من هذه الشئون إله يتجهون إليه إذا ما حزبهم أمر، فإذا ما فسد الزرع اتجهوا إلى إله الزرع بالقرابين والتضرع، وإذا ما ثار البحر اتجهوا إلى إله البحر أو الصيد يتضرعون إليه أن يهدىء من ثورة البحر، وينجى الذين هم فى لجته يصطادون.. إلى غير ذلك من الوثنيات المشهورة عندهم، كما هى عند غيرهم من الشعوب الوثنية.

وقد كانت الآلهة عند هؤلاء من قبيل البشر، لهم نزواتهم وشهواتهم، يتجولون فى عالم الناس ويفتشون عن الجميلات من النساء، وكثيرًا ما يعاشرون النساء وينجبون منهن أناسًا أنصاف آلهة، وما أكثر هؤلاء فى دنيا اليونان فى ذلكم الزمان الذين كانوا يوصفون بأنهم من نسل الآلهة.. وقد يقع بين العدد من الآلهة منافسة وقتال من أجل امرأة جميلة يريد كل إله منهم أن يستأثر بحبها، ويئول أمر الآلهة المتنافسة إلى كبيرهم ليحكم بينهم ويعاقب المسىء منهم، فيحكم عليه بما يراه مناسبًا لجرمه فى حق إخوانه الآلهة.

وقد ظل الأمر كذلك حتى ظهر من أطلق عليهم فى تاريخ الفكر اليونانى "الفلاسفة الإلهيين". وأشهر هؤلاء كان "سقراط" ثم "أفلاطون" ثم "أرسطو"

أما "سقراط" فكان وثنيًا معددًا، وكان كلامه يدور حول " الآلهة" فلم يكن موحدًا، ولم يرتفع كثيرًا عن الذين سبقوه، كل ما هنالك أنه اعتقد تنزيه الالهة عن بعض النزوات والشهوات التى كان اليونان يلحقونها بالآلهة، ومن أجل ذلك حكم عليه بالموت.

وأما "أفلاطون" فقد كان صاحب فكر غريب اختلف الدارسون حوله حتى اليوم. فالبعض يذهب إلى أنه يعتقد بإله واحد، والكثيرون يرونه معددًا، وحقيقة الأمر أن الرجل كان ذا فكر مشوش حول الإيمان بالله، فمرة يتحدث عن المثال الأكبر، ومرات عن عالم المثل، وقد بنيت فلسفة الرجل على أساس من عالم للمثل يعيش فيه الآلهة حياة مثالية خالية عن المادة الأرضية وما فيها. لكن الرجل لم يقصر عالم المثل على الآلهة، بل جعله عامًّا للخلق كلهم الذين يعيشون على هذه الأرض.. ودونما إطالة، فقد جمع الرجل بين الآلهة وكل الخلق على هذه الأرض فيما سماه بعالم المثل، فهو بشكل أو بآخر جعل الآلهة هى والبشر فى عالم واحد، فهو إمّا نزل بالآلهة إلى مستوى البشر، وإما ارتفع بالبشر فى عالم مثله حتى ساواهم بالآلهة. وفى كلا الحالين هو معدد، لم يفرق كثيرًا بين البشر والآلهة.

وأما "أرسطو" فذلك ما يصح أن يقال فيه: إنه ثالثة الأثافى فى فلسفة اليونان الإلهية.

فقد تبنى الرجل فكرة "الإله العلة" الذى لم يخلق، ولم يفعل، ولم يصنع، ولا يدرى شيئًا عن ذلك الوجود، ولا صلة له بهذا الوجود من قريب أو من بعيد، وإنما هو علة من العلل التى لا تدرى ما يصدر عنها، وليس لها إرادة ولا علم ولا اختيار فيما يصدر عنها.

وقد ذهب هذا الرجل إلى أن "إلهه" لم يخلق العالم، ولم يرده، ولم يعلم عنه شيئًا ولا يعلم، وإنما هو علة صدر عنه العالم كما تصدر الحرارة عن النار، دون أن يكون للنار علم بهذه الحرارة الصادرة عنها، ولا إرادة لها.

وقد كانت أسوأ تلك المصائب التى وصلت إلى الفكر الإسلامى عن هذه الفلسفة اليونانية إنما هى أفكار هذا الرجل ـ أرسطو ـ التى فتن بها فريق ممن يسمون "الفلاسفة الإسلاميين" فمسخ فكر هذا الرجل عقيدتهم الصحيحة، واستبدل بها فكرًا دينيًّا مشوهًا تمثل فيما أطلقوا عليه: المحرك الأول، العقول العشرة، ونظرية الصدور.. إلى آخر هذه المسميات التى ما كان للمسلمين أن يعرفوها لو لم يصب العالم الإسلامى بهذه الجرثومة الفاسدة التى هى: فكر أرسطو بخاصة، والفكر اليونانى بعامة.

بَدَهِيٌّ أن الفكر اليونانى فكر وثنى مادى مغرق فى المادية، وقد بان لنا أن ذلك الفكر على اختلاف مراحله التى ذكرناها ـ بإيجاز ـ قد خلا من عقيدة صحيحة فى الله رب العالمين ـ سبحانه وتعالى ـ.

فاليونان بين ملحد زنديق، ووثنى يؤمن بآلهة مادية ويعبد مظاهر الطبيعة، وفيلسوف معدد، وفيلسوف جمع البشر والآلهة فى عالم واحد، وفيلسوف جعل العالم معلولاً لعلة وجودها كعدمها، إذ لا شأن لها بالعالم ولا صلة للعالم بها.

أما الثقافة الرومانية: فكانت وثنية مادية تماثل تمامًا عقائد اليونان، وعقائد كل الأمم الوثنية التى تنحصر فى عبادة عدد من الآلهة، وهذه الآلهة رموز لظواهر الطبيعة التى تؤثر فى حياة الناس، ولذلك كان طبعيًا أن يتماثل عدد الآلهة بعدد ظواهر الطبيعة التى تهم الناس وتؤثر فى مسيرة حياتهم.

ظل الرومان على ذلك حتى اعتنقت روما الديانة النصرانية، فانتقلت من وثنية إلى وثنية. فقد حرف "شاءول اليهودى" رسالة المسيح عليه السلام التى هى الإسلام، والتى تقوم على التوحيد الكامل، والتى تمشى فى نطاق الرسالات الإلهية الحقة للرسل الذين سبقوه، ورسالة محمد الخاتمة ـ صلوات الله على نبينا وعليهم أجمعين ـ.

حرف "شاءول" اليهودى رسالة المسيح عليه السلام إلى وثنية كاملة، قامت على

عبادة إنسان من لحم ودم، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، ويمرض ويشفى، ويذكر وينسى، ويجوع ويعطش، وينام ويصحو. فقد جعلوا المسيح عبد الله ورسوله إلهًا وابن إله، وجعلوا الله الحق ـ سبحانه ـ والدًا وله ولد ـ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا ـ، وبعد أن جعلوا المسيح إلهًا صنعوا له تماثيل وأصنامًا على هيئة نحلوها، ثم عكفوا على هذه الآلهة عابدين.

وقد فعل "شاءول اليهودى" ذلك كراهية للمسيح عليه السلام، ومقتًا لما جاء به من الدين الحق الذى هو تصديق لما جاء به موسى ـ عليه السلام ـ قبل ذلك، وتمهيد لما يجيء به خاتم الرسل محمد ﷺ بعد ذلك يقول الله عز وجل:

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦].

وقد كان ذلك من "شاءول" اتباعًا لسيرة اليهود وسُنَنِهم مع أنبيائهم حيث ساروا على تكذيب الأنبياء أو قتلهم، كما أخبر ـ سبحانه ـ عن اليهود بقوله مخاطبًا إياهم:

﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧].

وشاءول اليهودى بعد أن اعتقد هو وقومه من بنى إسرائيل أنهم قتلوا المسيح ابن مريم عليه السلام صلبا، رأوا أن تلامذته قد حملوا لواء رسالته الحقة. وشرعوا فى نشرها، فلم يجد بدًّا من أن يدبر المؤامرات ضد تلامذة المسيح المسلمين، فأمضى سنين من عمره الدَّنس وهو يقبض عليهم ويسلمهم للرومان الوثنيين يقتلونهم صلبًا، ويلقون بهم أحياء طعامًا للأسود الجائعة، ويرفهون عن أنفسهم بمشاهدة الأسود وهى تنهش أتباع المسيح المسلمين أحياء، ولكن "شاءول" اليهودى لاحظ أمرًا عجبًا هو وأشياعه، فقد لاحظوا استمساك المسلمين أتباع المسيح ـ عليه السلام ـ بدينهم، بل ولاحظوا انتشار الدين بين الكثيرين، وأن القتل والتعذيب لم يفتّ فى عضد المؤمنين، ولم يقف انتشار الدين الحق.. وهنا فكر ذلك الشيطان

اليهودى مستعينًا ومستنفرًا كل ميراث اليهود فى الخبث، والمكر، والدهاء، والخسة، والدناءة، فوصل بتفكيره أو وصل به تفكيره إلى خطة يضمن بها القضاء على رسالة عيسى ـ عليه السلام ـ وفى نفس الوقت يخلد ذكره هو على مدى الزمان. وذلك عن طريق تحريف رسالة عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ إلى دين جديد، يكون هو واضع عقائده، ومفترى شرائعه، ومبتدع طقوسه ورسومه، وبذلك يضمن القضاء على رسالة عيسى ـ عليه السلام ـ التى فشل فى القضاء على أتباعها ووقف مدها وانتشارها، وفى نفس الوقت يكون هو المذكور المشهور فى الديانة الجديدة.

وقد شرع "اليهودى الخبيث" خطته بالزعم بأنه آمن بالمسيح بعد أن ظهر له المسيح وطلب منه أو كلفه بالدعوة إلى دينه، ثم أعلن عن أولى فراه وضلالاته وأخطرها زاعمًا أن المسيح إله وابن إله، ثم سار بعد ذلك فى خطته التى اختطها لنفسه فى تحريف رسالة المسيح ـ عليه السلام ـ وافتراء الدين الجديد، وقد حرص هذا الشيطان الخبيث على أن يصوغ الديانة الجديدة صياغة ترضى الوثنيين من الرومان، فأقامها على أساس من الوثنية التعددية، لكى يرضى الرومان وغيرهم من الأمم التى كانت تدين بالوثنية التعددية فى ذلك الزمان، وقد اتضحت نتيجة ذلك حين انحاز الإمبراطور "قسطنطين" حاكم روما فى القرن الرابع الميلادى إلى ديانة شاءول اليهودى، ورفض قبول عقيدة التوحيد التى جاء بها المسيح ـ عليه السلام ـ وذلك فى مجمع "نيقية" الذى جمع فيه الإمبراطور المذكور أتباع المسيح ـ عليه السلام ـ القائلين بالتوحيد، وأتباع "بولس" الذى هو شاءول القائلين بالتثليث. ورغم أن القائلين بالتثليث كانوا "٣١٨" ثمانية عشر وثلاث مائة من مجموع الحاضرين بالمجمع وعددهم "٢٠٤٨" ثمانية وأربعون وألفان، إلا أن قسطنطين الوثنى الرومانى مال إلى ديانة شاءول الوثنية التى تماثل وثنيته التى هو عليها، وأمر المثلثين بنشر عقيدتهم الوثنية، وأخذ فى اضطهاد أتباع المسيح الحقيقيين القائلين بالتوحيد.

وهكذا كانت الثقافة الرومانية وثنية فى عهديها: ما قبل اعتناق الرومان النصرانية، وما بعد اعتناقهم إياها.

وهكذا يتضح أن الجذور الثقافية والحضارية لدى إنسان الغرب إنما هى جذور وثنية مادية بحتة، وقد صاغت هذه الثقافة المادية الوثنية فكر وثقافة الإنسان فى الغرب. فنشأ ماديًّا وثنيًّا فى فكره وثقافته وحضارته، يعبد المادة ويقدسها ويضع فيها ثقته. منها ينطلق، وإليها يعود، وكان من آثار ذلك تلك المذاهب والاتجاهات الفكرية المادية، والتى هى موضوع دراستنا هنا.

* * *

ثانيًا: النصرانية دين الغرب
وما يحويه من عقائد

بينا فيما سبق أن النصرانية دين جاء على أنقاض رسالة المسيح ـ عليه السلام ـ التى كانت هى دين الله ـ تعالى ـ الإسلام، والتى جاءت تدعو إلى التوحيد الخالص فى الربوبية والألوهية، ولكن "شاءول اليهودى" الذى أطلق على نفسه اسم "بولس" ومن تابعه غيروا رسالة المسيح ـ عليه السلام ـ وأخذوا فى نشر مفترياتهم، زاعمين أن المسيح ـ عليه السلام ـ هو إله، وابن إله، وقد انتشرت تلك الفرى بعد أن ارتضاها قسطنطين إمبراطور روما، وأمر بنشرها بقوة سلطانه وجبروته.

بدأ شاءول أو بولس عمله فى تغيير رسالة المسيح ـ عليه السلام ـ بالقضاء على إنجيله الذى أنزله الله ـ سبحانه ـ على عيسى، وبولس لم يحرف إنجيل عيسى كما حرف اليهود توراة موسى ـ عليه السلام ـ ولكن بولس لجأ إلى القضاء على ذلك الإنجيل، فتتبع كل نسخة ظهرت من ذلك الإنجيل مع أحد تلامذة المسيح ـ عليه السلام ـ وأحرقها، ثم كان أتباع شاءول أو بولس من بعده، حين استقر لهم الأمر بتأييد ومؤازرة إمبراطور روما، كانوا على نهج واحد متشدد وثابت، وهو إحراق كل نسخة من نسخ الإنجيل الصحيح، أو ورقة أو آية أو أثارة منه، وكانوا بجانب إعدام الإنجيل يعذبون بالقتل والحرق كل من يضبط متلبسًا بإخفاء شىء من ذلك.. وبعد أن تم القضاء على إنجيل عيسى ـ عليه السلام ـ قام المثلثون بوضع مكتوبات كاذبة منحولة، أسموا بعضها أناجيل، والبعض الآخر بأسماء أخرى زاعمين أنها كتب وأسفار مقدسة فيها ما جاء به المسيح ابن الله ـ بزعمهم ـ لنشره بين الناس.. وقد ساوق تضييع الإنجيل الصحيح، أن وضع بولس وأتباعه ديانتهم من أمشاج وتعاليم منتزعة من ديانات ذلك الزمان، وهى بطبعها ديانات وثنية مادية، فخرجت نصرانية شاءول أو بولس صورة من تلك الديانات، وأضافت إلى

تلك الديانات الوثنية ديانة جديدة لا تقل وثنية ومادية عن أصولها التى انتزعت عنها.

لكن أخطر ما نلاحظه على ديانة شاءول التى وضعها ـ أعنى: النصرانية ـ أنه حرص على إرضاء جماهير الناس فى إشباع شهواتهم، وإرواء غرائزهم، والانطلاق فى حياتهم كما يحبون ويشتهون، دون خوف، أو رهبة، أو إحساس بمسئولية فيما يأخذون أو يدعون.

ونحن نعرف أن الجرائم المروعة، والشهوات البهيمية من زنى، وقتل، وسرقة، وغيرها، هى أمور محرمة فى النصرانية الدين الباطل، ليس بتحريم شاءول اليهودى، وإنما هى محرمة بمقتضى توراة موسى عليه السلام التى يؤمن بها النصارى، ويجعلونها أساسًا لشرائعهم.

لكن شاءول جاء فعالج هذه الحرمة، واحتال لها حتى أبطلها، وأفقدها أثرها، حتى لم يعد هناك شيء محرم على النصرانى، إلا وله علاج يسير فى متناول اليد الكتعاء، فضلاً عن اليد السليمة.

ولقد وضع شاءول فى النصرانية التى افتراها عقائد كثيرة من شأنها أن تجعل الإنسان عبدًا لشهواته، وأن ينطلق فى إشباعها دون خوف أو وجل، وذلك شأن اليهود دائمًا فى قيادة الأمم وتنفيذ مخططاتهم ضد الشعوب عن طريق إذكاء الغرائز، وتيسير سبل إشباعها. وقد كان أهم العقائد التى وضعها شاءول فى النصرانية لتحقيق غرضه ذلك عقيدتان:

الأولى: صلب المسيح ابن الله ـ بزعمه ـ تكفيرًا لخطايا الذين يؤمنون بألوهيته من الناس، فبهذه العقيدة أضحت خطايا الإنسان النصرانى السابقة مغفورة جميعها، وذلك بمجرد أن يُعمّدَ ويصير نصرانيًا، ويدخل فى ملكوت السماوات، ويقبل فى ملكوت الرب ـ كما يقولون ـ.

الثانية: منح رجال الدين النصرانى القدرة والصلاحية لمغفرة الذنوب لدى

المذنبين. فالإنسان النصرانى قد غفرت خطاياه حين عمد نصرانيًّا، فماذا يفعل إن ارتكب ذنوبًا وحصل أوزارًا وخطايا بعد أن دخل النصرانية؟ إن شاءول قد وضع الحل فى نصرانيته، فأعطى رجال الدين النصارى القدرة على مغفرة الذنوب أيًّا كانت كمًّا وكيفًا، بل إنه سلب حق غفران الذنوب من الرب نفسه الذى هو المسيح ـ بزعمهم ـ وأعطاه لرجال الدين النصارى، وهذا يعنى: أن المذنب أو المخطىء لا يجوز أن يتوجه إلى إلهه طالبًا المغفرة، لأن الإله ـ بزعمهم ـ قد وضع هذه السلطة ومنحها لرجال الكنيسة قبل أن يصعد إلى السماوات، بعد أن قام من الأموات ـ نستغفر الله ـ.

ومن ثم لا يكون أمام النصرانى إلا أنْ يتوجه إلى رجل الدين النصرانى ليعترف أمامه بما ارتكب من ذنوب وآثام، وحين يغفر له القسُّ خطاياه يخرج بريئًا من كل ذنب كما ولدته أمه، ليبدأ مسيرة الذنوب والآثام من جديد، ولا بأس عليه، فقد عرف الطريق إلى مغفرة الذنوب وعرف الثمن الذى يدفع فى مقابل ذلك.

وبذلك تحول النصرانى إلى عبد لشهواته وغرائزه، لا يحجزه دونها حاجز، ما دام المسيح الرب ـ بزعمهم ـ قد غفر خطاياه حين صلب، وما دام الكاهن جالسًا فى انتظاره ليغفر له ما يرتكب من ذنوب، ولن يكلفه ذلك إلا خطوات إلى الكاهن فى الكنيسة، والإقرار له بكل ذنوبه، وما هى إلا دقائق ثم يعود إلى بيته بريئًا من الذنوب كما ولدته أمه.

هذا ما افتراه شاءول اليهودى فى نصرانيته خاصًّا بمغفرة الذنوب، ومحو الخطايا والأوزار، مما أفسد قضية الحلال والحرام فى العلاقات بين أفراد المجتمع، ودفع الإنسان فى الغرب النصرانى، بل فى كل مجتمع نصرانى إلى اقتراف الذنوب والعبِّ منها عبًّا، ما دام العلاج موجودًا والحصول عليه يسيرًا.

وقد كان للاعتقاد بأن رجال الدين النصرانى قادرين على مغفرة الذنوب ومحوها كلية، وأن ذلك سلطانهم وحدهم دون الرب، وأنه لا مناص للإنسان النصرانى

رجلاً أو امرأة من اللجوء إلى رجال الدين هؤلاء إذا ما أراد أن يريح ضميره من كثرة الذنوب التى ارتكبها، نقول: نتج عن هذه العقيدة نتائج خطيرة ومروعة، كان أظهرها أمورًا ثلاثة، تلك الأمور هى ما نتناوله فى العامل التالى من عوامل نشأة المذاهب الفكرية.

* * *

ثالثًا: طغيان الكنيسة وفساد رجالها

إن طغيان الكنيسة وفساد رجالها، وانحراف الكهنة والقسس تحت الإحساس بالفوقية أو بأنهم فوق الناس أجمعين، بل الإحساس بأنهم من الناس مكان الرب من عباده، إن ذلك كله قد وضع أساسه ومَهَّدَ له شاءول اليهودى واضع النصرانية، وقد مهد له حين قرر: أن الرب قد منح سلطانه للكنيسة قبل أن يصعد إلى السماء ليجلس على كرسيِّه عن يمين أبيه.. فهذه العبارة المكونة من خمس كلمات:"الرب قد منح سلطانه للكنيسة" هى أساس كل ما صدر عن الكنيسة ورجالها من فساد وطغيان، وما يزال يصدر، والظَّنُّ أنهم سيظلون كذلك حتى ينزل المسيح عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله ـ عليه السلام ـ آخر الزمان، فيحارب القوم الفاسقين الذين عبدوه من دون الله ـ تعالى ـ ويكسر صليبهم رمزًا لبراءته ـ عليه السلام ـ من عقائدهم الوثنية، ويقتل الخنزير براءة من شرائعهم، وما أحلوا مما حرم الله.

إن هذه الدعوى الكاذبة هى أخطر الأكاذيب التى وضعها بولس أو شاءول، بعد جعله الله هو المسيح ابن مريم ـ سبحان الله وتعالى عما يشركون ـ وعلى كثرة الأكاذيب التى وضعها الرجل فى نصرانيته، حتى صارت النصرانية ـ فعلاً ـ أكذوبة كبرى، بل الأكذوبة الكبرى. نقول على كثرة الأكاذيب التى وضعها فإن أكذوبة "منح الرب سلطانه للكنيسة"، أى: لرجالها، كانت المنطلق والأساس الذى قام عليه فساد الكنيسة وطغيان رجالها، ولا حرج ولا عجب؛ فإن الواقع المنتظر من رجال حملوا فى أيديهم ـ بزعمهم ـ سلطان الرب، فصاروا أربابًا فى دنيا الناس، يغفرون لمن يشاءون، ويحرمون من يشاءون، يمنحون الجنة على سعتها لمن يرضيهم ويشبع شهواتهم ويروى غرائزهم، ويغلقونها ويفتحون أبواب الجحيم لمن يسخطهم، أو يطالبهم بالوقوف فى مفاسدهم ومخازيهم عند حد ؛ المنتظر من هؤلاء أن يملئوا الأرض فسادًا، وأن يسلكوا سبيل البغى والطغيان، والفساد والإفساد.

ولقد تمثلت نتائج هذه الأكذوبة فى أمور كثيرة أهمها:

١ ـ فضائح الأديرة والكنائس ومخازى رهبانها.

٢ ـ طغيان الكنيسة.

٣ ـ صكوك الغفران.

أما عن الأمر الأول: الذى هو فضائح الأديرة، وفجور الرهبان ومخازيهم، فإن رجال الكنيسة النصارى لما فرضوا على أنفسهم رهبانية ما فرضها الله ـ تَعَالَى ـ عليهم، وحرموا على أنفسهم ما أحله الله ـ سبحانه ـ للناس من معاشرة واجتماع فى ظل شرائع الله ـ تَعَالَى ـ حينما فرضوا على أنفسهم الرهبانية وابتدعوها، زاعمين أنها تقربهم من الله، وتضمن لهم رضوانه، فإنهم لم يوفوها واجباتها، ولم يرعوها حق رعايتها، بل كانوا رهبانًا فى الظاهر فجارًا داعرين فى الباطن، يقول الله عز وجل:

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ٢٧].

وصدق الله رَبُّ العالمين، فإن الرهبان ورجال الدين النصارى لم يرعوا الرهبنية التى ابتدعوها، ولم يستطيعوا أن يصبروا على مطالب غرائزهم الطبيعية الطبعية التى حرموها ما أحل الله من وسائل الإشباع المشروعة، لذلك انقلبوا يشبعون شهواتهم، ويروون غرائزهم بوسائل من الإشباع لا يقرها خلق ولا دين، بل يتعفف عنه الحيوان، حتى شاع بين العامة والخاصة ما يدور خلف جدران الكنائس والأديرة من مفاسد خلقية بين الرجال والنساء والرجال والرجال، والنساء والنساء، مما ننزه القلم عن نقيصة الخوض فيه، أو دناسة الحديث عنه، وقد اشتهرت تلك الفضائح إلى حد أن الكثير منها قد وصل إلى دور القضاء وساحات المحاكم فى الكثير من بلدان أوروبا، وقد امتلأت بها سجلات الأديرة ومحفوظات الكنائس ولا تحسبنّ هذه الفضائح كانت قاصرة على صغار الرهابنة، فإن الفساد استشرى حتى وصل إلى القمة لديهم، وقد اشتهرت قصة "البابا اسكندر السادس" الذى وقعت عينه وهو "كاردينال" على امرأة جميلة فطلبها بقوة سلطانه ـ أو سلطان الرب ـ فلما جاءته

فى منتبذه فجر بها، ثم اتخذها خليلة، بينما عجز خطيبها عن استردادها، وضاعت أصوات احتجاجه فى الهواء. وقد ظل هذا "الكاردينال" فى صحبة هذه المرأة متخذًا إياها عشيقة أو خليلة، حتى اعتلى كرسى البابوية. وإذا كان ما فعله ذلك الكاردينال عجيبًا فإن الأعجب منه أن ينتخبه "مجلس الكرادلة" الذى يهيمن على كنائس الكاثوليك "بابا" للفاتيكان، رغم فضائحه التى أشرنا إلى شىء منها، لكن ذلك الاختيار يدل على أن تلك الفضائح بين كبار رجال الدين عند القوم كانت أمرًا معتادًا مألوفًا، وإذا كان الفساد الخلقى وصل إلى مستوى الكرادلة والبابوات، فماذا عن بقية الكهنة والقساوسة الأدنى منزلة والأكثر التصاقًا بالفساد واقترابًا منه بحكم أنهم بعيدون عن الأضواء مختفون عن الأنظار.

وهذا الفساد الخلقى قابله وساوقه فساد آخر، ذلك هو الترف والبذخ والإسراف فى إنفاق المال على المتع والملذات، وذلك أمر طبعى بدهى، لأن ذلك الفساد يلزمه أموال وفيرة. لكن؛ من أين يأتى القساوسة ورجال الدين النصارى على اختلاف مراتبهم بالمال اللازم لذلك؟ لقد فكروا وقدروا واخترعوا طرقًا وأساليب لجمع المال، وصلوا من خلالها إلى الحصول على ما يعينهم على مفاسدهم.

وشهد شاهد منهم، فهذا راهب من رهبانهم استيقظ ضميره، فأخذ يندد بإخوانه قائلاً:"إن عيش القسس ونعيمهم يزرى بترف الأمراء والأغنياء المترفين، وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطًا عظيمًا، واستحوذ عليهم الجشع وحب المال، وتخطوا كل الحدود، حتى كانوا يبيعون المناصب والوظائف كما تباع السلع، وقد يلجأون إلى بيعها بالمزاد العلنى، ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والتذاكر وصكوك الغفران، ويسمحون بنقض القانون، ويمنحون شهادات النجاة، وإجازات حل المحرمات والمحظورات. ويرتشون ويرابون، وقد بذروا المال تبذيرًا حتى اضطر البابا "أنوسنت الثامن" أن يرهن تاج البابوية فى مقابل الحصول على ما يكفى تبذيره وإسرافه من مال"[١].

---

(١) أبو الحسن الندوى، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١٨٩.

وشاهد آخر من أهلهم، جاء فى مجلة "رسالة الحياة"ـ وهى مجلة نصرانية ـ فى وصف الأديرة النصرانية ورهابنتها:

"إن الأديرة تحتوى على فساد كبير، وهيهات أن يوجد بها من يصلح للقيام بواجباتها، إذ أنها تضم بين جدرانها أفاقين فاسدين أولى بهم غيابات السجون"[١].

ولسنا بحاجة إلى أن نطيل فوق ذلك فى وصف مفاسد ومباذل رجال الدين النصرانى، لكنا نذكر بأن سيرة هؤلاء الذين منحهم الرب سلطانه ـ بزعمهم ـ وانطلاقهم فى مباذلهم وفسقهم بهذا الشكل المعلن للعامة والخاصة كان له تأثير قوىٌّ فى نشأة المذاهب المادية من جانبين.

الجانب الأول: أن عامة الناس تمثلوا بهم، واقتدوا برجال دينهم، وسلكوا مسلكهم فى التبذل، والفحش، والخنا، والفجور، فانطلقوا فى شهواتهم لا يلوون على شىء، وطبعى أن يبحثوا عما يؤيدهم فى هذه المفاسد، ويمدهم بالمسوغات والمبررات لذلك الفجور، وليس هناك إلا الفكر المادى، فهو الذى يعظم من شأن الغرائز، ويدعو إلى إشباعها دون حدود أو قيود.

الجانب الثانى: أن مفاسد رجال الدين فى جميع مستوياتهم حتى البابوات أنفسهم جعلت المثقفين والمفكرين ينفرون منهم، ويحتقرونهم، ويعلنون الخروج عليهم، ويجهرون بنقدهم، ويسعون بشكل حثيث للخلاص من شرورهم، والقضاء على سلطانهم، مما أنتج فى نهاية الأمر إخراج الكنيسة من حياة المجتمعات النصرانية، وقصر سلطانها على الكنائس فقط، وهذا ما أسموه بعد ذلك بالعلمانية، فالعلمانية كانت نتيجة مفاسد الكنيسة وضيق الناس برجالها، إلى أمور وأسباب أخرى نذكرها فيما يلى ـ بحول الله ـ تَعَالَى ـ.

---

(١) مجلة: رسالة الحياة، السنة الأولى ـ العدد السادس ص ٧٤.

أما عن الأمر الثانى، ونقصد به طغيان الكنيسة:

فلقد بلغ من الفظاعة والشناعة حدًّا لم يحدث مثله أو ما يقاربه حتى فى الأديان البدائية الوضعية، ولدى القبائل التى يصفها المؤرخون بالهمجية والتوحش. هذا من حيث الكيف.

أما من حيث الكم، أى الكثرة والشيوع؛ فقد كان طغيان الكنيسة ورجالها شائعًا فى كل المجالات الحياتية للمجتمعات النصرانية، لم تترك الكنيسة مجالاً أو شأنًا من شئون الحياة إلا ودست فيه أنفها، وأوجدت لنفسها ذريعة أو ذرائع للسيطرة عليه، حتى أضحى سلطان الكنيسة ورجالها ممسكًا بشئون الناس فى المجتمعات النصرانية حتى ليكاد يخنقهم خنقًا.

ولكى تصل الكنيسة إلى ذلك وضعت نظامًا كنسيًّا كهنوتيًّا كمثل شجرة مقلوبة أو بناء منكوس، يبدأ بناؤهم الكنسى من الكنيسة الأم، مقر البابوية، ثم يتفرع إلى أسفل، فالكنائس الكبرى فى المدن، إلى الكنائس الصغيرة فى الأحياء والقرى. ولا يسلم مجتمع صغير من كنيسة تقوم فيه، وهذه الكنائس تأتيها الأوامر والتوجيهات من أعلى وتتدرج حتى تصل إلى أصغر كنيسة فى أحقر حىٍّ، هذا عن الكنائس. أما رجال الدين فيبدأ أمرهم من "البابا" ثم يتدرج إلى الكرادلة، ثم إلى القسس ورعاة الكنائس الصغيرة وهؤلاء لا يتركون صغيرة أو كبيرة من شئون الناس إلى ويبلغونها إلى من يعلوهم حتى تصل الأخبار إلى مجمع الكرادلة ليتخذوا بشأن ما يهمهم من أخبار القرارات اللازمة.

وهكذا يتضح أن الكنيسة ورجالها قد أمسكوا بتلابيب المجتمعات النصرانية فلم يفلتوا منها شيئًا، وضيقوا على الناس الخناق، وشددوا الرقابة، حتى وقعت الرهبة منهم فى قلوب الجميع، فلم ينج من الخوف منهم صغير ولا كبير. وخضع الكل لجبروتهم وطغيانهم، حتى أضحت الكنيسة تهيمن على المناصب العليا فى البلاد النصرانية، لا يعتلى أحد منصبًا من المناصب ذات التأثير إلا عن طريق الكنيسة ورجالها، حتى الملوك والأباطرة كان "البابوات" هم الذين يتوجونهم

مناصبهم، وكانت المناصب فى أيدى رجال الكنيسة يتاجرون فيها ويبيعونها لمن يكون أكثر ولاء وأكثر بذلاً للمال.. وباختصار ودونما إطالة، كان "البابا" يتصرف فى المجتمعات النصرانية باعتباره ممثلاً للرب، ويملك من السلطات والإمكانات ما يملك الرب، وكما أن الواجب على الناس أن يخضعوا ويذلوا لسلطان الرب، ويذعنوا لأحكامه فيهم، كذلك يجب أن يكون الأمر مع "البابا" باعتباره الممثل للرب على الأرض بعد أن صعد الرب إلى السماء وقطع صلته بالناس، ومنح سلطانه للكنيسة، أى لرجالها.. هكذا كان الأمر بالنسبة لطغيان رجال الدين النصارى، وتحكمهم فى أقدار الناس.

ولكى يتضح ذلك بصورة أوضح، لعله من الأوفق أن ننظر إلى واقعهم فى بعض المجالات التى زاولوا فيها طغيانهم، ومن أهم هذه المجالات ما يلى:

١ ـ الطغيان الدينى.

٢ ـ الطغيان الروحى.

٣ ـ الطغيان السياسى.

٤ ـ الطغيان الجهلى.

أما عن طغيانهم الدينى: فمصدره أن الديانة النصرانية أمرها غريب وجد عجيب بين الأديان التى عرفتها البشرية، فإن الأمر الطبعى أن الدين بما يشتمل عليه من عقائد وتشريعات إنما يأتى وحيًا من قبل الله ـ سبحانه وتعالى ـ والناس يتلقون ذلك بالإيمان والتسليم، والأمر كذلك حتى فى الكثير من الأديان الوضعية فيما يزعم أصحابها.

لكن أمر النصرانية قد جاء عكس ذلك، فأمر الدين عندهم لا يأتى به نبى أو رسول، ولا يتلقاه الناس عن طريق الوحى، لكن النصرانية بدءًا من أسمى العقائد فيها وهى العقيدة فى الإله، إلى التشريعات والأحكام ومواعيد الأعياد الدينية، كل ذلك لا يأتيهم وحيًا أو إلْهَامًا من أعلى، بل يقررونه هم عن طريق اجتماعات ولقاءات يلقى كل من الحاضرين بصوته، ثم تؤخذ الأصوات ويصدر القرار

بالأغلبية، لتقرر تلك الأغلبية حقيقة الله، أو من هو الله ـ جل الله عما يقولون ـ ثم يقررون العقائد والشرائع كل ذلك بأغلب الأصوات، كأن الأمر ليس دينًا، بل مجلس إدارة فى شركة يدرس صفقة تجارية وتؤخذ أصوات الحاضرين حولها.. نعم، ولا يسبقن إلى الوهم أن هذه "أملوحة" أو فكاهة، بل إنه شأن الدين النصرانى فعلاً.

ففيما يتصل بالله ـ سبحانه وتعالى عما يشركون ـ فقد اختلفوا فيما بينهم وبين الموحدين ثم أخذت الأصوات فى مجمع "نيقيه"، ومع أن الأغلبية كانت مع الموحدين إلا أن إمبراطور روما مال إلى المثلثين لوثنيته، فقرر الأخذ بآراء المثلثين وتغليب آرائهم على آراء الموحدين، فخرج المثلثون من هذا الاجتماع بقرار يقول: إن المسيح إله وابن إله. فألوهية المسيح ـ بَرّأَهُ الله مما قالوا ـ لم تأتهم وحيًا، بل هم الذين اتخذوا بذلك قرارًا، فالإله عندهم وليد قرارهم فى ذلك المجمع، ولو كان المجمع قد رأى غير ذلك، لكان الإله غير ذلك.

ومثل ذلك، الإله الثالث عندهم الذى يسمونه: "روح القدس"، فإن الناس قد اختلفوا فيما بينهم حول ألوهيته، وكثر الخلاف والشجار ونادى بعض القسس بأن "روح القدس" ليس إلهًا، بل هو مخلوق مصنوع، ولقد قال ذلك الكثيرون وفى مقدمتهم أسقف القسطنطينية "مقدونيوس" فماذا تفعل الكنيسة لتقرر إن كان "روح القدس" إلهًا أم غير إله. إنها الطريقة نفسها، طريقة مجالس الإدارة وما يماثلها، لقد دعوا إلى مجمع عام فى القسطنطينية عام ٣٨١م. وطرحت القضية، ثم أخذت الأصوات فكانت الأغلبية مع القول بألوهيته،فصدر القرار بأنه إله.. فانظروا ـ رحمكم الله ـ فى شأن إله لا يكون إلهًا إلا بقرار يصدر من جماعة اقترعوا فيما بينهم.

وإذا كان ذلك شأن الألوهية، فإن الأمر فيما عدا ذلك هو أهون، وهكذا فإن، تشريعاتهم جميعها إنما يصدر بها قرارات من المجامع بعد اقتراع بأغلبية الأصوات، وعلى نفس النهج غيروا وبدلوا من شريعة موسى ـ عليه السلام ـ التى قرروا هم أن عيسى ـ عليه السلام ـ جاء تابعًا لموسى فيها، وعلى سبيل المثال:

حين قرر: أن الرب منح سلطانه للكنيسة، فإن من سلطات الرب: التشريع، وتحليل ما قد حرَّم الله فى شريعة الأنبياء، وتحريم ما قد أحل، وبناء على تلك السلطة التى منحها الرب لرجال الكنيسة، فإنهم انطلقوا يحلون ويحرمون، والنصارى يتبعونهم مثل قطيع من السوائم فقد الرشد فانطلق يعدو وراء راعيه إلى حتفه بظلفه، والناس يستحقون ذلك، لأنهم اتخذوا من رجال الكنيسة أربابًا، تركوا ما جاءهم من قبل الله ـ تعالى ـ وانساقوا يأخذون عن أولئك الكنسيين الذين اتخذوا الدين تجارة وهوى.

وفى ذلك يقول الله عز وجل فى شأن اليهود والنصارى معًا:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠، ٣١]، فاليهود اتخذوا أحبارهم أربابًا من دون الله، وكذلك فعل النصارى حيث اتخذوا رهبانهم أربابًا من دون الله ـ تَعَالَى ـ.

وقد روى أن "عدى بن حاتم" رضى الله عنه وقد كان نصرانيًا قبل أن يمنَّ الله ـ تعالى ـ عليه بالإسلام ـ روى أن هذه الآية لما نزلت على رسول الله ﷺ جاء عدى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ما عبدناهم، يقصد أنه حين كان نصرانيًّا لم يكونوا يعبدون الرهبان، فكيف قال الله ـ تعالى ـ :اتخذوهم أربابًا، فقال له الرسول ﷺ: "أَوَليس كانوا يحلون لكن ويحرمون فتتبعونهم؟" فقال عدىٌّ: بلى يا رسول الله، فقال الرسول ﷺ: "فذاك هو"، أى: إن اتباعكم إياهم فيما يحلون ويحرمون، تاركين ما أنزل الله عليكم، ومنساقين وراءهم، هذا بمنزلة اتخاذكم إياهم أربابًا، لأن التحليل والتحريم من شأن الرب وحده ـ سبحانه ـ فلما أسندتم إليهم ذلك فكأنكم جعلتموهم أربابًا.

على أن أمر الطغيان الدينى لم يقف بالقائمين على أمر الكنيسة عند الحد الذى أشرنا إليه، وذلك لأنهم ما يزالون ـ وسيظلون ـ يحلون ويحرمون ويشرعون للناس

ـ عن هوى ونزق ـ لأن سلطان الرب فى التشريع فى أيديهم لن يتركوه حتى ينزل المسيح ـ عليه السلام ـ عبدًا من عباد الله الصالحين التابعين لرسالة محمد ﷺ. فيحارب الذين ضلوا فيه ـ عليه السلام ـ وجعلوه شريكًا لله ـ سبحانه عما يشركون ـ ثم ينصره الله عليهم، وعند ذلك فقط سوف يفيق القوم من ضلالهم، وينزعون عن افتراءاتهم على الله والناس.

* * *

وأما الطغيان الروحى؛ فيتمثل فى جوانب كثيرة أهمها:

١ ـ تعميد الناس ليصيروا نصارى، وليدخلوا ملكوت الرب، ويقبلهم الرب فى ملكوت سماواته ـ فيما يزعمون ـ وليكونوا ضمن من فداهم وطهرهم من الخطيئة الجَدِّيَّة حين صلب ومات على الصليب ـ نستغفر الله من كل ذلك ـ

فالإنسان عندهم لا يكون نصرانيًّا إلا إذا "عَمَّدَه" القس وجعله بذلك التعميد نصرانيًّا، وهذا يجرى على كل الناس حتى ولو ولد الطفل من عائلة عريقة فى النصرانية، فإنه لا يكون نصرانيًّا إلا بفعل القس الذى يدعو له ويباركه ويقبله فى ملكوت الله ـ باعتباره نائبًا عن الله فى الأرض ـ ثم يرش عليه من "الميرون المقدس" أو الماء المقدس عندهم وبذلك يكون أو يصير الإنسان نصرانيًّا.. وذلك قمة التسلط على قلوب الناس، وضمائرهم وأرواحهم، حيث لا يستطيع أحد الدخول فى الدين النصرانى إلا بإذن القس ورضاه، وهذا يشبه أن يكون الدين إقطاعية أو ملكية مفتاحها ليس فى يد الله ـ سبحانه ـ بل فى يد القس يدخل فى الدين من يشاء، ويحرم منه من يشاء، وليس هذا تزكية منا للديانة النصرانية، ولكن من وجهة قلوب وأرواح النصارى الذين يؤمنون بذلك الدين، فإن رجال الكنيسة بالنسبة إليهم هم المهيمنون على قلوبهم وأرواحهم، حين يقفون على أبواب الدين يمنعون ويقبلون.

ويلفت انتباهنا فى قضية "التعميد" هذه حديثُ رسول الله ﷺ الذى يقول فيه: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)، فإن الحديث الشريف يوضح أن الإنسان يولد مسلمًا حتى ولو كان من والدين نصرانيين، وأنه لا

يكون نصرانيًّا إلا بفعل فاعل، وهذه الحقيقة هى ما تؤكدها قضية "التعميد" لدى النصارى، حيث تقرر النصرانية ورجالها أن الطفل لا يولد نصرانيًّا، حتى ولو كان من أبوين نصرانيين وعائلة عريقة فى النصرانية، وأنه لا يكون نصرانيًّا إلا بفعل فاعل، وذلك الفاعل هو الأبوان اللذان يأخذان ابنهما ويذهبان به إلى الكنيسة ليعمده القس نصرانيًّا.. وصدق رسول الله ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى.

٢ ـ حرمان النصرانى من ملكوت الرب، وطرده من شعب الله أو شعب الكنيسة.

وذلك أمر بدهيٌّ بناء على ما عرفنا من عقائد النصرانية، فإن الذى يملك فتح باب ملكوت الرب ليقبل فيه الناس، يملك أن يغلقه دونهم فلا يدخلون، أو يفتحه ليخرج بعض من فيه ويرمى بهم خارجه، والشق الأخير هذا هو ما يسمونه فى مصطلحاتهم الكنسية "الحرمان"، أى: الحرمان من ملكوت الرب ـ فيما يزعمون ـ وهذا سلاح ماض وفعال ضد النصارى تستعمله الكنيسة فى مواجهة كل من يخرج على طاعتها أو يثور ضدها.

٣ ـ تلقى الاعتراف من الخطاة ثم منحهم الغفران.

وهذا أمر يلى فى الترتيب "التعميد" أو التنصير، فإن التعميد يغفر للمرء "الخطيئة الجَدِّية"؛ أى: خطيئة آدم ـ عليه السلام ـ التى ورثها أولاده من بعده، وأضحوا مطالبين بالتكفير عنها ـ فيما يزعمون ـ وأما والاعتراف فيغفر القس به ما يجد ويستحدث من خطايا يرتكبها النصرانى.

والقس هنا ليس مجبرًا ولا مضطرًا أن يغفر خطايا المعترف أمامه، بل له أن يغفرها جملة، أو يغفر بعضها دون بعض، أو ألا يغفر شيئًا منها، وإذا كان الإنسان النصرانى رجلاً أو امرأة قد أَرَّقته خطاياه، ويرغب صادقًا فى التخلص منها وإراحة ضميره من عبء الإحساس بها فعليه ـ فى هذه الحال ـ أن يسمع طلبات القس، ويستجيب لرغباته، كى يرضى عنه ويمنحه غفرانه، وهذا المعنى تحديدًا هو الذى فتح باب الشر والفساد والانغماس فى الرذيلة لدى الكثيرين من رجال الدين النصارى، الذين استغلوا صلاحيتهم ـ المزعومة ـ فى غفران الذنوب وتسلطهم على

نفوس وأرواح وقلوب الناس، وأخضعوا الناس لرغباتهم، وإشباع نزواتهم. وكم من امرأة ذهبت إلى القس ليغفر لها زلة وقعت فيها، ويريح ضميرها من خطيئة قارفتها. فعادت من عنده بزلات وخطيئات، وأضحت بين براثينه من المحظيات، وليست هذه من الحوادث النادرة أو القليلة، بل هى من الكثرة بحيث أضحت هى القاعدة، وما سواها شذوذ عن القاعدة.

وهذه العقيدة عندهم ـ عقيدة الاعتراف والغفران ـ هى التى أدت إلى أكبر فضيحة فى تاريخ الأديان ورجال الدين؛ أعنى بها: فضيحة "صكوك الغفران" التى سنتحدث عنها ـ بحول الله ـ تَعَالَى ـ بعد قليل.

٤ ـ المناولة الأخيرة، ويقصدون بها: حضور القس إلى الإنسان النصرانى حال مرض موته، وهو فى النزع، وتلقى اعترافه وهو على فراش الموت، ثم منحه غفران ذنوبه كلها، ثم منحه صكًا يثبت فيه أنه قد غفر له جميع ذنوبه بمقتضى الصلاحية التى منحها الرب، وأنه قد منحه من الجنة مقدار كذا وكذا، وأهل الميت يضعون هذا الصك مع جثة الميت فى حفرته، حتى يستعملها الميت فى الآخرة مطالبًا بمستحقاته التى منحها إياه القس فى المناولة الأخيرة.

هذه الأمور ـ وغيرها كثير ـ تبين مدى ما كان للكنيسة من سلطان وتسلط على النصرانى ، وهو تسلط على نفسه وروحه وقلبه لم يعرف له مثيل سوى لدى الكنيسة ورجالها.



وأما الطغيان السياسى، فهو وليد الطغيان الدينى والطغيان الروحى، فإن الطغيان والتسلط على الأرواح والأنفس والعقول والقلوب، طريق مؤد إلى التسلط على كل شىء وشأن من أشياء وشئون الحياة.

والكنيسة كانت متسلطة على قلوب الشعوب النصرانية ونفوسها، وكانت تقود هذه الشعوب كما تقود قطيعًا من السوائم تحت نير الخوف من "الحرمان". والطرد من ملكوت الرب، وقد بينا قبل قليل أن الكنيسة أقامت نظامًا كنسيًّا كهنوتيا محكم

البناء، قد اشتمل على المدن والأحياء والقرى، وقد أحاط بالبلاد وساكنيها، وكان الرهبان عيونًا على الرعية أو شعب الكنيسة من أحقرهم إلى أخطرهم، ومن أقل رعية إلى الإمبراطور نفسه. وفى ظل نظام كهذا يخضع فيه الجميع لجبروت الكنيسة وطغيان رجالها، تصبح الأرض خصبة، والمناخ ملائمًا لطغيان سياسى يأمر وينهى فيستجيب الجميع، كذلك تصبح الليالى والأيام حبالى تلد كل غريب وعجيب.

ومن تلك المواليد العجيبة الغريبة التى ولدها طغيان الكنيسة السياسى أن الملوك والحكام والأباطرة لا تكون ولايتهم ولا يكون حكمهم شرعيًّا يرضى عنه الرب ويباركه، إلا إذا تم على يد "البابا" أو من ينيبه البابا، ومن ذلك أصبح البابوات هم الذين يتوجون الملوك، وينصبون الأباطرة والحكام، وطبعى أن الذى بيده تنصيب الملك أو الإمبراطور، بيده - أيضًا - خلعه عن منصبه، وذلك بإعلان غضب الكنيسة عليه، وعدم رضا الرب عن حكمه، ومن ثم تأليب الشعب وإثارته ضده، ويكون أمر خلعه عن منصبه بعد ذلك سهلاً مؤكدًا.

ولئن كان ما نحكيه عجيبًا، فإن الأعجب منه أن يأتى أحد البابوات وهو "جريجورى السابع"، فيصدر قرارًا يعلن فيه أن الكنيسة هى المهيمنة على العالم كله، وأنها الرقيبة على كل الأنظمة الحاكمة فيه، وأن من حقها تنصيب أو خلع أى حاكم ملك أو إمبراطور أو أمير من منصبه، يقول القرار المذكور: "إن الكنيسة بوصفها نظامًا إلهيًّا، جديرة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية، ومن حق "البابا" بوصفه خليفة الله فى أرضه أن يخلع الملوك غير الصالحين، وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام، أو تنصيبهم حسب مقتضيات الأحوال".

وبناء على ذلك خلع هذا البابا الإمبراطور الألمانى "هنرى الرابع" وحرمه من ملكوت الرب وطرده من شعب الكنيسة، وأمر أتباعه والأمراء الذين يدينون له بالولاء أن ينبذوا ولاءهم له وأن يعادوه ويخرجوا على طاعته، وعقد الأمراء اجتماعًا قرروا فيه خلع الإمبراطور، وأن عليه أن يسعى لنيل رضا البابا وإلا فإنه سيفقد عرشه إلى الأبد.

واضطر هذا الإمبراطور أن يسعى للحصول على رضا البابا فى سنة ١٠٧٧م، وكان عليه أن يقطع جبال الألب فى شتاء قارس متوجهًا إلى البابا الذى كان يسكن قلعته بمرتفعات "كانوسا" فى مقاطعة "تسكانيا"، ولمَّا وصل إلى مقر البابا، تركه البابا واقفًا فى البرد القارس والثلج المتساقط فى فناء القلعة ثلاثة أيام، وقد ارتدى لباسًا للرهبان صنع من الخيش، حافى القدمين، عارى الرأس، مستندًا على عكازه شأن المتسولين الفقراء، مظهرًا الندم، طالبًا التوبة والرضا من البابا، وبعد ثلاثة أيام على هذه الحال تفضل عليه البابا بالعفو والرضوان، وأعاده إمبراطورًا كما كان[1].

إن هذه الواقعة كفيلة ببيان المدى الخطير الذى وصل إليه طغيان الكنيسة وجبروت رجالها فى حقبة من الزمان أذلوا فيها رقاب أتباعهم وساموهم الخسف وذل الهوان.



وأما **طغيان الكنيسة الجهلى**، فنعنى به: وقوف الكنيسة ورجالها ضد التقدم والمكتشفات العلمية، ومنعها العلماء من مزاولة نشاطهم العلمى بجميع مستوياته، والسبب فى ذلك كما يقول الشيخ أبو الحسن الندوى:

"أن رجال الدين النصارى دسوا فى كتبهم المقدسة معلومات بشرية ـ وإن كانت كتبهم كلها من وضع البشر ـ، ومسلمات علمية عصرية، تتصل بالتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية، ربما كانت أقصى ما وصل إليه العلم فى ذلك الوقت، وربما كانت حقائق لا شك فيها بالنسبة لرجال ذلك العصر، ولكنها ليست أقصى ما وصل إليه العلم الإنسانى، وإذا كان ذلك غاية ما وصل إليه علم البشر فى عصر من العصور؛ فإنه لا يؤمن عليه التغير والتحول، فإن العلم الإنسانى متدرج مترق، لا يقف عند حد معين، ولا يثبت على حال واحدة، فمن بنى عليه دينه فقد بناه على كثيب من الرمال.. ولعل رجال الدين النصارى لما أدخلوا المعلومات الجغرافية والتاريخية

(١) عبد الرحمن حبنكه الميدانى ـ كواشف زيوف ـ ص: ٥١.

والعلوم الطبعية كتبهم المقدسة واعتبروها حقائق دينية، لعلهم فعلوا ذلك بنية حسنة. لكن ذلك كان أكبر جناية على أنفسهم وعلى الدين، وكان سببًا للكفاح المشئوم بين الدين والعلم، الذى انهزم فيه ذلك الدين الذى هو من وضع البشر هزيمة منكرة، وسقط فيه رجال الدين سقوطًا لم ينهضوا بعده، ثم أصبحت ـ للسبب نفسه ـ أوربا دولاً لا دينية.

ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه فى كتبهم المقدسة، بل قدسوا كل ما تناقلته الألسن واشتهر بين الناس، أو ذكره بعض شراح التوراه اليهودية والأناجيل النصرانية ومفسريها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية، وصبغوها صبغة دينية، وفوق ذلك عدوها من تعاليم الدين وأصوله التى يجب الاعتقاد بها، ونبذ كل ما يعارضها، وألفوا فى ذلك كتبًا وتآليف، وأطلقوا على هذه الجغرافيا اسم: الجغرافيا المسيحية، ـ النصرانية واستمسكوا بها، وكفروا كل من لم يؤمن بها".

وفى هذا النص يتضح السبب فى تلك الحملة الشعواء التى قامت بها الكنيسة ورجالها ضد العلم والعلماء، وأنشأوا من أجل ذلك ما سمى: "محاكم التفتيش" التى تعتبر وصمة عار فى جبين الكنيسة ورجالها ما تُمحى الدهر كله.

وقد قامت محاكم التفتيش هذه بجرائمها البشعة فى حق طائفتين من الناس:

الطائفة الأولى: هم أعداء الكنيسة من النصارى، الذين كانوا يخرجون على تعاليمها، أو يخالفون أمرًا من أوامرها، أو يجرؤ واحد منهم أن يناقش شيئًا من عقائد الكنيسة أو أفعال رجالها، أو يصل إلى نظرية علمية تخالف ما عند الكنيسة من خرافات وأضاليل، أو يفسر شيئًا من كتابهم المقدس تفسيرًا يختلف ـ ولو فى قليل ـ عن تفسيرات رجال الدين، كل هؤلاء وغيرهم كانوا حطبًا لنيران محاكم التفتيش التى كانت أحكامها تصدر غالبًا "بالموت على المتهم، ويراعى ألا يراق منه قطرة دم واحدة"، وهذه العبارة تعنى: أن يموت حرقًا، وأن يقدم إلى النيران وهو حىٌّ.

الطائفة الثانية: المسلمون فى الأندلس التى كانت بلدًا إسلاميًا يشع حضارة وثقافة، وكان المعبر الذى عبرت منه أنوار الحضارة والثقافة والتقدم العلمى الإسلامى إلى أوروبا التى كانت تعيش فى ذلك الوقت عصورها الوسطى المظلمة.

فحينما سقطت الأندلس المسلمة فى أيدى الصليبيين الحاقدين، أصابهم سعار الحقد، وجنون المقت والكراهية للمسلمين، فأنشأوا فى الأندلس محاكم التفتيش التى زاولت أعمالها ضد المسلمين بصورة تعف عنها الحيوانات المتوحشة، فقد كانوا يحاكمون المسلمين جماعات، ثم يحفرون حفرًا كبيرة واسعة تتسع للعشرات والمئات، ثم يرمون فيها بالمسلمين أحياء، ثم يزاولون معهم عمليات التعذيب الوحشى، ثم بعد أن يتعبوا من تعذيب ضحاياهم، يسدون عليهم تلك الحجرات الأرضية، أو الحفر، ويتركون من فيها يعانون سكرات الموت اختناقًا لأيام عديدة، إلى أن يرحمهم الله ـ تَعَالَى ـ بالموت، وتكون هذه الحفر مقابرهم.

هاتان الطائفتان أنشئت من أجلهما محاكم التفتيش التى يقدر عدد من عاقبتهم بثلاث مائة ألف، وعدد الذين أحرقوا أحياء باثنين وثلاثين ألفًا.

يقول "ويلز": "شهد القرن الثالث عشر تطور منظمة جديدة فى الكنيسة هى "محكمة التفتيش" البابوية، ذلك أنه جرت عادة البابا قبل ذلك الزمان بأن يقوم فى بعض الأحيان بتحقيقات أو استعلامات عن الإلحاد والملاحدة فى هذا الإقليم أو ذلك، لكن البابا "أنوسنت الثالث" وجد ـ على عهده ـ فى الرهبان الدومينيكيين أداة قوية للقمع، ومن ثم فقد أنشأ محاكم التفتيش كأداة تحقيق مستمرة تحت إدارة هؤلاء الرهبان، وبهذه الأداة نصبت الكنيسة نفسها لمهاجمة الضمير الإنسانى بالعذاب والنار.. وقبل القرن الثالث عشر لم تنزل عقوبة الإعدام إلا نادرًا بالملاحدة والكفار، فأما الآن ـ بعد أن أنشئت محاكم التفتيش ـ فإن كبار رجال الكنيسة كانوا يقفون فى مائة ساحة من ساحات الأسواق فى أوربا ليراقبوا أجسام أعدائهم ـ وهم فى الغالب قوم فقراء لا وزن لهم ـ وهى تحترق بالنار، وتخمد أنفاسهم بطريقة

محزنة.. فأصبح قساوسة الكنيسة وأساقفتها على التدريج رجالاً مكيفين وفق مذاهب اعتقادية حتمية، وإجراءات مقررة ثابتة، ولم تعد لهم بعد رغبة فى رؤية مملكة الرب موطدة فى قلوب الناس، فقد نسوا ذلك، وأصبحوا يرغبون فى رؤية قوة الكنيسة التى هى قوتهم هم، متسلطة على شئون البشر، ونظرًا لأن الكثيرين منهم كانوا على الأرجح يسرون الريبة فى سلامة عقائدهم ومبادئهم، فإنهم لم يسمحوا بأية منافسة لتلك المبادىء والعقائد، كانوا لا يحتملون الأسئلة، ولا يتسامحون فى مخالفة، ليس لأنهم واثقون من عقيدتهم، لكن على العكس، كانوا غير واثقين فيها...

وقد تجلى فى الكنيسة عندما وافى القرن الثالث عشر ما يساورها من قلق قاتل حول الشكوك الشديدة التى تنخر فى بناء عقائدها بأكمله، وقد تجعله أثرًا بعد عين، فلم تكن الكنيسة تستشعر أى اطمئنان نفسى، وكان ذلك يدفعها إلى أن تتصيد "الهراطقة" ـ أو من تحسبهم كذلك ـ فى كل مكان، كما تبحث العجائز الخائفات عن اللصوص تحت الأسرة وفى الدواليب قبل الهجوع إلى فراشهن"[١].

ومحاكم التفتيش هذه كان اهتمامها منصبًا على الملاحدة، والإلحاد ظل فى نظر الكنيسة ورجالها زمانًا مقصورًا على عامة الناس الذين يخرجون على تعاليم الكنيسة أو تسول لهم أنفسهم أن يعترضوا على أمر من أمورها، وقد كان رواد هذه المحاكم هم هذه النوعية من البشر.

لكن مع مرور الوقت، وانتقال العلوم الإسلامية، ومناهج البحث الإسلامى لكثير من العلماء المسلمين، إلى العالم الغربى، تفتحت العقول فى أوربا، واتسعت مجالات البحوث العلمية، وبخاصة فى العلوم الطبعية والفلكية، وكان لابد من أن تأتى ساعة الصدام بين منجزات العلم ونتائجه الصحيحة، والخرافات التى خيمت فى رءوس رجال الدين كما تخيم خيوط العنكبوت فى الزوايا المظلمة من البيوت الخربة.

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية، ج٣ ـ ص ٩٠٨ ، ٨٠٨ . نقلاً عن: مذاهب فكرية، محمد قطب

لقد بحث العلماء وتوصلوا إلى حقائق فى الجغرافيا والفلك وعلوم الطبيعة تخالف ما ورثه رجال الدين النصارى، بل وتقطع بيقين أن ما لدى رجال الدين إنما هى خرافات وأساطير، وقام العلماء بإعلان أبحاثهم وما توصلوا إليه من علم، كما نقدوا النظريات الجهلية التى كانت تقول بها الكنائس، وأعلنوا خطأ هذه النظريات وزيفها، وأعلنوا نظرياتهم بديلاً عن نظريات الكنيسة وعلومها. فهل تسكت الكنيسة على ذلك؟ هل يكون رجالها على مستوى من العقل والفهم وسعة الإدراك يجعلهم يسلمون بأنهم كانوا جاهلين خاطئين فيما ذهبوا إليه، ثم يرحبون بالمكتشفات العلمية الحديثة ـ وقتذاك ـ؟ هل يسلمون بالحقيقة؛ بأنهم رجال لاهوت رهابنة، وأن العلوم الطبعية والفلكية لها رجالها؟ لا شىء من ذلك حدث، إنما الذى حدث كان على نقيض ذلك تمامًا.

لقد شمرت الكنيسة عن ساعديها وساقيها كذلك، ثم قامت قومةً ما قعدت بعدها حتى زكمت الأنوف برائحة اللحوم المشوية لأجساد العلماء الذين أحرقتهم الكنيسة أحياء. لقد أعلنت كفر هؤلاء العلماء، وطردتهم من ملكوت السماوات أو ملكوت الرب، ثم استحلت دماءهم وأموالهم، وأحالتهم إلى محاكم التفتيش التى كان حكمها عليهم بالقتل على ألا تراق من دمائهم قطرة دم واحدة، وهذا ـ كما ذكرنا قبلاً ـ يعنى: أن يحرقوا أحياء، وذلك كان مصير الكثيرين منهم الذين استمسكوا بآرائهم، والكثيرون رجعوا عن آرائهم وأنكروها خوفًا من المصير المروع الذى شاهدوه يقع بإخوانهم الثابتين على آرائهم.

ومثالاً على ذلك نأخذ موقف العلماء الذين اكتشفوا خطأ نظرية الفلك القديمة التى كانت الكنيسة تأخذ بها، وماذا جرى لهم.

فقد كانت الكنيسة تتبنى نظرية "بطليموس" فى الأفلاك، وكانت تلك النظرية تجعل الأرض هى مركز المجموعة الشمسية، وأن الشمس وبقية الكواكب والشموس تدور حولها، ولكن أحد رجال الدين النصارى وهو القس: "كوبر نيق" أو "كوبر نيكوس" وكان عالمًا فى الفلك اكتشف خطأ نظرية "بطليموس" وأثبت

أن الشمس هى مركز المجموعة الشمسية، وقد وضع فى ذلك كتابًا أسماه: "حركات الأجرام السماوية" شرح فى هذا الكتاب ما توصل إليه بالتفصيل، لكن الكنيسة ثارت ضده، وأمسكوا به، وأعلنوا كفره، وقالوا: إن ما ذكره الرجل فى كتابه إنما هى وساوس شيطانية تتناقض مع روح الإنجيل، ثم منعت تداول الكتاب وأحالت الرجل إلى محكمة التفتيش، لكن يد الموت كانت أسبق إليه من أيدى قضاة المحكمة الذين لا بد وأنهم قد حزنوا لضياع فريسة من أيديهم كانوا سوف يتلذذون بحرقها حية.

بعد أن مات "كوبر نيكوس" قبل أن يساق إلى محكمة التفتيش، جاء فلكى آخر هو "جيور دانو برونو" الذى ثبت لديه صحة نظرية "كوبر نيق" وخطأ ما تقول به الكنيسة من نظرية "بطليموس"، فقام يعلن صحة ما وصل إليه "كوبر نيق"، فأمسكت به الكنيسة، وساومته على الرجوع عن نظريته، فاستمسك برأيه فى شجاعة، فأحالته الكنيسة إلى محكمة التفتيش التى أصدرت حكمها: بأن يقتل على ألا تراق قطرة واحدة من دمه، وتم ذلك، فقدم الرجل إلى النار حيًّا وأحرق حتى الموت.

بعد العالم "برونو" جاء عالم إيطالى آخر هو: "جاليليو" الذى ولد بعد موت "كوبر نيكوس" بحوالى عشرين عامًا، وكان هذا العالم جاليليوا قد اخترع ما يعينه على إثبات نظرياته بطريقة أكثر يقينًا، نعنى: "المنظار الفلكى"، وهذا العالم قام هو الآخر يعلن أن الشمس هى مركز المجموعة الشمسية، وأن الأرض تدور حولها، وكان ما لا بد منه. حيث أعلنت الكنيسة كفره، ثم ساقته إلى محكمة التفتيش، لكن الرجل الذى كان قد شاهد "برونو" يحرق عام "١٦٠٠م" وكانت سن جاليليو فى ذلك الوقت ستًا وثلاثين، خاف من المصير الذى ينتظره، فما كان منه إلا أن رجع عن قوله وخَطَّأَ نظريته، وأقر بصواب نظرية "بطليموس" وبعد أن رجع عن قوله حكمت عليه المحكمة بالسجن ثلاث سنوات، على أن يتلو "مزامير الندم السبعة" مرة كل أسبوع طوال تلك السنوات، وقد ركع "جاليليو" أمام رئيس المحكمة وقال:

"أنا جاليليو وقد بلغت السبعين من عمرى أركع أمام عظمتك، والكتاب المقدس أمامى ألمسه بيدى، أرفض، وألعن، وأحتقر، وأخطىء القول الإلحادى الذى يقرر أن الأرض تدور، وأتعهد بأن أبلغ المحكمة عن كل ملحد توسوس له نفسه وشيطانه بتأييد هذا القول الباطل".

هذا الذى ذكرناه ـ وغيره كثير ـ يبين موقف الكنيسة ورجالها من العلم والعلماء، هذا الموقف الذى كانت نتيجته الحتمية هى الثورة ضد الكنيسة ورجالها، ليس ذلك فحسب، بل إن موقف الكنيسة وطغيانها الجهلى، وتعنتها مع العلم والعلماء قد أساء إلى الأديان كلها.

إلى الدين الحق، وإلى الأديان الباطلة على سواء، فإن الذين أوذوا بموقف الكنيسة من العلم والعلماء، لم يخصوا بنقمتهم النصرانية، ولم يقصروا مقتهم وعداءهم على رجال الدين النصارى، لكنهم عمموا عداءهم لكل دين، وشملوا بحربهم وكراهيتهم كل من ينتسب إلى الأديان، ولم يفرقوا بين حق وباطل، ولم يميزوا بين الخبيث والطيب، وكان هذا جهلاً منهم وحماقة، ولو أنصفوا لمازوا بين دين الله الحق الإسلام الذى فرض على أتباعه أن يعملوا عقولهم، وأن يعمروا الأرض بعلومهم، بل جعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وجعل تلك الفريضة شاملة العمر كله من المهد إلى اللحد، وفرض على أصحابه أن يطلبوا العلم فى مظانه، وأن يأتوه ويفتشوا عنه فى مكامنه، ولو كان العلم فى الصين، وجعل طريق العلم وطريق الجنة عدلين، فمن سلك طريقًا يبتغى به علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة.

وليس هذا كلامًا نظريًا، فإن المسلمين الأوائل لما فهموا الإسلام فهمًا صحيحًا، طرقوا أبواب العلوم، ومهدوا سبلها، وفتحوا مغاليقها، وكانوا الأساتذة الأول، والرواد الأعلام فى كل العلوم على اختلافها، وما نهضت أوربا نهضتها الحديثة إلا عندما تتلمذ علماؤها على العلوم الإسلامية، وأشرقت شمس الإسلام فأضاءت أمامهم سبل البحث الصحيحة، ومناهجه السليمة، فكانوا على ما هم عليه الآن، وهذه حقيقة يعترف بها منهم المنصف، ولا يستطيع أن يجحدها الحاقد.

نقول: كان من آثار موقف الكنيسة أن مقت الناس في الغرب الدين بشكل عام، وأن سعوا إلى الخلاص من نيره ونيرانه، وجبروته وطغيانه، واضعين نصب أعينهم النصرانية ورجالها، ومحاكم التفتيش وأهوالها، وكانت النتيجة أن قضوا على سلطان الكنيسة ورجالها، فانزوت النصرانية داخل الكنيسة، وتركت الناس يصرفون شئونهم بأنفسهم بعيدًا عن سلطانها، وكان من ذلك ما سمى "بالْعِلْمَانِيَّة" وهو مذهب إلحادى له مكانه من دراستنا ـ بحول الله تَعَالَى وعونه ـ.

وأما عن الأمر الثالث من الأمور التى نتجت عن فساد الكنيسة وانحراف رجالها، ونعنى به: "صكوك الغفران"؛ فهو من العلامات البارزة والأشراط الواضحة على مدى ما بلغ الفساد فى الكنيسة، ومدى الجرأة فى الباطل لدى رجالها.

ولقد مر بنا أن "شاءول اليهودى المسمى بولس" قد وضع فى أساس ديانته النصرانية التى أنشأها على حساب دعوة المسيح عليه السلام، عقائد عجيبة، ومن هذه العقائد: أن المسيح الرب ـ بزعمهم ـ بعد أن صلب ومات، ثم قام من الأموات، وقبل أن يصعد إلى السماوات "ليجلس على كرسيه عن يمين أبيه ينتظر يوم الدينونة ليحاسب الناس على أعمالهم"، قد منح سلطانه للكنيسة، والمراد بالكنيسة رجالها، ومن أهم الجوانب فى سلطان الرب هذا مغفرة الخطايا والذنوب للخطاة والمذنبين، لذلك وضعت الكنيسة نظامًا يقوم على أسس أهمها:

١ ـ أن يعترف المذنب بذنوبه لرجل الدين النصرانى.

٢ ـ أن يقوم رجل الدين النصرانى بمنح المعترف ـ رجلاً أو امرأة ـ غفرانًا لذنوبه التى اعترف بها.

٣ ـ أن يكون مقر ذلك ـ الاعتراف والغفران ـ بالكنيسة، ولا يكون فى غير الكنيسة إلا فى حالات استثنائية، كأن يكون النصرانى على فراش الموت، فيذهب إليه القس ويتلقى اعترافه ثم يمنحه المغفرة، فيما يسمى عندهم: "المناولة الأخيرة".

ولقد كانت عقيدة الاعتراف، ثم مغفرة الخطايا من القس موضع اعتراض ونقد ورفض من كثير من الطوائف طوال تاريخ الكنيسة، ولم يخل عصر من رافضين لهذه

العقيدة وما يحدث بسببها من جرائم الاستغلال والانحلال الخلقى وضغط القساوسة على المعترفين لتنفيذ أغراضهم التى هى فى غالبها فاحشة ودنيئة.

ففى القرن الثامن الميلادى قامت فى فرنسا حركة إصلاحية دينية نصرانية تعترض على عقيدة الاعتراف، وحق القساوسة فى تلقى اعترافات المذنبين، وتنكر على القسس صلاحيتهم لغفران الذنوب، وتدعو الشعوب النصرانية إلى أن يقصروا صِلاَتهم بالله وحده، وأن يتضرعوا إليه وحده ليغفر ذنوبهم.

وفى الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادى ظهرت الحركة "البروتستانتية" على يد القس "مارتن لوثر" الذى عاش بين عامى: "١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م" وكان أستاذًا فى العلوم بجامعة "إيرفورت"، ثم رغب فى الرهبنة فدخل أحد الأديرة، ثم عين قسًّا عام "١٥٠٧م". ثم عين راعيًا لإحدى الكنائس بألمانيا.

وقد بدأت بذور ثورته على الكنيسة عندما زار روما عام "١٥١٠م" حيث اطلع على الفساد الخلقى المنتشر لدى رجال الدين الكبار فى مقر البابوية، فعقد العزم على البحث عن وسيلة لإخراج الكنيسة من ربقة الفساد والإسفاف التى وصلت إليها، ثم أخذ يحارب تجارة "صكوك الغفران" وينكر شرعيتها، ولما عارضه رجال الكنيسة واستثاروه، علق على أبواب كنيسة القلعة خمسًا وتسعين قضية من قضايا الفساد والانحراف فى الكنيسة ولدى رجالها، وقد زاد على ذلك فأعلن اعتراضه على بعض التقاليد الكنسية التى يتمسك بها رجالها، وإزاء ذلك كله، أصدر البابا قرارًا بحرمانه وطرده من الكنيسة، ومن جانبه وقف "مارتن لوثر" وفى يده قرار البابا ذاك، ثم أشعل النار فيه، معلنًا بذلك قطع كل صلة بينه وبين البابا، ومن ثم بينه وبين الكاثوليكية، وبدأ منذ ذلك يدعو إلى مذهبه الرافض للاعتراف والغفران الذى يمنحه رجال الكنيسة، حتى كون هو وأتباعه مذهبه المسمى:"البروتستانت" ومعناها: "المحتجون" وأتباع هذا المذهب يرفضون تسميتهم "بالبروتستانت"، ويسمون أنفسهم "الإنجيليين" إشارة إلى أنهم يتبعون الإنجيل وحده دون التقاليد

الكاثوليكية، وأنهم يفهمون الإنجيل بأنفسهم، مستقلين عن كل ما تريد الكنيسة أن تفهم الناس إياه.

ومما تجدر الإشارة إليه أن "البروتستانت أو الإنجيليين" ينتشر مذهبهم فى ألمانيا، وإنجلترا، والدانمرك، وهولندا، وسويسرا، والنرويج وأمريكا الشمالية، وهذا يعنى: أن قطاعًا كبيرًا من العالم النصرانى يرفض قضية الاعتراف، ويرفض تلقى الغفران من القساوسة.

وكانت حركات الرفض والخروج على عقيدة الاعتراف وغفران الخطايا من القس، سببًا فى أن الكنيسة اضطرت فى أحد مجامعها أن تصدر قرارًا تؤكد فيه على هذه العقيدة، بل وتهدد كل من يعترض عليها أو ينقدها، فقد أصدرت الكنيسة فى مجمع "لاتيران" القرار المجمعى الكنسى الآتى:

"... إن يسوع المسيح لما كان قد قلد الكنيسة سلطان منح الغفران، وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذى نالته من الأعلى منذ الأيام الأولى، فقد أعلن المجمع المقدس، وأمر بأن تحفظ للكنيسة فى الكنيسة العملية الخلاصية للشعب المسيحى، والمثبتة بسلطان المجامع، ثم ضرب بسيف الحرمان كل من يزعم أن الغفرانات غير مفيدة، أو ينكرون على الكنيسة سلطان منحها، غير أنه قد رغب أن يستعمل هذا السلطان باحتراز واعتدال حسب العادة المحفوظة قديمًا والمثبتة فى الكنائس، لئلا يمس التهذيب الكنسى تراخ بفرط التساهل"[(١)].

وهذا القرار للمجمع النصرانى ليس منشئًا لهذه العقيدة ـ عقيدة الاعتراف والغفران ـ ولكنه مؤكد لها ومساند فى مواجهة حركات النقد والرفض التى لم تهدأ أو تنقطع منذ افتراء هذه العقيدة الباطلة.

والناظر فى قرار المجمع يلاحظ أنه قد أكد على أمرين ـ بجانب مساندته تلك العقيدة وتهديده من يعترض عليها ـ :

---

(١) نقلاً عن كتاب: محاضرات فى النصرانية ـ الإمام محمد أبو زهرة ـ ص: ١٤٩.

الأمر الأول: أن عملية الاعتراف والغفران يجب أن تكون داخل الكنيسة وليس خارجها. وذلك فى قول القرار المذكور: ".. وأمر بأن تحفظ للكنيسة فى الكنيسة هذه العملية الخلاصية"، وقد أشرنا إلى ذلك قبلاً، وبينا أن الاستثناء إنما يكون فى حال ما إذا كان المعترف على فراش الموت.

الأمر الثانى: أن يستعمل هذا النظام باعتدال وحرص وفى حدود ضيقة بقدر الإمكان، وألا يفتح الباب على سعته بدون ضوابط، حتى لا يكون ذلك سببًا فى فساد الأخلاق، وانفلات السلوك، وذلك فى قول القرار المذكور: "غير أنه قد رغب فى أن يستعمل هذا السلطان باحتراز وحرص حسب العادة المحفوظة قديمًا والمثبتة فى الكنيسة، لئلا يمس التهذيب الكنسى تراخ بفرط التساهل".

لكن هذين الأمرين لم ترعهما الكنائس ولا رجالها، وأول الذين خالفوا فى ذلك هم "البابوات"، حيث حوَّلوا تلك العقيدة وما يتعلق بها إلى سوق فاجرة لتجارة دنيئة خاسرة، كان همهم فيها أولاً وأخيرًا جمع المال للإنفاق على مباذلهم ومفاسدهم وإشباع شهواتهم الدنيا، وقد كان أوضح مظهر لتلك التجارة الخبيثة ما اخترعه "البابوات" مما سمى بـ "صكوك الغفران".

وصكوك الغفران هذه وثائق تكتب بصيغ مختلفة الأساليب، وإن اتفقت ـ غالبًا ـ فى المحتوى، وفيها يعلن "البابا" أو من ينوب عنه فى إصدارها غفرانه لجميع ذنوب ذلك الذى يشتريها ويدفع ثمنها المقرر، دون معرفة بمن سيشتريه، أو ما هى تلك الذنوب التى يغفرها الصك، وقد ترك بالصك فراغ يكتب فيه من يشتريه اسمه، أو اسم من يشتريه له، فقد يرغب بعض الناس أن يشترى صكًّا لأبيه أو لابنه أو لصديق له، وبذلك يغفر أحد الناس ذنوب آخر دون أن يرغب المذنب أو حتى دون أن يدرى. وفيما يلى ننقل نصًّا لصك من هذه الصكوك:

"ربنا يسوع المسيح يرحمك يا.... (١) ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية القدسية،

---

(١) يكتب فى هذا الفراغ اسم مشترى الصك، أو اسم من اشتراه له، إن كان قد اشتراه لآخر.

وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائلات الكنسية التى استوجبتها، وأيضًا من جميع الإفراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها، مهما كانت عظيمة وفظيعة، ومن كل علة، وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا، والكرسى الرسولى، وأمحو جميع أقذر الذنوب وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة، وأرفع القصاصات التى تلتزم بمكابدتها فى المطهر، وأردك حديثًا إلى الشركة فى أسرار الكنيسة، وأقرنك فى شركة القديسين، وأردك مرة ثانية إلى الطهارة والبر اللَّذَيْن كانا عند معموديتك، حتى إنه فى ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذى يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب، ويفتح الباب الذى يؤدى إلى فردوس الروح، وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتى ساعتك الأخيرة، باسم الأب والابن وروح القدس"[1].والقارىء للصك بصيغته المذكورة يلاحظ أنه يفرط إفراطًا واضحًا، ويلح بشكل يثير الغثيان على تكرار ألفاظ الغفران، ورفع الخطايا والآثام، وتطهير المشترى للصك من كل خطيئة وإثم، حتى ليكاد الصك أن يمنح المشترى سماوات الله وأرضه، كل ذلك من أجل إغراء الناس، وترغيبهم فى شراء تلك الصكوك التى تدر على "البابا" ومن حوله الأموال التى يدرك الجميع أنها ليست لأغراض شرعية كنسية. ـ حسب عقيدتهم ـ ، بل هى ـ كما اعترف بذلك كل كُتَّاب النصارى ومثقفيهم الذين طرقوا الحديث حول هذه القضية ـ لإشباع أهواء ونزوات رجال الدين النصارى.

وقد بلغت الشهوة إلى جمع المال عند الذين أصدروا تلك الصكوك إلى حد أنهم خرجوا على عقيدة الاعتراف والغفران عندهم، وخالفوها فى أمور كثيرة، ولسنا نقرر ذلك حرصًا على تلك العقيدة، ولا حفاظًا عليها ـ عياذًا بالله ـ فهى من أضل ما وضع فى النصرانية من عقائد، لكن ذلك بالنظر إلى ما قرروه هم واعتقدوه.

---

(١) المطهر تحت المجهر ـ لورا المنفلوطى ـ ص ٣٠.

فهم قد خالفوا عقيدة الاعتراف عندهم ـ فيما أصدروا من صكوك ـ في ثلاثة أمور:

١ ـ أنها تمنح الغفران لمن يشتريها دون أن يعترف بذنوب بين يدى القس، وهذه مخالفة صريحة للأساس الذى بنيت عليه تلك العقيدة عندهم، حيث أن المغفرة إنما تكون مؤسسة على الاعتراف، فالاعتراف هو أصل العقيدة، ومن ذلك جاء اسمها.

٢ ـ أنها تتم خارج الكنيسة، وذلك مخالف لما هو متبع عندهم، ولما أكد عليه مجمع "لاتيران" فى قراره الذى نص فيه على أن تكون هذه العملية داخل الكنيسة، والقرار يقول: "... وأمر بأن تحفظ للكنيسة فى الكنيسة هذه العملية الخلاصية.."

٣ ـ وذلك الأمر هو الأهم ـ أن الأصل فى عقيدة الاعتراف عندهم أنها لمغفرة الذنوب الماضية، أى: التى وقعت فعلاً، وليس لها علاقة بالذنوب التى لم ترتكب، أو التى قد يرتكبها المعترف بعد الاعتراف، لكن "البابوات" تحت شدة الرغبة فى جمع المال، وترغيبًا للناس فى شراء هذه الصكوك، جعلوا صكوكهم هذه تغفر لمن يشتريها ذنوبه السابقة، وذنوبه اللاحقة كذلك.

لذلك أقبل الناس من الشعوب النصرانية على شراء تلك الصكوك معتمدين عليها، ليس فقط فى مغفرة الذنوب السابقة، أو ما مضى من ذنوبهم بل وفى مغفرة ما سوف يرتكبون من ذنوب حتى الموت، ولهذا كانت هذه الصكوك بمثابة تصريح بارتكاب الذنوب ومقارفة الأوزار لمن يشتريها، بل هى حض وإغراء على ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، لأنه ما دام قد غفر للنصرانى ما تقدم من ذنوبه وما تأخر، فقد أضحى فاقد المسئولية تجاه ما يفعله أيًا كان كمه أو كيفه. فليفعل ـ بعد أن يشترى ذلك الصك ـ ما يشاء فلا بأس عليه ولا حرج.

وإذا ما تصورنا أن هذا الصك المبيح لارتكاب الذنوب ومقارفة الأوزار، قد

وضع فى يد الإنسان الغربى النصرانى، صاحب الثقافة المادية، والحضارة الوثنية، والذى قد خلا من القيم والمبادىء والآداب، فإن لنا ـ بعد ذلك ـ أن نتصور كيف يكون سلوك ذلك المادى الوثنى الذى غفر له ما سبق من ذنوبه وما لحق، وضمن الجنة ونعيمها، وأعفى من كل مسئولية تجاه نفسه والمجتمع الذى يعيش فيه.



رابعًا: الحركة العلمية فى الغرب. والأخذ بأسباب التقدم المادى

حينما أشرف الإسلام على العالم فأنار جَنَبَاتِهِ، وأزاح ظلماته، وأضاء بهديه القلوب والعقول، وسلخ ليل الجهالة عن نهار العلم فإذا المؤمنون مبصرون، وبينما كان الإسلام يأخذ مسيرة النور والهداية ليطبق الآفاق والأنفس، كانت أوربا والغرب يعيش أحلك الظلمات، وكانت تحيط بالإنسان فى الغرب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

كان الإنسان فى الغرب يعيش ظلمة الدين النصرانى الذى جاء على أنقاض رسالة عيسى ـ عليه السلام ـ التى جاءت بدين الله الحق تدعو إلى التوحيد الخالص، فأحالها "شاءول اليهودى" ثم "قسطنطين" الوثنى إلى شرك ووثنية،... وكان الإنسان الغربى يعيش ظلمات الفقر والمرض والجهالة.. وكان يعيش عسف وتحكم وطغيان الكنيسة ورجال دينها.. وكان يعيش رابعة الأثافى ـ إن كان للأثافى رابعة ـ نير العبودية عند أصحاب الأراضى وأمراء الإقطاعات.. وبإيجاز، كان الإنسان فى الغرب عبدًا لشرك النصرانية ووثنيتها، عبدًا للفقر والجهل والمرض، عبدًا لطواغيت الكنيسة ومجرميها، عبدًا لطواغيت الأرض والإقطاعيين.

وكانت هذه الحال عامة شاملة فى كل أنحاء أوربا والغرب كله، لذا كان صدقًا ما أطلقه المؤرخون على هذه الحقبة من تاريخ أوربا والغرب حينما أسموها أو وصفوها بأنها: العصور الوسطى المظلمة.

انتشر الإسلام، وفتح الله على المسلمين أبواب البلاد وقلوب العباد وشع نور الإسلام على الغرب فأيقظه من نوم التخلف، وعمى الجهالة، واستيقظ الغرب من سباته العميق وقد أعشى بصره نور الإسلام المشرق، وضياؤه الساطع، فاتجه إلى الإسلام، وبدأ يتحسس طريقه لعله يأخذ من نور الإسلام قبسًا أو يجد منه هدى،

ولم يبخل الإسلام على الغرب بنور العلم والحضارة، وأخذ الغرب يقبس من نور الإسلام فى كل بقعة اتصل الإسلام فيها بالغرب.

وقد كان اتصال الإسلام بالغرب أكبر ما كان فى بقاع ثلاث:

أولها: الأندلس المسلمة:

فعندما فتح المسلمون بلاد الأندلس، دخلوا مباشرة إلى قلب العالم الغربى، ودقوا أبواب أوربا النصرانية بعنف، أشرقت أنوار الإسلام على أوربا، وأحس بها الإنسان الغربى المثقف، فجذبت أنوار الإسلام، وبريق حضارته عددًا من الرهبان وفدوا إلى الأندلس منذ القرن العاشر الميلادى ليعرفوا الإسلام عن قرب، ويدرسوا أصول حضارته، ومن هؤلاء "يوحنا الدمشقى"، ومنهم الراهب الفرنسى "جربرت" الذى انتخب "بابا" لكنيسة روما عام "٩٩٩م" ومنهم الراهب "بطرس المحترم (RESPECTFUL PETER) (١٠٩٢- ١١٥٦م) ومنهم "جيراردى كريمون" "١١١٤ – ١١٨٧"، وقد كان هؤلاء الرهبان وغيرهم نواة التنوير، ودعاة الحضارة الإسلامية فى أوربا كلها، فإن هؤلاء يساندهم غيرهم ممن تأثروا بالإسلام وحضارته فى الأندلس سرعان ما عادوا إلى بلادهم فأنشأوا المدارس والمعاهد فى كل أنحاء أوربا، وقد قامت هذه المدارس والمعاهد على تدريس اللغة العربية لطلابها، وكذلك اهتمت بالدرجة الأولى بترجمة الكتب العربية التى كانت هى العامل الأساسى فى التدريس فى هذه المدارس، وفى الجامعات الأوربية والغربية لمدة تزيد على ستة قرون، وكانت هذه الجامعات تدرس العلوم العربية فى الطب والرياضيات والعلوم الطبيعية والكيميائية وغيرها.. وقد كانت هذه الطبعية الجامعات، والمدارس والمعاهد التى تمدها بالطلاب، كان كل ذلك السبب والعامل الرئيسى والمباشر فى النهضة الأوربية الحديثة، وفى إيقاظ العقول، وتنوير الأفهام، وقد كان كبار المكتشفين والمخترعين وواضعى مناهج العلوم فى عصر النهضة فى أوربا ممن تتلمذوا على الفكر والحضارة والعلوم الإسلامية.

ويلاحظ أنه رغم تحجر العقلية الكنسية، وتخلف رجالها، ووقوف الكنيسة فى

وجه العلم والعلماء؛ فإن كثيرين من الرواد فى تعلم العلوم العربية والإسلامية، والذين أسهموا بسهم وافر فى ترجمة هذه العلوم إلى اللسان الأوربى، كانوا من الرهبان ورجال الدين النصارى، وهذا يبين عن مدى التأثير القوى للعلوم الإسلامية على الأوربيين، فإنهم ـ رغم عدائهم للعلم والعلماء ـ ما يكاد أحدهم يطلع على شىء من تلك العلوم حتى تستولى على عقله وقلبه، وتقضى على كراهيته للعلم، وتحوله إنسانًا آخر عاشقًا للعلم ساعيًا فى تحصيله لنفسه، ثم فى تقديمه للآخرين.. لكن الملاحظ ـ أيضًا ـ أن الرهبان النصارى ـ رغم افتتانهم بالعلوم الإسلامية، سواء عن طريق الأندلس المسلمة، أو غيرها من مواقع الاتصال بين المسلمين والغرب النصرانى ـ لم ينس الكثيرون منهم عداءهم للإسلام والمسلمين، بل لعل اطلاعهم على مدى التقدم لدى المسلمين فى العلوم والثقافة والحضارة قد أوغر صدورهم على الإسلام والمسلمين وخشوا أن يجتذب ذلك الشعوب النصرانية إلى الإسلام، فأخذوا على عاتقهم تشويه الإسلام وتقديمه إلى الإنسان الغربى على صورة قبيحة منفرة، ولم يردعهم لباسهم الكهنوتى، وصفتهم كرجال دين عن الكذب والتدليس، وخيانة الأمانة حين ينقلون إلى شعوبهم معلومات ومعارف عن الإسلام ونَبِيِّه ﷺ والمسلمين تخالف الواقع فى جملتها وفى تفاصيلها.

ثانيها: الحروب الصليبية:

وهى حروب بدأت الدعوة إليها فى الغرب تحت شعار تخليص المقدسات النصرانية من أيدى المسلمين ـ يقصدون بيت المقدس وما يسمى بكنيسة القيامة وغيرها ـ لكن الحروب الصليبية التى استمرت قرنين من الزمان انتهت وارتد النصارى الذين قاموا يشاركون فى هذه الحروب من جميع البلاد الغربية وبخاصة فرنسا وإنجلترا، ارتد هؤلاء جميعًا إلى بلادهم يجللهم الخزى والعار بعد أسر بعض ملوكهم بمصر، وقتل منهم مئات الآلاف تلقفتهم نيران جهنم قبل أن تتلقفهم ساحات القتال.

لكنهم فى مقابل هذه الخسارة المادية والبشرية، عادوا إلى بلادهم بثروات ضخمة

المبحث الرابع

عوامل انتقال المذاهب الفكرية إلى المجتمعات الإسلامية

بَيّنّا عند حديثنا عن نشأة المذاهب الفكرية فى الغرب، أن هذه المذاهب لم تنشأ فى المجتمعات الإسلامية، وإنما انتقلت إليها من بيئاتها التى نشأت فيها وهى المجتمعات الغربية.

وقد آن لنا أن نتحدث عن عوامل انتقال هذه المذاهب الفكرية من بيئاتها التى نشأت فيها. إلى البيئات والمجتمعات الإسلامية، بل وشيوعها فى بعض هذه المجتمعات، هذا على الرغم من تعارض، بل تضاد ومناقضة المبادىء التى تقوم عليها هذه المذاهب مع دين الله الإسلام الذى تدين به تلكم المجتمعات الإسلامية.

وسوف نفرق بين نوعين من عوامل الانتقال هذه لاعتبارات نذكرها، وإن كانت الفروق بين النوعين غير حاسمة أحيانًا، وقد يحدث شىء من التداخل بين النوعين، لكى يبقى من الحق والإنصاف، وكذلك التيسير على الدارس بتوضيح الأمور له فضل توضيح، أن نفرق بين النوعين الآتيين:

النوع الأول
عوامل ذاتية

ونقصد بالعوامل الذاتية ما يرجع إلى المجتمعات الإسلامية ذاتها، وليس إلى عوامل خارجة عنها، على أننا يجب أن نلاحظ أن العوامل الخارجية هى ـ عند التمحيص ـ راجعة إلى العوامل الذاتية وثمرة لها، فإن الأمة المسلمة لما قصرت فى الالتزام بدينها، وابتليت بتلك العوامل الذاتية، عوقبت بالعوامل الخارجية نتيجة لتقصيرها ذاك، ولا يظلم ربك أحدًا.

والعوامل الذاتية تتمثل فى أمور كثيرة أهمها:

١ ـ ابتعاد المسلمين عن دين الله الإسلام، وتهاونهم فى الاستمساك به، وانحلال عراهم عنه.

وقد نتج عن ذلك:

أ ـ أنْ غضب الله عليهم ووكلهم إلى أنفسهم.

وليس من شك فى أن هذا الناتج هو أساس ما فيه المسلمون من مهانة وذلة واستكانة.

فإن النصر بيد الله وحده ـ سبحانه ـ ، وهو ـ سبحانه ـ ينصر من ينصره، ويخذل من يتخلى عن دينه ويتهاون فى الالتزام به، ولقد نصر الله ـ تَعَالَى ـ المؤمنين وهم قلة فى مواطن كثيرة، وذلك لالتزامهم دينه، قال عز وجل:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ [التوبة: ٢٥] وقال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

ولقد كان نصر الله ـ تَعَالَى ـ المؤمنين فى مواطن كثيرة، ببدر وحنين وغيرهما، لأنهم نصروا الله ـ تبارك وتعالى ـ بنصرة دينه فى أنفسهم، ثم بالدعوة إليه فى الآخرين، والله ـ تَعَالَى ـ يبيّن تلك القاعدة بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠] وبقوله عز وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

وهذه القاعدة ماضية فى خلق الله، فلما نصر المسلمون من سلفنا ربهم ـ سبحانه ـ وذلك بالتزامهم دينه وشرعه فى أنفسهم وغيرهم، نصرهم الله على قلتهم عَدَدًا وَعُددا.

ولما حدث العكس من تهاون المسلمين بدين الله، وانصرافهم عنه، وإغراقهم فى متع الحياة الدنيا، سلب الله ـ تَعَالَى ـ نَصْرَه عنهم، ووكلهم إلى أنفسهم، وحدث نقيض ما كان قبلا، فبعد أن كانوا ينصرون وهم قلة، هانوا وذلوا وانكسروا وهرموا

وهم كثرة، وذلك دليل غضب الله عليهم، وسلبه نصره عنهم، ذلك أنهم لو نصرهم الله ـ تَعَالَىٰ ـ ما هزموا ولا غلبوا، فإن الله عز وجل يقول:

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، وما داموا قد غلبوا فهذا يبين أن الله ـ تَعَالَىٰ ـ قد سلب نصره عنهم، ويقول ـ سبحانه ـ تكملة الآية السابقة:

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وصدق الله وعده ووعيده، فلما خذلهم الله ـ سبحانه ـ أضحوا غثاء كغثاء السيل، أذلهم أنجس خلق الله، وأهونهم على الله ـ اليهود ـ، ولم تنفع فى شىء الخطب الرنانة، ولا الدعاوى العريضة، ولا الوعود الكاذبة، ولا التبجحات والتوقحات لأناس هجروا دين الله ـ تَعَالَىٰ ـ بل عادوه، وتبنوا مذاهب وأفكارًا إلحادية وردت من الشرق والغرب، وكانت النتيجة المعروفة والمنتظرة من قوم عادوا ربهم، أن ذلوا وهانوا واستكانوا وأضحوا أهزوءة العالم حتى من الذين سخروهم وبذلوا لهم الوعود، ثم انقلبوا فأذلوهم واسترقوهم.

ب ـ انتشار مجالس اللهو والقصف والمجون والشراب ـ عياذًا بالله ـ.

جـ ـ لم يقف انتشار اللهو والمجون بأنواعه عند حدود الدور، ولكن أضحت له أماكن خاصة اشتهرت وذاع صيتها وكثر روادها فى كثير من المجتمعات الإسلامية.

د ـ يقابل ذلك ويساوقه ترك الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وتعطيل نظام الحسبة فى الإسلام.

هـ ـ تبع تعطيل نظام الحسبة، أن جاهر الناس بالفواحش، على نحو ما أشرنا سابقًا.

٢ ـ تفرق المسلمين، وشدة بأسهم بينهم ويتضح ذلك فى أمور كثيرة أهمها:

أ ـ الخلافات الدينية الأصولية، وما يترتب عليها من رمى بعضهم البعض بالفسوق والكفر والخروج عن الملة..

ب ـ الخلافات السياسية حول النظم والإمارة والحكم.

جـ - الخلافات حول المشكلات الدولية المثارة على الساحة، وعدم اتفاقهم على سياسة موحدة تجاه هذه المشكلات، والاتهامات المتبادلة بينهم.

د - إفساحهم المجال لأعداء الإسلام للدخول بينهم كوسطاء نصحاء لحل مشاكلهم، بينما هؤلاء يدخلون لإذكاء روح العداوة والبغضاء بين المسلمين بعضهم مع بعض، وذلك منهم خروج على توجيه الله إياهم بعدم إعطاء الأمان لهؤلاء الأعداء أو الركون إليهم، وذلك فى مثل قول الله عز وجل.

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣].

٣ - انتشار الجهل بالإسلام بين عامة المسلمين، وقد نتج عن ذلك أمور خطيرة أهمها:

أ- الانحراف فى فهم الأصول التى يقوم عليها الإسلام.

ب - التهاون فى إقامة فرائض الدين من صلاة وزكاة وغيرها، وذلك تحت تأويلات وأفكار فاسدة نتيجة العامل السابق.

جـ - الخلط بين الولاء للإسلام والولاء لبعض المذاهب الفكرية المادية الملحدة، تحت الزعم بأنه لا تعارض بين أن يكون الإنسان مسلمًا وفى نفس الوقت معتنقًا لمبادىء تلك المذاهب، كما هو حادث فى كثير من المجتمعات الإسلامية التى يزعم البعض فيها أنه "مسلم ماركسى" أو "مسلم علمانى".

د - الكفر الصراح الذى يتزعمه بعض الكبار من ضلالة: "وحدة الأديان"، وأن الأديان كلها - وبخاصة الكتابية - مقبولة عند الله - سبحانه وتعالى عما يصفون - وأن المسلم عبد لله، وكذلك - وبنفس المستوى - اليهودى والنصرانى - وقد فشت تلك الجهالة إلى حَدٍّ أن قام بعض الضالين بإنشاء مؤسسة يشترك فيها أصحاب الأديان الثلاثة بالعبادة لله - سبحانه - كل حسب دينه وشريعته، وسمى ذلك المبنى "مجمع الأديان" وقاموا بوضع ما يسمى "حجر الأساس"

لهذا المبنى بمكان بأرض سيناء. وقد شاء الله ـ سبحانه ـ أن يأخذ القائمين على المشروع قبل أن يبدأ العمل فيه أخذ عزيز مقتدر، وجعلهم عبرة لمن يعتبر.

٤ ـ نتيجة للفراغ الذى تركه هجر الإسلام، وانتشار الجهل به بين المسلمين؛ أن فتن الكثيرون من المسلمين بحضارة الغرب وثقافته، وتشوفوا أن يكون لديهم مثل ما لدى الغرب مما أطلقوا عليه اسم التقدم والتحضر والرقي.. إلى آخر هذه الأسماء التى ما أنزل الله بها من سلطان، وقد ساعد على ذلك الافتتان بحضارة الغرب وثقافته أمور منها:

أ ـ وجود الطوائف النصرانية بين المسلمين فى كثير من المجتمعات الإسلامية، وهى طوائف أخذت بنظم الغرب فى مأكلها ومشربها وملبسها، وسلوكها بصورة عامة، مما جعل مظاهر السلوك الغربى شيئًا مألوفًا لدى تلك المجتمعات المسلمة، وتأثر القريبون المخالطون لهذه الطوائف غير المسلمة بهذا النوع من السلوك الغربى.

ب ـ وجود من يسمون "السيَّاح"، وهم طوائف وجماعات غير مسلمة تطوف وتتجول بالبلاد المسلمة، بل بالأحياء الشعبية والقرى، وتخالط البعض من أهل البلاد، وهؤلاء السائحون لا يرعون حرمة لدين ولا لمتدين، وهم قد جاءوا إلى بلاد الإسلام للسياحة واللهو والمرح، وهم ينشرون بين الكثيرين ممن يرونهم بل ويرافقونهم ما لديهم من عادات الانحلال وفساد السلوك، ودناءة الأخلاق، وبذاءة الأفعال.. إلى غير ذلك مما يعف اللسان عن ذكره، والقلم عن تسطيره، ولا يدركه على حقيقته إلا الذين ابتليت بلادهم بهذا الوباء المهلك للدين والخلق.

جـ ـ افتتان بعض الحكام المسلمين بالحضارة الغربية النصرانية، وانتهاجهم مسلكًا يعمل على نشر هذه الحضارة المادية الوثنية، وقد جاء من هؤلاء من صرحوا بأنهم يتمنون أن يعيشوا حتى يروا بلدهم قطعة من أوربا.

٥ ـ وجود دعاة الحضارة الغربية فى المجتمعات الإسلامية، ممن كانوا مسلمين عربًا، ثم مسخهم الله دعاة للغرب وحضارته، أعداء لدينهم وقومهم.

وهؤلاء "المستغربون"؛ أى: دعاة التغريب عملوا جاهدين على جهتين، أحدهما تنفر من الإسلام وشعائره، وبخاصة ما يتصل بالمرأة من حجاب وآداب، وكذلك جلوسها فى بيتها، وقيامها برعاية أسرتها، وكذلك ما يتصل بها من نصيبها فى الميراث، إلى كثير من التشريعات المتصلة بها.

أما الجبهة الثانية فأعظموا فيها من شأن الغرب، وحضارته وتقدمه ورقيِّه، وطالبوا بإلحاح شديد أن ننهج منهج الغرب فى ثقافتنا وحضارتنا وسلوكنا وتعليمنا، بل فى مآكلنا وملابسنا، وقد بدأوا هم بأنفسهم فعرَّوا نساءهم عن حجاب المرأة المسلمة، وبذلك تعرت نساؤهم عن الأدب والحشمة والعفة، وصاروا يفاخرون بذلك ويجاهرون به فى كل ناد. والأمثلة على ذلك كثيرة، من أمثال طه حسين، الذى يقول فى كتابه: "مستقبل الثقافة فى مصر": "فإذا كنا نريد الاستقلال العقلى والنفسى الذى لا يكون إلا بالاستقلال العلمى والأدبى والفنى، فنحن نريد وسائله بالطبع، ووسائله أن نتعلم. كما يتعلم الأوربى، ونشعر كما يشعر الأوربى، ونحكم كما يحكم الأوربى، ثم لنعمل كما يعمل الأوربى، ونصرف الحياة كما يصرفها"[١].

نعيق البوم هذا الذى أطلقه هذا الرجل الذى أراد أن يكون المسلم صورة مشوهة من الأوربى، ليس فى طريقة التعليم فقط، بل فى الشعور الداخلى نفسه، فإذا كان الأوربى يشعر للصليب بقداسة، ويقر فى وجدانه أن المسيح شريك الله رب العالمين ـ سبحان الله عما يشركون ـ فالرجل يطلب من المسلمين أن يشعروا بنفس المشاعر؛ ثم إذا كان الأوربى لا يجد حرجًا فى أن تخرج امرأته وابنته للمراقص والمشارب، ولا بأس عنده أن تراقص جارها طوال الليل فى الحانات وسط الكاس والطاس، فإن الرجل يطلب من المسلمين ذلك.

---

(١) ج: ١ ـ ص: ٤٩، ٥٠.

هذا وأمثاله كانوا من الأسباب المباشرة التى أدت ـ ليس إلى انتقال المذاهب الفكرية إلى مجتمعاتنا المسلمة ـ بل إلى نشرها وإشاعتها وإذاعتها قدر ما استطاعوا.

هذه أهم العوامل الذاتية التى أدت إلى انتقال المذاهب الفكرية المادية إلى المجتمعات الإسلامية، أو ساعدت على ذلك، وقد نكون أهملنا عوامل أخرى على جانب من التأثير فى انتقال هذه المذاهب إلينا، لكن إهمالنا بعض العوامل لا يعنى جهلنا بها أو غفلتنا عنها، لكنه يعنى أنها دون غيرها فى الأهمية، أو أنها من الوضوح بحيث لا يحتاج الأمر إلى ذكرها والتنبيه إليها.

وعلى سبيل المثال؛ ذلكم العامل الواضح البين الذى يتمثل فى ضعف المسلمين سياسيًّا واقتصاديًّا وعلميًّا، وما ترتب على ذلك من تخلفهم عن ركب التقدم العلمى التقنى، واكتفائهم بالعيش عالة يتكففون الغرب علومه وتقنياته وأجهزته التى لا يخلو منها بيت مسلم، حتى إن المسلم ليقف على المصلَّى يؤدى فريضة الله التى هى عماد الدين، فتقع عينه على كلمات كتبت على نسيج المصلى تقول: صنع فى الصين.. أليس هذا من أعجب ما حل بالمسلين؟ الصين الشيوعية، الأيدى الماركسية النجسة هى التى تصنع للمسلم مصلاه، وتقدم إليه مسجده، أى مكان سجوده.. إلى هذا الحد من التواكل، بل إلى هذا المستوى من التعيُّل، صرنا عيالاً على الغرب النصرانى، والشرق الشيوعى فى كل شىء.. وهذا الضعف فى شتى مجالات الحياة هو الذى جعل الأمة المسلمة مقصد الاستعمار العسكرى الغربى أولاً، ثم الاستعمار الفكرى ثانيًا، بل إن الضعف الذى منى به المسلمون وصل بهم إلى أن صاروا مطمعًا لأنجس خلق الله من مشردى العالم وشذاذ الخلق، من اليهود، الذين يواصلون اعتداءاتهم صباح مساء على المسلمين فى أوطانهم، ودينهم ومقدساتهم وكرامتهم. كل ذلك، وغيره كثير يمكن الحديث عنه ضمن العوامل الذاتية، لكنه من الوضوح والبيان والشهرة بحيث ما يحتاج إلى الحديث عنه، أو التنبيه إليه.

النوع الثانى
عوامل خارجية

ونقصد بالعوامل الخارجية ما لا يرجع إلى المجتمعات الإسلامية ذاتها، وإنما يرجع إلى عوامل وأمور خارجة عنها، لكنا نذكر بما قلناه قبلاً، من أن العوامل الخارجية إنما أثرت وتؤثر فى المجتمعات لضعف تلك المجتمعات أولاً، وفى تحكم الآخرين فى كثير من شئونهم ثانيًا، ولو أن المجتمعات الإسلامية لم تكن ضعيفة، معتمدة على غيرها فى كثير من شئونها الحياتية، ما كان للعوامل الخارجية التى سنذكرها ـ بحول الله تَعَالَى ـ تأثير فيها، أو لم يكن لها ذلك التأثير المدمر عليها.

وأهم تلك العوامل الخارجية:

١ ـ الغزو العسكرى

والغزو العسكرى ابتليت به الأمة المسلمة عندما ضعفت فهانت، فتطلعت إليها نفوس الغرب النصرانى الطامعة فى ثرواتها وخيراتها، ثم فى مواقعها الإستراتيجية على خارطة العالم، ثم فى جعلها سوقًا لتصريف منتجات المستعمر من السلع الاستهلاكية التى أضحى توافرها ـ وقتذاك ـ وكثرتها يمثل مشكلة كبيرة تهدد الاقتصاد الناشىء، وذلك بعد الثورة الصناعية، وشيوع الإنتاج الآلى الذى زاد على الطلب فى بلاده، وأضحت البلاد الصناعية بحاجة إلى البحث عن أسواق لتصريف منتجاتها وبالأسعار التى تحددها هى فكان التفكير فى غزو البلاد الإسلامية الضعيفة للأهداف التى ذكرناها، ثم من قبل ذلك كله ومن بعده للتنفيس عن أحقاد قديمة ظلت تأكل أكباد اليهود والنصارى منذ طرد المسلمون اليهود الأنجاس من جزيرة العَرب، ثم فتح الله ـ تَعَالَى ـ عليهم بلاد الروم وولاياتها التى كانت تدين بالنصرانية، مرورًا بفتح المسلمين الأندلس، والقسطنطينية ودول البلقان، إلى غير ذلك من تلكم الفتوحات الإسلامية التى كانت تزيد نيران الحقد، وتذكى الضغائن فى قلوب اليهود والنصارى الذين ما إن وجدوا المسلمين على حال من الضعف، حتى هبوا يستولون على بلادهم، ويحققون تلكم الأهداف التى أشرنا

إلى أهمها. وقد وصل الأمر من ضعف المسلمين إلى الحد الذى جعل المستعمرين يتنافسون فيما بينهم؛ أيهم يكون أسرع من الآخر لالتهام أكبر قدر من أرض الإسلام. مما أدى بالمستعمرين إلى أن يجلسوا على المائدة ليتقاسموا التركة التى ورثها إياهم ضعف المسلمين وهوانهم على أنفسهم أولاً ثم على تلك الأمم النصرانية.

ولما لم يكن اليهود الأخباث قادرين على الغزو العسكرى لديار المسلمين ـ وقتذاك ـ ؛ فقد اكتفوا بأن ينفثوا عن أحقادهم ضد الإسلام والمسلمين بتشجيع الغزاة النصارى أولاً، ثم بمدهم بالمال والسلاح ثانيًا، وقد عرف الغزاة النصارى فى الغرب ذلك الفضل، وهذه اليد لليهود، فردوها إليهم، وجازوهم على ذلك أن أقطعوهم أرض فلسطين التى منحتهم إياها بريطانيا، ومن خلف بريطانيا العالم الصليبى كله.

وقد كانت الحملات العسكرية الأوربية يرافقها العلماء والخبراء فى كل علم وفن، وبخاصة فى الأديان وعلوم الاجتماع والفلسفة، وكانت مهمة هؤلاء دراسة المجتمعات الإسلامية لتحديد نقاط قوتها ونقاط ضعفها، ثم وضع الخطط للتغلب على نقاط القوة، واستغلال نقاط الضعف لينفذ من خلالها هؤلاء المفسدون الصليبيون لإفساد تلك المجتمعات، وإحلال مذاهبهم المادية الإلحادية محل الإسلام فيها.

٢ ـ الغزو الفكرى:

والغزو الفكرى يعنى: محاولة زرع وبث أفكار ومعتقدات فى مجتمع مَّا، هذه الأفكار والمعتقدات غريبة عن ذلك المجتمع، تعادى دينه وقيمه وتعمل على تخريبه من الداخل.

والغزو الفكرى يمثل أخطر وأخبث أنواع غزو المجتمعات البشرية والتسلط عليها، لأن الإنسان إنما يسلك فى حياته على مقتضى ما يقر فى عقله من أفكار، وما فى قلبه من معتقدات، فإذا ما استطاع العدو أن يزرع فى قلوب الناس فى مجتمع مَّا الأفكار والمعتقدات التى يريدها، فإنه يكون قد ضمن أن ينقاد له ذلك المجتمع، ويحقق ما يريده العدو من أهداف، دون أن يتجشم العدو أدنى عناء، فإن أفراد

المجتمع إذا نجح العدو فى غزوهم فكريًا وعقديًا، فقد أضحوا تابعين مخلصين، ينقادون له صمًّا عميًا كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها.

والغزو الفكرى أخطر من الغزو العسكرى لأمور:

١ ـ أنه أشد تأثيرًا فى الشعوب، لأنه يقودها من قلوبها وعقولها، فهى تنفذ أهداف الغزاة طواعية واختيارًا، والمستعمر مستريح لا يبذل عناء، ولا يتكلف مشقة.

٢ ـ أنه أطول أمدًا فتأثيره يظل عشرات السنين ومئاتها، ونظرًا لاحتلاله عقول وقلوب الناس، ومن ثم فلا يجد مقاومة من الناس ولا مدافعة.

٣ ـ أنه أقل تكلفة من الغزو العسكرى الذى يكلف الكثير من الأموال والدماء والطاقات.

ولقد شهدت الأمة المسلمة غزوات فكرية عديدة عبر تاريخها الطويل، كان من أولى هذه الغزوات الفكرية تلك الفتنة التى أثارها ابن السَّوْداء عبد الله بن سبأ، ـ عليه لعنة الله ـ وما كان لها من آثار.

ومن تلك الغزوات محاولات أعداء الإسلام بث الأحاديث الموضوعة فى سنة رسول الله ﷺ لكن هذه المحاولات باءت بالفشل تحت الجهود الصادقة الموفقة لعلماء الحديث ـ جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خيرًا ـ.

كما تصدى علماء التفسير ـ وما يزالون ـ لما أقحم فى التفسير من الإسرائيليات، لتنقية تفسير كتاب الله ـ تَعَالَى ـ من هذه السموم التى دست فى بعض هذه التفاسير.

لكن أعداء الإسلام لم ييأسوا، فقد حاولوا القضاء على الإسلام عسكريًا، فباءوا بالخسران فى معارك الصليبيين، والتتر، ثم فى العصر الحديث عندما استعمر الإنجليز والفرنسيون والإيطاليون البلاد المسلمة، وظنوا أنهم ألقوا عصا الترحال فى تلك البلاد إلى الأبد، لكن شعوب تلك البلاد لم يقر لها قرار حتى ردتهم إلى بلادهم خائبين.

لكن محاولاتهم الفاشلة عسكريًا لم تقعدهم عن محاولات غزو بلاد المسلمين

فكريا، بل إن الغزو الفكرى لهذه البلاد المسلمة بدأ مع الغزو العسكرى، وربما قبله بقليل، كعمل من أعمال تهيئة المناخ للغزو العسكرى، ثم مع وجود الغزو العسكرى فى تلك البلاد بدأ الغزو الفكرى يأخذ طابع الجدّ، إدراكًا من المستعمرين أنه لا أمل لهم فى البقاء فى تلك البلاد إلا بإقناع شعوبها بأهمية وجودهم وبقائهم، وتحويل تلك الشعوب إلى تابعة لهم، راغبة فى بقائهم، يضاف إلى ذلك أن المستعمر ما أن يحل ببلد حتى يبدأ فى اصطناع الأذناب والأعوان والعملاء، من أهل هذه البلاد، الذين لا يهمهم سوى الجاه والمال والمناصب، ولو على حساب وطنهم ودينهم وأهليهم.

ويظل الأمر كذلك طيلة وجود الغزو والغزاة، يبث الغزاة أفكارهم ومعتقداتهم، بكل وسيلة وبخاصة عن طريق التعليم، ثم وسائل الإعلام بأشكالها، كذلك يصطنعون العملاء والأذناب، وعامًا بعد عام يألف الناس وجود الغزاة، كما يألفون أفكارهم ومذاهبهم، ويألفون ـ بخاصة ـ سلوكهم فى مأكلهم ومشاربهم ومباذلهم.

إذا أضفنا إلى ذلك أن المستعمر الغازى لبلاد المسلمين لا يعمل على غزو تلك البلاد فكريًّا بصورة ارتجالية، ولكنه يفعل ذلك بناء على مشورة العلماء الذين أحضرهم معه لدراسة أحوال هذه البلاد من جميع جوانبها، وبخاصة الإنسانية منها، مثل الاجتماع والمذاهب والعقائد والاقتصاد، ثم تقديم المشورة له لغزوها فكريًّا على أسس علمية مدروسة.

إذا نحن استحضرنا هذا، أدركنا مدى خطورة الغزو الفكرى، ومدى فاعليته فى نشر المذاهب الفكرية المادية الملحدة فى البلاد الإسلامية، وأدركنا ـ كذلك ـ أن المستعمر الذى فشل فى البقاء فى البلاد المسلمة بجيوشه، قد استطاع أن يبقى فيها بأفكاره وسلوكه ومذاهبه المادية المدمرة.

لكن من فضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن الشعوب المسلمة بمعونة من الله ـ عز وجل ـ ثم بفضل دين الله الإسلام الذى تدين به الأمة، قد استطاعت أن تكتشف زيف هذه المذاهب، وضلال تلك المعتقدات، وهى تحاول جاهدة التخلص منها،

لكن يعوقها هؤلاء الذين تربوا فى أحضان العدوّ الغازى، وتشربوا مذاهبه ومعتقداته، وصاروا ينطقون بلسانه، ويضربون بسيفه، أقصد عملاء المستعمر وأذنابه . هؤلاء الذين يدافعون عن فكره ومذاهبه التى جاء بها إلى البلاد المسلمة، والأمل فى الله ـ سبحانه ـ أن ينجى الأمة من شرور هذه المذاهب، وأن يقضى عليها وعلى كل الداعين إليها.

٣ ـ سهولة الاتصال بين الأمم والشعوب، وتوفر وسائله:

كانت الأمم والشعوب قديمًا تعيش كأنها قارات منفصلة، لا تدرى أمة ما يجرى لدى الأمة الأخرى، ولا يحس شعب بأحوال الشعوب البعيدة عنه، ذلكم أن وسائل الاتصال كانت صعبة أو مستحيلة، لذلك كان التأثر والتأثير بين هذه الشعوب، وتلك الأمم معدومًا، أو يكاد، نتيجة لجهل كل أمة أو شعب بما يجرى فى الجانب الآخر من شعوب وأمم.

لكن العصر الذى نعيشه توفرت فيه وسائل الاتصال مما جعله سهلاً ميسورًا، ومما جعل العالم الواسع كأنه قرية صغيرة ـ كما يقال ـ ولم تعد أمة بمعزل عن الأمم الأخرى، ولا شعب بمنأى عما يجرى لدى الشعوب المختلفة، وأضحى ما يجرى فى شرق الدنيا، يقرأه ويسمعه ويراه من فى غربها فى نفس اللحظة التى يذاع فيها هناك أو ينشر، وقد ساعد على ذلك وسائل الإعلام المختلفة، فالإذاعة والتلفاز، وقنوات البث والنشر، فيما يسمى بالأقمار الصناعية، ثم الصحف اليومية التى لم يقف العلم لما فيها على قراءتها، بل يبث ما فيها عبر الإذاعة والتلفاز، ثم الكتب، ثم الأفلام السينمائية، وما أدراك ما قوة تأثيرها الهدام فى نفوس الذين يشاهدونها، وقد نقلتهم إلى أجواء مغايرة وسلبتهم عن أنفسهم ساعات طويلة تزرع فيهم عادات وتقاليد ومذاهب وأفكار، درس تأثيرها على المشاهد بصورة علمية، بحيث يخرج المشاهد وقد اقتنع بما عرض عليه، بل وفى قرارته يتمنى أن لو استطاع أن ينقل الذى رآه إلى بلده، وأن يكون هو واحدًا من الذين كانوا يصطنعون الأحداث داخل الفيلم.

نقول إن كل هذه الوسائل التى يسرت سبل الاتصال، يسرت فى نفس الوقت

سبل التأثر بها لدى الآخرين من مذاهب وأفكار، وبالنسبة إلى المجتمعات الإسلامية، فقد تأثرت بتلك الوسائل التى نقلت إليها هذه المذاهب بصورة براقة مضيئة. وقد أحاطت بها هالة من الدعاية الزائفة التى تخيل لمن يطلع عليها أن جميع مشكلاته سوف تحل إن هو طبق هذه المذاهب، بل إن مشكلاته لن تحل إلا بالأخذ بها، وأنها السبيل إلى التقدم والرخاء والرفاهية والأمن والأمان، إلى آخر هذه الشعارات والألفاظ الخالية من كل معنى، بل التى تعنى نقيض ما تنطق به تمامًا.

٤ ـ وجود أقليات غير مسلمة فى دول المسلمين، وبين شعوبهم:

هذه الطوائف التى "قويت شوكتها داخل شعوب الأمة الإسلامية، واشتد ظهرها بمناصرة الدول الاستعمارية الغربية والشرقية لها سرًّا وعلنًا، وتمكينها من أخطر مراكز الإدارة، ومن القوة العسكرية فى البلاد.

ومع هذه الطوائف غير المسلمة من نصارى ويهود، طوائف أخرى من الذين ارتدوا عن الإسلام من أبناء المسلمين ظاهرًا وباطنًا، أو باطنًا فقط، مع التستر الظاهرى بقناع الانتماء إلى الإسلام والمسلمين، مخادعة ونفاقًا.

ومع هؤلاء وأولئك طوائف من الأُجَراء الذين يعملون لحساب الأعداء من مختلف طبقات الأمة، وأنواع تخصصاتها.

وقد كان لهذا السبب تأثيره الكبير حين تخلف المسلمون، وضعفت قواهم الإدارية والسياسية والعسكرية، واستهانت جماهيرهم بأمر الإسلام والمسلمين، وانصرف كل إلى شئونه ومصالحه الخاصة، هناك تسلل أفراد من الطوائف غير المسلمة، وكذلك تسلل كثير من المرتدين عن الإسلام، وتسلل ـ كذلك ـ الأجراء والعملاء وأذناب الدول الاستعمارية إلى مراكز الإدارة والحكم والتوجيه. وأمسكوا بكافة المراكز الحساسة المؤثرة فى الدول المسلمة، يوجهونها الوجهة التى تحقق أغراضهم وأهدافهم التى هى فى نفس الوقت أغراض وأهداف أعداء الإسلام.

بعض هذه الطوائف غير الإسلامية فى البلاد الإسلامية، يعتبرون أنفسهم أصحاب البلاد الأصليين، ويعتبرون العرب والمسلمين دخلاء عليهم، غاصبين أرضهم وديارهم، ويرون ضرورة العمل على القضاء على الإسلام والمسلمين فى تلك الديار، وهم يعملون لذلك بكل وسيلة ممكنة، ويضعون المخططات لتحقيق ذلك، ومن مخططهم العمل بجد على تكثير نسلهم، بينما يبثون الدعوة بين أوساط المسلمين ليحد المسلمون من نسلهم، وبين تكثير نسلهم هم، والحد من نسل المسلمين يأملون أن يضاهئوا المسلمين فى العدد بعد سنوات محسوبة لديهم فى مخططاتهم تلك.

وأعداء المسلمين هؤلاء سواء من الأقليات غير الإسلامية من يهود ونصارى، ثم من المرتدين عن الإسلام علانية، أو الذين ارتدوا سرًّا وأخفوا ردتهم، هؤلاء وأولئك يأكل الحقد والضغينة أكبادهم على الإسلام والمسلمين، لذلك يسخرون أنفسهم للعمل بكل وسيلة تضر بالبلاد المسلمة وأهلها، من ذلك نراهم جواسيس للأعداء، ومعاونين لهم فى تنفيذ أهدافهم، من محاولات القضاء على الإسلام، بتشويهه، وزرع المذاهب الفكرية الهدامة الملحدة فى تلك البلاد لتزاحم الإسلام فى دياره، ولتقضى على صفائه ونقائه، إن لم تقض عليه كلية.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

٥ ـ البعثات الخارجية لأبناء المسلمين إلى الغرب الصليبى:

كثيرًا ما يذهب أبناء المسلمين إلى الغرب النصرانى للحصول على الدرجات العلمية أو الخبرات العملية فى بعض الجوانب التقنية، وهؤلاء يذهب البعض منهم على نفقة دولته أو نفقته هو، وغالبًا ما يكون بمأمن من الضغوط النصرانية التى تمارس ضده، لكن الكثيرين من الدارسين هناك يذهبون بمقتضى "مِنَح دراسية أجنبية"، أى: يذهبون على نفقه الجامعات الغربية فى دول الغرب الصليبى. وهؤلاء الطلاب كثيرًا ما يمارس ضدهم ضغوط مختلفة، وكثيرًا ما يهددون بإلغاء بعثاتهم، وحجب منحهم، وبخاصة بعد أن يكونوا قضوا سنوات فى الدراسة وأوشكوا على

الانتهاء منها والحصول على الدرجة العلمية التى ذهبوا للحصول عليها، والهدف من الضغوط عليهم أن يظهروا نوعًا من "المرونة" والاستجابة لمقتضيات الحضارة هناك، والأخذ بسلوكيات القوم وأخلاقهم، والمشاركة فى حفلاتهم ورحلاتهم وما يجرى فيها من مفاسد وانحلال عن عرى الدين والخلق، وشيئًا فشيئًا تتحول "المرونة والاستجابة" إلى "اندماج" أو ما يسمونه: "التكيف" مع المجتمع الجديد، فإذا ما مضى على الدارس المسلم هناك سنوات وهو يزاول هذا التكيف والاندماج والاستجابة لظروف البيئة الاجتماعية الغربية، فماذا تكون حاله حين يعود إلى وطنه المسلم وبيئته العربية، وقومه المؤمنين الملتزمين؟!

إننا لا نعمم الأحكام هنا، ولا نقول إن جميع طلابنا الدارسين على نفقة المنح الأجنبية أو غيرها هم من "المتكيفين" المندمجين فى تلك المجتمعات، فإن هناك مثلاً رائعة للطالب المسلم الذى ذهب إلى هناك للدراسة، فلم ينس مهمته الأولى، ولا رسالته الأصلية التى هى الدعوة إلى الله ـ سبحانه ـ وتوضيح حقيقة الإسلام للذين خدعوا بدعايات الصليبيين التى تشوه الإسلام فى عيون الغربيين، والكثيرون من هؤلاء الطلاب الملتزمين كانوا سبلاً هادية أسلم على أيديهم كثير من النصارى فى تلك البلاد،ونصر الله ـ تَعَالَى ـ بهم دينه فى تلك المجتمعات.

لكنا مع هذه المثل لا ننسى أن من أوائل الدعاة إلى "التغريب" أى السير وراء الغرب النصرانى فى ثقافته وحضارته ومباذله ومفاسده، إنما كان "رفاعة رافع الطهطاوى" الذى أرسله وَالى مصر ليتعلم الهندسة هناك فى فرنسا، فجاء من فرنسا بالهندسة فى عقله، وبالحضارة الغربية، والسلوك الغربى، والخلق الغربى فى قلبه، جاء من هناك يعظم من شأن الغرب وحضارته وثقافته وسلوكياته، ومن هذا الذى فتن به سفور المرأة ورقتها ومشاركتها فى المجتمعات، وتحملها المسئوليات والأعباء خارج بيتها... إلى آخر هذه الأمور التى جاء يدعو إليها.

وكان من أوائل ما اهتم بالكتابة فيه بعد عودته كتابه الشهير: "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" وباريز هى باريس، ونقل فى كتابه كل ما شاقه وراعه واستولى على لبه فى البلاد الفرنساوية.

كذلكم كان من دعاة التغريب الذين كان لهم الباع الطويل فى نشر المذاهب المادية الملحدة فى شرقنا الإسلامى المستغرب الشهير: "طه حسين" الذى كان حربًا جسورًا على الإسلام والمسلمين، وتابعًا ذليلاً خنوعًا أمام الغربيين الصليبيين، وهو الذى فتح الباب على سعته للمستشرقين النصارى الذين جاءوا ليدرسوا لطلاب المسلمين فى الجامعة المصرية، وفى نواتها الأولى "كلية الآداب" فحصر التدريس فيها لهؤلاء المستشرقين، أو كاد، وكان المستشرقون هؤلاء يجهرون بالتهجم على الإسلام، ونبى الإسلام، وينقدون القرآن، ويخرجون طلابًا درسوا تلك الأفكار، وكان هؤلاء الطلاب نواة الفساد الفكرى، وبذور العلمانية والإلحاد فى مصر، ومن قبل "طه حسين" كان "أحمد لطفى السيد" وكان أحمد أمين، ثم قاسم أمين، ثم على عبد الرازق، وغير هؤلاء كثيرون، لم يغرس الغرب فيهم علومه، بل غرس فى قلوبهم إلحاده وعداوته للإسلام، ثم أطلقهم بعد ذلك يَنْبَحُونَ بلسانه، ويفكرون بعقله وينفذون مخططاته.

إننا لا ندعو إلى إغلاق باب الانبعاث إلى الخارج طلبًا للعلم، ما دامت هناك ضرورة ملحة لذلك، لكنا نرى قصر ذلك عند الحد الأدنى، وفى حدود الضرورة الماسة، على أن يختار لذلك الطلاب الذين نثق فى دينهم، وصلابة خلقهم، وقوة التزامهم، وأن يكون نصب أعيننا ونحن نتقيهم أنهم دعاة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ قبل أن يكونوا دارسين، وأنهم جنود على ثغور الإسلام قبل أن يكونوا طلاب علم وراغبى معرفة. فإذا نحن أَحْسَنَّا ذلك، فإن الانبعاث إلى الخارج آنذاك، يكون سبيل رشد لا غى، وفاتحة خير لا شر، ووسيلة إلى النفع فى جميع المجالات وليس إلى الضر.

٦ ـ وجود المؤسسات اليهودية المشبوهة فى المجتمعات الإسلامية:

وهذه المؤسسات هى التى يطلق عليها ناديًا أو جمعية من مثل: "نوادى الروتارى" و"نوادى الليونز" وجمعيات "الماسونية"، وما إلى ذلك من جمعيات ونواد همها الأول والأخير هدم الإسلام وإيذاء المسلمين، وهذه النوادى والجمعيات منذ أنشئت وهى تقوم على تحقيق أهداف اليهود التى أولها هدم الأديان، وتحديدًا هدم الإسلام الذى يزعم اليهود أنه شرد يهود المدينة، وزرع فى قلوب أتباعه المسلمين كراهيتهم وأنه يقوم على أساس أن اليهود هم أخبث الأمم بل الخلق أجمعين.

وهذه الجمعيات والنوادى تجعل من الأنشطة الاجتماعية، والأعمال الخيرية ستارًا لها تعمل من ورائها على تحقيق أهدافها فى نشر الإلحاد وهدم الأديان، وأولها الإسلام ـ كما ذكرنا ـ وهذا يتضح من خلال الأفكار والمبادىء التى تقوم عليها تلك النوادى، وأهم هذه المبادىء ما يلى:

١ ـ **طرح الأديان من الاعتبار تمامًا**، وعدم الاهتمام بالدين فى اختيار الأعضاء، وكذلك فى العلاقات بين الأعضاء بعضهم مع البعض.

٢ ـ **وكما أنهم طرحوا الدين من اعتبارهم**، وأخرجوه عن حوزة اهتماماتهم، كذلك طرحوا الوطن، فليس للوطن الذى ينتمى إليه العضو قيمة أو اهتمام.

وهذان المبدآن يبينان أن الأعضاء الذين يختارون لهذه النوادى عليهم أن ينخلعوا من أديانهم وأوطانهم، فيكونون بلا دين ولا وطن، وإذا كان الدين لدى المسلم هو ذاتيته، ومحور وجوده، ومركز هويته، وهو كذلك وطنه، ثم فرضت عليه هذه النوادى أن ينخلع عن كل ذلك؛ فماذا بقى له كإنسان؟ ماذا بقى لهؤلاء الذين ينتمون إلى هذه النوادى من المسلمين المخدوعين؟ إذا كان أول مبادىء هذه النوادى طرح الإسلام جانبًا، والتخلى عنه، وعدم اعتباره أو الاهتمام به؟

على أننا يجب أن نعرف أن طرح الدين والوطن لدى الأعضاء إنما يتم ـ فقط ـ بالنسبة للأعضاء المتسبين المخدوعين من المسلمين، أما المؤسسون لهذه النوادى من اليهود ومن يشايعهم من الصليبيين، فإنهم يعضون على أديانهم وأوطانهم، لأنهم ما أقاموا هذه النوادى إلا لخدمة اليهودية العالمية أولاً، ثم الصليبية بعد ذلك. وليس فى مواجهة الاثنين إلا الإسلام المبتلى فى بعض أتباعه الذين ينخدعون بأساليب اليهود الخبيثة.

ومما يدل على طرحهم الأديان من الاعتبار المبدأ التالى:

٣ ـ **تخلط هذه النوادى الأديان بعضها مع البعض دون تمييز بين حق وباطل**، أو بين كتابى ووضعى، وتجعلها كلها على قدم المساواة، فليس بينها حق وباطل، بل هى كلها متماثلة لا فرق بينها، ولذلك تضعها فى قائمة أو ثبت، مرتبة ترتيبًا أبجديًا، ثم تلقن أفرادها تلك القائمة مع إقرارهم بأن الجميع على قدم المساواة، وترتيبهم هكذا: البوذية ـ المسيحية ـ الكونفوشيوسية ـ الهندوكية ـ اليهودية ـ المحمدية ـ . ويلاحظ أن الأديان فى تلك القائمة تأتى بأسمائها الصحيحة لدى أصحابها، سوى الإسلام، فإنهم يرفضون تسميته كذلك، بل يصرون على تسميته "المحمدية MOHAMMADISM" وواضح أن هذا إصرار من الذين وضعوا تلك القائمة على أن الإسلام من وضع محمد ﷺ وليس وحيًا إلهيًا، وإقرار بذلك من المسلمين الذين ينتمون إلى هذه النوادى.

٤ ـ **مما يوضح صلة هذه النوادى بالماسونية العالمية**، أنها تشترط أن يكون أكثر من ثلث الأعضاء من المنتمين أصلاً إلى الماسونية العالمية، وهذا يعنى أن الأسماء المتعددة: روتارى ـ ليونز ـ أو غير ذلك إنما هى واجهات كثيرة لبناء واحد وهى الماسونية، والماسونية أوضح من أن تعرف.

٥ ـ **تقوم أنشطة هذه النوادى على أساس المساواة التامة بين الرجال والنساء**، وعلى أرض الواقع تطبق هذه المساواة فى الرحلات، واللقاءات، والحفلات

الصاخبة التى يختلط فيها الجميع معبرين عن: "روح الانطلاق، والأخوة، والمساواة، والحرية" ويكفى بهذه الأسماء والشعارات دليلاً على ما يجرى باسمها.

٦ ـ تمنع هذه النوادى منعًا باتًا قبول أعضاء من ذوى الميول الدينية، أو ذوى الغيرة الوطنية، وذلك تطبيقًا لما بيناه قبلاً من أن من شروط العضوية الانخلاع عن الدين والوطن.

من أجل ذلك فقد أصدر المجمع الفقهى فى دورته الأولى المنعقدة بمكة المكرمة ـ حفظها الله ـ تعالى ـ بتاريخ العاشر من رمضان لعام ثمانية وتسعين وثلاثة مائة وألف قرارًا بين فيه: أن مبادىء حركات الماسونية، والليونز، والروتارى، تتناقض كليًّا وجزئيًا مع مبادىء وقواعد الإسلام.

وهذا القرار من المجمع الفقهى يكفى لبيان خطورة هذه النوادى، وبيان دورها الهدّام فى حرب الإسلام والمسلمين، وفى الوسائل الكثيرة التى تسلكها للوصول إلى أهدافها تلك، ومن أهمها نشر المذاهب الفكرية المادية، وإشاعة الاتجاهات الإلحادية فى المجتمعات الإسلامية.

* * *

المبحث الخامس

وسائل نشر المذاهب الفكرية المادية في المجتمعات الإسلامية

بعد أن بينا العوامل التى أدت إلى انتقال المذاهب الفكرية المادية إلى المجتمعات الإسلامية، ننتقل لنبين هنا الوسائل التى استعملها أعداء الإسلام والمسلمين لنشر هذه المذاهب فى المجتمعات المسلمة، ذلكم أن عوامل انتقالها سواء كانت ذاتية أو خارجية ما كان لها أن تؤدى إلى شيوع هذه المذاهب وذيوعها فى العالم الإسلامى بتلك الصورة التى رأيناها ونراها، من حيث إن هذه المذاهب ـ كما سبق أن ذكرنا ـ تتناقض تمامًا فى مبادئها ووسائلها وأهدافها مع الإسلام، ومناقضتها للإسلام ليس أمرًا خافيًا، ولا مستورًا، ولا هو بحاجة إلى كبير مجهود لإدراكه.

لكن هذه المذاهب المادية قد انتشرت فى الكثير من المجتمعات الإسلامية إن لم يكن فيها جميعها، رغم ذلك التناقض الواضح بينها وبين الإسلام، وذلك نتيجة للوسائل التى لجأ إليها أعداء الإسلام فى نشر هذه المذاهب بين المسلمين، والتى نشير فيما يلى إلى أهمها:

أولاً: تحديد المجتمعات المستهدفة:

الخطوة الأولى عند الذين يعملون على نشر هذه المذاهب وإشاعتها، إنما تكون بتحديد المجتمعات التى سوف يعملون على نشر هذه المذاهب بها، وإشاعتها بين أهلها، واختيار هذه المجتمعات إنما يقوم على أسس مدروسة أهمها:

١ ـ أن تكون هذه المجتمعات ذات خطر على الغرب النصرانى فى الدين، والاجتماع، والسياسة، والاقتصاد، أو فى بعض تلك الجوانب.

٢ ـ أن يكون فى نشر هذه المذاهب فى تلك المجتمعات لتخريبها إرضاء لما فى

نفوسهم، وشفاء لما فى صدورهم من أحقاد دفينة، وترات[١] موروثة قديمة وحديثة.

٣ ـ أن يترتب على نشر هذه المذاهب فى تلك المجتمعات تحويلها إلى تابعة مهينة ضعيفة للمجتمعات الغربية النصرانية، لأن نشر تلك المذاهب يزيدها ضعفًا ويباعد بينها وبين ذلك اليوم الذى تهب فيه من رقدتها، وتستعيد قوتها، وتستأنف رسالتها فى قيادة العالم.

وهذه الأمور كلها التى يهدف إليها الغرب من نشر تلك المذاهب إنما تنحصر فى المجتمعات الإسلامية.

فإنها هى ذات الخطر الواضح الدائم والداهم على المجتمعات الغربية النصرانية فى دينها، وفى أوضاعها الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، وليس من شك فى أن المسلمين يوم تتوفر لهم القوة والصدارة سوف يكون ذلك نذيرًا بانتهاء سيطرة الغرب على شئون الدول الأخرى، وليس على شئون المسلمين فقط.

كذلك فإن فى تخريب المجتمعات الإسلامية بنشر تلك المذاهب الهدامة فيها، سوف يشفى صدور الغرب الصليبى الذى ما زالت نار الحقد والمقت تأكل قلوبهم وتشوى أكبادهم منذ فتح الإسلام بلادهم بدءًا بالروم ومرورًا بالأندلس والقسطنطينية وبلاد البلقان، ودحرهم فى الحروب الصليبية، ثم طردهم من بلاد الإسلام بعد أن استعمروها ردحًا من الزمن فى الشام ومصر والمغرب العربى، كل ذلك أجج ويؤجج نيران الحقد التى تأكل صدورهم، وتجعلهم يضاعفون الجهد فى نشر المذاهب المادية الهدامة فى تلك المجتمعات الإسلامية، لعل ذلك يشفى أو يطفىء أحقادهم الصليبية على الإسلام والمسلمين.

إضافة إلى أن نشر هذه المذاهب بين المسلمين كفيل بأن يطيل من رقدتهم، ويمد فى نومهم، ويضاعف من تخلفهم، ويحولهم إلى تابعين للغرب النصرانى.

---

(١) وَتَرَ فُلانًا يَتِرُه وَتْرًا وتِرَةً: قتل حميمه، أو أدركه بمكروه. الاسم: وَتْرًا وتِرَةً، والجمع: تِرَاتٌ.

على أن نشر هذه المذاهب فى البلاد المسلمة سوف يضمن للغرب واحدًا من أمرين:

الأمر الأول: أن يقبل بعض المجتمعات الإسلامية هذه المذاهب، وتعمل على الأخذ بها، وتطبقها كليًّا أو جزئيًّا، وبذلك يضمن الغرب الصليبى والشيوعية الدولية تحقيق أهدافها كاملة، وتتحول تلك المجتمعات إلى تابعة ذليلة للغرب الصليبى أو الشيوعية الدولية، ويبدأ الإسلام فى تلك البلاد فى التراجع عن مراكز القيادة، وهذا أقصى ما يطمح إليه الأعداء.

الأمر الثانى: ألا تنتشر تلك المذاهب كليًّا، وألا تطبق جزئيًّا، بل يقبل عليها البعض، ويرفضها الأكثرون، وبذلك يضمن الأعداء أن تشيع الفوضى وعدم الاستقرار فى تلك المجتمعات نتيجة النزاع بين الفئات التى قبلت تلك المذاهب، والفئات التى لم تقبلها، وتفقد تلك المجتمعات السلام والأمان الاجتماعى، وهذا فى حد ذاته مربح لأعداء الإسلام.

ثانيًا: اصطناع المناخ المناسب:

والمراد بذلك تهيئة تلك المجتمعات فكريًّا ونفسيًّا لقبول هذه المذاهب، والأخذ بها. وهذا أهم جانب فى الموضوع كله، وقد قامت تهيئة المجتمعات الإسلامية لِتَقَبُّل هذه المذاهب على وسائل كثيرة أهمها:

١ ـ المنظمات التصيرية، أو كما يطلق عليها: "التبشيرية".

وهى منظمات تتزيَّى بأزياء مختلفة، وتخلع على نفسها صفات كثيرة براقة، وتتوسل بوسائل عديدة.

فمن وسائلها إنشاء العيادات الطبية، والمستوصفات، والمستشفيات، وبذل المساعدة للمرضى، وصرف الأدوية مجانًا لغير القادرين، وإظهار الاهتمام بهم، ثم زيارة بعض هؤلاء المرضى فى بيوتهم ممن يتوسم فيهم الاستجابة والاستعداد

لدعاوى التنصير، بل والمساعدة فى نشر ذلك، وبذل المكافآت المالية لهؤلاء تشجيعًا لهم.

وقد اكتسبت هذه المؤسسات النصرانية الصحية شهرة واسعة فى العناية بمرضاها والاهتمام بهم ومساعدتهم، مما أسس لها سمعة واسعة بين المستويات الشعبية، وقد ساعد على ذلك ما اشتهر عن المؤسسات الصحية الحكومية من إهمال وبطء، فصار المسلم يشكو إلى أخيه علة، فيقول له: اذهب إلى مؤسسة الراعى الصالح ـ على سبيل المثال ـ فهى أفضل مؤسسة، وبها أطباء وممرضون ممتازون.

ومن وسائلها إنشاء دور الإيواء للشيوخ المسنين والعجزة.

ومن وسائلها إنشاء دور الرعاية للأطفال الأيتام، الذين ينشئونهم على العقائد النصرانية، ومقت الإسلام والمسلمين.

ومن وسائلها انتهاز الفرص المتاحة بسبب الكوارث مثل الزلازل، والفيضانات، وانهيار المنازل، وانتشار الأوبئة، حيث يسارعون بإعلان حضورهم، ومشاركاتهم بتوزيع الأطعمة، والملابس، وخيام الإيواء.. إلى غير ذلك.

٢ ـ المؤسسات التعليمية الأجنبية:

وهذه تبدأ من حضانات الأطفال، حتى الجامعات، مرورًا بالتعليم الابتدائى، والإعدادى والثانوى، ثم الجامعى بما فيه الإعداد للحصول على الدرجات العلمية: الماجستير والدكتوراه، وللحصول على هذه الدرجات غالبًا ما يبعثون بالطلاب الذين يتعلمون فى مؤسساتهم إلى الجامعات الغربية بإنجلترا أو فرنسا أو أمريكا، ويكون سفرهم إلى تلك الجامعات مكملاً لعمل المدارس النصرانية فى بلادهم، من تنصير هؤلاء الطلاب، أو ردتهم عن الدين الإسلامى، وإقناعهم بالمذاهب الفكرية المادية.

ومن الأمور المحزنة أن المدارس الأجنبية لا يقصدها إلا أبناء العلية فى المناصب، أو فى الثراء والجاه، وهؤلاء يتنافسون على إدخال أولادهم تلك المدارس الصليبية،

وكلما غالت تلك المدارس فى طلباتها المالية من تلاميذها ازدادت رغبات الأثرياء من الوزراء والتجار وغيرهم فى إلحاق أولادهم بها، بل إن إلحاق الأولاد بهذه المدارس أضحى مفخرة لهم ولآبائهم، يتشدقون بها فى المجتمعات دليل الغنى والجاه ورفعة المكانة.

ومن هذه المؤسسات العريقة فى التَنصير وإفساد الدين والخلق الجامعة الأمريكية، التى كانت مؤسسة تنصيرية، ثم تزيت بزى العلم وانتقل اسمها من "كلية فيكتوريا" إلى "الجامعة الأمريكية" تمويهًا، ومن هذه المدارس الشهيرة فى كثير من البلاد الإسلامية تلك المدارس التى تسبق أسماؤها بلفظة "سان" أو "سانت"، وهى كثيرة فى بلادنا.

٣ ـ الجمعيات المشبوهة التى تعمل لصالح الصليبية والصهيونية العالمية:

وهى جمعيات تتظاهر بالأنشطة الاجتماعية، بينما هى أخطر من السرطان فى جسم الأمة المسلمة، وذلك مثل: "نادى الروتارى" و"نادى الليونز" و"نوادى الماسونية العالمية". وقد سبق أن أشرنا إلى دور هذه النوادى فى تحطيم الأمة، وإفساد دينها وقيمها.

٤ ـ بعض الأديرة النصرانية فى كثير من بلاد المسلمين، وما لها من أنشطة اجتماعية أو ثقافية:

ومن خلال تلك الأنشطة يبثون سمومهم فى عقول ونفوس المتصلين بهم من المسلمين طلابًا ومثقفين.

وذلك مثل دير الآباء الدومينيكان بالقاهرة، الذى يحتوى على مكتبة من أكبر المكتبات الموجودة بالقاهرة، ومن أفضلها تنظيمًا وخدمات، وفى هذه المكتبة، ومن بين جدران هذا الدير، تخرج أعتى عتاة العلمانيين والملاحدة الذين حاربوا ـ وما يزالون يحاربون ـ الإسلام، ويكنون الحقد والعداء للمسلمين.

ثالثًا: إعداد الجنود المأجورين، والعملاء الخائنين داخل المجتمعات الإسلامية:

ومن أهم الوسائل التى يعتمد عليها أعداء الإسلام فى نشر المذاهب الفكرية المادية فى المجتمعات الإسلامية، هم العملاء الخونة لدينهم ووطنهم، من بين الذين يظهرون أمام الناس على أنهم مسلمون، وهم فى واقع الأمر خائنون لدينهم، ولأمتهم، ولأوطانهم، وهؤلاء أشد خطرًا على الأمة وعلى الدين من الأعداء أنفسهم، لأن المسلم بفطرته ينفر من الكافر ويتقيه ويحذر منه، لكن لا يحذر من مسلم مثله، وبخاصة إذا اتخذ هذا المسلم صفة العالم الباحث المجتهد، وهذه سمة هؤلاء الخونة المأجورين، فإنهم يتخذون سمت العلماء الجادين، ثم يخرجون على الناس ـ تحت شعار البحث والاجتهاد ـ بآراء تهدم الدين، والخلق، وتنشر الفساد والكفر والضلال.

والأمثلة على هؤلاء كثيرة، وأحدثهم المرتد عن دين الله "نصر حامد أبو زيد" الذى حكم القضاء المصرى بردَّته عن دين الله، وبوجوب التفريق بينه وبين زوجته المسلمة، وإن كانت هى قد استمسكت بالعيش معه، وأعلنت أنها على دينه، فأضحت مستحقة نفس الحكم الذى أصدره القضاء ضد زوجها المرتد.

ومن خطط الأعداء إبراز هؤلاء العلمانيين من الخونة المأجورين، ودفعهم إلى الصفوف الأولى فى المجتمعات الإسلامية من حيث المناصب، والمؤسسات ذات التأثير فى الجماهير المسلمة، وكذلك إضفاء هالة من الشهرة وسعة العلم، وقوة الذكاء، والفهم على هؤلاء كمثل ما فعلوا بطه حسين، وأحمد لطفى السيد.

ومن الأمور ذات المغزى التى لا تخفى على الفاهم، أن نجيب محفوظ هذا له روايات قصصية كثيرة، وبعضها فيه براعة وذكاء، ولكن القائمين على جائزة "نوبل" لم يمنحوه تلك الجائزة على إحدى رواياته الطويلة البارعة.. لكنهم منحوه الجائزة على رواية صغيرة تافهة ليس فيها نوع من فن القصص، أو براعة فى تأليف الوقائع والأحداث، وهى بكل المقاييس أضعف رواياته وأكثرها تفاهة، لكن الذى رشحها لنيل الجائزة أمر واحد له المغزى الذى نشير إليه، وهى أنها تتهجم على الله ـ

سبحانه ـ وأنبيائه منذ آدم حتى محمد ـ صلوات الله عَلَيْهِمْ أجمعين ـ وتظهرهم بمظهر المتسولين ـ والسكارى، والمنغمسين فى الرذائل، ثم تعلن الرواية فى نهايتها أنهم ذهبوا يبحثون عن الله ـ سبحانه ـ فلم يجدوه، بعد أن ظلوا ينتظرونه طوال أحداث الرواية ليأتى فينقذهم مما هم فيه، لكنه لا يتحرك من مكانه، ولا يمد لهم يد العون، لأمر بسيط، هو أنه غير موجود.

رابعًا: إظهار أصحاب المذاهب المادية الإلحادية بمظهر العلماء الأذكياء، ووضع هالة حولهم من الوقار والبحث الجاد، والإيحاء بأنهم من الدقة بحيث لا يتطرق إلى علومهم ومذاهبهم شىء من الخطأ.

وذلك مثل ما فعلوا ويفعلون مع: دارون ـ ماركس ـ فرويد ـ دور كايم.. وغيرهم، وهذا الصنيع يجعل الناس يقبلون على أفكار هؤلاء العلماء ومذاهبهم، ويأخذونها دون تمحيص أو تحليل ونقد، اعتمادًا على ما أشيع عن هؤلاء العلماء من الدقة وتحرى الصواب، والذكاء والفهم، وهى كلها أمور مصطنعة كاذبة، ومذاهبهم التى يزعمون أنها حق، بينها وبين الحق كمثل ما بين سماء الله وأرضه، ولكن أعداء الله يموهون على المسلمين ليوقعوا بهم أسرى المذاهب المادية الهدامة.

خامسًا: استغلال التعليم فى نشر المذاهب المادية الإلحادية:

والتعليم هو من أخطر تلك الوسائل، إن لم يكن أخطرها، ولذلك حظى بأكبر قدر من اهتمام دعاة الإلحاد ونشر هذه المذاهب المادية، وقد تحقق الكثير من أهدافهم فى هذا المجال عن طريق العملية التعليمية.

وقد قامت خططهم بالنسبة لتسخير التعليم لنشر مذاهبهم تلك على مرحلتين:

المرحلة الأولى: تتمثل فى إقامة نظامين من التعليم:

النظام الأول: التعليم الدينى؛ ويقصد به كل ما يتصل بالإسلام دين الله ـ سبحانه ـ من الدراسات المتصلة بالعقائد والعبادات، أو بالأصول والفروع ـ

كما يقال ـ ويدخل فى إطار ذلك التفسير والحديث واللغة العربية نحوها وصرفها وما يطيف بذلك من كتب السير والمغازى، وغيرها.

فهذه المواد الدراسية اختصوها بنظام تعليمى معين، سموه التعليم الدينى، ووضعوا هذا التعليم داخل مكاتب تحفيظ القرآن المجيد بداية، ثم ما يلى ذلك من المعاهد الدينية الأزهرية.

وقد أطلق على هذا النوع من التعليم ـ فيما بعد ـ التعليم الأزهرى، نظرًا لدخوله تحت مسئولية الأزهر، ولقيام الأزهر بالإشراف عليه والاهتمام به، وهذه التسمية: "التعليم الأزهرى" بدأت بمصر، نظرًا لأن نظام فصل التعليم إلى نوعين، كانت بدايته بمصر، ونظرًا لأن الأزهر مقره مصر، لكن هذا الإطلاق عمم فى كثير من البلاد العربية بعد ذلك نظرًا لأن الأزهر له فروع فى تلك البلاد، ولأن مبعوثى الأزهر كانوا من رواد التعليم فى هذه البلاد، وإن كان الغالب الآن على هذا النوع من التعليم مصطلح: "التعليم الدينى" وهو أدق فيما أريد له من الإطلاق الآخر: "التعليم الأزهرى" من حيث أن الأزهر قد تخلى عن دوره العظيم هذا ـ أو أخلى منه ـ منذ ما سمى "بقانون تطوير الأزهر".. وتلك خطة ثالثة من خطط الأعداء، لعلنا نتحدث عنها ـ بعد ذلك ـ بحول الله تَعَالَى ـ.

النظام الثانى: ما سمى بالتعليم المدنى؛ ويقصد به كل ما يتصل بالعلوم الرياضية والكيميائية، والفيزيائية، وعلوم الأحياء، وتخصصات الجغرافيا، والتاريخ العام، والجيولوجيا.. وما إلى ذلك من علوم تقوم عليها شئون الحياة من جوانبها المختلفة.

فهذه المواد والعلوم أبعدوها عن النظام الأول، وفصلوا بينها وبين التعليم الدينى، رغم أنها من ضرورات هذا التعليم، فإن الإسلام يحضنا على هذا النوع من التعليم، ويجعله فريضة على القادر عليه، من حيث إنه من ضرورات الحياة، ولقد كان رواد هذه العلوم هم الأوائل من العلماء المسلمين، وهم الذين فتحوا مغاليقها للعالم كله، وللغرب تحديدًا.

لكن خطة الأعداء هدفت من وراء هذا التقسيم إلى أمور خطيرة تحقق لها ما تريد من ضرب الإسلام، ونشر الإلحاد فى البلاد الإسلامية، وأهم هذه الأمور:

١ ـ الإيهام بأن الإسلام لا صلة بينه وبين علوم الحياة من تلك العلوم التى أشرنا إليها عند التعليم المدنى، وأن الإسلام يرفض هذه العلوم، ولا يهتم بها، بل إن أعداء الإسلام أغرقوا فى هذه الدعوى الباطلة، فأشاعوا ـ فى أحيان كثيرة ـ ولا يزالون ـ أن الإسلام يرى أن تعلم المواد التى أشرنا إليها مثل الرياضيات، والفيزياء والكيمياء.. وغيرها، كفر، وأن دراستها إلحاد، وأن من شأن المسلم أن يعكف على دراسة التفسير والحديث والفقه، وألا يضيع وقته فى دراسة هذه المواد المستوردة من بلاد الكافرين.

هكذا أشاعوا عن الإسلام، وكان تركيزهم فى نشر هذه الإشاعة بين غير المسلمين فى الغرب الصليبى، حتى يظهروا الإسلام أمام الغربيين بمظهر الدين الذى يدعو أتباعه إلى الجهل ومعاداة العلم والتعلم.

٢ ـ الحيلولة بين علماء الدين ودارسيه وهذه العلوم التى هى ضرورية لكل شأن من شئون الحياة، وبذلك يظهر علماء الدين، وكذلك دارسو العلوم الدينية بمظهر المتخلفين عن ركب الحياة، المعزولين عما هو ضرورى لها من علوم حديثة يحتاج إليها الناس فى الكثير من جوانب معايشهم.

٣ ـ عزل علماء الدين عن وظائف الدولة فى شتى مجالاتها، بحجة أنهم لم يتأهلوا لها، وإنما كل مؤهلاتهم فقه، وتفسير، وحديث، وسير، ومغازٍ، وهذه إنما تؤهلهم لأمرين اثنين: إمامة الناس فى الصلاة، ثم تدريس هذه المواد فى معاهد التعليم الدينى، أما شئون الناس والدولة فى كافة مرافقها، فلا يتولاها إلا أناس تعلموا العلوم الأخرى، وهؤلاء قد حيل بينهم وبين تعلم أمور دينهم وهذا يفضى بنا إلى الهدف الرابع من أهدافهم الخبيثة، وهو:

٤ ـ الحرص على أن يتولى شئون الدولة ووظائفها العامة أناس يجهلون أمور دينهم.

حيث عزلوا هؤلاء الذين يدرسون التعليم المدنى عن التعليم الدينى، وقصروا هذا النوع من التعليم على النوعية التى أشرنا إليها عند الحديث عن التعليم الدينى، وبذلك ضمنوا أن يعزل الدين عن شئون الحياة، وألا يرتبط شىء من أمور الدولة ووظائفها العامة بشىء من أمور الدين، ذلكم أن الذين يتولون شئون الوظائف العامة فى الدولة قد حيل بينهم وبين أن يتعلموا أمور دينهم، والذين درسوا علوم الدين قد حيل بينهم وبين الوظائف العامة التى تتصل بشئون الناس الحياتية، وبذلك تحقق لهم جانب كبير، بل الجانب الأكبر من مخططهم الخبيث، وأى شىء يهدفون إليه أهم وأخطر من عزل الدين عن شئون الناس، وعزل الناس عن علماء الدين الذين يبصرونهم بما يحل ويحرم من مشاكل الحياة اليومية التى يتعرضون لها، والتى يؤديها موظفون "مدنيون" لا يعرفون من أمور دينهم شيئًا؟!

٥ ـ محاصرة التعليم الدينى، والتضييق على القائمين به معلمين ومتعلمين.

وهكذا يكتمل عندهم المخطط الخبيث فى محاصرة الدين وعلومه، وصرف الناس عن تعلم أمور دينهم، وأحكام شرعهم، ليسهل بعد ذلك قبولهم ما يخالف دين الله، بل ما يعارضه ويناقضه.

فبعد أن أقاموا نظامين للتعليم، وحصروا الدين وعلومه فى نظام معين، ثم وقفوا وظائف الدولة على التعليم المدنى البعيد عن الدين، قاموا بعد ذلك بالتضييق على أولئك الذين يصرون على تعليم أولادهم من خلال نظم التعليم الدينية، وذلك بأن قاموا بسدِّ المنافذ أمام الذين يتخرجون من التعليم الدينى بحيث لا يجدون وظائف حين يتخرجون، فالوظائف قليلة، بل نادرة، وهى ـ إن وجدت ـ فالمقابل المالى لها متدنٍّ بالنسبة إلى الوظائف المدنية، وهذه أمور تؤدى إلى أن يشعر المتعلمون الذين تخرجوا من التعليم الدينى بضآلة الشأن والدونيَّة بالنسبة إلى الآخرين الذين تخرجوا من التعليم المدنى، ثم يترتب على ذلك انصراف الناس عن التعليم الدينى، والاتجاه بل الحرص على أن يتعلم أولادهم فى المدارس المدنية، ونبذهم التعليم الدينى.

ليس زهـــدًا فيه، أو شعورًا بعدم أهميته، بـــل حرصًا على أن يتخرج أولادهم بعد رحلة طويلة من التعليم فيجدون عملاً يرتزقون منه ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم.

المرحلة الثانية: من خطة أعداء الإسلام لنشر مذاهبهم الإلحادية من خلال التعليم بالدول الإسلامية.

وتتمثل تلك المرحلة فى نشر المذاهب والأفكار الإلحادية المادية من خلال مناهج التعليم العام، أو المسمى "بالتعليم المدنى".

فبعد أن نحى أعداء الإسلام التعليم الدينى عن جماهير الناس، وحصروه فى أضيق نطاق، وضمنوا اتجاه الناس إلى التعليم المدنى، وبدأوا المرحلة الثانية من خطتهم. فأخذوا بدسّون الأفكار الإلحادية، والمذاهب المادية، فى مناهج التعليم، تحت مسمى "العلوم الحديثة" أو "العلوم العصرية" أو ما إلى غير ذلك من مسميات قصد بها التمويه، وصرف الأنظار عما تحمله تلك العلوم التى يدرسونها للطلاب المسلمين من سم زعاف يهلك الدين والقيم، ويزرع الانحراف والضلال والإلحاد.

والأمثلة على ذلك كثيرة:

فمن ذلك تدريسهم لطلابنا نظرية "دارون" الإلحادية، التى ترجع كل الخلق، وما فيه من حكمة وإبداع إلى الطبيعة وحدها، تحت مسميات لا معنى لها، من مثل: "التطور" و"النشوء والارتقاء" و"الانتخاب الطبيعى" و"الصراع من أجل البقاء" إلى آخر ذلك من مصطلحات إن كان لها تأثير فى أولادنا الذين يدرسونها فهو تأثير هدام للدين والخلق، مفسد للسلوك والقيم، وإلا فماذا يفهم التلامذة من تلك المبادىء التى تدرس لهم على أنها حقائق لا تقبل الشك، والتى تقول: إن "البقاء للأصلح"، وإن "الأصلح" فى مفهوم النظرية هو الأقوى، والتى تقرر ـ أيضًا ـ أن: "الصراع بين الموجودات مستمر من أجل البقاء"؟ أليس يؤدى ذلك أن تنطبع مشاعر التلامذة ونفوسهم على الأنانية المفرطة، والأثرة القاتلة، وأن تجردهم من

مشاعر الرأفة والرحمة والعطف؟! وذلك أمر طبعى ما داموا يدرسون أن الحياة صراع، وأن البقاء إنما هو للأقوى، وأن الأقوى هنا ليس فى الدين والخلق والقيم، بل فى القوة العضلية، والفتوة البهيمية.

ومن ذلك تدريسهم لأولادنا المسلمين أن "المادة أزلية أبدية" وأنها: "لا تفنى ولا تستحدث" وشرح هذه القواعد على أنها صفات للمادة يقينية، وأنها صفات مطلقة، لا استثناء فيها، ولا نقض لها، ولا خروج عليها.

ولنا بعد ذلك أن نتصور موقف أولادنا الذين تدرس لهم هاتان القاعدتان، وأمثالهما، بينما يقرر الإسلام أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كان ولم يكن شىء معه، وأنه ـ تبارك وتعالى ـ قد خلق كل شىء بعد أن لم يكن، وأن العالم كله بما فيه من مادة إنما أوجده الله عز وجل من العدم بكلمة كن، كما قال ـ سبحانه ـ:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

إن هذه الدراسات التى تعارض ما هو معلوم من ديننا بالضرورة، والتى تصدم أولادنا فى عقيدتهم، إنما تصيبهم بما يشبه "الانفصام" فى الشخصية، وهم على خطر أن يصيبهم ذلك الانفصام فى معتقدهم ـ أيضًا ـ عياذًا بالله تعالى من ذلك ـ.

ومن ذلك تدريسهم لأولادنا نظرية "فرويد" فى علم النفس، وما فيها من مصائب وبلايا تهدم الدين والخلق، وتقضى على الحياء والعفة، وتحيل المجتمع الإنسانى إلى قطيع من الحيوان لا هَمَّ له إلا إشباع غرائزه الدنيا.

ومن ذلك تدريسهم نظريات "دور كايم" فى الاجتماع، وما تشتمل عليه من ضلال، ليس أقله اعتبار الدين ظاهرة اجتماعية من اختراع الإنسان، وأن الوحى والغيب وما يتصل بذلك خرافة، إلى آخر هذه السموم التى يدرسونها لأولادنا على أنها حقائق علمية لا تقبل الجدل، وليس فيها استثناء، وهم بذلك إنما يدخلون الأولاد فى صراعات نفسية بين ما يدينون به وما يتلقونه على أنه حقائق جاء بها علماء لا يخطئون.

سادسًا: استغلال وسائل الإعلام فى نشر المذاهب الفكرية المادية:

وهذه تبدأ ـ أولاً ـ بالتسلل إلى تلك الوسائل، والسيطرة على مراكز التوجيه فيها. والماديون لديهم فى هذا الجانب ذكاء وهمة ونشاط ملحوظ، فَعَنْ طريق مؤسساتهم الكثيرة، واتصالاتهم الواسعة، يتسللون إلى مراكز النفوذ فى وسائل الإعلام، يستوى فى ذلك الإذاعات، والتلفاز، والصحافة، ولديهم قدرات على التمكين بعضهم لبعض، فما أن يحتل أحدهم مركزًا فى مؤسسة مَّا، إلا ويكون ـ فى فترة قصيرة نسبيًا ـ قد فتح الأبواب لإخوانه المأجورين الماديين لاحتلال بقية المراكز فى تلك المؤسسة، بعد أن يلفق التهم، ويضع العراقيل أمام الآخرين حتى تخلو أماكنهم ليضع فيها إخوانه إخوان الشياطين.

ثم تأتى الخطوة الثانية، بعد احتلالهم المراكز المؤثرة فى وسائل الإعلام، فى بث مذاهبهم وأفكارهم من خلال تلك الوسائل، مستغلين كافة الإمكانات المتاحة من خلال كل وسيلة، فالإذاعة والتلفاز فيها الأحاديث، واللقاءات، وهى وسائل مباشرة فى الترويج لمذاهبهم الإلحادية، وفى الإذاعة والتلفاز ـ أيضًا ـ التمثيلية، والفيلم، هى وسائل غير مباشرة لنشر هذه المذاهب، وهذا النوع الأخير ـ رغم أنه غير مباشر ـ إلا أن له تأثيرًا شديدًا وخطيرًا، نظرًا لأنه يجتذب الجماهير الغفيرة لمشاهدته أو سماعه، ثم إنه يرسخ تلك المذاهب بصورة خفية فى نفوس الجماهير، لأنه يسرب تلك المذاهب مدسوسة من خلال المشاهد التمثيلية دون أن ينتبه إليها السامعون أو المشاهدون، فتتسرب إليهم شيئًا فشيئًا دون وعى منهم، وهذا مكمن الخطورة، لأن المسلم إذا ما أحس بفكر يخالف دينه، فإنه يرفضه، ويتخذ منه موقف العداء، ويحذر غيره منه، أما إذا تسرب إليه ذلك الفكر دون وعى منه، فإنه يتأثر به ويتشرَّبُه به، وهو غير شاعر بخطورته، وشيئًا فشيئًا تزداد الجرعة المادية الملحدة، وتزداد الصور والمرائى التى تنفر منها مشاعر المسلم، لكن بالتدريج تصبح هذه الأمور مألوفة معتادة، وما يشعر المسلم إلا وهو محاط بكل مبادىء الفكر المادى الإلحادى ممثلاً فى فيلم أو مسرحية، أو تمثيلية، أو مشهد خارج عن الخلق والدين، وكل ذلك دون أن يحس أو يشعر نتيجة لتلك الوسائل الإعلامية غير المباشرة.

ومثل ذلك يقال عن الوسائل الأخرى التى انتشرت فى المجتمعات الإسلامية انتشار السرطان فى الجسم العليل، فالصحافة، والرواية، والقصة، والسينما، والمسرح، ثم الأغانى التى يقبل عليها الشباب، فى البيت والسيارة، والنادى، والتى تنحصر كل موضوعاتها حول الحب والعشق والحرمان، وطرق إشباع ذلك الحرمان.. وما إلى ذلك من موضوعات كان مجرد التفكير فيها يعتبر عورة، لكنها أضحت مألوفة فى كل مكان لعموم البلوى بها، وانتشار المحنة.

بل إن هناك من الشباب من لم تقنعه الأغانى العربية، فانطلق خلف تلك الأغنيات الأجنبية ظانًا أن هذه هى الحضارة، والتفتح والتمدن، وما يدرى المسكين أنه يتعاطى السم الزعاف الذى يقتل الخلق والدين، ويميت القيم، ويردى السلوك..

هذه أهم الوسائل التى لجأ ـ ويلجأ ـ إليها دعاة المذاهب المادية الإلحادية لنشرها فى المجتمعات الإسلامية، ونقول: أهم الوسائل، لأن ثمة وسائل أخرى لها حظ فى إشاعة هذه المذاهب فى مجتمعاتنا، لكنا أشرنا إلى الوسائل الأمهات ـ فيما نرى ـ والتى لها التأثير الأخطر فى هذا المجال.

* * *

المبحث السادس

دور اليهود فى نشر المذاهب الفكرية الملحدة

أولاً: صفات اليهود من كتاب الله:

اليهود هم بنو إسرائيل في أصولهم، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ على نبينا وعليهم صلوات الله وسلامه ـ فهم ـ في أصولهم ـ أولاد الأنبياء وقد شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يبتليهم بحمل الأمانة، التي هي الدين الحق، وأن ينظر كيف يعملون، فاختارهم الله عز وجل على العالمين، وآتاهم من الآيات ما فيه اختبار وابتلاء وامتحان، يقول ـ سبحانه ـ:

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ۝ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴾ [الدخان: ٣٠-٣٣].

واختيار الله ـ تعالى ـ إياهم كان ابتلاء، وكان ـ في نفس الوقت ـ نعمة ومنة وتكريمًا، حيث جعل فيهم النبوة، وأنزل عليهم الكتب، وجعل فيهم الملك، في زمان كان فيه أمم أخرى لم يؤتهم الله ـ تعالى ـ شيئًا من ذلك، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠].

وقد أجمل الله ـ سبحانه ـ نعمه عليهم في كونه ـ سبحانه ـ فضلهم على عالمي زمانهم. يقول عز وجل مذكرًا إياهم بذلك:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة ٤٧، ١٢٢].

والمراد "بالعالمين" فى الآية الكريمة عالمى زمانهم، حين كانت النبوة فيهم، وقبل أن تنتهى بالمسيح عيسى ابن مريم آخر أنبيائهم ـ على نبينا وعليه صلوات الله وسلامه ـ فتفضيل الله ـ تعالى ـ إياهم على العالمين لم يكن فضلاً من الله ـ سبحانه ـ عليهم غير مشروط، أو نعمة دائمة بلا مقابل، لكن ذلك كان مشروطًا باستقامتهم على طريق الله ـ عز وجل ـ وحملهم الأمانة التى حملهم الله ـ سباحنه ـ إياها، واستجابتهم لأوامره، وطاعتهم أنبياءه ورسله، فإذا كانوا على ذلك، أدام الله ـ تعالى ـ فضله عليهم، وأسبغ عليهم المزيد جزاء شكرهم أنعمه، واستجابتهم لرسله، يقول ـ تَعَالَى ـ مخاطبًا بنى إسرائيل على لسان موسى ـ عليه السلام ـ :

﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾ [إبراهيم: ٧].

أما إذا نقضوا عهدهم مع الله ـ سبحانه ـ، وخانوا أمانته، وضلوا وأضلوا، وسعوا فى الأرض فسادًا، فإن الله ـ سبحانه ـ سيجازيهم بما يستحقون، وأول ذلك أن ينزع منهم تلك الأفضلية التى جعلها لهم على العالمين، وينزع منهم ركائز هذه الأفضلية وثمراتها، وأول ذلك جعلهم الأمناء على دين الله ـ تَعَالَى ـ وإذا نزع منهم ذلك ونقلها إلى أمة سواهم، فإنه ـ سبحانه ـ ينزع منهم النبوة والرسالة، لتكون فى تلك الأمة التى جعلها الله عز وجل أمينة على دينه خلفًا لبنى إسرائيل.

ولقد بين الله ـ سبحانه ـ لهم هذا فى آيات كثيرة، ومن الآيات البينات فى ذلك ما جاء فى شأن إمامة إبراهيم ـ عليه السلام ـ للناس، يقول ـ تباركت أسماؤه ـ :

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

فإن الآية ناطقة بأن اختيار الله ـ تعالى ـ إبراهيم واصطفاءه قام على ابتلائه

إبراهيم ـ عليه السلامـ كذلك فإن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لما طلب أن تكون تلك الأمانة فى ذريته، أجابه الله ـ سبحانه ـ بتلك القاعدة التى هى سنة الله ـ تعالى ـ فى خلقه، والتى تقضى بأن لا ينال عهد الله ـ سبحانه ـ وفضلُه، ونعمُه، إلا الصالحين. أما الظالمون فلا ينالون إلا غضب الله ـ تعالى ـ وعقابه.

إذا عرفنا ذلك؛ فهل بنو إسرائيل، أو اليهود، كانوا صالحين أتقياء، طائعين أطهارًا أنقياء، فتبقى فيهم الإمامة والأمانة، ويديم الله ـ تعالى ـ فضله عليهم، ذلك الفضل الذى اختصهم به دون العالمين فى زمن من الأزمان؟

أم أنهم كانوا على النقيض، ظلموا أنفسهم، ونقضوا مع الله عهودهم، وخانوا أماناتهم، وأفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها، يَنْبَنِى على ذلك، أن ينزع الله ـ سبحانه ـ ذلك كله منهم، ويقضى عليهم بما يستحقون من ذلة، ومسكنة، وتشريد، وضياع، وفوق ذلك يغرس فى قلوب العالمين مقت هؤلاء، وكراهيتهم، ونبذهم، والفرار منهم، كما يفر المرء من أخطر الأمراض، وأخبث الأوبئة؟

إن الله ـ سبحانه ـ الذى خلق الخلق، وعلم طباع كل، وأدواءه وما فيه من خير وما فيه من شر، خاطب بنى إسرائيل خطابًا طويلاً فى القرآن المجيد، معددًا أنعمه عليهم، ومعددًا فى المقابل مفاسدهم ومخابثهم وضلالاتهم.

ومن الأمور ذات المغزى والأهمية، أن الله ـ تَعَالَى ـ تحدث عنهم بـ "بنى إسرائيل"، وتحدث عنهم بـ "اليهود"، فأما "بنو إسرائيل"؛ فقد خاطبهم الله ـ تَعَالَى ـ بذلك الاسم حين يعدد نعمه عليهم، ويدعوهم إلى الاستقامة من عوج والإيمان من كفر، وأن يهتدوا من ضلال، وذلك من الله ـ عز وجل ـ تذكيرًا لهم بآبائهم الأنبياء، وأسلافهم الصالحين، فكأن الله ـ تَعَالَى ـ حين يخاطبهم ببنى إسرائيل يقول لهم: يا أولاد الأنبياء، يا من تنتسبون إلى النبى العظيم يعقوب، اذكروا ما أنعمت به عليكم، وعودوا إلى الإيمان، ثم الطاعة والاستقامة، ومثل ذلك ـ أيضًا ـ حين يخاطبهم الله عز وجل قائلاً: ﴿**يا أهل الكتاب**﴾ ، حيث يذكرهم بالنبوة والرسالة التى كانت فيهم، والكتب التى أنزلت عليهم، وذلك ترقيقًا لقلوبهم، وإلانة لطباعهم، وحضًا لهم على الطاعة والاستقامة.

وأما "اليهود"؛ فقد أطلقه الله ـ تَعَالَى ـ عليهم، وتحدث به عنهم، وخاطبهم به، حين يعدد مفاسدهم، وضلالهم، وانحرافهم، وخبثهم، وكفرهم بالله رب العالمين. من مثل قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وأما الأمثلة على خطاب الله ـ تَعَالَى ـ لهم بـ "بنى إسرائيل" فكثيرة، قد مضى بعضها على الصفحة السابقة.

ونعود فنسأل: هل استقام بنو إسرائيل على الطريقة، وحفظوا عهد الله ـ تَعَالَى ـ معهم؟ أم نقضوا العهود والمواثيق وضلوا وأفسدوا؟

إن الله ـ تَعَالَى ـ قد عدد مفاسدهم فى كتابه الكريم فى مواضع كثيرة. لكن من أجمع هذه المواضع تلكم الآيات التى وردت فى سورة النساء والتى أحصى الله عز وجل فيها ما يزيد على العشر من خصال الضلال والفساد والكفر لدى اليهود، وهى خصال جامعة، لو أفردت وفصلت زادت على ذلك كثيرًا، يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ مخاطبًا رسوله محمدًا ﷺ فى شأن اليهود:

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾

بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلۡمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٣-١٦٢].

فهذه الآيات الكريمات البينات قد وضعت بين أيدينا إحصاء دقيقًا لما قد انطوت عليه نفوس اليهود من خبث وفساد وضلال وكفر، ومعاداة لله ـ تَعَالَى ـ ورسله، بل ولكل الخلق أجمعين.

ونحن من خلال هذه الآيات البينات، ومن خلال سيرة اليهود، نستطيع أن نبين أهم صفات الكفر والخبث والفساد التى طبع عليها اليهود، ولن نستطيع أن نحصى ما فى صفاتهم من خبائث، لكنا نبين صفاتهم الأمهات التى عنها تفرعَ العديد من صفات الخبث والضلال عند أحفاد القردة والخنازير وعبدة الطاغوت.

فمن أهم هذه الصفات الواردة فى الآيات المذكورة:

أولاً: إغراقهم فى المادة، واعتمادهم على الحس فى كل شيء، وكفرهم بالغيب، ورفضهم الإيمان بما وراء الحس.

ومن هنا جاء فكرهم بالله ـ سبحانه ـ واشتراطهم على موسى ـ عليه السلام ـ أن يريهم الله كى يؤمنوا به، وتعليقهم الإيمان بالله على هذه الرؤية، وذلك كما قال ـ تَعَالَى ـ مبينًا ربطهم الإيمان بالرؤية:

﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥].

والرؤية التى طلبوها هى رؤية شرطية بأن تكون: "جهرة"، أى: كما يرى أحدهم أخاه ويلمسه ويتحسسه، وهذه قمة المادية الجامدة المسفة.

وإذا كانت هذه حالهم بالنسبة إلى الله رب العالمين ـ سبحانه ـ؛ فماذا تكون حالهم مع الغيبيات، أو عالم الغيب من الملائكة والجن والشياطين وغيرها من السمعيات التى أخبرنا الله ـ تَعَالَى ـ عنها ورسله؟ إن هذا مرفوض عندهم من باب أولى.

ثانيًا: عبادتهم الأوثان:

وهذا أمر مرتب على الأمر الأول: فمن حيث إنهم لا يؤمنون بالغيب، ولا يؤمنون إلا بما يرون جهرة، والله ـ عز وجل ـ رأس الغيب، ولن يروه جهرة، فبدهى أنهم سوف يتجهون إلى معبودات تتوفر فيها الرؤية الجهرية، والحس واللمس، فأين يجدون ذلك سوى فى المعبودات من الأوثان؟ لذلك اختاروا العجل للعبادة، لكن يبقى سؤال هام: لماذا العجل تحديدًا من بين الأوثان والأصنام؟

الجواب يكمن فى الفترة الزمنية التى قضاها بنو إسرائيل بمصر، لقد دربوا على عبادة أوثان المصريين، ومن أهم آلهة المصريين كان العجل المسمى لدى المصريين: "عجل أبيس"، فقد درب اليهود على عبادته لعاملين:

أولاً: ما هو معروف من إجبار القويِّ صاحب البلد الضعيف الدخيل عليه على الخضوع لمعبوداته، ولقد كان المصريون هم أصحاب البلد، وكان بنو إسرائيل هم الدخلاء عليهم الضعفاء، فأجبرهم المصريون على الخضوع لآلهتهم وعبادتها.

الثانى: ما جبل عليه بنو إسرائيل من الميل إلى المادة وتجسيد الإله المعبود، ورفض الإله الذى لا يرونه، جعلهم يرحبون بعبادة العجل مع أصنام أخرى للمصريين، طوال وجودهم فى مصر، فلما خرجوا من مصر، ظلت عبادة العجل فى قلوبهم لم ينسوها لحظة، وقد بين الله ـ سبحانه ـ شدة تمكن عبادة العجل من قلوبهم، بأن قلوبهم، قد أشربت العجل نفسه، تأكيدًا على تمكن عبادته وسيطرته على نفوسهم وقلوبهم. قال ـ سبحانه وتعالى ـ:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة: ٩٣].

وتمكن عبادة الأوثان فى قلوب بنى إسرائيل تدل عليها واقعة أخرى ذكرها القرآن المجيد، ذلك أنهم حين فروا من فرعون، وضرب موسى البحر بعصاه فانفلق، وعبروا البحر إلى الشاطىء الآخر، هناك على الشاطىء رأوا قومًا أمامهم أصنام وقد خروا أمام الأصنام يعبدونها، فما كان من بنى إسرائيل إلا أن سارعوا إلى موسى ـ عليه السلام ـ يطلبون منه أن يجعل لهم أصنامًا يعبدونها مثل هؤلاء الصنميين الذين رأوهم على الشاطىء الآخر للبحر، رفضوا عبادة الله ـ سبحانه ـ وهم فى قلب المعجزة الكبرى، وما تزال رمال البحر عالقة بنعالهم، والمعجزة التى هم فيها تصدع قلب الحجر، لكن القوم هم بنوا إسرائيل، وهذه طباعهم، وتلكم هى قساوة قلوبهم، قال الله عز وجل:

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

بل إن رغبتهم الشديدة فى عبادة العجل، ورفض عبادة الله الحق ـ سبحانه وتعالى ـ دفعت بهم إلى ما لا يتصور صدوره من أمة من الأمم فى حضور نبى الله بين أظهرهم، فقد انتهزوا ذهاب موسى عليه السلام لميعاد ربه، وقد خلف عليهم أخاه هارون عليه السلام للحفاظ عليهم من الخروج عن دين الله، ثم صنعوا عجلاً من ذهب وعكفوا على عبادته، ولما حاول هارون ـ عليه السلام ـ أن يمنعهم من ذلك كادوا أن يقتلوه، ولما رجع موسى ـ عليه السلام ـ وجدهم قد تركوا عبادة الله الواحد ـ سبحانه ـ ووجدهم سجدًا للعجل ظن التقصير لدى أخيه هارون ـ عليه السلام ـ وأنه لم يرعهم، لكن هارون أخبره بأنه بذل معهم غاية الجهد حتى كادوا أن يقتلوه، قال الله ـ عز وجل ـ :

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى

ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨ ١٥٢].

ثالثًا: قساوة قلوبهم، وغلظة طباعهم.

وهذه الصفة الملازمة لهم تفسر الكثير من أفعالهم، وإليها يرجع العديد من مفاسدهم وخبائثهم، وفى تقرير هذه الصفة فيهم لا نجد أصدق قيلاً، وأوضح تصويرًا من قول الله ـ عز وجل ـ فيهم:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

وهذه الصفة هى المفسرة لكثير من أفعالهم ـ كما قلنا ـ ومن هذه الأفعال التى ترجع إلى هذه الصفة:

١ ـ تكذيبهم أنبياءهم، وقتلهم إياهم.

وهذا موقفهم الثابت تجاه جميع أنبيائهم، لا يستثنى من ذلك أحد من أنبيائهم، وقد بين القرآن المجيد هذه الحقيقة أفضل بيان، حيث جعل موقفهم من أنبيائهم بين الأمرين المذكورين: التكذيب والقتل، ولم يجعل هناك أمرًا ثالثًا، وأورد ذلك على سبيل الحصر. وذلك فى قوله ـ سبحانه وتعالى ـ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

وكان ذلك الموقف العجيب لهم ليس عن قلة الأنبياء بينهم، بل كان الأنبياء بينهم كثيرين، إلى حد أن الله ـ تَعَالَى ـ كان يرسل إليهم النبيَّن والثلاثة فى

وقت واحد، ورغم ذلك ما كان ذلك يزجرهم عن تكذيبهم أو قتلهم، يقول ـ عز وجل ـ:

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يس: ١٣-١٨].

٢ ـ عدم استجابتهم لأوامر الله ـ تَعَالَى ـ وشغبهم على رسلهم، إلا إذا صاحب ذلك عقوبات مادية محسوسة.

ولأنهم لا يستجيبون للنصح والتوجيه القائم على الفطرة والعقل، وكتب الله ورسالاته؛ فقد ساوق تاريخهم مع أنبيائهم ورسلهم التخويف المادى والعقوبات المحسوسة.

فمن ذلك تخويفهم بإسقاط الجبل فوقهم ليهلكهم، حيث رفع الله ـ تَعَالَى ـ الجبل فوقهم وأساحه على رءوسهم حتى صار كأنه سحابة تظلهم، ثم هددهم إن لم يسمعوا ويطيعوا فسوف يسقطه على رءوسهم فيسحقهم، يقول الله عز وجل:

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧١].

٣ ـ إنزال الله ـ تَعَالَى ـ بهم العقوبات المادية الحاسمة القاسية، التى تتناسب مع قساوة قلوبهم، وفساد طباعهم.

من ذلك أنهم لما عبدوا العجل، وأرادوا أن يتوبوا شرط الله ـ تَعَالَى ـ قبوله توبتهم بأن يقتلوا أنفسهم، أى: يقتل بعضهم بعضًا، فوقفهم موسى ـ عليه السلام ـ صفَّين متواجهين، فى أيديهم السيوف، وكل صف منهم قد شرع سيوفه فى مواجهة الصف الآخر، ثم ألقى الله ـ تعالى ـ عليهم ظلمة شديدة فلم ير بعضهم بعضًا،

وانطلق كل منهم يعمل سيفه فيمن أمامه، حتى حدثت فيهم مقتلة شديدة، ثم تاب الله عليهم، فأمرهم موسى ـ عليه السلام ـ أن يرفعوا السيوف، وقد رفعت الظلمة.. يقول عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٥٤].

ومن ذلك أنهم، أو أن أهل قرية من قراهم كانت على شاطىء البحر، لما عصوا ربهم فاصطادوا السمك من البحر يوم السبت الذى حرم الله ـ تَعَالَى ـ عليهم العمل فيه، فخالفوا ربهم ـ سبحانه ـ بحيلة من حيلهم الخبيثة، جازاهم الله ـ تَعَالَى ـ على ذلك بأن مسخهم قردة خاسئين، يقول ـ سبحانه وتعالى ـ مخاطبًا إياهم:

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [البقرة: ٦٥].

رابعًا: نقضهم كل ميثاق واثقهم الله ـ تعالى ـ به، ثم نقضهم مواثيقهم مع الناس، فإنهم إن كانوا لا يوفون بمواثيقهم مع الله ـ سبحانه ـ فإنهم مع الناس من باب أولى.

فقد نقضوا ميثاقهم مع الله ـ سبحانه ـ فلم يؤمنوا به زاعمين أن قلوبهم غلف، أى: مصمتة لا ينفذ إليها هدى ولا موعظة، فأخبر الله ـ تعالى ـ أنه ـ سبحانه ـ طبع عليها بالكفر والقسوة، فلا ينفذ الإيمان إلى قلوبهم إلا قليلاً ممن هداهم الله، قال الله ـ سبحانه ـ :﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٨٨].

وكذلك نقضوا ميثاقهم مع الله ـ سبحانه ـ ، حين أمرهم أن يدخلوا إحدى القرى راكعين عند مرورهم من بابها، وأن يقولوا حطة، أى: يدعون ربهم أن يحط عنهم ذنوبهم حطة، أى: يغفرها لهم مغفرة كاملة، فنقضوا ميثاقهم مع الله، ودخلوا الباب زاحفين على أدبارهم، وبدلوا كلمة "حطة" فقالوا: "حنطة" سخرية واستهزاء بأمر الله ـ سبحانه ـ فكان أن أنزل الله ـ تعالى ـ عليهم رجزًا من السماء، وهو مرض الطاعون جزاء على نقضهم ميثاقهم وتهكمهم بأوامر ربهم، يقول الله ـ عز وجل ـ :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة: ٥٨، ٥٩].

ومن نقضهم المواثيق مع الله عز وجل إضافة إلى ما قدمنا:

قولهم لله ـ سبحانه ـ : سمعنا وعصينا، بعد أن رفع الطور فوقهم ووعدوا بالسماع والطاعة، وأعطوا ميثاقهم على ذلك، فلما أنزل الجبل من فوقهم نقضوا ميثاقهم.

قتلهم الأنبياء الذين جاءوهم بالبينات من قبل الله ـ تَعَالَىٰ ـ ومنهم النبيان: زكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ.

اتهامهم مريم أم المسيح ـ عليه السلام ـ بالزنى، واتهامهم المسيح ـ عليه السلام ـ بأنه من سفاح، رغم الآيات البينات التي جاءهم المسيح ـ عليه السلام ـ بها.

زعمهم أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ـ عليه السلام ـ وأنهم صلبوه رغم أن الله ـ تعالى ـ أنجاه منهم، ورفعه إليه.

خامسًا: أكلهم أموال الناس بالباطل، وأوضح صوره عند اليهود، أكلهم الربا، وقد نهاهم الله ـ تَعَالَىٰ ـ عنه على ألسنة رسله، لكنهم دربوا على أكل الربا حتى صار أكل الربا سمة من سماتهم ودليلاً عليهم، وقد صار أخذهم الربا أهم مصادرهم في جمع الأموال التي يعتمدون عليها في تحكمهم وسيطرتهم على الاقتصاد العالمي.

سادسًا: إضافة إلى صفاتهم التي ذكرتها الآيات الكريمات التي أوردناها قبلاً، هناك صفات من الأمهات التي يتولد عنها ويرجع إليها الكثير من أخلاق ذلك الشعب الخبيث وسلوكه.

يأتي على رأس هذه الصفات اعتقادهم أنهم "شعب الله المختار"، أي: الذي اختاره الله ـ تعالى ـ ليكون شعبًا له من دون بقية الخلق، أما الشعوب الأخرى من

الذين يسميهم اليهود "أميين" أو "جوييم"، فهؤلاء لم يخلقهم الله ـ تَعَالَى ـ كي يكونوا عبادًا له، ويكون هو ـ سبحانه ـ رَبًّا لهم كما هو لليهود، وإنما خلق الله ـ تَعَالَى ـ الأميين ليكونوا في خدمة اليهود، شعبه المختار، ـ بزعمهم الكاذب ـ ، فهم يزعمون أن الله عز وجل قد خلق الحيوانات لتكون في خدمة الأميين، وخلق الحيوانات والأميين ليكونوا جميعًا في خدمة اليهود، فاليهودي ينظر إلى الإنسان من الأمم الأخرى غير اليهود كما ينظر إلى أية فصيلة من فصائل الحيوان، ويعتقد أن له أن يفعل به ما يشاء، وأن يسخره لخدمته كما يسخر الحيوان، وأنه لا حرج عليه في شيء من ذلك، وقد بين الله ـ تَعَالَى ـ ذلك الفكر الشاذ لدى اليهود، بقوله ـ سبحانه:

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥].

وقولهم: ليس علينا في الأميين سبيل، يعني: أنه لا حرج عليهم في أن يفعلوا بكل الناس من غير اليهود أي شيء بدءًا من تسخيرهم لأعمالهم، إلى تقتيلهم، إلى ذبحهم وتجميع دمائهم لصنع فطيرة عيد الفصح عندهم، كما ثبت ذلك في أماكن شتى عبر تاريخهم الملوث.

وقد ترتب على هذا الاعتقاد عندهم أن اليهودي مهما ارتكب من قبائح وفضائح، ومهما سبب للأمم الأخرى من فظائع ومواجع، فإنه لن يعذب في نار جهنم إلا أيامًا معدودة، قد تكون ستة، أو سبعة، أو أربعين، لكنهم لن يمكثوا فيها إلا أيامًا معدودة. يقول ـ سبحانه وتعالى ـ عن اليهود:

﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٨٠].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٤].

أما لماذا لا يمكثون فى النار إلا تلك الأيام المعدودة. ثم يخرجون منها ويحل محلهم فيها الأمم الأخرى، والمسلمون تحديدًا؟

الجواب على ذلك فيما قلنا. من أنهم يعتقدون أنهم شعب الله المختار من بين الشعوب كلها، بل إنهم أبناء الله وأحباؤه - تَعَالَى الله عما يقولون علوا كبيرًا - يقول الله عز وجل:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة: ١٨].

وللمرء أن يتخيل بعد ذلك ما تكون عليه سيرة اليهودى فى سلوكه وأخلاقه مع الأمم غير اليهودية، أو مع الإنسان غير اليهودى، مع مراعاة الاعتبارات التى أشرنا إليها من أنه لا سبيل عليه ولا بأس ولا حرج فيما يفعل بالأمى، حيث أن الأمى مخلوق ليكون فى خدمته مثل بقية الحيوانات الأخرى التى هى فى خدمة الإنسان، ثم إنه مهما فعل بالأمى وتخطى جميع الأمور المتصورة فى قسوتها وفظاعتها مع الأمى من قتل، أو تعذيب، أو تقطيع أعضاء، وسفك دم لصنع فطيرة عيد الفصح.. إلى آخر ذلك، فإنه لن تمسّه النار إلا سبعة أيام أو قريبًا من ذلك، ثم إنه فوق هذا وذاك هو ابن الله وحبيبه.. ثم إذا أضفنا إلى ذلك كله ما يتسم به طبع اليهودى وجبلته من قسوة فى القلب، وغلظة فى الطبع دونها قسوة الحجارة التى تتفجر منها الأنهار، وتشقق فيخرج منها الماء، وتهبط من خشية الله، أما قلب اليهودى فلو سلط ما فيه من نار الحقد على مياه البحار لجفت من شدة كراهيته ومقته خلق الله من الأمم الأخرى.

نقول للمرء بعد ذلك أن يتخيل سلوك اليهودى مع غيره من الناس غير اليهود. وهو ما عبرت عنه "بروتوكولاتهم"[1] التى تعتبر الدستور الحقيقى الذى ينطلقون

(١) البروتوكولات: مجموعة من التعاليم والقواعد وضعها جماعة من اليهود الخبثاء ترسم لليهودى كيف يحقق مخططات اليهود مع الأمم الأخرى، وتحتوى على خطط اليهود للاستيلاء على العالم والتحكم فى شعوبه، والمراحل التى تمر بها تلك الخطط.

منه فى كل شئونهم الحياتية مع أنفسهم وغيرهم، ومن قبل "البروتوكولات" هناك "التلمود"[١] الذى رسم فيه آباؤهم لليهودى كيف يسخر "الأمميين" لتحقيق أهدافه، وكيف يستعملهم كما يستعمل "الحمير"، وليست اللفظة من عندنا، لكنها نص التلمود الذى نصحهم، أو أمرهم قائلاً:

"الأمميون ـ أى غير اليهود ـ هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار، وكلما هلك حمار ركبنا حمارًا آخر"[٢].

وهؤلاء الذين وصفوا الأمم غير اليهود بأنهم حمير، ظلمًا وكذبًا وزورًا، قد وصفهم الله ـ تبارك وتعالى ـ بهذه الصفة "الحمارية" لكن عن حق وصدق، فإن الذى وصفهم هو الله ـ سبحانه ـ خالقهم، والعليم بحقيقتهم، والمطلع على خبائثهم.

يقول الله ـ عز وجل ـ:

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥].

ومن نصائح التلمود لليهود ـ أيضًا فى صلاتهم بالأجناس غير اليهودية ـ الأمميين، أو الجوييم ـ قوله ـ:

"إذا سرق أولاد نوح ـ أى الأميين ـ شيئًا ولو كان قليل القيمة فإنهم يستحقون الموت، لأنهم خالفوا الوصايا التى أعطاها الله لهم، أما اليهودى فمصرح له أن يضر الأمى"[٣].

---

(١) التلمود: هو الشريعة الشفوية لدى اليهود، فى مقابل الشريعة المكتوبة التى هى التوراة، والتلمود له شرحان مشهوران:

أحدهما يسمى التلمود البابلى، والشرح الآخر يسمى التلمود الفلسطينى، والمتن فى كلا التلمودين واحد. لكن الشرحين مختلفان.

(٢) الكنز المرصود فى قواعد التلمود. روهلنج ـ ترجمة يوسف حنا نصر الله. ص: ٨٤، ٨٥.

(٣) الكنز المرصود. ص: ٧٢، ٧٣.

كذلك يوضح لهم التلمود كيف يتعاملون مع الأمميين ـ غير اليهود ، فيقول تلمودهم: "اقتل غير الإسرائيلي ولو كان صالحًا، ومحرم على اليهود أن ينجي أحدًا من الأمميين من هلاك، أو يخرجه من حفرة وقع فيها، لأنه بذلك يكون قد حفظ حياة واحد من الوثنيين"[(١)].

ومن نصائحه ـ أيضًا ـ لليهودي في إطلاق يده يصنع بغير اليهودي ما يشاء، حتى تجارة البغاء، يقول التلمود:

"إن تجارة البغاء بالأجنبي والأجنبية ليست جرمًا، لأن الشريعة براء منها"[(٢)].

وهذه الروح الخبيثة التي تتلبسهم تجاه الأمم الأخرى، يفسرها نص من نصوص التلمود عندهم، كما فسرتها من قبل الآيات الكريمات من كتاب الله ـ سبحانه ـ يقول التلمود: "تتميز أرواح اليهود عن باقي أرواح البشر بأنها جزء من الله ـ تَعَالَى ـ كما أن الابن جزء من أبيه، وأنه يجب على كل يهودي أن يبذل جهده لمنع تسلط باقي الأمم في الأرض، وأن اليهودي معتبر عند الله أفضل من الملائكة، وأن اليهودي جزء من الله، فإذا ضرب أُمِّيٌّ إسرائيليا فكأنما ضرب العزة الإلهية، والفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بقدر الفرق بين اليهودي وغير اليهودي.. وأنه مصرح لليهودي أن يغش غير اليهودي ويحلف له أيمانًا كاذبة.."[(٣)].

سابعًا: وأخطر صفاتهم على الإطلاق، هي اجتراؤهم على الله ـ عز وجل ـ ووصفهم إياه ـ سبحانه وتعالى عما يصفون ـ بالفقر والبخل.

وهذا أبعد ما يمكن أن يتصور من سوء الخلق والدين لدى شعب من الشعوب على مستوى الفرد أو الجماعة، وهذا يقلل ـ أيضًا ـ من استقباحنا موقفهم من الشعوب الأخرى غير اليهودية، لأنهم إذا كانوا يصفون ربهم ـ سبحانه ـ بمثل هذه

---

(١) الكنز المرصود في قواعد التلمود. ص:٧٢، ٧٣.

(٢) همجية التعاليم الصهيونية ـ بولس حنا سعد. نقلاً عن: مذاهب فكرية. الشيخ محمد قطب.

(٣) نقلاً عن: مكايد يهودية ـ الشيخ العالم/ عبد الرحمن حنبكه الميداني ص: ١٥، ١٦.

الصفات، ويفضلون أنفسهم عليه ـ جل وعلا ـ ، فليس عجيبًا ـ إذن ـ أن يفضلوا أنفسهم على بقية الأمم.

يقول الله عز وجل فى شأن اليهود:

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨١، ١٨٢].

فاليهود ـ عليهم لعائن الله ـ لم يكتفوا بأن وصفوا الله ـ سبحانه وتعالى عما يصفون ـ بانه فقير، بل أقاموا مقارنة بينهم وبينه ـ سبحانه وتعالى ـ وقرروا أنهم أغنى منه ـ سبحانه ـ وأنهم فى غنى عنه، بينما هى فى حاجة إليهم ـ سبحان الله وتعالى عما يشركون ـ .

ثم يزيدون على ذلك فيصفونه ـ سبحانه عما يصفون ـ بأنه بخيل، ويده مغلولة، أى مقبوضة عن العطاء بخلاً وشحًا ـ سبحانه وتعالى عما يصفه به هؤلاء الأخباث.

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقد أردنا أن نختم حديثنا عن صفاتهم أو أهم صفاتهم بهاتين الآيتين اللتين توضحان أحط المستويات التى تدنَّى إليها هؤلاء الأخباث، وأنهم أشد خبثًا من إبليس نفسه، فإننا لم نر إبليس وصف ربه ـ سبحانه ـ بمثل تلك الصفات التى وصفه بها هذا النوع من البشر الذى قال الله ـ تَعَالَىٰ ـ فيه:

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٦٠].

* * *

لقد أطلنا الحديث عن صفات اليهود وسماتهم حتى يتبين لنا أى نوع من البشر هؤلاء الذين نتحدث عنهم، ولكى لا نعجب إذا وجدنا أصابعهم الخبيثة، وقلوبهم

الحاقدة التى تحرك أصابعهم وراء كل مصيبة تصيب البشر، كما سيتضح لنا من خلال الكشف عن دورهم فى نشر المذاهب الهدامة.



ثانيًا: دور اليهود فى نشر المذاهب الفكرية الهدامة

تحدثنا فيما سبق عن صفات اليهود وسماتهم. وعرفنا أنهم يرون أنفسهم جنسًا فوق الأجناس، ورأينا أنهم قد وضعوا مخططاتهم التى رأينا شيئًا منها فى "تلمودهم وبروتوكولاتهم" كى يُحَوِّلُوا الزعم بتميزهم على البشر من فكر نظرى إلى واقع عملى.

ولما عرفت الشعوب عنهم هذه النوايا الخبيثة، قابلوهم بما يستحقون فأكنوا لليهود المقت والكراهية، وأعملوا فيهم التقتيل والتشريد والإذلال عبر تاريخهم كله، فلم تنج جالية يهودية فى بلد من بلاد العالم من تلك المعاملة القاسية التى يستحقها اليهود.

لكن هذا الذى حدث لهم من شعوب العالم لم يثنهم عن نواياهم الخبيثة، ولم ينههم عن عقيدتهم العنصرية شيئًا، بل زادهم ذلك حقدًا على أحقاد، وازدادت النار ضرامًا فى قلوبهم، ودفعهم إلى بذل الجهد فى تنفيذ مخططاتهم ضد شعوب العالم كله، بما لهم من طرق ومخططات شيطانية يصعب حصرها وكشفها جميعها، لكن بجانب ذلك ظهرت لهم جوانب كثيرة من خططهم التى نفذوها وما يزالون وتقوم أساليبهم فى تنفيذ أهدافهم على الخبث والدهاء الذى اشتهروا به. وقد مرت مخططاتهم بمرحلتين.

المرحلة الأولى: تكوين الجمعيات السرية، والدعوة إليها تحت مسميات خادعة وأهداف مضللة، حتى إذا انتشرت هذه الجمعيات جندوا لها كل ما يرون فيه أملاً فى خدمة أغراضهم، واستعدادًا لتنفيذ أهدافهم وهم من وراء الجميع يحركونهم عن طريق تلك الجمعيات إلى تحقيق ما يريدون، ولديهم فى هذا المجال ذكاء الشياطين وخبثهم، ومكر الحاقدين وصبرهم.

وقد بدأوا خطتهم فى تنفيذ تلك المرحلة التى هى تكوين الجمعيات السرية، منذ عهد بعيد، حتى إن أشهر جمعياتهم السرية، والتى تفرع عنها ما عداها من جمعيات كثيرة قد بدأ تكوينها منذ ألفى عام تقريبًا، ونقصد بها الجمعيات الماسونية، أو المنظمات الماسونية.. فقد بدأت أول منظمة للماسون على يد "هيرودس أكريبا" حاكم الرومان بمساعدة وتوجيه مستشاريه اليهود، وذلك فى بداية الربع الثانى من القرن الأول للميلاد. حوالى عام "٣٥م".. وهذه المنظمة الصهيونية هى الأم لكل المنظمات التى جاءت بعدها، ثم ظلت الماسونية تعمل عبر التاريخ تحت مسمى "القوة الخفية" وهو الاسم الذى وضعه لها الذين أسسوها فى بدايات القرن الأول الميلادى. حتى جاء عام "١٧٧٠م" فبدأت تلك المنظمة اليهودية عهدًا جديدًا فى نشاطها على يد رجل نصرانى ارتد عن النصرانية وكفر بها ووضع نفسه فى خدمة المخططات اليهودية. وعمل بنشاط لتكوين تلك الجمعية على صورة قوية وفعّالة. وكان أن عقد المحفل الأول "للماسونية" وهو الاسم الجديد الذى اختير لها. عام ١٧٧٦م. تحت اسم "المحفل النورانى".

ثم سارت اليهودية العالمية تنشىء الجمعيات والتنظيمات التى تجند فيها الآلاف من المخدوعين بشعاراتها و"تستحمرهم" حسب تعبير التلمود الذى قال إن الأمم هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم اليهود، كلما نفق حمار ركبوا حمارًا آخر..

وكان أن نشأ من ذلك نوادى الليونز، والروتارى، وأبناء يهوه، وغير ذلك من نواد وجمعيات ومنظمات كلها تخدم لتحقيق أغراض اليهود الخبيثة.

المرحلة الثانية: وهى مرحلة العمل الواضح الفعال الذى أتى بثماره الأولى، ثم استمر يؤتى ثماره المُرة، وما يزال.

وقد بدأت تلك المرحلة بالثورة الفرنسية التى قامت سنة "١٧٨٩م".

هذه الثورة التى تمثل منعطفًا حادًا وخطيرًا فى مسيرة أوربا والغرب كله، ثم كانت لها آثارها على شعوب العالم فيما بعد، لم تكن من صنع اليهود ـ كما يظن البعض ـ ولكن أسبابها كثيرة، واندلاع شرارتها كان أمرًا متوقعًا. لكن الذى

حدث بالنسبة لليهود، أنهم استغلوا اندلاع الثورة الفرنسية، واستثمروها لصالحهم.

كانت الأسباب التى أدت إلى الثورة ظلم الإقطاع وظلم الكنيسة.

أما الإقطاع فكانت ترعاه الملكية، وأما الكنيسة فكان يقوم عليها رجال الدين فقامت الثورة للقضاء على النظام الملكى كله بأمرائه ووزارئه وإقطاعه، وكذلك قامت للقضاء على طغيان الكنيسة وظلم رجالها وفسادهم.

وهذان الهدفان للثورة كان يمكن تحقيقهما بأقل مما حدث بكثير، فإن القضاء على الملك الجالس على العرش وقتها كان كافيًا، وكان سجنه وسجن من حوله كافيًا كذلك بتهدئة النفوس الثائرة، وكان تقليم أظافر الكنيسة ورجالها كافيًا كذلك، ثم تعود الأمور إلى هدوئها، وترقأ الدماء تحت ظل نظام جديد أقل ظلمًا، وأكثر عدلاً.

لكن اليهود تسللوا إلى صفوف الثوار، واستثمروا الثورة لتحقيق أهدافهم الخبيثة، وأهم هذه الأهداف.

١ ـ استمرار الثورة وتطورها وانتقالها من مرحلة الإصلاح إلى مرحلة التدمير، لأن تدمير الشعب الفرنسى الذى طالما أذل اليهود أمر مطلوب ومرغوب، وإن كان التدمير فى حد ذاته أمرًا يثير شهيتهم، ويرضى نزعة الشر فيهم، ولذلك سعوا إلى أن تستمر الثورة، ويزداد ضرامها، وتسيل الدماء فيها أنهارًا حتى إذا قضى الثوار على أعدائهم انقلبوا هم على أنفسهم فأعملوا المقاصل فى رءوسهم، واليهود يفركون أيديهم فرحًا.

٢ ـ القضاء على نظام الإقطاع، لأن الإقطاعيين طالما استذلوا اليهود، ولأنهم يقفون باقطاعاتهم عقبة فى طريق الثورة الصناعية التى كانت قد بدأت تدق الأبواب، ولأنهم يعوقون مسيرة تلك الثورة الصناعية بتحكمهم فى الأيدى العاملة التى تحتاجها تلك الثورة الصناعية، حيث العمال فى ذلك الوقت يعملون عبيدًا أو شبه عبيدٍ فى الإقطاعيات، ومَحْظُور عليهم الانتقال إلى المصانع للعمل بها.

٣ ـ القضاء على الدين النصرانى ورجاله، وإذا لم يمكن القضاء على الدين نفسه. فالقضاء على سلطة الكنيسة تمامًا، وسلطة الدين على نفوس الناس، وسجن الدين داخل جدران الكنائس.. وفعلاً تم ذلك، وأقيمت أول حكومة فى فرنسا تحت شعار "العلمانية"، وكانت أول حكومة لا دينية يعرفها العالم فى ذلك الوقت. وذلك بفعل الثورة ظاهرًا، وبتخطيط وتنفيذ اليهود حقيقة وباطنًا.

٤ ـ السيطرة وإحكام قبضتهم على الحركة الصناعية التى كانت قد بدأت فى ذلك الوقت خطواتها الأولى، أو قبل ذلك بقليل.

فالثورة الصناعية لا تقوم إلا على المال، والمال كان فى أيدى طائفتين، فى أيدى الأمراء الإقطاعيين، وهؤلاء يستثمرون أموالهم فى الأراضى الزراعية التى يعيشون فيها ملوكًا أو أشباه الملوك، ولديهم العبيد بالمئات أو الآلاف، وليس لديهم معرفة بالصناعة، ويخشون استثمار أموالهم فيها فتخسر ولا يحصلون على أرباح، بل ربما فقدوا رءوس أموالهم. لذلك نكص الأمراء الإقطاعيون عن تمويل الصناعة التى كانت تحبو فى ذلك الوقت.

والطائفة الثانية التى تملك المال لتمويل الثورة الصناعية كانت اليهود. وقد عملوا جهدهم أن يسيطروا على الصناعة عن طريق إقراض أصحاب المصانع بالربا الفاحش مع الحصول منهم على ضمانات كبيرة للوفاء بأموالهم وفوائدها الربوية. وفعلاً كان لهم ما أرادوا من السيطرة على الصناعات التى دَرَّتْ عليهم الأرباح وأعطتهم فوق الأرباح سيطرة كبيرة على المجتمع الصناعى.

٥ ـ وكان هدفهم الأخير، والذى يعتبر هدفهم الدائم، ومقصدهم الأصيل تحطيم الأخلاق والقيم، وإشاعة الفساد، ونشر الرذيلة والانحلال، ولم تكن لديهم فرصة مواتية مثل قيام الثورة الفرنسية، فقد أيدوها بالأموال، وأمدوها بالخطباء الذين يلهبون حماس الجماهير وجنونهم، واستغلوا الرغبة العارمة لدى الجماهير الثائرة إلى الحرية وإلى الطعام والشراب واللباس، فأغرقوها فى إشباع الغرائز، وأمدوها بكل ما يلهب شهواتها الدنيا من خمور ونساء، حتى تحولت

الثورة والثوار لعبة فى أيدى اليهود. ولم يكن على اليهود إلا أن يرسموا الطريق ويطلقوا الشعارات، والجماهير تمشى خلفهم صما وعميانًا.

وكان أن وضع اليهود شعارًا للثورة الفرنسية صاغوه تحت عبارات: "الحرية، والإخاء، والمساواة"، وانطلقت جماهير الثوار يرددون هذه الشعارات كالببغاوات، واليهود من خلفهم يسوقونهم لتحقيق أهدافهم.

حيث قضوا على الإقطاع الذى كان يملك المال والقوة، وبذلك ضمنوا أنهم الجهة الوحيدة التى أصبحت تملك المال وقوته وسلطانه.

وقضوا على الكنيسة ورجالها، بذلك انتقموا من النصرانية والنصارى، الذين كانوا يعاملون اليهود بقسوة، ويلعنونهم فى صلواتهم باعتبارهم هم الذين صلبوا المسيح الرب - بزعمهم -

وقضوا على الدين جملة، حيث أصبحت الدولة "لا دينية" أو "علمانية" فاقتربوا خطوة واسعة من هدفهم الأصيل والدائم، نعنى تحطيمهم الأخلاق والقيم وضوابط السلوك لأن النصرانية - رغم فسادها وضلال مبادئها وعقائدها، وطغيان رجالها - إلا أنها كانت بالنسبة لعامة الناس صمام أمان - إلى حدٍّ ما - من الخروج على القيم والمبادىء وكانت - على فسادها - أفضل من الإلحاد والزندقة، التى دفع اليهود الناس إليها، وأغرقوهم فى حمأتها.

وصل اليهود - إذن - إلى أهدافهم الخبيثة من وراء الثورة الفرنسية، بل وصلوا من خلالها إلى أكثر مما كانوا يأملون.

لكن مكاسب اليهود من خلال الثورة الفرنيسة لم تقف عند حد الأهداف التى أشرنا إليها، بل إن مكاسبها الكبرى تمثلت فى الخبرة الواسعة التى اكتسبها اليهود من خلال تعاملهم مع الثوار ومع الأحداث نفسها، فقد اكتسب اليهود من تجاربهم هذه ذخيرة استغلوها بعد ذلك شر استغلال منذ ذلك الوقت حتى اليوم، فى إشعال الثورات ابتداءً، أو استغلالها إن هى قامت بغير تخطيط منهم، بل إنهم - وقد

أسكرتهم نشوة انتصارهم لأول مرة فى إقامة أول حكومة علمانية فى أول دولة لا دينية، تحت سيطرتهم ماديًا وتوجيهيًا، آلوا على أنفسهم أن يجدوا ويجتهدوا فى التوسع من صنع ذلك النموذج، ونشر الإلحاد، ومحاربة الدين فى نفوس الأفراد، فإن لم يستطيعوا اقتلاعه من قلوبهم، تكالبوا عليه بوسائلهم الخبيثة فأضعفوا آثاره فى النفوس، وتأثيره على القيم والأخلاق.

وقد بدأ اليهود يطبقون النموذج الفرنسى فى علمنة الدول الأوربية، وتكوين حكومات لا دينية فيها.. وكان لهم ما أرادوا حيث أمسكوا بمقاليد المجتمعات الأوربية، وعملوا على انسلاخها من دينها، وكان تحقيق ذلك أسرع مما كان متوقعًا، حيث كانت الثورة الفرنسية قد ألهبت الحماس فى أوربا كلها تحت شعاراتها الزائفة: الحرية ـ الإخاء ـ المساواة، ثم إن اليهود سلطوا على المجتمعات الأوربية وسائلهم الشيطانية فى نشر الفلسفة المادية الإلحادية التى انتشرت فى ألمانيا وانجلترا وفرنسا. وامتدت آثارها حتى شملت العالم الغربى كله.

كانت تلك الفلسفة القائمة على النزعة المادية، ورفض كل ما هو غير مادى، وشن الحرب على الدين بعامة، قد بدأت قبل الثورة الفرنسية، وكانت من أسباب قيامها. وجاء اليهود عقب الثورة فعملوا على نشر الفكر المادى الملحد فى أوربا كلها، نشروا المذاهب السابقة على الثورة من أمثال الفكر الإلحادى لـ "ديفيد هيوم"، ثم عملوا على تشجيع الحركات الإلحادية الجديدة، وفوق ذلك دفعوا بجنودهم المأجورين إلى وضع مذاهب جديدة تعمل على نشر الإلحاد، وتقويض القيم والأخلاق وإشاعة الفوضى فى المجتمعات.

فكانوا هم المحركين لمذاهب الفساد والإلحاد عند الكثيرين من أمثال: ماركس ـ ومن قبله "أوجست كونت" ثم دارون، ودور كهايم، وفرويد، وغير هؤلاء كثيرون. منهم من صنعهم اليهود ودفعوا بهم إلى الساحة ومنهم من استغل اليهود فلسفاتهم وأفكارهم ونشروها وزينوها فى عقول الجماهير، حتى تحول العالم الغربى إلى النظام العلمانى اللادينى، وبذلك نجح اليهود فى الوصول إلى أهدافهم، فى إبعاد

الدين عن النظام والسلطة، وفى غياب الدين نشروا كل ما لديهم من أساليب الفساد الخلقى والسلوكى، حتى حوَّلوا المجتمعات الغربية إلى مباءات للرذيلة والانحلال إلى الحد الذى يعف الإنسان عن ذكر شىء من الأمثلة على ما وصلت إليه تلك المجتمعات.

هذه كانت الحال فى الغرب، حيث عمل اليهود على محاربة الدين، وعلى نشر الفساد وإشاعة الرذيلة، وذلك عن طريق نشرهم ومساعدتهم فى نشر المذاهب الفكرية المادية الملحدة.

فماذا عن العالم الإسلامى أو المجتمعات الإسلامية؟

إن الأمر يختلف من حيث الشكل، وإن كان الموضوع واحدًا، وهو محاولات نشر المذاهب الفكرية الملحدة فى المجتمعات الإسلامية.

أما الشكل الذى نقصده، فهو القائمون على نشر هذه المذاهب فى بلادنا المسلمة.

لقد عرفنا أن اليهود هم الذين قاموا بنشر الفلسفات والمذاهب الإلحادية فى العالم الغربى، حتى حولوه إلى ما هو عليه. أما فى العالم الإسلامى فالأمر يختلف، فليس اليهود وحدهم العاملين فى ذلك المجال، والساعين إلى تحقيق ذلك الهدف. وإنما اجتمع إلى اليهود أعداء الإسلام من الصليبيين الحاقدين على الإسلام والمسلمين. وبذلك تحالف اليهود والنصارى ضد الإسلام والمسلمين، وأضحى المسلمون فى بلادهم بين "فكى كماشة" هائلة فى أحقادها، هائلة فى إمكاناتها، وأضحى أعداء الأمس اليهود والنصارى، صديقين، كل منهم وضع يده فى يد الآخر ضد عدوهم المشترك: الإسلام والمسلمين. ولنا أن نتخيل - بعد ذلك - شراسة المعركة وضراوتها بين الإسلام وهذين العدوين اللدودين.

وقد بينا فيما سبق، عند حديثنا عن أسباب انتقال المذاهب الفكرية، وانتشارها فى الكثير من المجتمعات الإسلامية، وعن وسائل أعداء الإسلام فى نشر هذه المذاهب، ما يكفى لتوضيح دور كل من اليهود، ثم النصارى الصليبيين فى القيام بنشر هذه المذاهب فى مجتمعاتنا الإسلامية بما يغنى عن إعادته هنا.

* * *

القسم الثانى

أمهات المذاهب فى أشهر الاتجاهات المعاصرة

المبحث الأول

دافيد هيوم

حياتـــــه:

ولد "دافيد هيوم" لأسرة اسكتلندية بورجوازية، وجهته أسرته إلى دراسة القانون. لكنه كان شغوفًا بالفلسفة، فخرج على رغبة أسرته فى دراسة القانون واتجه إلى دراسة الفلسفة. بعد أن تخرج من جامعة "أدنبره" اتجه إلى التجارة شأن الأسر المتوسطة "البورجوازية" فى ذلك الوقت، لكنه فشل فى تجارته، فتركها إلى الاشتغال بالكتابة. فسافر إلى فرنسا وهو فى سن الثالثة والعشرين، ومكث بها ثلاث سنين وهو يكتب ويحرر بعض المقالات، ثم عاد إلى إنجلترا. حيث عُيِّنَ كاتب السفارة البريطانية فى باريس "١٧٦٣-١٧٦٥م"، ثم عاد إلى وطنه ليواصل الاشتغال بالتأليف، ثم عين وزيرًا فى الحكومة البريطانية، وبقى فى منصبه عامًا واحدًا "١٧٦٨م" ثم ترك الوزارة وأقام بمدينة "أدنبره" مسقط رأسه، واشتغل بتحرير فلسفته والتصنيف فيها حتى مات "١٧٧٦م".

مؤلفاته:

سافر "هيوم" إلى فرنسا وهو فى الثالثة والعشرين، وظل ثلاث سنين يحرر مقالاته وآراءه، فلما عاد إلى انجلترا نشر أفكاره وآراءه تلك فى مجلدين، ثم أتبعهما بمجلد ثالث، وكان من ذلك ما أسماه: "رسالة فى الطبيعة الإنسانية" ثم وضع كتابًا آخر تحت عنوان: "مقالات سياسية". ثم نشر كتابًا تحت عنوان: "تاريخ بريطانيا العظمى" الذى لقى قبولاً من الأوساط الأدبية، فخفف عنه فشله فى كتابه الأول، ثم كتب مؤلفًا سماه "محاورات فى الدين الطبيعى" لم يشأ أن ينشره فى حياته، خوفًا من محتوى الكتاب الذى يهاجم فيه عقائد الناس ومقدساتهم، ثم وضع كتابًا فى نفس الموضوع سماه: "التاريخ الطبيعى للدين". أما كتابه "محاورات فى الدين

الطبيعى" فقد نشر بعد موته بثلاث سنين. فاكتمل بذلك مذهبه الإلحادى، وأفكاره الضالة عن الدين وكل ما يتصل به. وقد تميزت أفكاره وكتاباته عن الدين بالسفسطة والمغالطة، إلى ما فيها من هجوم عنيف يدل على ما كان لدى الرجل من عداء للدين بكافة صوره.

الأسس التى تقوم عليها فلسفته:

تقوم فلسفة "هيوم" الإلحادية على عدد من الأسس أهمها:

أولاً: تنطلق فلسفته وآراؤه جميعها من الحس كمجال وحيد للمعرفة، ومنبع فريد للإدراك. فالمعارف عنده تقوم على أساس حسى بحت، والمادة الجامدة هى مصدر المعارف، وليس هناك مصدر آخر يستقى الإنسان منه معارفه. وكل ما يتحدث عنه المتدينون من مصادر للمعرفة غير الحس والمادة، فإنما هى أوهام لا حقيقة لها، ولا وجود لها إلا فى مخيلة أصحابها.

ثانيًا: أكد على الذاتية فى مقابل الواقعية والموضوعية. وذهب إلى أن معتقدات الإنسان وآراءه عن العالم الخارجى إنما هى من وحى خيال الإنسان، ومن خلق أوهامه، وأنها لا ترجع إلى العالم الخارجى، وإنما ترجع فى حقيقة الأمر إلى ما يتوهمه الإنسان عن العالم الخارجى، وذلك نتيجة لما لديه من معتقدات سابقة، ومدركات ذهنية مختزنة، فهو يسقط كل ذلك على العالم الخارجى ويفسره بها، فتكون الحصيلة أن يعلن عن ذاته. وعن مكنونات نفسه، ولا يعلن عن الحقائق الخارجية التى يزخر بها العالم الواقعى.

ثالثًا: استمرارًا فى تأكيده على الذاتية فى مقابل الموضوعية، ونتيجة لذلك، فقد جعل أفعال الإنسان وسلوكه إنما هى ردود أفعال لما يعتمل فى نفسه من إحساس باللذة أو الألم، واستجابة لكل ما يشعر به تجاه الأشياء من سعادة أو شقاء، فأفعال الإنسان تحكمها الحواس الظاهرة من الإحساس باللذة والألم. ويتبع الحواس الظاهرة الحواس الباطنة مثل المحبة والكراهية، أو الرجاء والخوف، والفرق بين الحواس الظاهرة والحواس الباطنة، أن الأولى مباشرة. فاللذة

والألم يحس بهما الإنسان مباشرة من مصادر كل منهما. ثم يأتى رد الفعل بعد ذلك على هيئة إحساس باطنى أو انفعال وجدانى، فنحب النوع الأول، ونحرص عليه، ونرجو تحقيقه، ونكره النوع الثانى الذى هو الألم، ونتجنبه وننفر منه.

رابعًا: تأكيدًا على ما تقدم، وتأسيسًا عليه، يذهب "هيوم" إلى أن الفرق بين ما هو خير، وما هو شر، إنما يكمن فيما ينتج من كل من لذة أو ألم، فالفيلسوف "هيوم" يربط بين اللذة والخير، والألم والشر، فكل ما سَبَّبَ للإنسان لذة أو سعادة فهو خير، وكل ما سبب له ألمًا أو تعاسة فهو شر.. وبالتالى فإن الفضيلة والرذيلة تخضعان لنفس المقياس؛ مقياس اللذة والألم، فكل ما يحقق للإنسان لذة فهو فضيلة، وكل ما يسبب له ألمًا فهو رذيلة.

ويأتى هنا سؤال هام وخطير؛ أين محل إرادة الإنسان من كل هذا؟! ثم ما أثرها فى توجيه الإنسان ما دامت أفعاله ردود أفعال؟!

والجواب الواضح والحتمى بناء على المبادىء التى يعتنقها "هيوم": أن إرادة الإنسان الحرة المختارة لا وجود لها، إن الإنسان يتحرك كآلة تحركها مشاعر الألم واللذة، وتتحكم فيها أوهامه وخيالاته عن العالم الخارجى، الذى لا يتعامل معه إلا من خلال ردود الأفعال.

وهكذا قضى الرجل على الأخلاق على مرحلتين:

الأولى: حين ربط بين الخير واللذة، والشر والألم، ثم ربط الفضيلة إلى اللذات، والرذيلة إلى الآلام، فجعل الأخلاق فى أساسها تقوم على أصول حسية مادية بحتة.

الثانية: والمرحلة الثانية حين جرد الإنسان من مسئوليته عن أفعاله بأن جعل كل أفعاله إنما هى ردود أفعال، وقيد إرادته الحرة التى تقوم عليها المسئولية الفردية والخلقية بما يحس به من لذة وما يحس به من ألم، فإنه يندفع إلى الأولى بلا وعى، وينفر من الثانية كذلك بلا وعى.

مفتاح شخصيته:

١ ـ طبق الفيلسوف مبدأه فى ذاتية المعارف فى مقابل موضوعية العالم الخارجى على قانون السببية والعلية.

فقد أنكر أن يكون هناك قانون للسببية أو العلية، بل إنه أنكر ما يسمى بالأسباب والعلل. مُدّعيًا أن ما يزعمه الناس من قوانين للأسباب والمسببات، أو العلل والمعلومات، إنما هو من أوهام النفس وخداع الذات، وأن الواقع أنه لا يوجد ما يسمى بالسببية أو العلية.

أما كيف يفسر الرجل دعواه هذه؟

فإن الرجل يدعى أن ما يسمى سببًا وما يسمى مسببًا، كل منهما ظاهرة منفصلة تمامًا عن الأخرى، وأنه لا توجد أية علاقة حقيقية بين الظاهرتين، كل ما هنالك أن الناس لاحظوا أن الظاهرة الثانية تأتى عقب الظاهرة الأولى، فربطوا بينهما بسبب اقترانهما فى الوجود زمانًا ومكانًا، وهذا الربط إنما هو افتراض ذهنى ذاتى قائم على تداعى المعانى، ولا حقيقة له.

فالإنسان يشعل النار، وهذه ظاهرة، ثم يشعر بالحرارة والدفء، وهذه ظاهرة أخرى قد جاءت عقب الظاهرة الأولى، ولا يوجد دليل فى العقل أو الواقع على ضرورة وجود الظاهرة الثانية دائمًا عقب وجود الظاهرة الأولى، كما لا يوجد دليل على علاقة بين الظاهرتين.

وهو يضرب مثالاً بكرات "البلياردو" التى يضرب اللاعب بإحدى الكرات لتصطدم بالكرات الأخرى وتحركها إلى حيث يريد اللاعب.. فيقول: إننى أرى كرة البلياردو تتحرك فتصادم كرة أخرى، فتتحرك الأخرى، وليس فى حركة الأولى دليل على ضرورة تحرك الثانية حين تصطدم بها الأولى.

ويضرب الرجل مثالاً ثالثًا على تحرك أعضاء الجسم تبعًا لإرادة الإنسان، فيقول: نرى الإنسان يريد أن يأكل تفاحة وضعت أمامه، فتتحرك يده لتلتقط التفاحة

وترفعها إلى فمه، ويبدأ فى قضمها مرة بعد مرة، ولا توجد علاقة بين رغبة الإنسان فى أكل التفاحة، وامتداد يده إليها ورفعها إلى فمه. فالرجل يدعى أنه لا علاقة بين إرادة الإنسان وحركة يده نحو التفاحة وحملها إلى فمه، ويرفض أن تكون إرادة الإنسان هى السبب أو العلة فى حركة اليد. ويقول: "أنا لا أدرى كيف يمكن لفعل ذهنى ـ يقصد إرادة الإنسان ـ أن يحرك عضوًا ماديًا ـ يقصد يد الإنسان ـ إنى لا أدرك علاقة بين إرادة الإنسان وحركة يده".

إن الرجل يرجع قانون العلية والسببية إلى ما سماه قوانين التشابه والتقارن فى الزمان والمكان.

وهو يقصد بالتقارن فى الزمان والمكان؛ أن ظاهرة السبب وظاهرة المسبب قد ألف الناس اقترانهما فى الوجود معًا متعاقبتين فى نفس الزمان والمكان، فقد ألف الناس أن اصطدام العصا باليد ـ فى حالة الضرب بالعصا ـ تحدث شعورًا بالألم، وأن هناك اقترانًا بين الأمرين أو الظاهرتين فى الزمان والمكان. فبسبب هذا الاقتران توهموا علاقة بين الظاهرتين سموها علاقة السببية.

وقد تحقق نفس الألم عقب الاصطدام بين العصا واليد، فى كل مرة يحدث ذلك فهناك تشابه فى كل الحالات. وهذا ما سماه الرجل "قانون التشابه".

فهو يزعم أن القول بالسببية والعلية ناشىء عن هذا الاقتران والتشابه. ويسمى ذلك: قوانين التشابه والتقارن فى الزمان والمكان، ويسميها كذلك: "قوانين تداعى المعانى". ويفسر قانون تداعى المعانى بقوله: "إن ما يسمى بالعلة شىء كثر بعده تكرار شىء آخر حتى إن حضور الشىء الأول يجعلنا ـ عن طريق تداعى المعانى ـ دائمًا نفكر فى حضور الشىء الثانى".

موقف هيوم من الدين:

"هيوم" فيلسوف ملحد، لا يؤمن إلا بالمادة وحدها، ولا يرى وسيلة للمعرفة إلا الحس الذى يستقى منه معارفه، ويستمد علومه من المادة. وهو يرفض الإيمان بأى شىء خارج نطاق العالم الطبَعى المحسوس. ومن ثم فقد أعلن "هيوم" الحرب

على الدين. وسَخَّرَ فلسفته فى جانبها الأكبر والأهم لمحاربة الدين، وإقامة أوهامه التى اعتبرها أدلة على بطلان الدين، وإثبات أن الدين ما هو إلا خرافة، ووهم من الأوهام التى تعود إلى الذاتية، والتى لا حقيقة لها فى الخارج.

ليس هذا فحسب، بل إن المبادىء الأساسية التى تقوم عليها فلسفة هذا الملحد، إنما وضعها وأكد عليها ليصل من خلالها إلى إثبات أن الدين باطل،وأنه من أوهام النفس وخيالات الذات.

وواضح أن الرجل بدأ ملحدًا، ثم رسم لنفسه من بدايات اشتغاله بالفكر والتفلسف أن يسخر فكره وفلسفته لهدف واحد، وهو حرب الدين، والقضاء عليه فى نفوس المتدينين.. ولذلك فنحن نستطيع أن نحدد نقطة الإنطلاق فى فكر الرجل وفلسفته، ونبين الركيزة الأساسية التى يرتكز عليها مذهبه بأنها: الإلحاد.

الإلحاد ـ إذن ـ هو مفتاح شخصية الرجل، والمحور الذى يدور عليه فكره. وهذا يتضح من المجهود الذى بذله طوال حياته من خلال مؤلفاته. وإن نظرة إلى مؤلفاته يتضح منها أنه لم يكتب شيئًا فى الفلسفة والفكر إلا حول الإلحاد ومحاربة الدين.

فنحن إذا استثنينا مؤلفه: "مقالات سياسية"، ثم مؤلفه الآخر الكبير: "تاريخ بريطانيا العظمى". وهما كتابان فى شئون بعيدة عن الفلسفة، أو أن صلتها بالفلسفة صلة محدودة، فإن مؤلفاته الأخرى جميعها تدور حول الإلحاد وتأكيده، وبيان افتراءاته على الدين.

ونحن لا نهتم كثيرًا بكفره بالنصرانية البروتستانتية التى يدين بها قومه ـ وإن كان النصرانى أفضل من الملحد ـ ، لكن الذى يهمنا أن الرجل لم يقف حربه على النصرانية، ولكنه حارب الدين بكل صوره، وأخذ يركز حربه كلها وافتراءاته جميعها على وجود الله ـ سبحانه وتعالى عما يصفون ـ ومن ثم فلم يعد الأمر وقفًا على نصرانيته، بل أصبح الأمر عامًا شاملاً لكل دين.

وقد وضع الرجل مبادىء فلسفته لهذا الهدف الخبيث.

١ ـ فهو حين أنكر علاقة الفكر الإنسانى بالواقع، وأكد على الذاتية فى مقابل الأمور الخارجية، والحقائق الموضوعية. واتهم الإنسان بأن كل ما يدعيه من معارف إنما هى ناشئة عن أوهامه الذاتية، إن الرجل حين وضع هذا المبدأ، أو روج لهذه الفكرة، إنما أراد أن يقر أن المتدينين، وكل من يعبد ربه، وكل من يخضع لإلهه، أيًا كان ذلك الدين، فإن هؤلاء جميعًا واهمون، وأن الدين وكل ما يتصل به من عقائد وعبادات، إنما هى من أوهام الذات التى لا صلة لها بالواقع.

٢ ـ وهو حين أنكر قانون السببية والعلية، فإنه فعل ذلك ليصل إلى إبطال الأدلة على وجود الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

إن أشهر الأدلة وأقواها على وجود الله ـ سبحانه ـ وأكثرها شيوعًا بين عامة المتدينين إنما هو الدليل القائم على الانتقال من الخلق إلى الخالق، أو من الصنعة إلى الصانع، إن الفطرة، وبديهة العقل، ومسلمات الفكر وأولياته تجعل لكل فعل فاعلاً، وتجعل من الفعل دليلاً على فاعله، ومن قديم والناس يستدلون على الخالق ـ سبحانه ـ من خلال خلقه، كما يستدلون بوجود صنعة مَّا على وجود صانعها، بل إنهم ليستدلون على صفات الصانع من خلال ما يرون فى الصنعة من حكمة وإبداع وإتقان، فيقولون: صانع بديع حكيم.

أو قد يرون فى الصنعة خلاف ذلك أو عكسه، فيصفون الصانع بما يناسب ما رأوا. هكذا كان الناس، وهكذا هى فطرهم التى فطرهم الله ـ تَعَالَى ـ عليها.

لا غرو، قد لفت الله ـ سبحانه ـ الناس إلى خلقه، ودعاهم إلى أن ينظروا إلى ما فى ذلك الخلق من إتقان وعناية وحكمة وإبداع، ثم إلى الإيمان بالخالق الذى خلق وأتقن وأبدع، فإن الخلق آية وعلامة على الخالق. يقول ـ عز وجل ـ :﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ

وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٤-٣٦](١).

هذه الأدلة وغيرها قائمة على أساس من قوانين السببية، والعلية، بمعنى أن انتقال الإنسان من الخلق إلى الخالق، أو من الصنعة إلى الصانع. هو من باب انتقاله من المسبب إلى سببه، أو من المعلول إلى علته.

إذا عرفنا ذلك. وقد عرفنا قبل ذلك أن "هيوم" ملحد، وقد نذر نفسه للانتقاض على الدين والمتدينين، وسد الطريق أمام الناس الذى يصلون من خلاله إلى استدلال على وجود الله ـ سبحانه ـ فماذا هو فاعل؟

إن ذلك الشيطان فكر وقدر، قتل كيف قدر، ثم وجد أن أيسر الطرق إلى القضاء على الدين، وتجفيف منابع التدين فى نفوس المتدينين، إنما هو القضاء على قانون السببية، وإبطال كل علاقة بين السبب والمسبب، حتى لا يقيم الناس من المسببات التى هى المخلوقات، طريقًا أو قنطرة يصلون من خلالها إلى المسبِّب، أو الخالق ـ جل الله وعز ـ.

إذن؛ فكل هذه الثورة من الفيلسوف الملحد على قانون السببية، وهو قانون فطرى بدهى، عبر عنه البدوى قديمًا بقوله: "البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، لا تدل على العليم الخبير؟" والذى ذكره العربى القديم فطرة الله فى كل الخلق، فهو ليس قصرًا على العربى، لأنه لا يرجع إلى عروبته، التى تخص جنسه، بل يرجع إلى إنسانيته أو فطرته كإنسان، وتلك تجمع الخلق كلهم، فما أحس به العربى وأشار إليه من الانتقال من الفعل إلى الفاعل، أو من المسبَّب إلى السبب، فطرة الله فى الخلق أجمعين، ولذلك حينما فكر الفيلسوف الملحد دَلَّه شيطانه أن يتوجه بالطعن إلى الأسباب والمسببات، فيبطل العلاقة بينهما، ثم تكون النتيجة إبطال الانتقال من المسبَّب إلى

---

(١) سورة [يس: ٣٤: ٣٦]، وأكمل القراءة حتى الآية ٤٦. وإن شئت فازدد، يزدك الله أجرًا.

سببه، وهكذا يقضى ذلك الشيطان على شجرة المعرفة وأصلها. فهو يحمل معوله ليضرب به فى أصل الشجرة، ليقطع جذعها، وليس غصنًا من أغصانها.

والرجل الملحد لم ينكر ذلك. بل صرح به فى كتبه كلها التى وضعها لهذا الهدف، فهو يردد فى كل ما كتب "أن الصنعة لا يمكن أن تدل على صانع لها إلا إذا رأينا الصنعة فى يد الصانع يقوم بتشكيلها، ورأيناها تخرج من بين يديه، إننا حكمنا بأن الساعة لها صانع، لأنا رأينا الصانع يقوم بصنعها، لكنا لا نستطيع أن نطبق ذلك على الكون، لأنا لم نر الكون داخل مصنع، والصانع يجتهد فى صنعه".

ويقول: "لماذا نبحث للمادة عن صانع مفارق ـ ولماذا لا نمد المادة إلى لا نهاية ثم نجعلها هى الله، فيكون الإله أمامنا ومن بيننا"؟

وأخيرًا يقول: إذا كنا سوف نتمسك بقانون السببية، وأن كل موجود له سبب، فسوف نجد أنفسنا مطالبين بالسير فى القانون إلى نهايته فنبحث عن سبب لوجود الله نفسه".

بين الغزالى وهيوم

لا يسع القارىء عن موقف "هيوم" من قانون السببية والعلية، إلا أن يتذكر "أبا حامد الغزالى ـ رحمه الله ـ" وموقفه من السببية كذلك. فإن "أبا حامد الغزالى" قد أنكر قانون السببية، وقد يكون الفيلسوف الملحد "هيوم" قد قرأ عن موقف أبى حامد من السببية فنحا نحوه، وانتهج طريقه. لكن ينبغى أن نعرف أن ثمة فارقًا شاسعًا بين الاثنين، فلا نجمع بينهما فى حزمة واحدة، لمجرد أن جمعهما طريق إنكار السببية، فإن الطريق الواحد قد يسلكه اثنان: طبيب ليحيى نفسًا مريضة، وسفاح ليقتل نفسًا صحيحة. وإن السكين الواحدة لتقع فى يد اثنين: أحدهما ليسفح بها دم بهيمة أحل الله ـ سبحانه ـ ذبحها، والثانى ليسفح بها دم نفس حرم الله ـ تَعَالَى ـ قتلها.

فأبو حامد الغزالى أنكر السببية، وكذلك فعل هيوم، لكن هناك فروقًا بين الرجلين. وأهم هذه الفروق والاختلافات بينهما ما يتصل بالمنطلق. والنتيجة. ونعنى بالمنطلق؛ السبب الذى حدا بكل منهما إلى إنكار قانون السببية. ونعنى بالنتيجة؛ المحصلة النهائية التى وصل إليها كل منهما من خلال مذهبه فى إنكار السببية.

أما من حيث المنطلق.

فقد أنكر "أبو حامد" المسببية كرد فعل لما كان عليه الفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام، حيث ذهبوا إلى أن العلاقة بين السبب والمسبب علاقة حتمية ضرورية، وأن نقض هذه العلاقة من المحالات، بل ذهبوا إلى أن الأسباب تفعل فى مسبباتها

بذواتها، ومن هنا فقد أنكروا خرق العادات، وشغبوا على المعجزات للأنبياء، والكرامات للأولياء.

ونحن نعرف أن "أبا حامد" قد نذر حياته لحرب الفلاسفة، وفضح آرائهم، وبيان فساد عقائدهم. فكان من شدة رفضه مذاهبهم، والحرص على مخالفتهم فى كل ما ذهبوا إليه، أن وقع فيما وقع فيه من تطرف شديد، كرد فعل لما ذهبوا إليه فى آرائهم عن السببية، ورغبة فى مخالفتهم وإبطال مذهبهم، فقد ذهب إلى ما ذهب إليه.

أما الفيلسوف الملحد "هيوم" فقد سبق أن عرفنا أن منطلقه فى مذهبه إنما كان الرغبة الشيطانية عنده فى محاربة الدين، ونفى الأدلة على وجود الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقد بينا ذلك فضل بيان، وأن فلسفته كلها تقوم على تحقيق تلك الرغبة الشيطانية.

وأما من حيث النتيجة التى وصل كل منهما إليها فى فلسفته؛ فإن "أبا حامد" ـ رحمه الله ـ تَعَالَى ـ قد أكد على عقيدته فى أن الله ـ سبحانه ـ هو الفاعل التام الحقيقى فى ذلك الوجود، وأن الأسباب لا تفعل بذواتها، وإنما هى أمور عادية مألوفة، آثارها فى مسبباتها موقوفة على إرادة الله ـ تَعَالَى ـ.

أما الفيلسوف الملحد ـ لعنه الله ـ تَعَالى ـ فقد التزم الهدف الذى سعى إليه وأكد على النتيجة التى ظن أنه قد حققها من خلال أوهامه وأضاليله فى إنكار السببية، وإبطال الأدلة على وجود الله عز وجل. وقد هلك الرجل وهو يظن أنه قد حقق ما أراد. ولكنه لم يهلك حتى رأى ثورة الكثيرين ووقوفهم ضد أفكاره الإلحادية، مما دفع به إلى أن يمسك عن نشر أحد كتبه التى يهاجم بها الدين بعنف وهو "محاورات فى الدين الطبيعى" فلم ينشر إلا بعد موته بثلاث سنين.

بهذا يتضح أن بين الرجلين الرافضين قانون السببية من الخلاف كمثل ما بين سماء الله وأرضه. فهما يختلفان من حيث السبب الدافع لكل منهما إلى رفض ذلك القانون. ويختلفان كذلك فى النتيجة والهدف والغاية التى تَوَخَّى كل منهما تحقيقها والوصول إليها.

* * *

نقد آراء هيوم

إن الذى يتعرض لنقد الآراء الباطلة، والفلسفات الفاسدة، يجد نفسه أمام نوعين منها. نوع خفيٍّ البطلان، مستور الفساد، يحتاج من الناقد ذكاء فى الذهن، ودقة فى النظر، وعمقًا فى التحليل، وصبرًا على التنقيب بين ثنايا تلك الفلسفات، وخبايا هذه الآراء، حتى يستطيع أن يظهر ما كان منها خفيًّا، ويكشف ما كان منها مستورًا، ويبين للناس فسادها وبطلانها، ولكن بعد جد وجهد ومثابرة.

والنوع الثانى من تلك الآراء والفلسفات على عكس النوع الأول، ظاهر الفساد، واضح البطلان، بيِّن الزيف، لا يحتاج من الناقد جهدًا، ولا يكلفه مشقة، بل إن بعض هذه الفلسفات الفاسدة، والآراء الزائفة الباطلة، لتكون من وضوح البطلان، وظهور الفساد إلى الحد الذى لا يجد الناقد ما يقوله فيها، حيث يكون فسادها أوضح من أن يوضح، وبطلانها أظهر من أن يحتاج إلى إظهار.

وآراء هذا الفيلسوف الملحد التى نعرضها للنقد، هى من النوع الثانى، إذْ هى بينة الفساد، واضحة البطلان. لكنا نزيد ذلك بيانًا ووضوحًا، فنتناول أفكارها الأساسية التى قامت عليها تلك الفلسفة بالنقد فى نقاط محددة.

أولاً: إن الرجل الملحد يصدر آراءه وفلسفاته على صورة تقريرية بحتة، دون أن يكون لديه دليل على أيٍّ منها. فهى آراء وأفكار لا وجود لها إلا فى ذهنه المريض فقط، وإذا ما طالبناه بدليل على شىء مما يقول، لم تجد لديه سوى ادعاءاته، وافتراضاته، وسوف يتضح لنا ذلك من مناقشة آرائه فيما يلى.

ثانيًا: ادعاؤه بأن الناس يعيشون داخل ذواتهم، وأن صلاتهم بالعالم الخارجى مقطوعة، وأن كل ما يعرفه الإنسان عن العالم الخارجى إنما هو أوهام من صنع نفسه، ولا صلة لها بالواقع.

هذا الادعاء أوضح فى البطلان من أن يوضح، فإن العالم الذى نعيشه حقيقة واقعة، ونحن نتعامل مع قوانينه ومعطياته فى كل لحظة من لحظات حياتنا، وليس هناك ما يختلف حوله الناس من تلك القوانين والمعطيات، فهل يختلف الناس على أن النار محرقة؟ وهل هذه حقيقة من الحقائق الخارجية أم أنها وهم من أوهام الذات؟ إن الناس يأكلون ليشبعوا من جوع، ويشربون ليرووا من ظمأ، ويتداوون ليبرأوا من مرض، ويبيعون ويشترون، فهل كل هذه أوهام ذاتيه؟ أم أنها حقائق خارجية؟.. ثم إن الفيلسوف الملحد نفسه عندما كان يشعر بالجوع؛ هل كان يسارع إلى الطعام ليحفظ على نفسه حياته؟ أم أنه كان يقول لنفسه ما يقول للناس فى فلسفته: إن شعوره بالجوع وهم من أوهام ذاته، ثم يجلس بلا طعام حتى يهلك؟ إنه لو فعل لأراح الناس من أباطيله. لكن سلوكه نفسه يدل بوضوح على بطلان ما يدَّعيه.

ثالثًا: مثل ما ذكرنا فى النقد السابق، نذكر هنا نقدنا موقف الرجل من قانون السببية، فإن قانون السببية أمر واقع، والجدال حوله، والتشكيك فيه تحت أية مبررات، إنما يعتبر صدامًا مع الواقع، وجحدًا للحقائق الموضوعية التى يزاولها الناس منذ خُلِقُوا. وإنَّ حياة الفيلسوف الملحد نفسها وسلوكه فى كافة شئونه لتدل دلالة واضحة على كذبه وفساد آرائه. إنه كان يأكل ويشرب ويتداوى، فهل كان يفعل ذلك إلاّ لأن هذه أسباب تؤدى إلى مسبباتها من الشبع ومن الرى ومن الشفاء؟.. إن هذا الذى يطعن فى السببية وينكرها عاش حياته ملتزمًا بقوانين الأسباب والمسببات، والعلل والمعلولات، إنه لم يزد فى فلسفته تلك على أن أعلن نفاقه وكذبه فى دعاواه الباطلة، إذ يطلع على الناس بأفكار وآراء هو أول من يكذبها ويرفض التعامل معها.

رابعًا: زعمه أن الإنسان يعيش حياته شبه آلة تحركها الشهوات، وتنحصر أفعاله كلها فى ردود الأفعال تجاه ما يسبب له لذة أو ألمًا، ثم ربطه الأخلاق باللذات والآلام، وجعله الخير هو اللذة، والشر هو الألم، كل ذلك يتمشى معه كفيلسوف ملحد، ويتفق مع نظريته فى المعرفة التى حصرها فى الحس. فالحس

عنده هو المصدر الوحيد للمعرفة، ولا يقر بأى مصدر آخر للمعارف سوى هذا المصدر المادى المحدود.

لكن هل جاء بشيء جديد؟ إنه لم يزد على أن أضاف للحسيين الماديين الملاحدة دابة أخرى هى من شر الدواب الذين قال الله ـ تَعَالَىٰ ـ فيهم:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

فهو لم يأت فى هذا الجانب بجديد، سوى أنه حول نفسه إلى آلة حسية مادية جامدة. لا تتحرك إلا طلبًا للذة الحسية المسفة..

ورغم ذلك فإن مذاهبهم باطلة من سلوكهم أنفسهم.. أليس الواحد منهم يتجرع الدواء المر طلبًا للشفاء؟ فلماذا أقبل عليه رغم أنه يسبب له ألمًا، ولا يجلب له لذة حسية؟ أليس الواحد منهم يجرى عملية جراحية فيها آلام حسية، وفيها شق اللحم وإسالة الدم بل وبتر عضو، كل ذلك طلبًا للشفاء؟ فلم يفعلون ذلك؟.. إن هذه السلوكيات فيها تكذيب واضح لما ادعاه الرجل ولكل ادعاءات السابقين عليه من أصحاب مدارس اللذة الحسية فى فلسفة الأخلاق مثل الأبيقوريين ومن جرى مجراهم.

خامسًا: نأتى إلى آخر رحلتنا مع الملحد لنناقش فكره وفلسفته حول وجود الله ـ سبحانه ـ.

ونحن لن نناقشه فى إلحاده، فالملاحدة كُثُر فى كل زمان ومكان.. لكن يهمنا هنا أن نناقش دعواه التى يقول فيها: إن البحث عن علة للوجود المادى يدفع بنا إلى أن نبحث عن علة لله نفسه ـ سبحان الله وتعالى عما يصفون ـ

إن الخطأ الذى وقع فيه الرجل ويقع فيه كل من على شاكلته، أنهم لا يفرقون بين الأسباب الناقصة والأسباب التامة، أو بين الأسباب الوسطية والأسباب النهائية إنهم يخلطون بين هذه وتلك، وعلتهم ليس فى خفاء هذه الحقيقة البسيطة، ولكن علتهم فى قلوبهم المريضة، لأن هذه الحقيقة بدهية لا تخفى على أقل الناس فهمًا وأدناهم ذكاء.

فالأسباب التى نزاول حياتنا من خلالها فى هذا الوجود إنما هى أسباب وسائط. وهى مسخرة لغيرها، ولها مسبب ومسخِّر. والمسببات التى تنشأ عن هذه الأسباب إنما ترجع إلى هذه الأسباب مباشرة من قريب، لكنها ترجع فى حقيقة الأمر إلى مسبب لها تام.. فنحن نأخذ الدواء. والدواء سبب فى شفاء المرض. والشفاء يرجع إلى سببه المباشر وهو الدواء، لكن الدواء سبب ناقص، وهو فى نفسه مسبب عن السبب التام، أو الفاعل التام الذى بيده الشفاء الذى هو الله ـ سبحانه ـ.

ونحن نستطيع أن نقرب القضية بمثال.. فإن الدواء سبب فى الشفاء، لكن الدواء نفسه مسبب، وسببه هو الصيدلى الذى أعده فى صيدليته، والصيدلى نفسه لم يأت بذلك من نفسه، بل إن السبب فى إعداده الدواء هو الطبيب الذى أرسل إليه ورقة فيها تحديد الدواء المطلوب لهذا المريض، ثم إن الطبيب نفسه مدين بعلمه ذلك لمن علمه، فهو السبب فى أن الطبيب عرف المرض ووصف الدواء.. وهكذا تمشى سلسلة الأسباب والمسببات، وكلها تترقى من مستوى إلى مستوى، لكنها جميعها مشتركة فى أنها أسباب ناقصة، بمعنى أنها فى حاجة إلى من يقف وراءها، مثل الدواء، فإنه سبب محتاج إلى الصيدلى، والصيدلى سبب لكنه محتاج إلى الطبيب، وهكذا.. تمشى تلك السلسلة، ولا نجد من بينها سببًا كافيًّا مكتفيًا بنفسه، بل كلها معلولات لما قبلها. وذلك هو معنى كونها أسبابًا ناقصة، أو أسبابًا وسائط وهذا النقص يصل بنا إلى السبب التام. الفاعل الكامل، الذى هو وراء كل شىء يجرى فى هذا الوجود، خالق الكل، ومدبر الكل، ومقدر الكل، والذى بيده كل شىء، يحتاج إليه الكل، وهو غنى عن الكل ـ سبحانه وتعالى عما يصفون ـ.

والفرق بين السبب الوسيط والسبب الكافى التام؛ أن السبب الوسيط لا يفعل ولا ينتج إلا فى إطار السبب التام. الذى هو فى حقيقة الأمر مسبِّب جميع الأسباب ومسخرها والمتصرف فيها.

ويتضح هذا فى كل شئون الحياة لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

فقد يكون أمام الطبيب الحاذق حالتان مرضيتان، وهما متشابهتان فى المرض

والعلة. وإحداهما شديدة، والأخرى بسيطة خفيفة. ويصف نفس العلاج والدواء للحالتين مع اعتقاده أن أحد المريضين حالته "ميئوس منها" ـ كما يقولون عادة فى مثل هذه الأحوال ـ والآخر حالته الصحية جيدة وسيبرأ سريعًا. لكن؛ يفاجأ الطبيب ومن حوله أن المريض الأول قد أبلَّ من مرضه ونقه وشفى، وأما الآخر فقد انتقل إلى الدار الآخرة.

إن هذا ليس فشلاً فى الأسباب الوسائط، فالطبيب حاذق جيد، والدواء جيد، وطريقة العلاج موفقة. لكن الأصل فى كل هذه أنها مجرد وسائط؛ وتبقى الكلمة الأخيرة، والمصير النهائى للسبب الكافى. والفاعل التام وراء كل هذه الوسائط.. إنه الله ـ سبحانه ـ خالق كل شىء. والذى بيده مقاليد كل شىء.

* * *

المبحث الثاني

آرثر شوبنهاور

(١٧٨٨-١٨٦٠م)

فيلسوف ألمانى تشاؤمى ملحد

حياته:

ولد "آرثر شوبنهاور" فى الثانى والعشرين من شهر فبراير لسنة ١٧٨٨م.

درس الفلسفة بجامعة (جوتنجن ١٨٠٩-١٨١١م)، ثم انتقل إلى جامعة "برلين" (١٨١١-١٨١٣م) حيث ختم دراسته بحصوله على الدكتوراه عن رسالته التى دونها تحت عنوان: "الأصول الأربعة لمبدأ السبب الكاف" وهى رسالة فى "العقل" وصلته بالعالم الخارجى.

مات أبوه منتحرًا وهو فى السابعة عشرة "١٨٠٥م" عاش بعد ذلك حياة شقية تعسة بسبب خلافه مع أمه بسبب حياة التحرر من كل قيود الفضيلة التى عاشتها أمه بعد أبيه، وقد انتهى الخلاف بينهما إلى قطيعة كاملة حتى ماتت ولم يرها، وقد سبب سلوك أمه شعورًا عنده بالمقت الشديد للنساء لازمه طوال حياته، فلم يرتبط بامرأة حتى مات.

قام بالتدريس بجامعة "برلين" (١٨٢٠-١٨٣١م)، ولم يكن موفقا ولا مقبولاً من الطلاب، وقد عزا ذلك هو إلى غيرة الأساتذة الآخرين منه، وتآمرهم ضده.

ولم تكن كتبه تلقى رواجًا مما سبب له إحساسًا مضاعفًا بالشقاء والتعاسة، لكن فى أخريات حياته، بدأت كتبه تروج، والإقبال عليها يتزايد، فشعر بالسعادة والرضا.

كان له بعض المال الذى ورثه عن أبيه، مكنه استغلاله لهذا المال من الحصول على غرفتين بأحد الفنادق المتوسطة، عاش فيهما طوال الثلاثين عامًا الأخيرة من حياته،

عاش هذه السنين فى هاتين الحجرتين، وحيدًا بلا أم، ولا زوج، ولا ولد، ولا أسرة، ولا وطن. ولا صديق. سوى كلبه الذى أطلق عليه اسم "أطما"، وهو اسم يطلق على روح العالم، أو الروح الكلى لدى البراهمة. ولكن سكان الفندق والمقربين من شوبنهاور كانوا يسمون الكلب: "شوبنهاور الصغير".

***

مؤلفاته:

كتب شوبنهاور" رسالته التى نال بها درجة الدكتوراه عام "١٨١٣م". وكان الكتاب عن" الأصول الأربعة لمبدأ السبب الكافى". وهو يقصد بالسبب الكافى علاقتنا بالعالم الخارجى وفهمنا إياه. ويرى أن السبب الكافى الذى يتحدث عنه يقوم على أصول أربعة هى: "علاقة بين مبدأ ونتيجة ـ علاقة بين علة ومعلول ـ علاقة بين زمان ومكان ـ علاقة بين داع وفعل". والصور الثلاثة الأول تخص التصور النظرى، أما الصورة الرابعة فهى العمل. وهذه الأربعة هى التى ينشأ عنها تصورنا للعالم الخارجى، وانفعالنا معه. ثم أخرج كتابه الثانى وهو "العالم إرادة وتصور" أو "العالم إرادة وفكرة". وقد فتن بكتابه هذا حتى ظن أنه قد وضع فيه التصور النهائى للوجود والفكر ولكنّ كتابه هذا لم يلق قبولاً، حتى إنه بعد ما يزيد على العشرة أعوام، أُبْلِغ "شوبنهاور" أن جزءًا من نسخ كتابه قد بيع ورقًا فاسدًا تُلَفُّ به البضائع، فازداد تشاؤما، وأرجع ذلك إلى مؤامرة تحاك ضده من جميع المفكرين والفلاسفة، وأنهم لا يفهمون فلسفته لأنه يكتب للأجيال القادمة، ثم قال: "إن كتابى هذا مثل المرآة، فإذا نظر فيها حمار فلا ينتظر أن يرى فيها وجه ملاك".. ثم نشر كتابًا آخر تحت عنوان: "الإرادة فى الطبيعة" (١٨٣٦م)، جمع فى هذا الكتاب من الأمثلة والشواهد الطبيعية ما ظنه أدلة على نظريته فى الإرادة الكلية، التى تحدث عنها فى كتابه السابق. وفى سنة (١٨٤١م) أصدر كتابًا بعنوان: "المشكلتان الأساسيتان فى فلسفة الأخلاق" وفى سنة (١٨٥١م) أصدر كتابين هامين عن: "النتاج والفضلات". وقد بذل فيهما قصارى جهده، وعصارة فكره، ولكنه تلقى عشر نسخ منهما تعويضًا له عن مجهوده فى تأليفهما.. فلم تكن مؤلفاته قد لقيت قبولاً بعد، وإن كانت فلسفته بدأت تلفت الأنظار.

وفى أخريات حياته بدأت فلسفته التشاؤمية تلقى اهتمامًا لدى الأوساط الفلسفية، مما جعله يشعر ببعض الرضا بدءًا من عام (١٨٥٤م).. وفى الحادى والعشرين من شهر سبتمبر من عام (١٨٦٠م) جلس فى الفندق المتواضع الذى قضى فيه الثلاثين عامًا الأخيرة من عمره. وكان يتناول إفطاره، وبعد ساعة وجدته صاحبة الفندق ما يزال جالسًا كما هو، فاقتربت تتفحصه فوجدت الحياة قد نبذته، لتستريح الحياة والأحياء من واحد من أكبر الفلاسفة إلحادًا وتشاؤمًا وإشاعة للفكر الفاسد.



مفتاح شخصيته

تأثر "شوبنهاور" فى فلسفته بأمور كثيرة، أهمها:

١ ـ الوراثة الأسرية

فقد ولد الرجل لأسرة انتشرت فيها الأمراض النفسية والعقلية، فقد كان أفرادها يصابون بتلك الأمراض لأجيال متتالية، وقد كانت تلك الأمراض فى أسرته من جهتى أبيه وأمه. وهى أمراض للوراثة فيها نصيب لا ينكر، وقد مات أبوه منتحرًا، وماتت جدته مصابة بالجنون، وقد ظهرت آثار تلك الأمراض النفسية على "شوبنهاور" وانعكست آثارها على سلوكه وتصرفاته طوال مراحل حياته.

كذلك كان لعلاقته بأمه بعد وفاة أبيه أثر كبير فى شخصيته المريضة، وآرائه المنحرفة الضالة.

فإن السلوك الخلقى السيء لأمه بعد وفاة أبيه، جعله يسيء الظن بالناس جميعًا، وبخاصة عندما وجد أستاذه "جوته" الذى كان يُجِلُّهُ ويحترمه يقاسم أمه تلك المعيشة الدنسة، فقد أثر ذلك فى نفسه، وطوى قلبه على حقد وكراهية للحياة والأحياء بسبب الآلام الشديدة التى سببتها له تلك الأحداث.

٢ ـ الظروف العالمية:

حيث ولد "شوبنهاور" فى عصر دمرت الحروب فيه أوربا تدميرًا شديدًا،

وشردت عشرات الآلاف من الأسر، ونشرت الفقر والبؤس بين الناس على مستوى دول أوربا، وقد كانت الحرب قائمة بين "نابليون" الذى كان "شوبنهاور" وكافة المثقفين فى أوربا ينظرون إليه على أنه روح الثورة الفرنسية التى حررت الفكر والناس. ولكن دور أوربا تحالفت ضد نابليون، وهزمته شر هزيمة، وقذفت به إلى جزيرة "سانت هيلانه" ليقضى نحبه فوق تلك الصخرة النائية فى جوف المحيط.. وكانت تلك قمة الآلام عند "شوبنهاور" حيث قضت "الإرادة المتجبرة" للحياة على مكاسب الثورة الفرنسية، وعادت أسرة "البوربون" إلى حكم فرنسا، وعاد الإقطاعيون يطالبون بأملاكهم، وضحكت "إرادة الحياة الشريرة" ملء فيها من الناس الذين كانوا يأملون فى الخلاص من الآلام والأحزان، فأعادتهم إليها مرة ثانية.

٢ - الحالة النفسية والعقلية:

تأثر "شوبنهاور" بالظروف التى أشرنا إليها، ونتج عن ذلك أن أصيب بأمراض نفسية وعقلية لازمته طوال حياته.. كان من آثارها أن: "غدا كئيبًا ساخرًا مرتابًا، شديد الخوف والقلق، تستبد به الهواجس والمخاوف، يسىء الظن بالناس ويخشى على نفسه من شرورهم وغدرهم، وقد كان من آثار ذلك أن يغلق على نفسه الأبواب بعناية شديدة، وبلغ به الخوف وسوء الظن، أنه لم يسلم ذقنه ورقبته لموسى الحلاق أبدًا طوال حياته، خوفًا من أن يتآمر مع الآخرين على ذبحه، وظل طيلة حياته لا ينام إلا وسلاحه بجواره محشوًّا بالرصاص فى انتظار من تحدثه نفسه من اللصوص بالسطو عليه، أو من أعدائه المتوهمين بالاعتداء عليه أو قتله"[1]. ذلك أنه كان مريضًا بالعظمة، وكان يرى نفسه هدفًا لتآمر الناس، وأنهم جميعًا يحقدون عليه ويحاولون إيذاءه والتخلص منه. وهذا الإحساس ظل يلازمه طوال حياته.. مما جعله يعيش وحيدًا بلا أم، ولا زوجة، ولا ولد، ولا أسرة ولا وطن، ولم يصادق أحدًا طوال حياته..

---

(١) انظر فى ذلك قصة الفلسفة - ول ديورانت ص: ٣٩٧، وتاريخ الفلسفة الحديثة. يوسف كرم، ص: ٢٨٩.

إن رجلاً كهذا ما كان ليصدر عنه فكر سَوِيٌّ، ولا رأى سليم، ولا فلسفة حكيمة، وما ينتظر أن يصدر عنه شيء من ذلك.

٤ـ قراءاته ودراساته:

إن المزاج الفاسد "لشوبنهاور" ونزعة الحقد والكراهية التى تملأ نفسه، ثم الود المفقود. والعداء الموجود بينه وبين كل عناصر الحياة والأحياء، دفع به إلى اختيار نوعية معينة من الكتب، وكان اختياره منصبًا على دراسة بوذا، ثم كتب الديانة الهندية، وكان من آثار ذلك أن ازداد شعوره بالكراهية للعالم، وتعمق لديه الإحساس بأن الحياة شر، وأن الأحياء أشرار، فالفلسفة البوذية قائمة على أن الحياة ليس فيها إلا الألم والمرض والشيخوخة والموت.. والديانة الهندية تقوم على أن الحياة قائمة على أنواع من الشرور الطبعية والخلقية.

كل هذه الأمور التى أشرنا إليها كانت هى أهم العوامل التى أثرت فى شخصية الفيلسوف المتشائم الملحد "شوبنهاور"، وطبعت فكره بهذا الطابع الذى سوف نراه من خلال دراستنا لما يهمنا من أفكاره وآرائه، غير أننا نرى أنه من المفيد فى هذا المجال أن نُذَكِّرَ بأن "شوبنهاور" فى آرائه التى ذهب إليها لم يكن بِدْعًا فى عصره وبلده. فالزمان والمكان كانا مليئين بمن سبقه ومن لحقه من الملاحدة المتشائمين، غير أنه يبقى لشوبنهاور فى ذلك مستوى من الإلحاد والتشاؤم لم يصل إليه أحد، على ما سنرى عند بسطنا فلسفته فيما يلى ـ بحول الله تعالى ـ.

***

فلسفة شوبنهاور

لقد لاحظ شوبنهاور أن الوجود يقوم على أساس من الحكمة، والإتقان، والغائية، وأن كل شىء فى الوجود دليل صادق على إرادة الفاعل، وقدرته وحكمته. وخبرته، وإتقانه.

كما لاحظ أن الوجود كله يمشى على نظام حكيم متقن بديع، وأن له غاية يسعى إليها، وأن لهذه الغاية وسائل، وأن الغاية ووسائلها تنطق بحكمة الفاعل، وتحدث بإتقانه وإبداعه.

لاحظ الرجل كل ذلك فى الجمادات، وفى النبات، وفى الحشرات والحيوانات، وكيف يسعى كل من هؤلاء للحصول على غذائه، للإبقاء على نفسه ونوعه، كما لاحظ ذلك فى الإنسان وما آتاه الله ـ تَعَالَى ـ من قوة عاقلة، وقوة جسمية غَرَزِيَّة، للإبقاء على نفسه بالغذاء، وعلى نوعه بالتزاوج والتناسل، على تميزه عن كل ما حوله بإعمال عقله. ونتاج العقل من فكر وثقافة وحضارة، وعلوم ومعارف، ورأس هذه المعارف معرفته ربه ـ سبحانه ـ ، واعتصامه بحبله والسير على هدى طاعته، والسعى فى تحصيل مرضاته.

لاحظ الفيلسوف كل ذلك، لكن لأنه من الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة تعميهم عن الحق، وتضلهم عن الصواب، فقد اختار الإلحاد والكفر بالخالق العظيم، والصانع البديع.. وقد وجد الرجل نفسه بين أمرين: إما أن ينكر ما لاحظه فى الوجود من حكمة وقدرة وإرادة وإتقان، ثم ينكر وجود الله ـ سبحانه ـ وبذلك يحقق مبتغاه من إنكار وجود رب لهذا الكون، لكن؛ كيف ينكر الحكمة والإرادة والإتقان مع أن كل شىء فى الوجود ناطق به، دال عليه.

وإما أن يقر بالإرادة والحكمة والإتقان والإبداع، ثم يقر بالخالق العليم، وهذا ما لا يريده، ولا يستقيم مع ما اختار لنفسه من كفر وإلحاد.

لكن الفيلسوف الملحد وجد ضالته فى أن يقر بالإرادة والقدرة، والإبداع والإتقان، لكن لا يرجع ذلك كله إلى الله الحق ـ سبحانه ـ بل يرجع ذلك ويسنده إلى الطبيعة الجامدة، والمادة الميتة، التى لا تملك من أمر نفسها قليلاً ولا كثيرًا، وهكذا كان أمر الفيلسوف الذى رفض الإيمان بوجود رب خالق حكيم، وأسند صفات الله ـ سبحانه ـ إلى الطبيعة، أو إلى المادة، وبذلك لم يصنع شيئًا سوى أن استبدل الإيمان بالمادة بالإيمان بالله ـ تعالى ـ وجعل من المادة ربه وإلهه، فكان من الذين قال الله ـ تباركت أسماؤه ـ فيهم:

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣، ٢٤].

أسس فلسفة شوبنهاور

لقد قامت فلسفة شوبنهاور على الأسس الآتية:

أولاً: أن الوجود عبارة عن المادة المطلقة، فليس فى الوجود سوى المادة، وأن القول بوجود مفارق للمادة غير مادى فاعل فيها ـ يقصد وجود الله عز وجل ـ هو قول خطأ، وفكرة فاسدة، ترجع إلى تصورات الذات، وأوهام النفس، التى لا حقيقة لها فى الخارج. وإن رَجْع الأمور إلى قوة خارجة عن المادة الطبعية، هو من أوهام الذات. وفى ذلك يقول "شوبنهاور": "إن الإحساس حالة ذاتية، ولكن الفهم والتصور الذاتى يضيفه فورًا إلى علة خارجية، نتصورها فاعلة فى الزمان مستقلة عنا فى المكان"[1]، ويرى الفيلسوف الملحد أن العالم المادى كاف بنفسه لتفسير كل ألغازه وما يجرى فيه، وليس بحاجة إلى وجود قوة خارجة عنه، وبذلك يقرر الملحد أن الوجود ليس بحاجة إلى إله.

(١) قصة الفلسفة ـ ول ديورانت ـ ص: ٤٠٩.

ثانيًا: أن العالم عبارة عن "إرادة وفكرة". فالفكرة هى تصوراتنا الذاتية عن العالم الخارجى، والتى تكون غالبًا غير صحيحة وغير واقعية. وأما الإرادة فهى جوهر الوجود المادى الحقيقى، إن العالم عبارة عن إرادة كلية شاملة، وهذه الإرادة لها غايات وأهداف تسعى إلى تحقيقها، وهى تحقق غاياتها بوسائل من خلقها وصنعها، وكل شيء فى الوجود من الجماد إلى الإنسان، مرورًا بالنبات والحشرات والحيوان، كل ذلك خاضع لتلك الإرادة الكلية التى تملكها الطبيعة، وتسير كل شيء من خلالها.

ثالثًا: الإرادة الكلية فى الطبيعة عنايتها تنصب على الحفاظ على الحياة فى الأنواع، ولذلك تهتم بالإبقاء على الأنواع فى النبات والحشرات والحيوان والإنسان، وهى فى اهتمامها بالنوع، لا تلقى بالاً إلى الأفراد الذين تطحنهم الآلام، ويعذبهم الشقاء، ويغرقون فى بحار المآسى والشرور.

رابعًا: الموت هو عدو الإرادة الكلية، وهو الذى يحاول أن يقضى على الحياة والأحياء، ولكن الإرادة الكلية تهزمه عن طريق غريزة الجنس التى تدفع الأحياء على التزاوج والتناسل، وبذلك تعوض الإرادة عن طريق النسل ما يأخذه الموت، وتبقى الحياة والأحياء تحقيقًا لرغبة الإرادة الكلية.

خامسًا: الحياة كلها، بل الوجود كله شرور وأحزان ومشقات وآلام، وليس فى الوجود كله خير قط، ولا يعرف معنى السعادة. وأقصى ما يتصور من خير فى الوجود، أن تقل شروره نوعًا، أو تخف آلامه هونًا.

الشر والشقاء والتعاسة هى جوهر الحياة، وحقيقة الوجود، وهذه الأشياء هى الجانب الإيجابى فى الحياة، أما ما يسمى بالسعادة أو اللذة، أو الخير أو غير ذلك، فليست أمورًا إيجابية، بل هى أمور سلبية، بمعنى أن السعادة ليست إلا سلب الآلام، واختفاء الشقاء أو التخفيف منه قليلاً، ومن ثم فلا وجود لشيء اسمه السعادة أو اللذة، ولكن هناك شقاء وتعاسة وآلام، قد تكون شديدة، وقد تخف قليلاً أو كثيرًا، فيسمى الناس هذه الحالة سعادة أو لذة.

سادسًا: وسيلة الإرادة الكلية فى تنفيذ غايتها من بقاء النوع فى الإنسان أمران: العقل، والغريزة الجنسية، أما العقل فهو وسيلة من وسائل الإرادة الكلية العمياء التى تعمل على بقاء النوع ليشقى ويتألم.. وقد كان حريًا بالإنسان أن يقتل نفسه منتحرًا ليتخلص نهائيًا من حياة كلها آلام وشقاء وتعاسة لا تنتهى، ولو فعل كل الناس ذلك لانتهت الحياة، وفشلت الإرادة الطبعية فى تحقيق أغراضها، وهنا يأتى دور العقل الذى هو من صنع الإرادة، حيث يقوم العقل بفلسفة الأشياء، ويخترع أفكارًا ومسوغات لا وجود لها. بهدف إقناع الإنسان بتقبل الشقاء والآلام والبؤس الذى تشتمل عليه الحياة، والرضى بذلك، بناء على أفكار وتصورات غير حقيقية يخترعها العقل، ومن مثل: وجود إله اقتضت حكمته ذلك، وأن ذلك لحكمة لا نعرفها، ومن مثل: القول بوجود بعث بعد الموت، ودار أخرى سوف ينال فيها الصابرون أجر صبرهم ورضاهم، بل وترحيبهم بالشقاء والآلام فى هذه الحياة. فهذه كلها أفكار وتصورات من اختراع العقل الذى هو أداة من أدوات الإدارة الطبعية الكلية العمياء.

وأما غريزة الجنس؛ فقد بينا أن دورها يقوم على إغراء الذكر بالأنثى، والأنثى بالذكر، وقد جعلت الإرادة العمياء هذه الغريزة أقوى غريزة فى الكائن الحى، بل هى الغريزة الوحيدة التى تتحكم فى الكائن الحى من النبات حتى الإنسان، وما بينهما من حشرات وحيوان، كل ذلك لكى تقاوم تلك الغريزة ما يفعله الموت بالأنواع الحية. فتظل الأنواع باقية، والأفراد يصطلون بشقاء الحياة وآلامها.

وفى الحديث عن غريزة الجنس، نلفت النظر إلى أن "شوبنهاور" له موقف خاص جدًا من هذه الغريزة، وموقفه هذا كان أساسًا لمواقف بعض الفلاسفة، وسندًا لمذاهبهم، وتحديدًا مذهب "فرويد" فى علم النفس ومدرسته التى قامت على أساس من التركيز على دافع الجنس.

إن شوبنهاور يعلى من شأن الدافع الجنسى لدى الإنسان والحيوان، ويجعل منه الركيزة الأساسية التى تدور عليها حياة الفرد والجماعة، بل يجعل منه الأساس

الأوحد الذى تدور عليه الحياة عند كل الكائنات، وبخاصة الإنسان، ومن ثم فإن الجنس هو مفتاح السلوك الإنسانى، وعلى أساس منه يمكن تفسير كل سلوك إنسانى من الألف إلى الياء.. "إن ـ الغريزة الجنسية ـ فى الحقيقة النقطة المركزية الخفية لجميع الأعمال والسلوك، وهى تسترق النظر إلى كل مكان رغم جميع الحجب والأقنعة التى ألقيت عليها، إن غريزة الجنس هى سبب الحرب والسلام، وهى أساس الجد والرصانة، وهدف الهزل والمزاح، ومعنى كل تلميح مبهم وغامض، إنها تبرز نفسها كسيدة للعالم ووارثته، جالسة فى كمال قوتها تنظر نظرة ازدراء واستخفاف وسخرية، وتضحك على ما يعده الناس من قيود لتقييدها وكبتها وسجنها، ولا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً"(١).

إن هذا الفكر عن الغريزة الجنسية لا شك أنه هو الأساس لمدرسة "فرويد" فى علم النفس، وهذا وذاك وكل من نحا ذلك النحو، فى ضلال مبين، وما يريدون من وراء ذلك الفكر إلا إلحاق الإنسان بالحيوان، بل وضعه فى درك أسفل من درك الحيوان، حينما يلغون ما ميز الله ـ تَعَالَى ـ الإنسان به من عقل وإدراك وتمييز وتكليف، ويجعلون العقل مجرد خادم لهذه الغريزة الدنيا، ولا عمل له إلا البحث والتخطيط لإشباعها. بأية وسيلة دون نظر لأية اعتبارات أخرى.

سابعًا: عود إلى ما قرره فيلسوف التشاؤم، من أن الوجود كله شر، فالوجود شر؛ لأن الألم والتعاسة هما الشىء الإيجابى، وأما ما نسميه سعادة ولذه، فهو أمر سلبى، فلا يزيد عن كونه سلبًا للألم أو تخفيفًا منه للحظة، ثم تنتهى تلك اللحظة ليأتى الألم من جديد.

والوجود شر؛ لأن غايات الكائن فيه لا تنتهى، ما أن تتحقق غاية من غاياته حتى يتطلع إلى غيرها، ولا تنتهى رغبات الإنسان، ولا تقف غاياته عند حد وبذلك يظل يعانى الآلام والأحزان، ويكابد المشقات حتى تنتهى آلامه بالموت.

والوجود شر؛ لأن ما نحسبه لذات وسعادة، إنما هو مصدر للآلام والتعاسات،

---

(١) قصة الفلسفة. ول ديوارنت. ص: ٥٣٢-٥٣٣.

فإن الإنسان يظل يطلب لحظة اللذة والسعادة، فإذا ما تحققت وانقضت فى وقت قصير، فإنها تصبح دافعًا له ليطلبها من جديد، وحين تنتهى يشعر بشقاء مضاعف لأنها انتهت، وعليه أن يكابد من جديد للحصول عليها.

والوجود شر؛ لأن الإنسان يعيش بين حالتين، إما فى شقاء طلبًا للذة وسعادة، وإما فى ملل وسأم إذا تحققت تلك اللذات وتوفرت لديه، وكلا الحالتين شقاء وألم وشر.

والناس فى هذا المجال قسمان: الفقراء، وهم يعيشون آلام الحرمان، وتعاسة الحاجة، فحياتهم خالية من اللذات، مليئة بالشقاء والألم، أما الأغنياء فيعيشون فى آلام أيضًا، لكنها آلام الملل والسأم.

والوجود شره لكن شروره ليست على مستوى واحد لدى جميع الكائنات، بل تتفاوت تبعًا لتفاوت الإدراك لدى الكائن. فكلما تدنى الإدراك ضعف الشعور بالألم، وكلما ترقى الإدراك قوى الشعور بالألم والشقاء، لذلك كان الإنسان أكثر الكائنات آلامًا وتعاسة وشقاء.. إن النبات خال من الإحساس، ولذلك فهو لا يحس بالألم، أما الحيوانات فتشعر بالألم على قدر مستواها من الإحساس والشعور.. أما الإنسان فأكثرها شعورًا بالشقاء والألم والتعاسة، وإن زيادة المعرفة فى الإنسان تؤدى إلى زيادة آلامه. كما أن ذاكرة الإنسان فى الماضى، وبعد نظره للمستقبل تزيدان فى آلامه، لأن القدر الأكبر فى آلامنا كامن فى تأمل الماضى، وفى التفكير فيما يقع فى المستقبل.

وأخيرًا فإن الوجود شر؛ لأن الحياة ساحة قتال، لا يحيا كائن فيها إلا على حياة الكائنات الأخرى، فالحيوانات المفترسة تفترس الإنسان، والإنسان يفترس العجماوات الأخرى كالأغنام والطيور، والجميع يفترس النبات، والنبات يفترس الهواء والماء وغيرها.. فالحياة آلام، والوجود شر. "إن الحياة شر لأنها حرب، وأينما وليت وجهك لا تقع عينك إلا على صراع وتبادل انتحارى بين الأحياء، وكل نوع يقاتل للفوز بالمادة والأرض والسيطرة. وحتى الجنس البشرى يكشف فى نفسه عن

أبشع أنواع الصراع والنزاع، والقاعدة: أنك إن لم تتذاءب ـ أى لم تكن ذئبًا ـ أكلتك الذئاب".

ثامنًا: لكل ما تقدم من أدلة على أن الحياة آلام، والوجود شر ـ فيما يزعم الفيلسوف الملحد ـ فإن الفيلسوف يدعو إلى نبذ الحياة، ويُرَغِّب فى الانتحار تخلصًا من شقاء الحياة وشرورها.

والفيلسوف ـ وهو يُرغِّب فى الانتحار ويدعو إليه ـ يبين أن الموت فى ذاته لا يسبب للإنسان ألمًا قط، ولكن الناس يتألمون من فكرة الموت أكثر مما يتألمون من الموت نفسه. لأن الإنسان لا يلتقى بالموت أبدًا، فكيف يتألم منه؟ إن الإنسان طالما هو حىٌّ لم يمت، فهو لا يرى الموت ولا يلتقى به، ومن ثم لا يتألم منه، فإذا ما انتحر الإنسان ومات، فإن الموت حين يجىء يكون الإنسان قد ذهب، وعلى ذلك فالإنسان يخاف من فكرة الموت، لكن الموت حين يجىء ويقع يكون الإنسان قد استراح من شقاء الحياة وآلامها، وتخلص نهائيًا من الإرادة الكلية العمياء الشريرة التى لا عمل لها إلا ترغيبه فى الحياة وإغراؤه بها ليظل يَصْلَى شقاءها وآلامها.

* * *

نقد آراء شوبنهاور

إن آراء هذا الفيلسوف، والرد عليها ونقدها، لا يتطلب منا إلا أن نخضع هذا الفيلسوف وأمثاله إلى فحص طبى لدى طبيب للأمراض النفسية والعقلية، ولو أننا فعلنا ذلك، لجاءنا الجواب بوضوح شديد، وهو أن هذه الآراء لا تزيد على كونها أوهامًا وتخاريف وأضاليل لإنسان مجنون أو معتوه، وأن هذه الآراء ما كان ينبغى لها أن تسجل وتبقى إلا لأن العصر الذى وجد فيه الرجل كان عصر ضلال وانحراف، وقد كثر فيه أمثال الرجل، فضلت فيه الموازين، وضاعت القيم، وانحرفت المبادىء، ولذلك نتج ذلك الفكر عن هؤلاء الناس، فى هذا العصر.

إن ضلال هذا الفكر أوضح من أن يوضح، وقد سبق لنا أن بينا المؤثرات التى أثرت فى الرجل، والعوامل التى شكلت فكره، وهى مؤثرات على رأسها المرض العقلى والنفسى وما هو من هذا القبيل، وقد ذكرنا شذوذ الرجل فى حياته العامة، من مثل اعتقاده بأن الناس جميعًا يتآمرون لقتله، حتى إنه لم يضع رأسه بين يدى حلاق طوال حياته خوفًا من أن يقتله، وما إلى ذلك من أمور بيناها عند الحديث عن مفتاح شخصيته.

ومع وضوح ضلال فكره، نشير إلى بعض مناحى هذا الضلال، وأسبابه ـ بإيجاز ـ إذ أن بيان الفساد فى ذلك الفكر لا يحتاج إلى إسهاب.

أولاً: أن الرجل كفر بالله ـ سبحانه ـ ونبذ الأديان كلها، وتحديدًا نبذ النصرانية التى نشأ عليها. ورفض الاعتراف بأن للوجود خالقًا عليمًا حكيمًا متقنًا مبدعًا.. ورغم ذلك، فقد أثبت كل هذه الصفات لشىء من صنع خياله المريض، وفكره المجنون، وهو ما أسماه: "الإرادة الكلية العمياء الشريرة". وأثبت لهذه الإرادة غايات تسعى لتحقيقها. ووسائل تنفذ من خلالها إلى ما تشاء، وجعل

الوجود كله مسخرًا لهذه الإرادة، ومُسَيَّرًا تبعًا لأهدافها، فأى شىء فعله هذا الأبله الملحد حين نبذ الدين، ورفض الاعتراف بالله رب العالمين ثم انقلب ليثبت له ربًّا من صنع خياله، ويخلع عليه كل هذه الصفات؟!

لقد سبق وقررنا أن الرجل اختار الإلحاد والكفر، ولما وجد النظام والإتقان والغائيّة فى كل ذرة من هذا الوجود، اضطر إلى الاعتراف بذلك، لكنه ـ إصرارًا منه على الإلحاد ـ ألحق ما رآه بشىء من صنع أوهامه أسماه الإرادة الكلية، ثم زيادة منه فى الابتعاد عن عُدوة الدين، وحتى لا يظن أنه يتكلم عن الإله الحكيم المدبر، وصف معبوده ذاك بأنها "إرادة عمياء شريرة".

إن علة الرجل الأساسية التى نتج عنها كل هذا الهُراء، إنما هى إلحاده وكفره بالله رب العالمين ـ سبحانه ـ.

ثانيًا: أن كفر الرجل وإلحاده أعمى قلبه ثم بصره عن أن يرى فى الوجود سوى الشرور والآلام، ثم لم ير فى الوجود إلا هذه الحياة الدنيا، وهذا القصور عنده جعله يصرخ بأعلى صوته من آلام الحياة وشرورها.

ولو أنه رأى أن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة، وأنَّ ثمة حياة أخرى يسعى الناس إلى إعلاء رصيدهم فيها من الحسنات، والباقيات الصالحات، وأن ما يكابدونه وهم فى غاية من السعادة، ونهاية من الرضى، لأنهم يدركون أن هذا رصيدهم الذى سيلقونه فى الحياة الدائمة.. لو أدرك الرجل ذلك لعرف أن الحياة فيها الخير كما فيها الشر، وأن الخير فيها يزكو على الشر ويربو عليه.

ثم إن الحياة ليست شرورًا خالصة، بل فيها خير كثير ـ كما ذكرنا ـ لكن إلحاد الرجل وكفره سبَّبَ له مزيدًا من التشاؤم، إضافة إلى ظروفه التى أشرنا إليها مما جعله يعمى عن كل خير، بل يرى الخير على أنه شر.

إن زعمه بأن مطالب الإنسان وغاياته التى لا تنتهى مصدر آلام وشقاء للإنسان، ضلال منه، وفساد فى فهمه، وانحراف فى مزاجه.

فالإنسان يضع أمامه أهدافًا لحياته، ويسعى لتحقيق تلك الأهداف، وهو يشعر بالسعادة والرضا وهو يكد ويكدح لبلوغ هدفه، فإذا حَقَّقَهُ شعر بسعادة غامرة، وهو يشعر بنفس السعادة وهو ينتقل من هدف إلى هدف، ويحقق غاية بعد غاية، ويرتفع من نجاح إلى نجاح، وليس فى ذلك من تعاسة وآلام، بل فيه سعادة وهناءة بقدر ما يبذل الإنسان من مشقة وعناء.

إنَّ الرجل فى هذا كمثل رجل جاء من الغابات أو الأحراش لا يعرف عن المدينة شيئًا، ولا يعرف عن قضية التعليم وأنظمته قليلاً ولا كثيرًا. هذا الرجل رأى الطلاب وهم يدرسون نهارًا ويذاكرون ليلاً، ثم يسرعون إلى الامتحانات متوترين مرهقين، ثم ينتظرون متلهفين نتيجة الامتحانات، فإذا ما ظهرت ورأى السعادة طافحة على وجوه الناجحين. ثم رآهم يسرعون فرحين فى بداية العام إلى المستويات الجديدة ليبدأوا رحلة كفاح جديدة وهم سعداء فرحين مستبشرين، رجل الغاب هذا سوف يقف فاغرًا فاه فى بلاهة وعته وغباء، يتعجب من هؤلاء البشر من الطلاب الذين يكدون ويكدحون، ثم ينتقلون إلى المراحل التالية، بعد أن حققوا المراحل السابقة، كل ذلك وهم سعداء. إن رجل الغاب هذا سوف يصف هؤلاء بالعته، ويصف حياتهم بالشقاء، ثم يُصنِّفُهم على أنهم آلات فى يد إرادة عمياء تسخر منهم وتسخرهم ليعيشوا فى شقاء.. إن فيلسوف التشاؤم مثال متطابق مع رجل الغاب الذى تصورناه، إن الناس ينتقلون من هدف إلى هدف، ومن غاية إلى غاية، وهم يتسابقون فى سعادة وسرور، وإن لحظة واحدة من السعادة عند تحقيق الإنسان هدفه، تعدل سنوات من الكد والكدح لتحقيق هذا النجاح الذى حققه.

ثالثًا: أن الحياة ليست ساحة قتال كما يدعى فيلسوف الشرور والتعاسة، ولكن الحياة فيها من التعاون والتآزر بين الأحياء ما يزيد ويربو على ما فيها من نزاعات ومشاحنات.

إن التعاون بين الكائنات قائم وواضح على مستوى الأنواع بعضها مع بعض، فالنبات يعيش على ثانى أوكسيد الكربون الذى ينتجه الإنسان، والإنسان يعيش

على الأوكسجين الذى ينتجه النبات. والنبات ينتج الرحيق الذى يعيش عليه النحل، والنحل ينقل فى أرجله الملقِّحات من نبات إلى آخر، كذلك ينقل بذور النبات إلى أمكنة أخرى فتنبت فصائل جديدة. والإنسان يعيش على النبات، وكذلك على الحيوان كالأغنام. لكن عيشه وتغذيه عليها ليس خطرًا عليها، بل هو فى صالحها، فإن الإنسان يحرث الأرض، ويرويها ويبذر البذر وينتج النبات ويحافظ عليه ويكثر منه، وذلك بسبب كونه غذاء له، ولولا ذلك لما عنى الإنسان بالنبات، ولما بقى النبات ونما، ولما وجدت منه فصائل جديدة، ولما وجد التربة المناسبة، والتسميد الجيد. على أن الإنسان إذا لم يأكل النبات حين يستوى فسوف يموت النبات من تلقاء نفسه ويجف وتذروه الرياح، فأى الأمرين خير بالنسبة للنبات؟

كذلك الأمر بالنسبة للحيوان الذى يعيش عليه الإنسان؛ فإذا ما نظرنا فى حال الأغنام أو الإبل أو غيرها، فإنا نجد الإنسان يسعى إلى العناية بها، وتحسين نسلها والإكثار منها، وتوفير الغذاء لها، فهو يغذيها إن جاعت، ويسقيها إن عطشت، ويداويها إن مرضت. كل ذلك بسبب كونه يعيش عليها، بينما الحيوانات التى لا يعيش الإنسان عليها تموت فى الغابات جوعًا وعطشًا بسبب الجفاف أو العوامل الأخرى. ثم إن الإنسان إذا لم يأكل الشاة، وتركها تعيش؛ فهل ستخلد، أم أن مصيرها الموت؟.. إذن فكون الإنسان يعيش على حيوان ما أو نبات ما، فإن ذلك فى صالح النبات والحيوان، وليس شرًا ولا اعتداء، ولا الحياة ساحة قتال كما ادعى الفيلسوف الملحد.

رابعًا: وأخيرًا فإن حياة الرجل وسيرته تكذبه فى كل ما ادعاه فى فلسفته، وبخاصة فى دعوته إلى الموت انتحارًا تخلصًا من آلام الحياة وشرورها.

إن حياة الرجل كانت أشد شقاء وتعاسة من حياة الكثيرين، وقد عاش مريضًا تنتابه الوساوس والمخاوف وسوء الظن بمن حوله. وقضى الثلاثين عامًا الأخيرة من حياته فى حجرتين وحيدًا كئيبًا، فأى الناس كان أحق بالانتحار منه تخلصًا من تلك الحياة التعسة بحق؟

لكن الرجل الذى مَجَّد الموت، واعتبره المنقذ من شقاء الحياة، والذى تسبب فى انتحار عدد من الذين اعتنقوا فلسفته وتأثروا بفكره، هذا الرجل ظل محبًا للحياة. مستمسكًا بها حتى وصلت سنُّه الثانية والسبعين، وقد قضى حياته تلك لم يبخل على نفسه بشىء من متع الحياة التى زَهَّد فيها الآخرين، وزعم أنها شر وتعاسة.

* * *

المبحث الثالث

فريدريك نيتشه

١٨٤٤ - ١٩٠٠م

١٢٦٠- ١٣١٨ هـ

فيلسوف ألمانى ملحد

أولاً: حياته:

كان أبوه قسًا بروتستانتيا، وكذلك كان جده. توفى والده وهو طفل، فتولى تربيته نسوة العائلة، فنشأ مدللاً رقيقًا حساسًا، مما جعله محل سخرية زملائه فى الدراسة، مما دفعه للبحث عن وسيلة تجعله خشنًا صلبًا، وتخلصه من الطابع الأنثوى الذى نشأ به، وكان سببًا فى كونه محطًا لسخرية الآخرين.

ولعل رد الفعل هذا له أثره فى جنوحه ـ فيما بعد ـ إلى مذهب القوة والعنف والقسوة الذى كان طابع فلسفته.

كان ابن قس، وحفيد قس، وأراد فى حداثته أن يكون قسًّا، فنشأ على التزام بالنصرانية ديانة آبائه، وكان كثير القراءة فى الإنجيل النصرانى، وكان يقرأه على زملائه بصورة مؤثرة تجعل الدموع تجرى من مآقيهم، حتى أطلق عليه الجميع فى هذه الفترة اسم "القسيس الصغير".

لكن هذا القس الصغير لم يلبث وهو فى سن الثامنة عشرة أن فقد إيمانه بالنصرانية وكفر بها، ودخل فى مرحلة من الشك والحيرة خرج منها كافرًا بكل شىء، ناقمًا على كل شىء، ولم يرجع إلى الدين ثانية، بل اندفع فى طريق الإلحاد حتى نهايته، فأعلن موت الآلهة، ثم اتخذ من "السوبر مان" الإنسان الأعلى ـ كما يسميه ـ إلهه ومعبوده، وأمضى بقية حياته يبشر به، ويرسم الطريق للإنسانية كى تصل إليه.

درس بجامعتى "بون وليبزج" بألمانيا، حتى حصل على الدكتوراه، ثم عمل

بجامعة "بال" بسويسرا أستاذًا لفقه اللغة "١٨٦٩م" ثم مرض وزادت علته، حتى اضطر إلى ترك التدريس "١٨٧٩م" والعيش على "معاش" تصرفه له الجامعة. وبعد ذلك بعشر سنين انتهى به المرض إلى الشلل الكلى والجنون، وتولت أخته رعايته، حتى لفظته الحياة، كما يلفظ البحر جيفةً عَكَّرَتْ بنتنها ماءه الصافى، لكنه خلف وراءه فكرًا ضالاً ركبه اليهود ليصلوا من خلاله إلى الكثير من أهدافهم الخبيثة، مما جعلهم يشيدون به وبأفكاره فى بروتوكولاتهم ومجامعهم.

***

ثانيًا: مؤلفاته:

لنيتشه مؤلفات كثيرة أهمها:

١ ـ أصل المأساة "١٨٧٢م" وهو دراسة للثقافة اليونانية من خلال القصص والروايات أو "الدراما". وفى هذا المؤَلَفْ الذى يطلق عليه أحيانًا "نشأة التراجيديا" فَضَّل القوة الجسدية، على الفكر الذهنى الذى جاء به سقراط ومن بعده.

٢ ـ إنسانى مجاوز للحد "١٨٧٨م" وفيه تحدث عن الانتخاب الذاتى وضرورة أن يعمل الإنسان على أن يتجاوز نفسه إلى كائن أعلى منه، والذى سماه فيما بعد: "السوبر مان".

٣ ـ المسافر وظله "١٨٨٠م". وفيه بَيَّن أن المشاعر الخلقية من الشفقة والرحمة والعدل والتواضع، إنما هى عوامل مضللة، تناقض التفسير العلمى للأشياء، وتعوق مسيرة التقدم لدى الإنسان، وتعرقل الوصول إلى الإنسان المجاوز للحد "السوبر مان".

٤ ـ الفجر "١٨٨١م".

٥ ـ المعرفة المرحة "١٨٨٢م".

٦ ـ وهكذا تكلم زرادشت "١٨٨٣م". وهذا الكتاب هو أهم مؤلفاته، ألفه فى أسلوب أدبى شعرى، ووضع فيه خلاصة مذهبه من جانبيه: السلبى الذى تمثل

فى نقد الدين والقيم والأخلاق، ومحاربة فكرة الوطن والقوم والأمة وكل شىء موروث، ثم الإيجابى الذى يتمثل فى الدعوة إلى الصراع ضد الدين والقيم، والعمل على تحقيق الإنسان المجاوز للحد من خلال التطور الذاتى. وقد جعل بطل هذا المؤلف ينطق بكل ما يريد نيتشه، فكان نيتشه يلقى بآرائه الفلسفية من خلال "زرادشت" هذا.

٧ ـ فيما وراء الخير والشر "١٨٨٦م". وفيه يكرر أضاليله حول القيم، ويقرر أن القوة والجبروت هو الخير، وأن الضعف والتواضع شر.

٨ ـ فى أصل الأخلاق "١٨٨٧م" . تكلم فيه: نيتشه عن الفضائل والقيم، وقرر أنها تزييف للواقع، وتكلم ـ تحديدًا ـ عن الزهد، ووصف الزاهد الذى يحتقر القوة والعنف بأنه مخادع.

٩ ـ إرادة القوة "١٩٠١م" نشر بعد هلاك نيتشه.

١٠ ـ غروب الآلهة "١٩٨٩م" وفيه يعلن زرادشت أن الآلهة قد ماتت كما كان قد قرر قبل ذلك، ويطالب الإنسان بأن يخرج الآلهة من قلبه، ويقبرها فى حفرة عميقة، يضع على بابها حجر ثقيل، حتى لا تخرج ثانية فتفسد حياة الإنسان.

١١ ـ هذا هو الإنسان "١٩٠٨م" وقد نشر ـ أيضًا ـ بعد هلاك المؤلف. وفى هذا الكتاب يبشر "نيتشه" بإنسان جديد يتجاوز الإنسان العادى ويفوقه من حيث القوة والقسوة، يعيش حياة المغامرة والحرب والعنف، وتتحد فيه إرادة الحياة مع إرادة القوة، بحيث يصيران شيئًا واحدًا، فالحياة هى القوة، والقوة هى الحياة.

***

ثالثًا: مفتاح شخصيته:

يبدو أن شخصية هذا الفيلسوف لا تفهم إلا من خلال ردود الأفعال التى انتظمت فكره وسلوكه وشئونه الحياتية كلها.

وردود الأفعال إنما تكون ـ غالبًا ـ تفسيرًا لسلوك نوعين من الناس متضادين. الأول: إنسان ضعيف الشخصية، ضحل الإمكانات الذهنية، قليل الثقة بنفسه، فهو حين يحب أن يظهر نفسه، ينتظر ليرى الناس يفعلون شيئًا، ثم يفعل هو نقيضه أو ضده. ليؤكد ذاته، وليلفت الأنظار إليه، متخذًا من المثل القائل: "خالف تعرف" منهج حياة، قاعدة سلوك. أما النوع الثاني؛ فعلى النقيض من الأول، حادُّ الذهن، شديد الذكاء، وقوى الثقة بنفسه، مفرط الكبر والغرور، يرفض التقليد والتبعية لأى شيء ولو كان الدِّين، حاقد على الآخرين، ماقت لكل شيء ناقم على الحياة والأحياء، سعادته كلها فى مخالفة الآخرين، ورفض آرائهم وتسفيهها.

وقد كان "نيتشه" يمثل النوع الثانى شر تمثيل.

فقد كان من أسرة متدينة، على صلة وثيقة بالنصرانية والكنيسة، والوظائف الدينية، حيث كان أبوه قسًا، وكذلك كان جده، وقد أعده أهله ليكون قسيسًا، وبخاصة لما لاحظوا فيه من ضعف صحته، ورقة إحساسه، وميله إلى العزلة.

لكن الرجل اندفع إلى الاتجاه المخالف المضاد، فلم يكتف برفض الوظائف الدينية، بل رفض النصرانية نفسها وكفر بها، بل إنه لم يكتف فى ردود أفعاله بهذا، وإنما جعل من أهداف حياته مهاجمة النصرانية ومحاربتها، وبيان أباطيلها، وكشف مفاسد رجالها، بل إنه حارب الدين كله، ولم يفرق بين حق أو باطل.

كذلك كان الفيلسوف عليل الصحة، ذا بنية جسمية ضعيفة، ثم مرض مرضًا شديدًا فزاد ضعفًا على ضعف، ولقد خلف له المرض آلامًا حادة فى الرأس وفى المعدة، وفى العينين حتى تركه شبه أعمى، ولقد لازمته تلك الآثار المرضية طوال حياته.

ومرة ثانية نصطدم بردود الأفعال لدى "نيتشه" فبدلاً من أن يسير سيرة فكرية تناسب حالته تلك، فإنه يندفع إلى الاتجاه الضِّد، فيعيب الضعف والضعفاء، ويمجد القوة والأقوياء، بل إنه ليدعو المرضى والضعفاء إلى قتل أنفسهم انتحارًا، تطبيقًا لمبدأه الذى يقول فيه: "مُتْ فى الوقت المناسب"، أما فى حال عدم استجابة الضعفاء والمرضى لدعوته تلك وانتحارهم، فإنه يدعو الأقوياء إلى أن يقوموا بهذه

المهمة نيابة عن الضعفاء، فيقتلونهم، حتى يخلو المجتمع مما يعوق تقدم الإنسانية إلى تحقيق "الإنسان المجاوز للحد".

وقد كانت حياة الرجل بما فيها من مرض وضعف وآلام، ليس أقلها إصابته بالشلل، وضعف البصر الشديد، وآلام الرأس والمعدة، كانت مثل تلك الحياة من شأنها أن تجعل صاحبها متشائمًا يائسًا قنطًا، وبخاصة لرجل مثله لا يؤمن بالله ـ سبحانه ـ ولا يؤمن بيوم آخر يكافأ فيه على صبره واحتسابه من ربه.. وكان ذلك هو المنتظر من ذلك الفيلسوف الذى جمع بين الخستين: المرض والآلام، ثم الإلحاد.

لكن جاء رد الفعل عنده، فرفض التشاؤم، ونعى على التشاؤم والمتشائمين، وهاجم بعنف النزعة التشاؤمية لشوبنهاور، وعاش يدعو إلى التفاؤل، وإلى العيش فى الدنيا بروح مرحة.

ولقد كان من شأن رجل ضعيف مريض مثله، فَقَدَ سلامة الصحة والبصر، أن ينحو منحى السلامة، ويدعو إلى التحوط والحذر من كل ما يوحى بالخطر.

ومرة رابعة نصطدم بردود الأفعال عند نيتشه، فقد اندفع الرجل المريض الضعيف شبه الأعمى يمجد الخطر،ويدعو الناس إلى أن "يعيشوا حياة الخطر، وأن يبنوا مساكنهم على حافة بركان "فيزوف"، وأن يركبوا زوارقهم كى يكتشفوا البحر الذى لم يرتده أحد من قبلهم" وأن يتحدوا جميع المخاطر بروح لا تعرف الخوف.

على أن ثمة حدثًا له دلالته وآثاره على تلك النفس المريضة المنحرفة. ذلكم أن "نيتشه" وقع فى حب إحدى النساء القريبات منه، ولكنها لم تبادله حبًا بحب، وفضلت عليه رجلاً آخر، ولم تُجْدِ محاولاته فى إقناعها بحبه، وهنا برز رد الفعل عند نيتشه، حيث اندفع هائمًا على وجهه يرسل النقد تلو النقد للنساء جميعهن، واصفًا إياهن بأقبح الصفات، مدعيًا أنهن لسن أهلاً لحب أحد من الرجال، وبخاصة حب رجل عظيم مثله، وهذا الحدث ليس بدعًا من القاعدة التى ذكرناها، وإنما هو تطبيق لها، أعنى أنه من أوضح الأمثلة على أن الرجل يعيش على ردود الأفعال.

***

رابعًا: فلسفة نيتشه

تقوم فلسفة "نيتشه" على أسس أهمها:

١ ـ التأكيد على الذاتية فى مقابل الموضوعية بالنسبة للصلة بين الإنسان والعالم. فقد ذهب نيتشه ـ كما ذهب "شوبنهاور" من قبله ـ إلى أن أفكار الإنسان ومعارفه عن العالم الخارجى متأثرة بأوهام ذاتية، ومعتقدات شخصية لا حقيقة لها فى الخارج، وأن الحقائق الموضوعية للعالم تختلف عما يتصوره الإنسان ويعتقده عنها، لذلك كانت معارف الإنسان عن العالم إنما هى أوهام ذاتية، وخرافات موروثة.

٢ ـ أن أخطر هذه الأوهام الذاتية، وأكبر تلك الخرافات الموروثة التى تخالف الواقع وتصادم الموضوع إنما هو الدين وكل ما يتصل به.

فالدين هو أكبر خرافة توارثتها الإنسانية جيلاً بعد جيل، وليس من شك أن الدين والأخلاق وما يتصل بذلك إنما هى مظاهر ضعف وانحطاط، لكن هذه المظاهر يتعهدها رجال الدين القساوسة، ويظهرونها على أنها فضائل، لكى يحتفظوا بسيادتهم على جماهير الناس، وتزداد مكانتهم ومكاسبهم المادية. رغم وضوح الكذبة، ورغم أن الدين وما يتصل به أمور يرفضها العلم، ويكفر بها العقل الذكى.

٣ ـ أهم ما فى فلسفته جانبان: جانب سلبى، وجانب إيجابى.

أما الجانب السلبى؛ فيتمثل فى النقد العنيف والقاسى والملحّ للدين والقيم والأخلاق، فهو لا يفتأ فى كل مؤلفاته ينقدها ويحاربها على أمل أن يقضى عليها. وقد استغرق هذا الجانب السلبى القدر الأكبر من مؤلفاته.

وأما الجانب الإيجابى؛ فهو تمجيد القوة والدعوة إليها، وإلى القضاء على كل ما يعارض القوة ويعرقل مسيرتها، ويعوق تقدم الإنسان مما يسمى بالقيم

والأخلاق، من مثل: الحب، والعطف، والرحـمة، والعدل، فهذه الأمور وأمثالها قد عاقت تقدم الإنسان إلى أن يتجاوز نفسه، ويرتفع عن مستواه الحالى، ليصل إلى الإنسان الأقوى، أو ما سماه " السوبر مان"، ولن تصل الإنسانية إلى هذا الإنسان الأقوى إلا إذا ألْقت وراء ظهرها بما يسمى بالقيم، ثم استعملت القوة فى الصراع بين الضعفاء والأقوياء، ومن ثم يُقْضَى على الضعفاء، ولا يبقى إلا الأقوياء، ثم يكون الصراع بين الأقوياء، وهكذا حتى تصل البشرية إلى المستوى الأعلى دائمًا.

من أجل ذلك دُعِيَ الرجل "فيلسوف القوة"، ودُعِيَتْ فلسفته "فلسفة القوة". وهى تسميات غير دقيقة، وإطلاقات خاطئة، والاسم الصحيح، أو الوصف الدقيق لهذه الفلسفة وكل ما يماثلها أنها: "فلسفة الحمقى والمجانين"، وليس ذلك إطلاقًا مجاوزًا للحقيقة، فقد صَدَّقَتْ الأحداث ذلك، وكان الرجل حين تسجيله أفكاره هذه وكتابته مذهبه شبه مجنون، ثم أصيب بالجنون فعلاً وظل الأحد عشر عامًا الأخيرة من حياته فى جنون شبه كامل، ورغم ذلك كان يكتب ويحرر مذهبه ذاك.

٤ ـ فيما يتصل بالجانب الخلقى ؛ فقد وضع مقياسًا للأخلاق ربط فيه بين القوة والفضيلة، وبين الضعف والرذيلة، فالفضيلة عنده هى القوة ، والرذيلة هى الضعف، فكل قوة فضيلة، بصرف النظر عن مجالات استعمالها ، فإن القوى عنده له مطلق الحرية فى استعمال قوته فى كافة المجالات ، ولو كان سفك الدماء البريئة ، بل إنه يحض الأقوياء على سفك دماء الضعفاء حتى لا يعوقوا مسيرة البشرية إلى الأعلى، كذلك كل ضعف هو رذيلة . بصرف النظر ـ أيضًا ـ عن أسباب الضعف، وسواء كانت بفعل الإنسان وإرادته كمن يجهد نفسه فوق الطاقة، أو بتعاطى مطعومات أو مشروبات تضعف الصحة، أو كان ذلك خارجًا عن إرادته وإمكاناته كالضعف بسبب المرض، أو بطبيعة بنية الجسم.

وأيضًا؛ ربط بين الخير والقوة، والشر والضعف. فأضحى الميزان الخلقى عنده: أن القوة هى الفضيلة وهى الخير، وأن الضعف هو الرذيلة وهو الشر.

٥ ـ دعا "نيتشه" إلى شعار يقول: "كن نفسك، ولا تكن غيرك".

وهو يعنى بهذا أن يرفض الإنسان كل الأشياء التى ورثها، والتى تربطه بالآخرين. وأن يحطم القيم، والعادات، والأعراف، والتقاليد، بل يجب عليه أن يحطم أخطر تلك القيود التى تمنعه عن "الخلق" والابتكار وتحقيق ذاته، وهذه القيود الأخطر هى فى نظره: الدين، والوطن، والأمة، فهذه الثلاثة يمثل كل منها قيدًا يمنع الإنسان من الانطلاق نحو "الخلق" والابتكار. فالناس يؤمنون بهذه الأشياء والإيمان يعوق الإنسان عن تحقيق ذاته. لأن الدين مأخوذ عن السابقين، فأنت لا تخلقه ولا تنشئه، بل تقلد السابقين، وكذلك الأمة والوطن، ومثل ذلك كل القيم. إنما هى موروثات عن الذين سبقوك، فأين أنت؟ أين ما قمت أنت بخلقه واختراعه؟ لا شيء ولذلك فأنت صورة مكررة ممن سبقوك..، ولكى تبدع، ولكى تكون نفسك، وتحقق ذاتك، لابد أن ترمى بكل شيء موروث عن السابقين، وتخترع أنت القيم الخاصة بك، والتقاليد والأعراف والسلوك الخاصة بك أنت، والتى تناقض كل ما كان عليه الآخرون السابقون.

٦ ـ يركز "نيتشه" فى فلسفته على "خَلْق" الإنسان الأعلى، أى الوصول بالإنسان إلى السُّوبرمان عن طريق الصراع، "والتطور الذاتى الصاعد"، وهو يطبق هنا مذهب التطوريين، فيذهب إلى أن الكائنات بدأت من الخلية الواحدة "الأميبا"، ثم تطورت إلى الأعلى، حتى وصلت فى تطورها إلى الإنسان الذى هو الحلقة الأرقى فى سلسلة الأحياء. لكن الإنسان وقف عند حد معين ولم يكمل مسيرة الارتقاء ليصل إلى الأعلى منه. فكل الكائنات من أدناها قد أدت رسالتها فى الترقى إلى الأعلى، حتى أوصلت المسيرة إلى الإنسان. وكان على الإنسان أن يفعل نفس الشيء، لكنه وقف فى محله، وقد عوقته أوهامه الذاتية عن الدين، والأخلاق، والقيم، والإبقاء على الضعفاء، وهذه أفقدت المسيرة أهدافها، وعلى الإنسان أن يبدأ المسيرة من جديد، ولن يتم ذلك إلا بالقضاء

على الدين والقيم، وإحياء الصراع، وتطبيق قانون "البقاء للأقوى" حتى يصل فى النهاية إلى الإنسان السوبر مان.

٧ـ وللوصول إلى هذه الغاية يجب ألا تترك الأمور تسير تلقائيًا، بل يجب أن تسير الأمور حسب منهج معين، يلتزم به الجميع دون تهاون، والمنهج اللازم إنما يتم عن طريق أمرين: تحسين النسل، والتعليم، وتحسين النسل يأتى فى المرتبة الأولى.

وتحسين النسل يتطلب رفض الزواج العشوائى الذى يقوم على ما يسمى: الحب، والذى يقع فيه عظماء الرجال ضحايا للخادمات وأمثالهن تحت ما يسمى بالحب. لكن ينبغى أن يختار الأرقى من الرجال لأمثالهم من النساء، فتتزوج النساء الراقيات الرجال الراقين، ويكون الزواج محكومًا بهذه المعايير، يقول "نيتشه": "يجب ألا نسمح بزواج يقوم على الحب، وأن يتزوج خير الرجال من خير النساء، وأما الحب فلنتركه لحثالة الناس، إذ ليس الغرض من الزواج مجرد النسل، بل يجب أن يكون وسيلة للتطور والترقى.. بمثل هذا المنهج وهذه التربية يرتفع الإنسان فوق الخير والشر، ولا يتردد فى اللجوء إلى العنف والقوة فى سبيل الوصول إلى غايته"[1]... والغاية التى يقصدها الرجل إنما هى الوصول إلى الإنسان الأعلى "السوبر مان".

٨ ـ وكما بذل "نيتشه" مجهودًا ضخمًا ومستمرًا فى الدعوة إلى حياة الصراع والقوة للوصول إلى "خلق" وإيجاد "السوبر مان". كذلك بذل الفيلسوف مجهودًا مضاعفًا ومستمرًا فى محاولات القضاء على الأديان التى تمثل عدوّه الأول. ويتمركز حولها حقده ومقته الشديد.

لقد جعل بطله "زرادشت" الذى اخترعه ليكون شبيهًا بسميه الفارسى "دزرادشت" وليكون معلما كما كان "دزارست" معلما، لقد وضع نيتشه على لسان

(١) قصة الفلسفة. ص ٥٢٠.

بطله زرادشت حديثًا طويلاً رمزيًا أراد أن يبين فيه أن الدين خرافة، وأن الآلهة قد ماتت، يقول "نيتشه" فى كتابه: "هكذا تكلم زرادشت": "ينزل زرادشت وهو فى الثلاثين من عمره من جبله الذى أوى إليه سابحًا فى تأملاته، ليعظ الجماهير، ولكن الجماهير كانت مشغولة عنه بمشاهدة رجل يرقص على الحبل، ولكن الراقص على الحبل يسقط ويموت، فيحمله زرادشت على كتفه ويذهب به بعيدًا ليدفنه فى قبره ويغلقه عليه"(١).

إن هذه القصة الرمزية أراد بها نيتشه أن يبين أن "زرادشت" الذى هو "نيتشه" نفسه قد أراد أن يبين للناس الحقائق الصحيحة: لكن الناس كانوا مشغولين بالدين والقيم والخرافات، التى رمز لها "نيتشه" بالأراجوز أو الراقص على الحبل. لكن الدين ما يلبث أن يموت بفضل جهود نيتشه، كما مات الراقص على الحبل عندما رأى زرادشت، وأن نيتشه هو الذى سوف يدفن الدين بيديه، ويعلن موت الآلهة كما فعل زرادشت... لقد التقى زرادشت وهو نازل من الجبل بناسك يحدث الناس عن الإله. فقال زرادشت لنفسه: "هل يمكن أن يكون ما قاله الناسك حقًا؟ يبدو أن هذا الناسك العجوز الخرف لم يسمع بعد أن الآلهة قد ماتت، لقد مات الله حقًا وماتت جميع الآلهة.. لقد ماتت جميع الآلهة، ونريد الآن أن يعيش "السوبر مان" الإنسان الأعلى"(٢).

٩ ـ زعم "نيتشه" أن الوجود له غاية، وغاية الوجود هى "الصيرورة" أو "الدور السرمدى". وهو يعنى بهذا أن ينفى ما جاءت به الأديان من القول بالنعيم الدائم، والعذاب المقيم، وأن هذه الدنيا ستنتهى بدار خالدة أبدًا لا تفنى. وحتى يحارب هذه الحقيقة الدينية، قال بنظرية "الدور السرمدى" وهى نظرية معروفة فى التراث الثقافى اليونانى. وهى تقرر أن الموجودات جميعها تمر فى دورات متتاليات صاعدات: تبدأ الدورة بالخلية الأولى، أو بالذرة. ثم تترقى وتتطور تصاعديًا، حتى تصل إلى أعلى ما يمكن أن تصل إليه الموجودات من

(١) انتى دوهرنج. ص ٢١٨ من الترجمة العربية.
(٢) المصدر السابق. ص ٢١٩.

ترق صاعد، ثم يفنى كل شيء تمامًا، لتعود دورة أخرى من جديد وعلى نفس النمط، وتتكرر نفس الظروف والأحوال والموجودات.. هكذا فى دورات دائمة سرمدية لا تنتهى.. قالوا: وهذه غاية الوجود.. وهذه النظرية جمع فيها القائلون بها من اليونان بين أمرين ظنوهما حقيقتين مسلمتين. أولهما: أن العالم الطبعى دائم أزلى أبدى، لا بداية له ولا نهاية. وثانيتهما: أن الوجود الشخصى متغير ولا يبقى على حال. ورأوا أنهم بذلك قد حلوا مشكلة الثبات والتغير فى الوجود المادى الذى لا يؤمنون إلا به، فالعالم فى مجموعة ثابت ودائم، لكن الأشياء والصور فيه متغيرة وصائرة من حال إلى حال.

وقد اعتنق "نيتشه" هذه الفكرة الفاسدة التى تخلى عنها حتى أصحابها، وظن أنه بذلك وضع النهاية للدين وكل ما جاء به.. نعوذ بالله ـ سبحانه ـ من الشيطان الرجيم وجنوده من الجِنَّةِ والناس.. لكنه زاد على الفكرة الإغريقية التى شرحناها، فكرة أخرى أضافها هو من عنده، وهى أن الأشياء التى تعود فى الدورة التالية هى نفسها التى كانت فى الدورة السابقة، دون أدنى تغيير. وفى ذلك يقول: إن كل شيء سوف يعود فى الدورة التالية، حتى "نيتشه" والشعب الألمانى بصفاته وسماته دون أى تغيير.

* * *

خامساً: نقد فلسفة نيتشه

١ ـ ليس هناك فكر، وليست هناك فلسفة تخلو من نقد أو تقويم. لكن فلسفة "فردريك نيتشه" لا تنطبق عليها هذه القاعدة، فهى لا تحتاج إلى نقد أو تقويم، ليس لأنها تعلو على النقد، أو لأنها خالية من المآخذ، بل لأنها أقل قيمة، وأوضح بطلانًا، وأظهر سقوطًا وإسفافًا، وأبين ضلالاً وفسادًا من أن تنقد.

إن الفكر لكى يخضع للنقد لابد أن يحتوى على حد أدنى من العقل والمنطق، يجعله أهلاً لأن ينظر فيه العقلاء ويهتموا له، لكن فكر هذا الرجل قد فقد الحد الأدنى من العقل والمنطق، حتى أضحى خيالاً وأوهامًا هى فى الواقع أحط من الخيال، وأسف من الأوهام.. إنه لا يقدم للناس أفكارًا وحقائق يقيم الأدلة على صدقها، بل يكتفى بأن يسرد علينا أوهامه، ويتجشأ خيالاته التى تنضح بالحقد والمقت لكل شىء فى الوجود: الدين، والأخلاق، والقيم، والإنسان، والحق، والخير، والجمال، ولم يفلت شىء فى الوجود من مقته وكراهيته وحقده، حتى نفسه التى بين جنبيه.

٢ ـ إن خيالاته وأوهامه التى يقدمها للناس على هيئة أفكار فلسفية، إنما هى خيالات وأوهام مريضة، لإنسان فاسد مريض، وقد كانت خيالاته وأوهامه جديرة بأن تذهب سدى، وأن ينبذها الفكر الإنسانى كما نبذت الحياة صاحبها، لولا أن اليهود توسموا فى هذا الفكر ما يفسد الإنسانية، ويلوث كل ما فيها من حق وخير وجمال، فأمسكوا بهذا الفكر ونشروه، فكان منه هذا الكم الهائل من الغثاء، والذى أضحى معدودًا من المذاهب الفكرية التى على الناس أن يدرسوها ويحللوها حتى يظهروا ما فيها من زيف وفساد فيجنبوا أنفسهم والآخرين ضررها ووباءها.. وإلا فكم من المجانين قادر على أن ينتج مثل هذا الهراء وأكثر.

٣ ـ إن "نيتشه" ـ كما قلنا ـ لم يقدم لنا فكرًا منطقيًا يقيم الدليل على صدقه بل يكتفى بسرد أفكاره، وَتَجَشُّؤ أوهامه، إنه قدم خيالاً ووهمًا لا فكرًا، ومن ثم كانت جميع أفكاره من ألفها إلى يائها كمًّا من التخيلات التى لا دليل عليها، ولا سند لها. سوى أنها إفرازات تكشف عن صفتين أساسيتين لصاحبها.

أولاهما: كم هائل من الحقد والكراهية والمقت لكل شىء فى الوجود؛ الدين والأخلاق والقيم والمجتمعات الإنسانية، إنه يمقت كل شىء حتى نفسه، ويصل مقته نفسه إلى حد التحريض المستمر على قتلها والقضاء عليها.. أليس قد ملأ فلسفته بتحريض الأقوياء على قتل الضعفاء والمرضى؟ ومن كان أشد منه ضعفًا ومرضًا؟ إن فكره يجعله أول المستحقين للقتل والتدمير وإخلاء المجتمع الإنسانى منه.. إننا نمقت قتل الإنسان أخاه، لكنا نقول: ليت قويًا من الأقوياء فى زمانه سمع مقالته مرة واحدة ونفذها فى شخص واحد، ليت أحد الأقوياء تبرع وناب عن الإنسانية كلها فى قتله، وتطهير المجتمع الإنسانى منه ومن أفكاره.

ثانيتهما: جرأة مرضية اتسمت بقدر هائل من التبجح والتوقح والعدوانية. جعلته يتجشأ على الناس ويقذف فى وجوههم بآرائه المريضة، وأفكاره المعتوهة كأنها حقائق مسلَّمة، ويعتدى على أقدس المقدسات، ويناقض البدهيات والفطريات دون أدنى قدر من الحرج، وهذه كلها شكلت أقوى الأدلة على جنون الرجل، وانقلاب الموازين عنده.

٤ ـ إن "نيتشه" أقام فلسفته وأفكاره على أساس من التعارض بين الذاتية والموضوعية، فقرر أن معارف الناس عن العالم الخارجى إنما هى أوهام متأثرة بذواتهم، ومغايرة للواقع، كذلك قرر أن الواقع مغاير لمعارف الناس. وإذا كان الفيلسوف قد وضع نفسه فى كفة والعالمين فى كفة، ثم أصدر حكمه منفردًا على جميع الناس أنهم واهمون، وأن علومهم ذاتية لا صلة لها بالواقع؛ نقول: إذا كان هو قد سمح لنفسه أن يفعل هذا؟ أو ليس من حق الناس أن يتخذوا منه نفس الموقف، ويحكموا عليه بمثل ما حكم به هو عليهم؟ ومن ثم؛ فإن معاملة

"نيتشه" بنفس منطقه هذا، وتطبيق تلك القاعدة التى جاء بها، من شأنه أن يزرى بفكره كله، وأن ينسف فلسفته بجملتها لأنها ـ حسب قواعده ـ مجرد أوهام ذاتية لا صلة لها بالواقع، والواقع معارض لها ومغاير، وكل ما فيه مختلف عنها.. فليس علينا ـ كى نهدم فكره من جذوره ـ إلا أن نعامله بفكره، ونطبق عليه مبادىء فلسفته.

بل إنه أولى بذلك من غيره لأنه إذا كان قد اتهم الأسوياء من الناس بأنهم واهمون، وأن أفكارهم وعقائدهم إنما هى خيالات وأوهام ذاتية لا صلة لها بالواقع؛ فهذا عنه هو الذى قضى حياته مريضًا مشلولاً شبه أعمى نصف مجنون، ثم وقع به الجنون المطبق قرابة الأثنى عشر عاما الأخيرة من حياته التى قضاها يتخبط فى ظلام العمى والجنون؟ ليس من شك فى أنه الأولى والأحق بصفة الواهم المتخيل الذى يعيش بعيدًا عن الواقع، والذى لا يمت له بصلة.

٥ ـ إن الفيلسوف الحاقد قد أقام فلسفته على أنقاض كل ما هو خير وحق وجميل فى هذه الحياة. إنه عاشق للشر والباطل وكل قبح وفساد، إنه ينفر ويحذر من كل ما هو خير وطيب وفاضل، ويُرغب فى كل ما هو شر وخبيث ودنس.. إن أوضح الأدلة على فساد مذهبه أنه أخذ على عاتقه أن يقلب الحقائق، وأن ينقض القيم، وأن يحيل المجتمعات البشرية إلى ساحات للحرب. يقضى فيها الأقوياء على الضعفاء، ثم تستمر الحرب بين الأقوياء، حتى تتحول المجتمعات البشرية إلى أنقاض وخرائب يرتفع فوقها نعيق الغربان والبوم.

٦ ـ إن الرجل المريض بعقله يخلط بين الوسيلة والغاية، فالقوة التى ظل طوال حياته يتغنى بها ليست غاية فى ذاتها، وإنما هى وسيلة، إن القوة تكون خيّرة إذا ما استعملت فى سبيل الخير، وتكون شريرة وقبيحة إذا ما استعملت فى تحصيل الشر، أما القوة فى ذاتها فلا توصف بخير ولا شر، ولا بفضيلة ولا رذيلة. وإنما يتوقف ذلك على الموضوع الذى تستعمل فيه.

ولعلنا نتذكر هنا ما ورد فى السنة الشريفة من ميزان توزن به القوة من حيث

كونها خيرًا أو شرًا. حين مَرَّ على أصحاب رسول الله ـ ﷺ ورضى الله عنهم ـ رجل شاب قوى، يسرع فى طريقه، فقال أصحاب رسول الله ﷺ لو كان هذا فى سبيل الله. ـ يقصدون قوة الفتى وشبابه وسرعته فى السعى ـ فأخبرهم الرسول ﷺ بالميزان الصحيح للقوة حيث قال: إن كان قد خرج يسعى على أبوين كبيرين، فهو فى سبيل الله، وإن كان قد خرج يسعى على زوجه وأولاده؛ فهو فى سبيل الله، وإن كان قد خرج يسعى على نفسه ليعفها عن المسئلة فهو فى سبيل الله، وإن كان قد خرج بطرًا ورياء فهو فى سبيل الشيطان. أو كما قال ﷺ.

هذا هو الميزان الذى توزن به القوة، وقد اقتصر الرسول ﷺ فى ذم القوة على أن يكون صاحبها قد خرج كبرًا ورياء ومفاخرة. فماذا لو علم الرسول ﷺ أنه خرج ـ كما يدعو نيتشه الأقوياء ـ ليقتل الضعفاء، ويروى الأرض بدماء المرضى؟

٧ ـ إن الرجل المريض أراد أن يحول المجتمعات الإنسانية إلى مختبرات، وأن يحول الناس رجالاً ونساء إلى "فئران للتجارب" وأن يلغى من حياة الناس العواطف والمشاعر، حيث يدعو إلى أن تقوم العلاقات بين الرجال والنساء حسب قواعد جامدة، وبرامج باردة يضعها القائمون على الأمر، فيأتون برجل معين ويفرضونه على امرأة معينة. وكأن الناس قطيع من الأغنام قام عليها راع قاسى القلب، ميت الإحساس.. وبذلك تتحول المجتمعات إلى بيئات لا أثر فيها لعاطفة أو شعور. إن هذه وحدها كفيلة بأن تضرب المجتمع الإنسانى فى الصّميم، وتحيله إلى أخس من مجتمع الحيوان الأعجم.

❊❊❊

المبحث الرابع

أوجست كونت

(١٧٩٨ — ١٨٥٧م)

أولاً: حياته:

ولد "أوجست كونت" بباريس سنة ثمان وتسعين وسبع مائة وألف، لأسرة متدينة شديدة التعلق بالنصرانية الكاثوليكية. وكان المنتظر أن يكون ابن أسرته فى ذلك، متدينًا شديد التعلق بالنصرانية. لكنه فاجأ أسرته بإعلانه كفره بالنصرانية وجميع الأديان، وقد اتخذ هذه الخطوة الخطيرة فى سن مبكرة، حيث كانت سنه حين أعلن كفره حوالى الرابعة عشرة.

أما عن مسيرته العلمية والعملية؛ فهو لم ينتظم فى التعليم طويلا، ولكنه تولى تعليم نفسه، فدرس الرياضيات وبرع فيها، ثم درس الفلسفة وبرز فيها كثيرًا وفى أثناء دراسته اتصل بالفيلسوف الفرنسى "سان سيمون" وعمل سكرتيرًا له لخمس سنين (١٨١٧-١٨٢٢). ثم اختلف معه حول بعض القضايا الفكرية، فتركه.. اشتغل بعد ذلك بإلقاء محاضرات فى "فلسفة العلوم"، ثم مزج فلسفة العلوم بفلسفته الوضعية واللاهوتية. وكانت محاضراته تجتذب الكثيرين من العلماء. لكنه بعد ثلاث سنوات أصيب بلوثة عقلية وانهيار عصبى. ولما شفى من مرضه عاد إلى إلقاء محاضراته، ولم يطل به الأمر حتى عاوده المرض العقلى مرة أخرى، فحاول الانتحار، لكن امرأته عنيت به حتى مرت الأزمة، وكان مرضه الثانى بسبب هيامه بامرأة عشقها حتى الجنون.

ولما ماتت هذه المرأة بعد سنتين من هيامه بها أصابته هذه اللوثة التى بدا أنه شفى منها ظاهرًا. بينما كانت لوثته وجنونه يعيشان معه يستقى منهما أفكاره وفلسفته،

حتى كان ذلك الكم الهائل الذى جاء به الرجل من فلسفته التى أقل ما توصف به أنها فلسفة ساقطة، وفكر تافه لا يصدر إلا عن رجل مجنون.

وقد ظل هذا الفيلسوف يدعو إلى أفكاره وفلسفته وبخاصة الدين الذى اخترعه حتى استطاع فى أخريات حياته أن يجتذب إليه طوائف من أمثاله، ثم هلك الرجل فى سنة سبع وخمسين وثمان مائة وألف.

***

ثانيًا: مفتاح شخصيته:

ترجع المؤثرات فى شخصية "أوجست كونت"، كما يرجع نتاجه الفكرى والفلسفى - فيما نرى - إلى عوامل كثيرة أهمها:

١ - العصر الذى كان يعيش فيه الفيلسوف.

حيث اتسم ذلك العصر بالفوضى الفكرية، والغوغائية المذهبية. فقد ظلت الشعوب الغربية تعيش حالة من الكبت والحجر على الحريات لأكثر من ألف عام تقريبًا. وكانت تلك الشعوب مطحونة بين رجال الكنيسة وفسادهم من جانب، وطغيان الملوك والحكام وجبروتهم من جانب آخر. فلما جاء الوقت الذى ثارت فيه الشعوب على ثنائى الجريمة هذا، واستنشقت نسيم الحرية لأول مرة منذ ألف عام، انطلق الناس كالسوائم التى طال سجنها فأصابها ما يشبه السعار فأخذوا يعبرون عن أنفسهم بأفكار وآراء على قدر كبير من الشذوذ، والكثير من هذه الآراء والأفكار تخطى عدوة العقل إلى عدوة الجنون، وليس من شك فى أن أفكار "كونت" هذا تعتبر أوضح مثال على هذه النوعية، وعلى التأثر بهذا العامل.

٢ - عداء الرجل الشديد للدين والمتدينين

ولم يكن الرجل بدعًا فى هذا وقتذاك، فإن العداء للدين، والمقت الشديد للمتدينين كان السمة المميزة لذلك العصر الذى عاش فيه. غير أن كراهية الرجل للدين، ومقته للمتدينين قد فاقا كل مثال، وتخطيا كل حد، ولعل بعض أسباب ذلك يرجع إلى ما اتسمت به أسرته من التدين الشديد، والتمسك بالنصرانية فى

تزمت وتعصب مما جعل الأمر ينقلب عند الرجل إلى "رد فعل" عكسى دفع به إلى العدوة القصوى من العداء والمقت للدين والمتدينين.

وإذا كان هذا بعض السبب؛ فلعل السبب الأقوى والمؤكد فى عداء الرجل للدين والمتدينين إنما يرجع إلى رجال الدين النصرانى، وما كانوا عليه من تحجر وجمود فى الفكر وعداء شديد للعلم والعلماء، هذا من جانب، ومن جانب آخر ما كانوا مغرقين فيه من الفساد الخلقى والفجور والانحلال والشذوذ، بينما هم يمثلون الدين، ويوجهون المتدينين.

٣ ـ ما أدركه الرجل من حاجة المجتمع إلى الدين

وهذا ما أصاب الرجل بحيرة واضطراب وفقدان الاتزان النفسى والفكرى. فهو يمقت الدين ويرى أنه خرافة ووهم. وفى نفس الوقت يدرك جيدًا أن الدين يمثل ضرورة جوهرية للمجتمع لا يمكن الاستغناء عنها، من هنا اشتعلت نار الحقد فى قلب الرجل، وأصابه الاضطراب والحيرة؛ كيف سيتصرف مع هذا العدو الذى لا غنى عنه ، هذه الحيرة وهذا الاضطراب الذى حاول الوصول إلى علاج لهما، أو الخروج منهما بذلك الهراء الساقط الذى أسماه "دين الإنسانية"، والذى ستكون لنا معه وقفات ـ بحول الله سبحانه ـ

٤ ـ حالة الرجل النفسية والعقلية

فالرجل كان يتميز بصفات نفسية وعقلية لازمته طوال حياته، وتركت آثارها على مسيرته الفكرية كلها، فلقد كان ذكيًا إلى حد كبير، وكان إلى ذكائه صاحب مزاج حاد، ونفسية مهزوزة، وطبيعة متقلبة، ومشاعر مضطربة. وكل هذه الصفات جعلته مؤهلاً للإصابة بالأمراض النفسية، والهزات العصبية. والاختلال العقلى، المرة بعد المرة كما رأينا من سيرة حياته، ومثل هذا الرجل بحالته تلك التى جعلته معرضًا للجنون فى أى وقت، بل جعلت الجنون يراوده ثم يرتاده حينًا بعد حين، مثل هذا لا يمكن أن ننتظر منه فكرًا سليمًا، ولا فلسفة سوية.. وليس من باب المصادفة أن أهم نتاج الرجل فى الفكر الإنسانى ومراحله، والدين الذى اخترعه

ودعا إليه. إنما كتبه وهو فى حالة جنونه الأخيرة والتى لم يُشْفَ منها قط، بل لازمته ما بقى له من عمر، وقد كان يصرح بأن معشوقته التى هلكت تتمثل له، وتعايشه وتملى عليه جميع أفكاره ومشاريعه الفلسفية، وبخاصة مشروعه الذى أسماه "دين الإنسانية" أفيكون عاقلاً من يزعم أن هذا الرجل قد شفى من جنونه؟

٥ ـ موقف علماء عصره من فكره

لقد كان الرجل بطبعه شديد الاعتداد بنفسه، وكان يرى نفسه فَذًّا بين المفكرين فى عصره، فنزعة الغرور والكبر كانت متأصلة فيه، ولما بدا يلقى محاضراته فى فلسفة العلوم أقبل عليه المفكرون يستمعون إليه، ويهتمون بأفكاره، ويثنون عليه، فزاده ذلك غرورًا وكبرًا، ثم لما انتقل إلى تحليل المجتمعات الإنسانية والمراحل التى مر بها العقل الإنسانى لم يراجعه أحد من العلماء بل ازداد إعجابهم به، مما جعله يزداد اغترارًا واستكبارًا إلى أن بلغ به غروره إلى اختراع دين يعارض به جميع الأديان وليحل محلها.

ولو أن مفكرى عصره وقفوا لأفكاره بالمرصاد يحللونها ويظهرون فسادها وضلالها، ولو أنهم راجعوه وبينوا له أخطاءه، لعرف لنفسه حدًا يقف عنده. ولما انتهى به الأمر إلى ما انتهى إليه من هذا الكم الهائل من الضلال، ولكن أنَّى لهم ذلك؟ وهم فى مثل ضلاله أو أضل.

* * *

ثالثًا: فلسفة أوجست كونت

للرجل نتاج فكرى وفلسفي واسع ومتشعب لكنا نستطيع أن نُصنّفه إلى نوعين:

الأول: نتاجه الفكرى فى فلسفة العلوم والرياضيات وغير ذلك مما لا صلة له بالدين أو بالعقل الإنسانى ومراحله، أو الطبيعة البشرية وما وقع لها أو مر بها. وهذا نتاج فكرى قد يكون له قيمته ووزنه عند المشتغلين به، وهذا النوع من فكر الرجل هو الذى لفت الأنظار إليه فى البداية وصنع له اسمًا عند علماء عصره، وبخاصة نتاجه فى فلسفة العلوم، وهذا النوع من الفكر قد يصيب فيه الرجل أو يخطىء، ولسنا فى مجال دراسته أو الحديث عنه أو تقويم فكر الرجل فيه.

الثانى: فلسفة "كونت" وأفكاره التى تتصل بطبيعة الإنسان، والمراحل التى مر بها الإنسان فى تقدمه وتحضره عبر العصور المختلفة منذ وجد على ظهر الأرض حتى العصر الحديث الذى كان فيه "كونت". وهذه المراحل التى يطلق عليها "كونت" وأتباعه "مراحل التقدم الإنسانى". وفى إطار فلسفة "كونت" حول مراحل التقدم الإنسانى وضع جملة أفكاره ومبادئه التى قام عليها المذهب الوضعى أو الفلسفة الوضعية، التى يعتبر "كونت" هو مؤسسها وواضعها، والتى تابعه عليها وطبق مبادئها جمهرة الفلاسفة الذين جاءوا بعده.

فلسفة كونت الوضعية

نذكر فيما يلى أهم الأسس التى تقوم عليها الفلسفة الوضعية "لكونت". ثم نعقب ذلك بنقد هذه الفلسفة.

وأهم الأسس التى تقوم عليها الفلسفة الوضعية:

١ ـ تقوم الفلسفة الوضعية على أن الفكر الإنسانى لا يدرك إلا الظواهر المحسوسة فى العالم الذى نعيشه. ويدرك ما بين تلك الظواهر من علاقات مادية محسوسة واضحة.

أما البحث وراء الظواهر الطبعية عن علل لها خفية، أو أمور غائبة، أو حكمة وعناية، أو فاعل ومدبر، أو خالق وصانع. فهذه كلها أوهام وخرافات ما ينبغى أن يفكر فيها أحد. وإن وجد من يتمسك بها، فإنها هى أوهام ذاتية لا صلة لها بالواقع إطلاقًا. فالبحث عن العلل والغايات وراء الظواهر إضافة إلى أنه وهم وخيال، فإنه لا يمكن إدراك شىء من ذلك، ولا فائدة له فى عالم الواقع، وهو مفسدة للعقل، مضيعة للوقت والجهد.

يتضح من هذا أن المذاهب الوضعى الذى وضع "أوجست كونت" أسسه مذهب مادى إلحادى يقوم على الإيمان بالمادة وحدها، وينكر كل ما وراء المادة والحس، ويرى أن المعرفة اليقينية هى المعرفة الحسية المادية التى تقوم على الملاحظة والتجربة الحسية. وكل معرفة لا تقوم على الحس أو التجربة فإنها عند هؤلاء وهم وخيال. المذهب الوضعى ـ إذن ـ مذهب مادى إلحادى ينكر جميع الأديان، ويرفض كل ما غاب عن الحس، ويطعن فى كل معرفة تأتى عن طريق الوحى.. لأنه لا يؤمن بوجود الموحى ـ سبحانه ـ.

٢ ـ قانون الحالات الثلاث:

يرى "كونت" أن البشرية مرت عبر تاريخها الطويل منذ وجودها حتى زمانه بحالات ثلاث، أو مراحل ثلاث متتابعة ومتوالية. وكل مرحلة تسلم للأخرى التى تليها.

وهذه الحالات الثلاث يطلق عليها "كونت" "قانون التقدم الإنسانى".

والفيلسوف مثل كل الفلاسفة والمفكرين الماديين الملاحدة يعتقد أن البشرية بدأت حياة بدائية قريبة من حياة الحيوان، ثم تقدمت تدريجيًا عن طريق الخبرات والتجارب الحياتية، دون معونة أو توجيه من وحى أو إله. وهذه هى نفس عقيدة علماء الاجتماع والنفس. فكل هؤلاء يعتقدون أن الإنسان نشأ بدائيًا، ثم تدرج بذاته وخبراته وتجاربه. حتى وصل إلى ما هو عليه الآن. وهذا الرأى مناقض تمامًا بل

مضاد للعقيدة الحقة التى نعتقدها ونؤمن بها نحن المسلمين. بل ويؤمن بها كذلك اليهود والنصارى أصحاب الكتابين السماويين، رغم ما وقع فيهما من تحريف وتبديل. فالكل يؤمن بأن البشرية بدأ تاريخها بأبى البشر "آدم" ـ عليه السلام ـ وأن الله ـ سبحانه ـ خلقه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، وقد كان آدم ـ عليه السلام ـ نبيًا، ولم يكن جاهلاً ولا بدائيًا، بل كان لديه من العلم الذى أفاضه الله ـ تَعَالَى ـ عليه، وعلمه إياه ما لم يكن لدى الملائكة، ولقد أمر ربنا ـ سبحانه ـ آدم أن يعلم الملائكة بعض ما كانوا يجهلون، فقد قال الله ـ تَعَالَى ـ لآدم عليه السلام:

﴿يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ .البقرة. بعض آية : ٣٣

هذه عقيدتنا، وهذا هو الحق لدى المسلمين، بل لدى غيرهم من أصحاب الرسالتين السماويتين.

لكن "كونت" حسب ما يرى أن البشرية نشأت بدائية ثم تدرجت نحو التقدم، وإنه ـ بناء على ذلك ـ وضع ما أسماه "قانون الحالات الثلاث، أو التقدم الإنسانى". حيث إن البشرية مرت عبر تاريخها نحو التقدم بثلاث حالات أو مراحل.

- **الحالة الأولى: اللاهوتية.**
- **الحالة الثانية: الميتا فيزيقية.**
- **الحالة الثالثة: الوضعية.**

الحالة اللاهوتية:

يرى "كونت" أن هذه الحالة أو المرحلة كانت البشرية تحاول فيها التعرف على ما حولها. وكان العقل الإنسانى يبحث فى هذه المرحلة عن كنه الأشياء وحقيقة الظواهر، وكان يحاول إرجاع كل طائفة من الظواهر إلى علة أو مبدأ مشترك. ويقرر "كونت" أن الإنسان فى هذه الحالة اللاهوتية قد مر عبر ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: ويسميها الحالة "الفتشية" (Fetichism). وفى هذه المرحلة كان الإنسان يخلع على الأشياء والظواهر الطبعية من حوله نوعًا من الحياة، ويعتقد أن لها تأثيرًا فى حياة الناس وأنها تتصرف فى مصائرهم. ومن ثم كان الإنسان فى هذه المرحلة يعبد هذه الظواهر أو هذه الأشياء، ويتقدم إليها بأنواع من الطقوس دفعًا لضرها وطلبًا لنفعها. ولعل "كونت" يشير إلى ما يذهب إليه علماء الاجتماع الملاحدة إلى أن نشأة التدين لدى الإنسان ترجع إلى بضع نظريات منها ما يسمونه "غريزة الاستحياء" ويريدون بذلك نفس ما أشار إليه الفيلسوف من أن الإنسان الأول ـ فيما يزعمون ـ كان يستحيي الأشياء والظواهر، أى يرى أن لها نوعًا من الحياة، وأن لها قوى تؤثر بها فى حياته، ومن ثم كان يعبدها.

المرحلة الثانية: من مراحل الحالة اللاهوتية، وهى مرحلة تعدد الآلهة المفارقة أو الآلهة العلوية، ويزعم الفيلسوف أن الإنسانية فى هذه المرحلة أخذت تسلب الحياة وقوة التأثير عن الظواهر الطبعية التى كانت تؤلهها، وترجع القوة المؤثرة فى الوجود من حولها إلى كائنات علوية غير منظورة، وهى كائنات متعددة بتعدد شئون الحياة، فإله للزرع، وآخر للمطر، وثالث للصيد.. وهكذا لكل شأن من شئون الحياة إله علوى غير منظور.

المرحلة الثالثة: من مراحل الحالة اللاهوتية؛ فهى مرحلة "التوحيد" فالرجل يزعم أن البشرية فى هذه المرحلة قد جمعت جميع الآلهة التى كانت تعبدها ثم وحدتها فى إله واحد مفارق، أى علوى غير منظور خارج عن عالمنا الذى نعيش فيه. ويضرب الرجل مثالاً لهذه المرحلة الأخيرة بظهور الدين النصرانى والدين الإسلامى.

وقد رأى "كونت" أن من خصائص الحالة اللاهوتية، وبخاصة فى مرحلتها

النهائية أن موضوعها مطلق، وأن تفسيراتها للظواهر والأحداث تعتمد "ما فوق الطبيعة" وأن منهجها خيالىّ وهمى، وأن كل ما لدى أصحابها أمور ذاتية لا صلة لها بالواقع أو الموضوع. لكن الفيلسوف لاحظ شيئًا آخر على قدر كبير وخطير من الأهمية. حيث لاحظ أن الدين ـ أى دين ـ يمثل أساسًا متينًا وضروريًا وحاجة ملحة للمجتمعات الإنسانية، وللعلاقات الاجتماعية، وأنها تمثل ضرورة اجتماعية على مستوى الفرد أو الجماعة، كذلك لاحظ أن الدين ـ كذلك ـ يمثل من الجانب السياسى الأساس الذى تقوم عليه سلطة الكهنة والملوك، حيث يستمدون سلطاتهم لدى الجماعة من الدين الذى تدين به الجماعة.

وهذه الملاحظة الأخيرة التى لاحظها "كونت" وهى ضرورة الدين للمجتمعات الإنسانية سيكون لها أعمق الأثر فى فلسفته بعد ذلك ـ على ما سنرى ـ بحول الله تعالى ـ.

الحالة الميتا فيزيقية:

وفى هذه الحالة يحاول العقل الإنسانى ـ أيضًا ـ أن يكتشف حقائق الأشياء وأصولها ومصائرها، ولكنه فى هذه الحالة بدلاً من أن يبحث عن علل مفارقة للظواهر كما فعل فى الحالة الأولى، فإنه يرفض العلل المفارقة، ويبحث عن علل وأهداف فى ذات الأشياء وبواطن الظواهر، ففى هذه الحالة لا يرجع العقل الإنسانى حقائق الظواهر أو الأحداث إلى علل مفارقة، وإنما يرجعها إلى نظم وقوانين وأسباب داخل الأشياء ذاتها.

ويرى الفيلسوف أن مسيرة العقل الإنسانى ومنهجه فى هذه الحالة إنما هى ضرب آخر من أضرب الوهم والخيال، وأن ذلك ناتج عن أوهام الذات التى لا صلة لها بالواقع.

ويلاحظ الفيلسوف أن هذه الحالة الميتافيزيقية شبيهة بالحالة اللاهوتية من حيث موقف العقل الإنسانى منهما. حيث بدأ الإنسان يعتقد فى التعدد، ثم انتهى بالتوحيد، ومع اختلاف الموضوع فى الحالة الميتا فيزيقية عنه فى الحالة اللاهوتية.

ففى الحالة اللاهوتية اعتقد الإنسان فى موجودات كثيرة، ثم بدأ يرجع الظواهر إلى كائنات علوية مفارقة، ثم انتهى به الأمر بتوحيد الكائنات المفارقة فى كائن واحد. وهذه الكائنات المفارقة العلوية التى اجتمعت فى واحد بعد ذلك كانت هى التى تتصرف فى الأشياء والظواهر.

أما فى الحالة الميتا فيزيقية فقد بدأ العقل الإنسانى يبحث عن علل الأشياء والظواهر فى الأشياء والظواهر نفسها، وليس فى كائنات علوية مفارقة. وقد بدأ الإنسان فى هذه المرحلة بالتعدد أيضًا، فأخذ يرجع العلل إلى قوى متعددة بتعدد الظواهر نفسها، مثل القوة الكيميائية، القوة الفيزيائية، القوة الحيوية.. إلى غير ذلك من قوى متعددة، ثم انتهى الأمر بالعقل الإنسانى إلى توحيد هذه القوى المتعددة فى قوة واحدة هى "الطبيعة" فالطبيعة أصبحت جامعة لكل القوى التى كانت متفرقة فى الظواهر والأشياء.

الحالة الوضعية:

يرى "كونت" أن العقل الإنسانى فى المرحلتين السابقتين كان يعيش حالات من الأوهام الذاتية والخرافات المتوارثة التى لا صلة لها بالواقع. ولذلك كان يتخبط من الحالة اللاهوتية بمراحلها الثلاث، ثم الحالة الميتا فيزيقية. لكن الأمر لا يستمر على ذلك. بل إن العقل يتنقل من هذه الأوهام الذاتية إلى حقائق الحالة "الوضعية".

والعقل فى هذه الحالة الثالثة التى أطلق عليها كونت "الوضعية" يتخلص نهائيًا من أوهام اللاهوت والميتا فيزيقيا، ويدرك الأشياء على حقيقتها كما هى فى الواقع والموضوع. ويرى الفيلسوف أن السبب فى تخبط العقل فى الحالتين السابقتين أنه كان يبحث فى الأشياء عن حقائقها وعللها المطلقة. لكنه أخيرًا يدرك أنه من المستحيل الحصول على حقائق مطلقة يقينية، فيقصر همه على الاهتمام بواقع الأشياء، واستكشاف قوانين الظواهر من خلال واقعها المادى الوضعى القائم على الملاحظة والتجربة.

٣ ـ وقد قرر "كونت أن هذه الحالات الثلاث التى مرت على الإنسانية، أو مرّ بها

العقل الإنسانى عبر رحلته الطويلة منذ كانت الإنسانية حتى عصره، هذه الحالات تمر على الإنسان نفسه أو يمر بها كل إنسان عبر حياته أو مراحل عمره، ففى طفولته أو بداية حياته يقنع بالحلول اللاهوتية، ثم فى منتصف حياته يتحول إلى الحالة الميتافيزيقية فيبحث عن العلل وحقائق الأشياء فى باطن الظواهر والأشياء، ثم فى أواخر حياته حيث يكون قد نضج عقلاً وفكرًا ينتقل إلى الحالة الوضعية، فيعتمد على ملاحظة الظواهر ويجرى عليها التجارب متخذًا المنهج الوضعى طريقًا للوصول إلى القوانين التى تحكم الأشياء.

* * *

رابعًا: نقد فلسفته الوضعية

١ ـ من الملاحظ ـ ابتداء ـ أن الفيلسوف "كونت" وهو يتكلم عن فلسفته الوضعية يقدم لها بما افتراه من قانون الحالات الثلاث وغيرها، نقول: نلاحظ كما لاحظ غيرنا أن الرجل يصدر عن فكر نظرى بحت. وعن أوهام ذاتية خالصة لا صلة لها بالواقع ولا بالموضوع. وبذلك أضحى ـ وهو الذى ينعى على الأوهام الذاتية ويدعو إلى الوضعية ـ مثالاً واضحًا أو نموذجًا فاضحًا لهؤلاء الذين يعيشون أسرى الأوهام الذاتية من جانب، ثم يصدرون فى فكرهم عن أبحاث نظرية لا صلة لها بالواقع أو الموضوع من جانب آخر. وبذلك فقد الفيلسوف مصداقيته من اللبنة الأولى للنظرية التى أقام عليها فلسفته.

وقد وقع الفيلسوف فى هذه المناقضة الواضحة بين ما يدعو إليه والحقيقة التى عليها الواقع فعلا حين أقام نظريته فى قانون التقدم الإنسانى الذى أطلق عليه "قانون الحالات الثلاث" على فكر نظرى خيالى بحت، دون أن يعنى بدراسة المجتمعات الإنسانية فى بيئاتها المختلفة، وأقاليمها المتعددة، ودون أن يعطى الحضارات الدينية والوحى الإلهى لدى المتدينين حقه من البحث والنظر والتحليل والتحقق. كما سيتضح لنا فى الفقرات التالية من النقد ـ بحول الله تعالى ـ.

٢ ـ ينظر "كونت" إلى المجتمعات الإنسانية على أنها بناء واحد ذو لبنات متماثلة، أو أنها كل لا يتجزأ، وأن تطورها وتقدمها يخضع لقانون واحد ونمط معين لا يختلف. بينما الواقع يكذب ذلك الذى ذهب إليه الرجل، ويبين أن المجتمعات الإنسانية تختلف اختلافًا بيِّنًا فى أنماطها الحياتية، وأساليبها المعيشية، ومستوياتها الثقافية والحضارية، مما يجعل إخضاعها جميعها لقانون واحد فى التقدم أو

التطور أمرًا بعيدًا عن الواقع والموضوع، ويجعل ذلك وهمًا ذاتيًا أو افتراضًا خياليًا لا يمت للواقع بصلة.

٣ ـ مما يؤكد ما قلنا أن الحالات الثلاث التى ذكرها الرجل وأقام عليها نظريته لا تبدو متعاقبة فى المجتمعات الإنسانية كما ذكرها. بل تختلف المجتمعات فيما بينها من حيث مرورها بهذه الحالات الثلاث، ومن حيث ترتيبها ـ إن هى وردت فعلاً ـ فبعض المجتمعات يسير فيه الفهم العلمى للظواهر والأشياء متساوقًا مع الالتزام الدينى أيا كان حظ الدين من الحق أو الباطل. وذلك كالغرب النصرانى، أو الشرق الهندوسى، وبعضها يسير الفهم العلمى بعيدًا عن الدين كما كان الحال فى روسيا الشيوعية قبل أن تسقط الشيوعية وترمى فى مزابل التاريخ.

فالحالة الوضعية ـ كما يسميها الفيلسوف ـ لم تأت على أنقاض الحالة اللاهوتية، بل صاحبها فى جملة المجتمعات الإنسانية، عدا المجتمعات الشيوعية التى ما أن زالت الشيوعية عنها حتى عادت إلى ما أسماه الفيلسوف "الحالة اللاهوتية" وعاد الناس كل ذى دين إلى دينه.

٤ ـ وحتى الحالة اللاهوتية ـ كما أسماها الرجل ـ لا تسير فى نفس المراحل الثلاث التى ذكرها. فلم تبدأ الإنسانية فى جميع المجتمعات بالتعدد ثم تنتهى جميعها بالتوحيد. بل هناك مجتمعات تقدمت فى مسيرتها العلمية ـ أو الوضعية ـ وهى ما زالت متمسكة بدينها الوثنى القائم على التعدد، كما فى الهند واليابان وما يماثلها.

٥ ـ وفيما يتصل بالمراحل الثلاث التى ذكرها الرجل للحالة اللاهوتية: فإن الرجل عكس الأوضاع، وقلب الحقائق حين زعم أن التعدد هو الأصل، وأن التوحيد طارىء فى آخر المراحل.

فالحق الذى ندين به، بل ويدين به أصحاب الدينين الكتابيين: "اليهود والنصارى" أن التوحيد هو الأصل، وهو الصورة الأولى للدين فى تاريخ البشرية،

فنحن نؤمن بأن أبا البشر آدم ـ عليه السلام ـ قد خلقه الله تعالى وأهبطه إلى الأرض نبيًا ، فهــو ـ عليه السلام ـ أول الأنبياء، وهو أول البشر، والــدين الذى جاء به آدم ـ عليه السلام ـ هو دين التوحيــد لله رب العالمــين، لا شريك له. وعلى دين آدم ـ عليه السلام ـ كان أولاده، ولم يحــدث التعـدد والوثنية إلا من بعد نوح ـ عليه السلام ـ.

فالتوحيد ـ إذن ـ هو أصل الدين فى الإنسانية، والتعدد هو الطارىء الذى جاء بعد التوحيد، على هذا عقيدتنا، وكذلك يعتقد اليهود، ويعتقد النصارى.

وإذا كان ذلك؛ فمن أين وقع الخلط عند الفيلسوف؟ وما منشؤه؟

إن الفيلسوف وقع فى هذا الخطأ وفى جميع الأخطاء التى شاعت فى فلسفته كلها فلم تترك فيها شذرة واحدة من فكر الرجل إلا وهى بينة الخطأ واضحة الفساد، نقول إنه وقع فى ذلك الخطأ وهذه الأضاليل بسبب إلحاده وكفره بالدين النصرانى بخاصة، وبالأديان جميعها بعامة، وليس ضلاله هو نوعية الدين الذى كفر به، فدينه النصرانى باطل، لكنه رغم بطلانه كان أفضل من إلحاد الرجل وضلاله الذى جعله يرى أن الأديان كلها فاسدة، وأنها ظاهرة اجتماعية لا أصل لها، كما أنها من أوهام الذات وأساطير المجتمع، لا صلة لها بالواقع. ومن هنا أقام الرجل فلسفته على هذا الأساس الفاسد الذى يرى أن جميع الأديان باطلة وأنها من أوهام الذات، واختراع الإنسان.

٦ ـ ومن أسباب ضلال الرجل أنه وجد فى وقت وزمان كان الناس فى حالة افتتان بالعلم وانصراف عن الدين. إذ من المعلوم أن القرون الميلادية: السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر كانت كلها قرون افتتان الناس بالعلم، وانتشار الفلسفات والنظريات الإلحادية، وكان الرجل فى هذا ابن بيئته وزمانه ومجتمعه، فكان ملحدًا شديد الإلحاد، مفتونًا أشد ما يكون الافتتان بالعلم المادى وطرائقه من الملاحظة والتجربة والفروض والقوانين وغير ذلك.

وقد ظن الرجل ـ كما ظن معاصروه ـ أن الدين إلى زوال وأفول، وأن الإلحاد إلى انتشار وشمول، ولكن الذى حدث إنما كان على عكس ما توقع الرجل ومتابعوه على "وضعيته".

فإنه من بدايات القرن العشرين بدأ الناس يثوبون إلى أديانهم، كل إلى دينه، وبدأت مسيرة الإلحاد تبطىء وتتلاشى تدريجيًا، حتى عاد الأمر طبعيًا، وبدأت ـ مساوقة للعودة إلى الدين ـ الكثير من أصوات الماديين تختفى أو تضعف.

٧ ـ وفى ختام نقدنا فلسفة "كونت" الوضعية، أو الفلسفة الوضعية ممثلة فى شخص أول من نظَّر لها وقعد لمبادئها. نستطيع أن نبين بوضوح أهم ما وقع فيه الرجل ومشايعوه من أخطاء كانت السبب فى فساد فكرهم، وأفول فلسفتهم، وأهم ذلك كله خطآن كبيران.

الأول: أن الرجل لم يدرس المجتمعات البشرية كلها، بل ولا الكثرة منها، بل اكتفى بدارسة أحوال المجتمعات الغربية، وبخاصة المجتمع الفرنسى فى زمانه، الذى كان يشيع فيه الإلحاد والمادية. فوضع نظريته بناء على دراسته هذا المجتمع، وطبق نظريته على المجتمعات الإنسانية جميعها، ظانا أنها كلها صورة للمجتمع الذى درسه. وهذا خطأ فاحش، ومنهج فاسد أدى إلى فساد النظرية ـ كما أشرنا قبلاً ـ.

الثانى: أن الرجل كما اقتصر على دراسة مجتمع واحد ثم عممه على جميع المجتمعات، كذلك اقتصر على دراسة فترة زمنية معينة، تلك هى الفترة التى عاش فيها، ونظر إلى تاريخ البشرية كلها من خلال هذه الفترة وظن أن ما يجرى فى هذه الفترة الزمنية هو المقياس والمثال لجميع ما يجد من عصور وظروف وملابسات، وأن ما عاصره من ظواهر اجتماعية فى بلده ومجتمعه وفى هذه الفترة تحديدًا سوف يكون هو بعينه فى كل الأزمان والعصور التى تجد حتى نهاية الدنيا. ولكن لو طال بالرجل العمر بضعة عقود فقط لرأى وعاش فشل جميع آرائه ونظرياته.

فالرجل أخطأ كثيرًا، لكن كانت أقبح أخطائه أنه وضع نظرياته وآراءه لمجتمع واحد من المجتمعات البشرية، ولفترة زمانية معينة من تاريخ هذا المجتمع فكانت آراؤه فاسدة وجميع نظرياته فاشلة.

***

خامسًا: دين الإنسانية:

١ ـ أشرنا فيما سبق إلى أن "أوجست كونت" رأى أن الأديان لا حقيقة لها ولا صلة لها بالواقع، وأنها من الأوهام الذاتية، والأساطير الجماعية التى اخترعتها الاجتماعية تحت ظروف معينة. لكن الفيلسوف لاحظ فى الوقت نفسه أن الدين ـ أى دين ـ يمثل ضرورة اجتماعية ملحة، حيث هو من أهم العوامل التى تؤدى إلى تماسك أفراد المجتمع واستقرارهم نفسيًا واجتماعيًا، كما أن الدين يمثل الأساس المتين الذى تقوم عليه العلاقات بين الأفراد ويعتمد عليه التوازن الاجتماعى على مستوى الفرد والجماعة.

من هنا نرى أن "كونت" قد وقع بين أمرين متعارضين:

أولهما: أن الدين بكل صوره وأشكاله المعروفة للناس وبخاصة النصرانية التى كان يدين بها باطل، وأنه خيال ووهم من أوهام الذات ـ وكما يراه أيضًا جمهرة الفلاسفة المعاصرين له والسابقين عليه ـ ومن ثم يجب الانصراف عنه، وبيان بطلانه للناس، وتوضيح زيفه للجميع حتى يتم إنقاذ المجتمعات من زيفه وضلاله.

ثانيهما: أن الفيلسوف لاحظ ـ أيضًا ـ أن الدين وإن كان وهمًا وخيالاً لا حقيقة له، إلا أنه نافع للإنسانية، وعامل هام من عوامل استقرار المجتمع أفرادًا وجماعات، وكذلك رأى أن الدين يحدُّ من انتشار الأنانية والأثرة والانحلال فى المجتمعات، ويعمل على توازن الفرد وتماسكه نفسيًا واجتماعيًا. ومن ثم فإن فى القضاء على الدين قضاء على كل هذه المنافع، ونشّار لما يقابلها من مفاسد ومضار.

وهنا يأتى سؤال: ماذا يفعل "كونت" إزاء هذه المعضلة؟ وكيف يحل هذا الإشكال؟

لقد توصل "كونت" إلى حل لهذه المشكلة، وهذا الحل يحقق به الأمرين:

١ ـ يبطل به الأديان الوهمية الخرافية ـ كما يزعم ـ ويصرف الناس عنها.

٢ ـ وفى نفس الوقت يضمن للمجتمعات ويوفر لها جميع المنافع التى كان الدين يحققها لتلك المجتمعات.

أما كيف ذلك؟

إن ذلك يتحقق ـ فيما رأى الفيلسوف ـ بإلغاء الأديان التى يدين الناس بها بكافة أشكالها. وبخاصة النصرانية، لأنها أديان خرافية وهمية من جانب، ولأنها تقوم على الإيمان بالغيب، والغيب فى نظر الرجل هو أخطر خرافات الدين التى تزيف الواقع وتفسد العقل الإنسانى وتضلله.

ثم بعد أن ألغى الرجل الأديان التى يدين بها الناس، أقام بديلاً منها دينًا جديدًا من اختراعه هو. وأهم ما يميز هذا الدين أنه لا يقوم على الغيب ولا يحتوى شيئًا منه، ذلك أن الإله المعبود فى هذا الدين إله مشاهد محسوس. ذلك هو ما أسماه الرجل: "دين الإنسانية". فما هذا الدين؟

رأى "كونت" أن التدين خصيصة النوع الإنسانى، وأن جميع أفراد المجتمع تتوحد حوله، وتجتمع عليه، وترى نفسها فيه. وحينما فكر الرجل فى اختراع دين جديد أخذ يبحث عن الإله الذى يضعه لدينه. فهداه تفكيره إلى "الإنسانية".

ولماذا الإنسانية؟

لقد رأى الرجل أن الإنسانية هى أعظم شىء فى الوجود يستحق التقدير والإعجاب والإكبار. كذلك فالإنسانية ـ كما يراها ـ حقيقة ممتدة من الماضى البعيد إلى الحاضر، ثم هى تنتقل عبر الحاضر إلى المستقبل، ووجود الإنسانية وجود مادى حسى مشاهد، ليس هذا فحسب، بل كل فرد من أفرادها يشارك فى صنعها وفى وجودها وتحققها حتى الفيلسوف ومعاصروه.

فليست الإنسانية قصرًا على الماضى، بل هى ممتدة من الماضى الذى يؤثر فى الحاضر ويوجهه، ويعطيه الخبرات والتجارب، بل إن تأثير الماضى أقوى من تأثير

الحاضر فى مسيرة الإنسان الخلقية والعقلية والمادية. وإن آثار السابقين أقوى من آثار الحاضرين. والرجل يخلص من كل ذلك الحديث عن الماضى إلى أن الأموات الماضين من الإنسانية أحياء بآثارهم فى المجتمع الحاضر أقوى من الأحياء أنفسهم.

ماذا يريد الرجل أن يقول من كل حديثه عن الإنسانية الماضية؟ إنه يريد أن يؤكد على أن معبوده فى دينه الجديد الذى هو الإنسانية معبود حىّ مؤثر فاعل. فإذا جعلها معبودًا فهو يعبد حيًا وليس ميتًا حتى ولو كان المعبود هم أفراد الإنسان الذين مضوا وهلكوا وانتهى وجودهم.

وهنا لابد أن يرد على فكرنا تلك المرأة التى عشقها "كونت" ثم لما مات أصيب بالجنون وحاول الانتحار، وليت محاولته نجحت إذن لاسترحنا من غثائه وضلالاته ـ ثم كان الرجل فيما بعد يزعم أنها تأتيه وتوجهه وتلهمه أفكاره.

ويبين الفيلسوف لماذا اختار الإنسانية؟ لأن والديه هما اللذان أوجداه ولا شيء آخر. ولأن رخاءه وثراءه من والديه وأقاربه الذين ذهبوا لأنه وارثهم من بعدهم، كذلك هم الذين ربّوه وعلموه، وهكذا يعظم الرجل من شأن الإنسانية وأفرادها الماضين، ويخلع عليهم ما لله من فضل ونعم على الإنسان.

إن الرجل يقرر أن الأمر سوف يبدو غريبًا فى البداية، ولكن علينا أن نعلم الناس كيف يتحولون بأفكارهم ومشاعرهم تجاه الإله الجديد الحقيقى الموضوعى بدلاً من الآلهة الوهم والخيال. إن الإنسانية هى "الوجود الحقيقى الأعظم" وهو الأوحد المستحق للعبادة، ولا يوجد سواه. هكذا زعم الرجل ـ عليه من الله ما يستحق ـ.

٢ ـ المعبود فى الدين الجديد:

بعد أن أوضح الرجل دينه الجديد الذى جعله بديلاً عن أديان العالم أخذ يوضح تفاصيل هذا الدين فبدأ بإلهه المقترح، أى المعبود فى دينه فبين أن الإله يتكون من ثلاثة أشياء. لقد رأى الرجل أن "الإنسانية" التى هى المعبود الأعظم لا تعيش معلقة فى فراغ، بل هى تعيش على الأرض، وتسبح فى الهواء وتظلها السماء. فصاغ المعبود فى دينه الجديد من هؤلاء الثلاثة: الإنسانية ـ الأرض ـ السماء والهواء.

وقد وضع لكل من الثلاثة اسمًا خاصًا به فصار معبوده مكونًا من:

أ ـ الموجود الأعظم، ويقصد به الإنسانية.

ب ـ الفتش الأعظم. ويقصد به الأرض.

جـ ـ الوسط الأعظم. ويقصد به السماء والهواء.

هذا معبود الرجل. ثالوث مقدس. ويتضح ـ بداهة ـ تأثر الرجل بدينه. النصرانية. وسوف يتضح هذا التأثر فى جوانب أخرى كثيرة تتمثل فى جميع طقوس الديانة الجديدة المخترعة ـ كما سنرى ـ بحول الله تعاليت ـ.

٣ ـ أنواع العبادة فى الدين الجديد.

لقد قسم "كونت" العبادة فى دينه الجديد إلى نوعين:

أ ـ عبادة فردية. وفيها يتوجه الفرد بالعبادة والتقديس إلى ما يخصه هو ـ شخصيًا، أو ما يتصل بشخصه ممن لهم فضل عليه، مثل أبيه وأمه، أو أحد أساتذته ممن لهم فضل خاص عليه، أو زعيمه السياسى، أو يتجه إلى قبيلته أو أسرته. فتيوجه إلى هولاء أو بعضهم بالعبادة تكريمًا للإنسانية الموجود الأعظم فى أشخاص هؤلاء.

ب ـ عبادة مشتركة ـ وفيها يتوجه الناس جميعًا بشكل جماهيرى جماعى، وفى أيام معينه يطلق عليها الرجل اسم "أعيادًا تذكارية" يتوجهون فيها بالعبادة إلى هؤلاء الأفراد الذين قدموا خدمات للإنسانية كلها، وامتازوا بالجد والاجتهاد فى تقدم الإنسانية فى كافة المجالات العلمية والاقتصادية والفنية وغيرها. وفى هذه الأعياد يُعْبد هؤلاء الأشخاص ويقدسون تكريمًا للإنسانية التى يمثلونها.

٤ ـ الهيئة الإكليريكية ـ رجال الدين الجديد ـ

ولأن كل دين لابد له من رجال دين يعرفون الناس بدينهم ويرشدونهم. فإن "كونت" أنشأ هيئة دينية عليا "إكليريكية" جعل مهمتها الإشراف على شئون الديانة الجديدة، والدعوة إليها، وتوضيح طقوس العبادة فيها.

وفى هذه الهيئة ـ أيضًا ـ نصطدم بتأثير التثليث النصرانى فى الرجل، حيث جعل هذه الهيئة مكونة ومنتخبة من ثلاث فئات هم:

الفلاسفة ـ الشعراء ـ الأطباء.

٥ ـ طبقات المجتمع فى الدين الجديد

مثل "كونت" الإنسانية المعبودة بكائن أعظم يتمثل فى المجتمع كله بجميع طوائفه. وجعل لهذا المجتمع من الأعضاء والحاجات مثل ما للإنسان المفرد الحقيقى. ومن ثم فقد تسم المجتمع إلى أربع طبقات:

أ ـ طبقة "الإكليريك" أو رجال الدين. وجعل منزلتهم من المجتمع منزلة الرأس المفكر، والعقل المدبر من الإنسان الفرد الحقيقى.

ب ـ طبقة النساء. وهن فى المجتمع بمثابة أعضاء العاطفة والمشاعر والوجدانات فى الفرد الحقيقى.

ج ـ طبقة رجال الصناعة والمال. وهم فى المجتمع بمثابة أعضاء التغذية والنمو فى الفرد.

د ـ طبقة العمال. وهم بمثابة أعضاء الحركة والنشاط الإنتاجى فى الفرد.

٦ ـ تعليق على الدين الجديد.

لم نشأ أن نكتب العنوان: "نقد الديانة الإنسانية" لأن نقد شىء مّا يتطلب بالضرورة أن يكون هذا الشىء قد حصل الحد الأدنى من الفكر المعتبر، والفهم المتزن، والمعالجة المقبولة لدى عامة العقلاء، وإلا؛ فإنه لا يكون أهلاً للنقد، ولا مستحقًا لبذل الوقت وإضاعة الجهد.

وهذا الذى كتبه الرجل "كونت" حول ما أسماه "دينًا" أو "دين الإنسانية" غثاء يعلو عليه الغثاء، وعبث وتفاهة يسمو عليه العبث وتكبر عنه التفاهة. أعنى أن كثيرًا مما يطلق عليه غثاء وعبث وتفاهة أعلى وأكثر احترامًا واعتبارًا من فكر الرجل. ومن ثم كان فكره هذا لا يستحق أن ينقد، لأنه ليس فيه ما ينقد. ثم إن

النقد فى ذاته عمل عقلى، وجهد فكرى، وفكر الرجل ومشروعه الذى طرحه عن دينه إزراء بالعقل، وإهانة للفكر، وازدراء بأدنى مستويات المنطق السليم.

لذلك آثرنا أن نجعل ذلك "تعليقًا" على كلام الرجل عن دينه المقترح. وتعليقنا على كلامه عن دينه إنما هو تنبيه إلى تناقضات واضحة فى فكره، وأكاذيب بينة فى دعاواه. وسنشير إلى ذلك ـ بحول الله ـ دون إطالة فى أمور محددة:

أ ـ أول الأخطاء التى ارتكبها الرجل محاولته اختراع دين من عنده، بدلاً عن دين يدين به المجتمع. فقد جهل الرجل أن الأديان لا تقترح ولا تطرح على الناس. كما تطرح فكرة أو رأى أو مشروع.

ب ـ ثانى الأخطاء التى ارتكبها الرجل يتمثل فى طرحه دينًا خاليًا من "الغيب" ليس فيه غيب أو أمور غيبية. وقد غفل الرجل ـ جهلاً منه وحمقًا ـ عن أن الدين من حيث كونه دينًا لا يمكن أن يقوم إلا على الغيب. حتى الأديان التى تعتمد عبادة الأشخاص أو الأوثان المادية المحسوسة لا تستقيم عبادتها إلا على اعتقاد معتنقيها قوى غيبية تحل فى هؤلاء الأشخاص أو الأوثان. وإلا؛ فكيف يصير الإنسان إلها عند عابدى الأشخاص وهو على حاله دون اتصاله بقوى غيبية، وامتلاكه إمكانات لا يمتلكها غيره؟

جـ ـ زعم الرجل بأنه كفر بالنصرانية دينًا، وأنه يعارضها ويرفضها ويريد تخليص الناس منها. هذا الزعم كيف نصدقه؟ وقد بان لنا من النظام الذى أقام عليه دينه أنه اختار جميع ما فيه من الأصول على غرار النصرانية، حتى إن دينه الجديد كأنه صورة من النصرانية مع نوع من التحريف.

ويتضح هذا من الإله الذى صنعه لدينه، إنه ثالوث يتكون من: الموجود الأعظم "الإنسانية"، والفتش الأعظم "الأرض" والوسط الأعظم "السماء والهواء". أليست هذه عودة إلى النصرانية أو الثالوث النصرانى فى شكل جديد.

ثم شىء آخر يوضح تأثر الرجل بالنصرانية، وإصراره على أن يكون دينه الجديد صورة مشوهة من النصرانية التى زعم أنه كفر بها. إنها الهيئة المشرقة على الديانة

الجديدة، أو رجال الدين فى دينه. إن الرجل جعل هذه الهيئة ثلاثية أيضًا، لا ثنائية ولا رباعية، فجعلها من: الفلاسفة، الشعراء، والأطباء.

بان لنا أن الرجل ترك النصرانية من الباب علانية، وعاد إليها من النافذة خفية.

ويأتى السؤال: هل تعمد الرجل جعل دينه الجديد مشابهًا هذه المشابهة الجوهرية بالدين النصرانى نتيجة تأثره بالنصرانية، وأنها تعيش داخله دون شعور منه؟

أم أن هذه خطة من الرجل ليجتذب الجماهير النصرانية التى تعودت التثليث النصرانى، فلكى يجتذبهم إلى دينه الجديد، ويرغبهم فيه، ويجعل النقلة من دينهم النصرانى إلى الدين الجديد يسيرة وسهلة وممكنة؟

يبدو أن الاحتمال الثانى هو الأرجح، بل هو الصواب. فإن الرجل كفر بالنصرانية من بداية شبابه، وصعب أن يكون لها ذلك التأثير بعد تلك السنين الطوال التى عاشها الرجل كافرًا بالنصرانية، وبكل الأديان ـ عليه من الله ما يستحق ـ.

سادسًا: موقف المجتمعات الغربية من الدين الجديد.

لقد وجدت آراء "كونت" فى دينه المخترع ـ رغم غرابتها ـ صدى وقبولاً لدى بعض الطوائف فى المجتمعات الغربية النصرانية. وكان هؤلاء ـ بطبيعة الحال من الناقمين على النصرانية ورجالها الرافضين لعقائدها وأضاليلها. وقد تحمَّس لها الكثيرون، ليس لكونها مقبولة أو معقولة، لكن لأن قبولها كان يمثل بالنسبة إليهم صورة من صور الاعتراض والرفض للدين النصرانى، والازدراء والاحتقار لرجاله. ومن هنا ـ وبهذا الاعتبار ـ وجدت الديانة الجديدة أتباعًا لها فى فرنسا، وانجلترا، وأمريكا شمالها وجنوبها، والسويد، وألمانيا، وغيرها.. وقد بدأ أتباع الديانة الجديدة عمليين، فأنشأوا لها المعابد، وعينوا لها رجالها وكهانها، وقد اخترعوا لديانتهم هذه شعارًا تعرف به فاختاروا لها: "المحبة ـ النظام ـ التقدم". وهو شعار تثليثى أيضًا ليجذبوا إليهم أتباع النصرانية.

لكن بمرور الوقت فقدت الديانة بريقها، وبدأ الاهتمام بها يقل، والإقبال عليها يضعف، حتى انتهى شأنها تمامًا، ولم يعد لها ذكر إلا فى إطار السّرد التاريخى للأفكار الساقطة التى شغلت بعض الناس زمنًا ثم احتلت مكانها فى مزابل التاريخ.

والذى يجب التنبيه إليه أن الإقبال على هذه الديانة الفاسدة من البعض لم يكن للديانة نفسها، ولكن كان من أجل إظهار وإعلان النقمة على النصرانية دينًا ورجال دين، وأن اهتمامهم بها بعض الوقت إنما كان أملاً فى أن تقضى على النصرانية، لكن حين أفاءوا إلى أنفسهم أدركوا أنها مجرد غثاء لا يصلح لشىء فانصرفوا عنها إلى الأبد، لكنهم لم ينصرفوا عن الدافع الذى دفعهم إليها وهو نقمتهم على النصرانية ورجالها.



المبحث الخامس

العقلانية

أولاً: التعريف به:

العقلانية: مذهب فلسفي يعتمد العقل الإنساني ميزانًا لكل شيء في الوجود، وحكمًا على كل ما في الكون، بعيدًا عن الدين وما يتصل به من وحي وغيب. فالعقل الإنساني المستقل عن الدين هو أداة المعرفة، وميزان الأشياء وهو الحكم الوحيد لكل شيء في هذا الكون إثباتًا أو نفيًا، قبولاً أو رفضًا.

يتضح من هذا أن الاتجاه العقلاني أو مذهب العقلانية مذهب إلحادي مادي في مجمله، معاد بل مناقض لدين الله الحق بخاصة، وللأديان جميعها بعامة.

وقد قلنا "في مجمله" لأن ثمة محاولات لفريق من أتباع المذهب أو الاتجاه العقلاني أنشأوا من خلالها أديانًا خاصة بهم، سمَّوها "أديانًا" وما هي بأديان من أي نوع، لأنها تفتقر إلى أخص ما تمتاز به الأديان من الإيمان بالغيب، والاعتماد على الوحي، ومن قبل ذلك ومن بعده الإيمان بقوة عليا غيبية تحكم هذا الوجود وتدبر أمره. وسوف نفصل ذلك ـ بحول الله ـ تعالى ـ في موضع تالٍ من هذا المبحث نبين فيه موقف العقلانية من الدين.

يتضح من اسم المذهب أنه مشتق من "العقل" أو منسوب إليه. وهذه النسبة من الأمور الخادعة المضلِّلة. فإن العقل هو ميزة الإنسان عن بقية المخلوقات الأرضية، ميزه الله ـ تَعَالَى ـ به، وكرمه وفضله، وقد عرف الناس ميزة العقل ومكانة العقلاء، ومن ثم فإن الناس قد ألفوا احترام العقل، واحترام كل ما ينسب إليه، كما ألفوا كذلك تحقير ما ليس بعاقل وازدراء ما لا يكون للعقل فيه نصيب. ومن ثم فإن المذهب الذي ينسب إلى العقل قد يخدع الناس فيظنون به الهدى والرشاد، ويضفون

عليه شيئًا من الاحترام والتقدير، انطلاقًا من هذه النسبة، بينما الأمر على نقيض ذلك، فإن المذهب الذى ينسب إلى العقل ويتسمى باسمه هو أدخل المذاهب فى الازدراء بالعقل السوىّ، والخروج على مسلمات وبدهيات العقل السليم. ـ كما سيتضح هذا ـ بحول الله ـ تَعَالَى ـ.



ثانيًا: العقل فى عرف الفرقاء

من المسلم ـ ابتداء ـ أن الله ـ سبحانه ـ قد أمدّ الإنسان بنوعين من القوى المدركة:

١ ـ قوة مدركة ظاهرة واعية واضحة.

٢ ـ قوة مدركة باطنة مبهمة.

ـ ونعنى بالقوة الأولى ما نسميه "العقل". فالعقل قوة مدركة ظاهرة ندرك بها الأمور الحياتية الخارجة عن باطن الإنسان، وهى قوة ظاهرة، واعية، بمعنى أن أحكامها على الأشياء أحكام لها مسوغاتها وأدلتها الواضحة.

ـ أما القوة المدركة الثانية فنعنى بها قوة الإدراك الشعورية الوجدانية الباطنة التى ندرك بها الأمور الباطنة كالألم والجوع والعطش، والفرح والحزن، وندرك بها كذلك الرضا والقبول والارتياح لشىء مّا، والنفور والرفض لشىء آخر.

وهذا الإدراك إدراك باطنى مبهم، نقبل به الشىء أو نرفضه وجدانًا وشعورًا، وقد لا يكون لدينا مسوغ واضح لهذا القبول أو الرفض سوى الشعور بالارتياح أو الاستياء.

أما القوة الباطنة فإدراكها ومقرها فى باطن الإنسان لا خلاف حوله، ولكن الخلاف هو حول القوة المدركة الظاهرة "العقل". والخلاف حول هذه القوة يدور حول عدد من الأمور ابتداءً بمحلها وكنهها، وانتهاءً بصلتها بالدين والوحى.

مرورًا بمجال عملها، وعوامل إصابتها وخطئها، ومجالات انحرافها ثم عوامل هدايتها ورشادها.

والذى يهمنا هنا هو اختلاف الفرقاء حول مقر هذه القوة العاقلة أو العقل وبصورة أوضح؛ أين محل هذه القوة من الإنسان؟

لقد اختلف الناس حول هذا الأمر على فريقين. فريق يقول إن محل العقل أو القوة العاقلة إنما هو جوف الدماغ، أى "المخ" تلك المادة الهلامية التى تكمن داخل الرأس. وأقاموا علاقة طردية بين العقل وتلافيف هذه المادة الهلامية، قالوا إن هذه التلافيف فى مادة المخ كلما زادت وتشعبت وتعمقت كان ذلك دليلاً على الذكاء وقوة الإدراك، والعكس صحيح. وهذا الفريق له على رأيه أدلة كثيرة ـ أو هكذا يزعم ـ وجوهر أدلته يستمد من الصلة بين المادة المخّيّة وحركات الجسم وأطرافه. فكلما كانت المادة المخية سليمة كان الجسم سليمًا غالبًا، وأما إذا أصاب المخ صائب انعكس ذلك بوضوح على جسم الإنسان وأطرافه ووظائفه. وقضية الجلطات المخية أشهر من أن تذكر، فجلطة دموية فى مركز من مراكز الأعصاب بالمخ تعطل ما يقابلها من الجسم ووظائفه، والمهم هنا والشاهد أن الإدراك لدى الإنسان يتأثر بهذه الإصابات المخية تأثرًا واضحًا وملحوظًا مما يجعل العلاقة بين العقل الذى هو أداة الإدراك والمخ الذى هو فى جوف الرأس علاقة واضحة قد لا تحتاج إلى دليل.. هكذا يرى أصحاب هذا الرأى.

أما الفريق الآخر فيرى أن محل القوة العاقلة أو "العقل" إنما هو "القلب" تلك العضلة التى فى الصدور. فالإنسان عند هذا الفريق يعقل بقلبه وليس بمخه.

وأدلة هؤلاء شرعية علمية موضوعية. ونبدأ بأدلتهم الشرعية المستمدة من الكتاب الكريم. والسنة النبوية الشريفة.

أما القرآن المجيد فقد ذكر القلب فى معرض العقل والإدراك، وذكره فى معرض الفهم والفقه، وذكره فى معرض الهداية والرشاد، كما ذكره فى معرض الضلال والْغَىِّ.

فمن الآيات الصريحة فى أن العقل إنما هو فى القلوب وبها، قوله ـ تَعَالَى ـ:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦].

وإذا سألنا عن تلك القلوب التى بها العقل، وهل يمكن تأويلها بشىء آخر، جاءت الآية الكريمة تحدد أنها تلك القلوب التى فى صدور الناس، والتى بها يبصر الإنسان الحق أو يعمى عنه يقول ـ عز وجل ـ:

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ومن الآيات التى ترجع الفقه والفهم إلى القلوب، كما ترجع إليها عدم الفقه والجهل والضلال قوله ـ سبحانه ـ:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقوله ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

ولما كان الأمر يرجع إلى القلب فى قضايا العقل والفهم والفقه والهدى والغىّ، كانت أعمال القلوب هى مناط المؤاخذة والمحاسبة. يقول ـ عز وجل ـ:

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

أما السنة النبوية المطهرة فقد بينت أن القلب هو الأصل الذى يرجع إليه هداية الإنسان أو ضلاله، ويعود إليه صلاح الجسد كله أو فساده، يقول الرسول ﷺ: **"ألا وإن فى الجسد مضغة إن صلحت صلح الجسد، وإن فسدت فسد الجسد. ألا وهى القلب"**.

لذلك جعل الرسول ﷺ النيَّة التى هى عمل من أعمال القلب، هى مناط صلاح العمل أو فساده، قبوله أو رفضه، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

"إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى..." الحديث.

وأما عن الأدلة الموضوعية والعملية؛ فإن المعلوم المشاهد أن فساد القلب،

وخبث الطوية مؤدٍّ ـ بالضرورة ـ إلى فساد فى الفهم، وانحراف فى الإدراك، وخلل فى فقه الأشياء، وفهم العلائق بينها.

وإذا كان أصحاب الرأى الأول يستدلون على أن العقل محله المخ الذى فى جوف الرأس. بأن العلاقة بين صحة المخ وصحة وظائف الجسم وثيقة، من حيث إن مراكز هذه الوظائف محلها المخ؛ فإن القلب وسلامته أدخل فى ذلك الباب وأوضح، من حيث إن أى خلل فى القلب لا يؤثر على بعض وظائف الجسم فقط، بل إن الخلل فى القلب يؤثر على الجسم كله، بل ويؤثر على المخ نفسه، لأنه هو الذى يمد المخ بالدم الذى يحمل إليه الأوكسجين والطاقة التى يعمل بها. وإذا ما وازنا بين المخ والقلب من حيث العلاقة بينهما تأثرًا وتأثيرًا، فإننا واجدون أن الخلل فى المخ لا يؤثر فى عمل القلب. أما الخلل فى القلب فيؤثر فى المخ إلى حد الوفاة.

والخلاصة؛ أن العقل عندنا هو غريزة فطرية يولد الإنسان مزودًا بها، تنمو معه شيئًا فشيئًا، ومحل هذه الغريزة الفطرية إنما هو القلب.



ثالثًا: تاريخ العقلانية والمراحل التى مرت بها فى الغرب النصرانى

العقلانية، أو الاتجاه العقلانى مذهب جد قديم، يضرب بجذوره فى عمق التاريخ الفكرى الإنسانى، لكن لا نكاد نجد له تأريخًا يذكر ويدون قبل الفكر أو الفلسفة اليونانية، عَبْر مدارسها المختلفة بدءًا بالمدرسة الطبعية المادية، وحتى الفلاسفة الموسومين بالإلهيين، نقصد سقراط وأفلاطون وأرسطو، مرورًا بالسوفسطائيين على اختلاف مدارسهم.

فالفكر اليونانى بمدارسه المختلفة بدأ فكرًا ماديًا إلحاديًا، ثم انقلب سوفسطائيًا مغالطيًا يسخر العقل لإنكار الحقائق وإضلال الفكر، فالفكر سخره السوفسطائيون لإفساد الفكر، وكان هذا النهج الفاسد أيضًا محسوبًا على الاتجاه العقلانى، لأنهم سخروا عقولهم لإفساد العقول.

ثم تبع ذلك أن جاء سقراط ليحاول إعادة التوازن للفكر، والاحترام للعقل،

وبدأ يضع أسسًا للحقائق المطلقة، ومبادىء الكليات التى سميت بعد ذلك بالكليات الخمس، ثم حاول محاولته الناجحة للقضاء على السفسطة والسوفسطائيين، ثم تبع سقراط تليمذه أفلاطون، ثم جاء أرسطو الذى شغل نفسه وفلسفته بأمرين خطيرين. الأول: تنظيم ما سمى بعد ذلك بالمنطق الأرسطى أو المنطق القديم، ووضع قواعده وقضاياه وأقيسته. أما الأمر الثانى؛ فكان الأخطر وهو حديثه عن الإله الذى اخترعه بعقله، ووضع له من الصفات ـ السلبية فى جملتها ـ ما جعل الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام يفتنون بإلهه الفلسفى هذا فيستبدلونه بالإله الحق ـ سبحانه ـ ويدينون بإله أرسطو.

ظل هذا حال الغرب حتى جاءت النصرانية وانتشرت فى القرن الرابع الميلادى وعمت الغرب الذى كان يخضع للامبراطورية الرومانية، فانقلب الحال رأسًا على عقب فى الغرب. حيث تحول الأمر إلى نقيض ما كان عليه قبل النصرانية. فقد كان المجال مفتوحًا أمام المذاهب العقلية بمدارسها اليونانية، ولما جاءت النصرانية حجر رجال الدين النصارى على العقول، وأصبح إعمال العقل مرفوضًا، بل أضحى مُجَرَّمًا، وأصبحت السيطرة لرجال الدين النصارى، ولكتابهم المقدس، وآرائهم التى يستقونها من مجامعهم. ومنع الناس من إعمال عقولهم فى أى مجال علمى أو عملى حتى فهم الكتاب المقدس عندهم ومن حاول أن يفهم الكتاب المقدس عندهم بفهمه الخاص وصم بالكفر والزندقة وطرد من الدين النصرانى أو من "ملكوت السماوات" كما يقولون... وبذلك انتقل الغرب النصرانى من جاهلية إلى جاهلية، ومن ضلال إلى ضلال. فقد كان يسبح فى جاهلية العقلانية الضالة الزائفة سواء فى سفسطة السوفسطائيين، أو فى آلهة الوثنيين، أو إله أرسطو الذى يمثل العدوة القصوى من جنوح العقل وفساده، ثم انتقل الغرب النصرانى من تلك الجاهلية إلى جاهلية النصرانية ورجالها الذين حجروا على العقول، وجرَّموا إعمال العقل، وحاربوا العلم، وأحرقوا العلماء، وأقاموا محاكم التفتيش التى أطعمت النار آلافًا من العلماء والمفكرين.

وقد ظل الأمر كذلك حتى جاء ما سمى "بعصر النهضة" حيث بدأ الناس فى

الغرب النصرانى يمهدون للثورة على ثنائى الجريمة والطغيان: رجال الكنيسة ورجال الحكم. وبالفعل استطاعت الشعوب الغربية النصرانية إشعال الثورات ضد الحكام الطغاة، ورجال الدين الفاسدين، تلك الثورات التى بدأت بأقلام بعض الكتاب، ثم امتدت إلى بعض رجال الدين الذين لم يقبلوا الانحدار الخلقى الذى هوى برجال الدين النصارى فى جملتهم، وذلك مثل ما حدث من ثورة "مارتن لوثر" على الكاثوليكية ممثلة فى البابا ورجاله، ثم تبلورت تلك الثورات المتفرقة فى ثورة عارمة قضت على ثنائى الجريمة والطغيان، نعنى بذلك الثورة الفرنسية التى كان من شعاراتها: "اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس". هذه الثورة التى قضت على جاهلية الطغيان وتعطيل العقل والفكر والحجر على حرية التفكير والاختراع، وقيادة الناس وراء التفكير الجامد المتخلف لرجال الكنيسة وأخرجتهم من مغارة الجمود هذه، ولكن.. إلى أين ذهبت بهم ثورة فرنسا الشهيرة؟ هل قادتهم إلى الوعى الصحيح، والتفكير السليم؟ هل أخرجتهم من الظلمات إلى النور؟

إن ثورة فرنسا أخرجت الناس من جاهلية الجمود والطغيان، ولكن الواقع أنها إنما أخرجتهم من جاهلية إلى جاهلية أفظع وأوجع. فكيف كان ذلك؟

إن كل شيء يحتاج إلى اعتدال وحكمة، وإلى توسط وضبط، وإلا انقلبت الأمور إلى نقائضها، فانقلب الخير إلى شر، وتحول الإصلاح إلى إفساد.. إن الشعوب الغربية النصرانية التى حرمت التفكير والتعبير قرابة الألف عام، وذاقت مرارة الاستعباد والإذلال، وقد وجدت نفسها بين عشية وضحاها طليقة من كل قيد، محررة من كل إسار، منفلتة من كل ضابط، أَضْحت أشبه شيء بقطيع من الحيوانات طال حبسها، واشتد تعذيبها، وأحكم سجنها، ثم فجأة فتحت أبواب سجنها على مصاريعها، فانطلقت لا تلوى على شيء، ولا تتثبت من أمر، ولا تتريث فى فعل، كذلكم كانت الشعوب الغربية النصرانية، انطلقت كالإعصار المدمر، كل يعبر عن نفسه، ويعوض ما فاته وفات الأجيال الماضية عبر قرون طويلة. فكان من ذلك كل غريب يأنفه العقل، وكل عجيب تأباه الفطرة. لذلكم تميزت تلك الحقبة من الزمن التى أسموها: "عصر التنوير" أو عصر الحرية، وأطلقوا على نتاجها الفكرى اسم:

"الفلسفة الحديثة والمعاصرة"، تميزت هذه الحقبة بكل غريب من الفكر، وعجيب من الفلسفات وغصت بالعشرات بل المئات من المذاهب والآراء التى سُمِّى كل منها مذهبًا فلسفيًا. وأكثرها ـ إن لم يكن جميعها ـ لا يقبله عقل عاقل. لكن هذا كان سمة هذا العصر، بل كان المسوغ فى كثير من الأحيان لأى فكر كى يسمى مذهبًا أن يكون غريبًا وعجيبًا ومناقضًا للفطرة.

هكذا انتقلت الشعوب الغربية النصرانية من جاهلية القرون الوسطى المظلمة ـ كما يسمونها ـ إلى جاهلية العصور الحديثة التى أسموها عصر التنوير. تلك الجاهلية التى تميزت بالفوضى الفكرية، والغوغائية المذهبية، والنظريات الفلسفية المجردة عن كل عقل وفكر، والخالية عن كل معنى مقبول أو مضمون محترم.

بان لنا مما تقدم أن "العقلانية" أو الاتجاه العقلانى قد مرّ منذ كان للفكر تاريخ بمراحل ثلاث ـ مرحلة إعلاء العقل والاغترار به عند اليونان بمدارسهم المختلفة، ثم جاءت بعد ذلك مرحلة العصور الوسطى التى سيطرت فيها النصرانية ورجالها فحجروا على العقل، وعطلوا الفكر، وحاربوا العلم، وأحرقوا العلماء، تلك الحقبة التى استغرقت قرابة الألف عام أو تزيد، ثم جاء عصر النهضة والعصر الحديث بفلسفاته ومذاهبه. وكل هذه المراحل الثلاث صح أن توصف جميعها بأنها جاهليات. فالعقلانية عند اليونان كانت جاهلية، إلى حد أنهم استغلوا العقل فى إلغاء العقل والعبث بالقيم كما رأينا من تاريخ السوفسطائيين.

ثم كانت جاهلية القرون الوسطى، ثم جاءت العصور الحديثة بجاهلية دونها كل الجاهليات حيث أعلت من شأن العقل حتى جعلته السيد الأول، فألغت الدين حقًا أو باطلاً، وأنكرت الوحى وكفرت بالغيب، وأضحت جاهلية سيدها وربها المادة الجامدة.

يهمنا من هذه المراحل المرحلة الأخيرة التى يعيشها الغرب النصرانى. والتى تتميز بالإلحاد الحادّ القاطع فى كل مذاهبها وفلسفاتها التى أنتجتها هذه المرحلة.

ونحن لا نأخذ على هذه الفلسفات كفرها بالنصرانية ورجالها، فهم معذورون فى ذلك بعد كل المعاناة التى عانتها الشعوب الغربية من النصرانية ورجالها، لكن الذى

نأخذه على هذه الفلسفات والمذاهب إنما هو تعميم موقف العداء هذا من النصرانية ورجالها، فهم لم يقصروا عداءهم على ذلك الدين ورجاله، وإنما جعلوا عداءهم للنصرانية عداء لجميع الأديان، ما كان منها حقًا وما كان باطلاً، وقد كان للإسلام الحظ الأوفى من ذلك العداء، بل من ذلك الحقد والمقت الشديدين.

يهمنا أن نشير هنا إلى أن المرحلة الأخيرة من العقلانية، أو الاتجاه العقلانى الذى نعايشه الآن فى الغرب النصرانى، والذى هاجر إلى مجتمعاتنا الإسلامية وانتشر فى الكثير منها، إنما يتميز بأمرين متعارضين، أولهما ـ وهو الأصل فيه ـ أنه اتجاه ملحد، ينكر الدين، وينكر الله ـ سبحانه ـ وينكر ـ بالتالى ـ الغيب والوحى وكل شىء من هذا القبيل. هذا جانب، والجانب الآخر، أو ثانى الأمرين، ما نلاحظه على الغرب النصرانى من إحياء النزعة الدينية لدى المسئولين فى الدول الغربية، والتعصب الشديد للنصرانية وبخاصة لدى رؤساء الدول التى توصف بأنها "كبرى" كأمريكا وانجلترا، حيث يتصرف رؤساء أمريكا ـ تحديدًا ـ كأنهم قساوسة منصِّرون، يعملون من خلال دينهم النصرانى على توجيه سياستهم الخارجية، فيما يعرف الآن بشعار "تسييس الدين" أى أنهم على الرغم من عدم التزامهم بقضايا دينهم عقائد أو تشريعات، لكنهم فى سياساتهم ينطلقون مما فيه صالح هذا الدين ونشره والانتصار لإخوانهم الذين يدينون به.. ولا تفسير لهذه المعادلة الصعبة إلا أنهم يتعصبون للنصرانية ليس لأنهم مؤمنون بها، ملتزمون بتعاليمها، بل لأنهم يعتبرونها تقليدًا ورمزا لدولتهم ضد الدول الأخرى والأديان الأخرى، وتحديدا ضد الإسلام والإسلام بشكل خاص.



رابعًا: مظاهر انحراف العقلانية

للعقلانية ضلالات وانحرافات لا تكاد تحصى نشير إلى أهمها فيما يلى:

١ ـ أول انحراف العقلانية، وأساس ضلالاتها، والأصل فى مفاسدها إنما يتمثل فى إقحام العقل فى مجال لا يصلح للعمل فيه، وليس من طبيعته أن يحيط بكنهه وحقيقته، وليس مؤهلاً للبحث فيه على سبيل الاستقلال. ونعنى بذلك مجال الدين وما يتصل به من عالم الغيب والوحى.

إن العقل مؤهل لأن يعمل فى مجال العالم المحسوس الذى نعيش فيه. وسبيله إلى معرفة العالم المحسوس إنما هى الحواس الخمسة، فهى منافذه التى يطل من خلالها على العالم المادى المحسوس. فهو يطل من نافذة البصر فيرى المبصرات ويعرفها. ومن خلال السمع يتعرف على عالم المسموعات، ومن خلال حاسة الشم يعرف المشمومات، وكذلك من خلال حاسة اللمس وحاسة الذوق. فكل حاسة هى بمثابة نافذة للعقل يعرف منها ما يتصل بها من ذلك الجانب. فإذا تعطلت حاسة من هذه الحواس فقد أغلق عالمها دون العقل، فلا يعرف عنه شيئًا، وهكذا جميع الحواس التى هى المنافذ الوحيدة التى يطل منها العقل على العالم المادى المحسوس. ولو فرض وتعطلت جميع هذه الحواس عند إنسان مّا فإن العقل يجهل كل شىء عن عالمنا الذى نعيش فيه، ويتحول العقل إلى سجين حجيرة مظلمة لا يعى مما حوله شيئًا.. ويأتى السؤال: ما ميزة العقل التى يتميز بها عن الحواس؟

إن ميزة العقل هى تجريد الصور الحسية عن مادياتها والاحتفاظ بها فى الذاكرة لاستدعائها وقت الحاجة، كذلك فإن العقل يأخذ المحسوسات ليصوغ منها مقدمات يصل من خلالها إلى نتائج غير محسوسة، أقصد ينتقل من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية المجردة المعقولة عن طريق مقدمات حسية مادية. وأظهر مثال على ذلك إدراك العقل عن طريق ما يراه ويدركه فى عالمنا الحسّىّ لقضايا الألوهية.

فإدراك العقل وجَزْمه أن لهذا الكون خالقًا، وأن لهذا الخالق صفات يتفرد بها ـ سبحانه ـ ثم إدراك العقل لما يجب وما يستحيل فى حق الله عز وجل، وقد تتفاوت العقول بعد ذلك زيادة فى أمور الدين أو توقفًا فى أمور أخرى. وتلك قضايا ليست حسية، ولكن العقل يصل من خلال الحس إليها. فهذه ميزة العقل التى جعلته تكريمًا من الله ـ تَعَالى ـ للإنسان، وجعلته ـ كذلك ـ مناط التكليف، وركيزة الحساب مثوبة أو عقوبة.

العقل ـ إذن ـ له تلك الميزة التى هى الوصول من الخلق إلى الخالق ـ سبحانه ـ نعنى الانتقال من المحسوس إلى غير المحسوس، ومن المشاهد إلى الغائب. وعند

هذه المرحلة تتوقف قدرة العقل تمامًا، فلا قدرة له على تخطى هذا المستوى فى الإدراك، لا قدرة لديه على إدراك عالم الغيب على شكل مفصل، فلا قدرة لديه على إدراك عالم الأمر، ولا ما يجب لله ـ تَعَالى ـ تفصيلاً من الأسماء والصفات.. إلى غير ذلك من دين الله ـ تَعَالى ـ عقائد وأحكامًا وتشريعات.

نصل من ذلك إلى أن قدرة العقل على إدراك عالم الغيب قاصرة، وأن قدرته على معرفة وحى الله ـ تَعَالى ـ عاجزة وأن صلته بالدين الحق إنما هى صلة المتلقى عن وحى الله ما يريد الله ـ سبحانه ـ إبلاغه إلى الناس عن طريق رسله. فالعقل ـ إذن ـ عاجز تمامًا عن إدراك دين الله إلا عن طريق تلقى ما يأتى به الوحى الشريف، فالاعتماد على العقل فى مجال الدين مؤدٍّ ـ بالضرورة ـ إلى الضلال، والأخذ عن العقل المستقل فيما يتصل بالدين يفضى إلى الزيغ والكفر والانحراف عن طريق الحق. والطريق الحق فى ذلك هو أن يأخذ العقل عن الوحى، وأن يهتدى العقل بهدى النبوات، وأن يعمل فى إطار ما يأتى من قبل الله ـ سبحانه ـ . فمنزلته منزلة المتلقى، وليس المنشىء المبتدع.

وهذه هى أول وأظهر انحرافات العقلانية. فالعقلانية فى مجال الدين تؤدى إلى أحد أمرين:

الأول: أن تنكر وجود الله ـ سبحانه ـ وأن تنزع إلى الإلحاد المطلق، وترفض الدين والوحى وتكفر بالغيب. وهذه قضية العقلانية الأكثر وضوحًا، والأكثر شيوعًا لدى أصحاب هذه النزعة، أو أصحاب هذا المذهب.. وهذا الأمر لم نقف عنده، ولم نهتم بالإشارة إليه، لأنه معلوم بداهة عن النزعة العقلانية ومن يسير فى ركابها.

الثانى: هو ما يصل إليه العقل بفطرته من إدراك أن لهذا الكون خالقًا والإقرار بوجوده، وأنه المتصرف المدبر. لكن العقل لدى أصحاب العقلانية لا يقف عند هذا الحد، ثم يأخذ عن رسل الله ـ صلوات الله عليهم ـ ما أوحى الله ـ تَعَالى ـ به إليهم، العقلانيون لا يفعلون ذلك، بل هؤلاء الذين فتنوا بعقولهم، ينجرفون فى تيارهم

العقلانى فيتركون ما جاء من قبل الله ـ سبحانه ـ ويخترعون هم لأنفسهم ما يرضى غرورهم، وما يفرزه لهم هواهم فينشئون بناء دينيًا هو من أوهام العقل وضلالاته.

كما فعل ذلك فلاسفة اليونان وبخاصة أرسطو، وكما تبعهم على دينهم الفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام من أمثال الفارابى وابن سينا وابن رشد. وإن كان لفلاسفة اليونان شيء من العذر لخلو بيئتهم عن وحى الله ـ سبحانه ـ ورسله، فَبِمَ يعتذر الفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام وقد كانوا فى عصر ازدهر فيه علم النبوة ورسالة خاتم النبيين؟! كانوا فى عهد ازدهار الأئمة وتابعى التابعين، وأئمة التفسير والحديث والفقه، ولكن اتباعهم للمذهب العقلانى أضلهم ونأى بهم عن الهدى إلى الضلال، وأخرجهم من النور إلى الظلمات.

٢ ـ فيما يتصل بنا نحن المسلمين المؤمنين لا يشغلنا كثيرًا أصحاب النزعة الإلحادية من أتباع العقلانية. فالملاحدة الذين ينكرون وجود الله ـ سبحانه ـ أصناف كثر، وأصحاب العقلانية صنف منهم، فهم ملاحدة كسائر الملاحدة. أما الذى يعنينا من هؤلاء فهم الذين يخترعون لأنفسهم أديانًا من إفرازات عقولهم المريضة، وبخاصة وأن فريقًا من هؤلاء بل لعل أشهرهم هم الفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام، ومثلهم من سلك مسلكهم ورضى مذاهبهم فهؤلاء وأولئك أنشأوا لأنفسهم دينًا أو أديانًا على اختلاف بينهم، هذا الدين أو هذه الأديان هى من إفرازات عقولهم المجردة عن هدى الإسلام، البعيدة عن نور الوحى، ولذلك أسمينا هذه الأديان أديانًا عقلية فلسفية ـ إن صح هذا الإطلاق ـ . وهذا الاتجاه العقلانى فى إنشاء الدين واختراعه بعيدًا عن الوحى يحول قضية الدين إلى نوع من الفلسفة التجريدية التى لا صلة لها بالواقع، ولكنها تدور حول حوار ذهنى تجريدى خيالى واهم يبدأ من العقل النظرى وينتهى إليه بعيدًا عن الحق والواقع.

وهذا نهج ينتج عنه أضاليل كثيرة أهمها:

أ ـ أن العقلانية تحول قضية الدين إلى مسألة ذهنية تجريدية بحتة لا صلة لها بالواقع، تبدأ من العقل النظرى وتنتهى إليه.

ب ـ ينبنى على ذلك أن الدين يتحول من حقيقة عامة لكافة الناس، إلى قضية شخصية خاصة، تخضع لمقاييس العقل عند كل شخص، وتتحول إلى وجهة نظر، وكل إنسان عقلانى يبتدع من الدين ما يحلو له ويتفق مع هواه.

جـ ـ أن الدين الذى هذه حاله لا ينتج قيمًا ولا فضائل، ولا يمس مشاعر الناس، ولا يؤثر فى أخلاقهم ولا يسمو بسلوكهم، بل هو فى واد والأخلاق والسلوك والقيم والفضائل فى واد آخر.

د ـ أن الدين العقلانى الذى ينشئه العقلانيون لا يمس من أصحابه إلا جوانب عقولهم فقط، ويهمل تمامًا جانب المشاعر والوجدان والعاطفة، على ما لهذه الجوانب من أهمية قصوى فى حياة الإنسان وبخاصة فى قضايا الدين والعقيدة. وذلك على خلاف جذرى وأساسى مع الدين الحق الذى يخاطب الإنسان جميعه بعقله وعاطفته ومشاعره ووجدانه.

٣ ـ إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أنعم على الإنسان وشرفه بالدين الحق. بعث الله ـ تعالى ـ به رسله ـ صلوات الله عليهم ـ وقد شرف الله ـ عز وجل ـ الإنسان وكرمه بالعقل ليكون العقل هو المؤهل للإنسان ليتلقى دين الله. فالعقل فى الإنسان هو مناط التكليف، وقد زود الله ـ تبارك وتعالى ـ الإنسان به ليكون أهلاً لتلقى الدين كاملاً، وحمل الأمانة مستوفاة، فتلقى الدين الحق، وحمل الأمانة محتاج إلى القوة العاقلة، فالأصل فى العقل أنه خادم للدين ومؤهل له، وممهد لتلقيه، ومسوغ لفهمه والعمل به.

لكن مصيبة العقلانية، وأكبر انحرافاتها أنها قلبت الأوضاع، وعكست الأمور، وأحالت العقل فى الإنسان إلى عدو لله ورسله ودينه الحق، وبدلاً من أن يؤدى العقل وظيفته الأصلية، ويقوم برسالته الحقة، فيكون خادمًا لدين الله الحق، متلقيًا عن رسل الله ـ صلوات الله عليهم ـ مشتغلاً بمراد الله من عباده، حولته العقلانية

وأتباعها إلى عدوّ لله، يناوىء الله ـ سبحانه ـ ويكذب رسله ويكفر بدينه، ويخون الأمانة التى حملها، وكان بهذه الخيانة ظلومًا جهولاً، كما قال الله عز وجل:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

٤ ـ على الرغم من الاتجاه الإلحادى للعقلانية، فإنّا نجد بعض الفرقاء يوصفون بأنهم من أتباع المذهب العقلانى بينما هم من المسلمين أصحاب بعض المذاهب الكلامية. ونعنى بذلك: "المعتزلة". فهؤلاء يوصفون ـ أحيانًا ـ بأنهم من أتباع الاتجاه العقلانى أو العقلانية، وإن كان هذا الوصف بالنسبة إلى المعتزلة ليس دقيقًا على ما عرفنا من المذهب العقلانى، إلا أنه يبين عن منهج المعتزلة فى تقديم العقل على الوحى، والاحتكام إلى العقل إلى حد أنهم يؤولون نصوص الوحى حتى تستقيم مع قواعدهم العقلية التى وضعوها هم من عند أنفسهم ثم جعلوها ميزانًا يزنون به وحى الله عز وجل، فما اتفق مع هذه القواعد قبلوه، وما لم يتفق أَوَّلوه، ومن أوضح ذلك مسلكهم فى صفات الله ـ تَعَالَى ـ وأسمائه، حيث عطلوا الله عز وجل عن صفاته، وأولوا أسماءه انطلاقًا من اتجاههم ومنهجهم العقلانى.. لكن يبقى بعد ذلك أن نقرر أن جعل المعتزلة مع أتباع العقلانية المنهجية التى نتكلم عنها فيه نوع واضح من التجوز، أو التجنّى. فقد سبق وقررنا أن العقلانية مذهب إلحادى يضع العقل المستقل عن الوحى والدين ميزانًا لكل شىء . وأن أصحابه يرفضون ما عدا العقل الخالص، وأظهر شىء يرفضونه هو الدين والوحى والغيب، وإذا كانت هذه هى حقيقة العقلانية وأتباعها، فإن المعتزلة ـ على خلافنا معهم ـ ليسوا كذلك، ومن ثم يكون جعلهم أتباعًا لهذا المذهب، أو إطلاق هذا المصطلح عليهم فيه قدر كبير من التجوز.

٥ ـ من انحرافات العقلانية ـ أيضًا ـ أن أتباعها يعتقدون أن مبادىء الأفكار، وأسس العلوم والمعارف موجودة فى العقل الإنسانى ابتداء قبل أن يعرفها

الإنسان عن طريق التجربة الحياتية المباشرة، فهم يزعمون أن الإنسان يولد مزودًا بالأفكار والمعارف المختلفة التى يحصلها فى هذه الحياة. وأن إدراكه للمعارف والأفكار فى هذه الحياة عن طريق التجارب الحياتية المباشرة إنما هو نوع من تذكيره بتلك المعارف نفسها التى ولد بها، وإحياء لها. فالمعارف والعلوم مركوزة فى الإنسان، موجودة فى عقله على هيئة مجردة قبل أن يعرفها عن طريق التجارب الحسية المادية.

وهذا الزعم قديم لدى الكثيرين، وبخاصة فلاسفة اليونان المشاهير من أمثال سقراط وأفلاطون. ومن نحا نحوهم، وفى العصر الحديث كان أكبر الداعية لذلك "رينيه ديكارت ١٥٩٦- ١٦٥٠" الذى كان يزعم أن جميع المعارف سابقة فى عقل الإنسان المجرد، وأننا يمكننا أن نصل إلى جميع العلوم والمعارف بالاستدلال العقلى بعيدًا عن التجارب العملية ودون الحاجة إليها.

وعلى نفس منهج "ديكارت" سار جماعة من الفلاسفة المحدثين أطلق عليهم فى تاريخ الفلسفة وصف "الديكارتيين" لسلوكهم نهج ديكارت من أمثال: "ليبنتز، وسبينوزا، ومالبرانش" وكلهم يعتبرون من دعاة المذهب العقلانى.



خامسًا: العقلانية فى ميزان الإسلام

لا يحتاج الأمر إلى كبير جهد، ولا إعمال فكر لنعرف موقف الإسلام من العقلانية. ذلكم أن العقلانية تعنى الإلحاد إما مطلقًا. وهذا هو حال غالب أتباعهم الذين ينكرون وجود الله ـ سبحانه ـ ولا يؤمنون إلا بالمادة خالقًا ومخلوقًا، وإما إلحادًا مقيدًا كما هو حال الفلاسفة الذين يكفرون بدين الله ورسل الله، ويخترعون لأنفسهم أديانًا وآلهة هى والإلحاد المطلق سواء، أو هم والملاحدة بإطلاق سواء. ولقد مر بنا الحديث عن هؤلاء الفلاسفة الذين اخترعوا لأنفسهم آلهة هم بها أضل من الملاحدة بإطلاق. وموقف الإسلام واضح بين من كلا الفريقين.

أما الملاحدة بإطلاق فموقف الإسلام منهم معروف يستوى فى ذلك جميع

طوائفهم، بأسمائهم التى يتسمَّوْنَ بها من دهريين أو طبعيين. أو عقلانيين أو ماديين أو وجوديين أو شيوعيين، أو تطوريين أو غير ذلك من أسماء تختلف وتكثر ومضمونها واحد.

وأما ملاحدة الفلاسفة المتسبين ومن لفَّ لفَّهم وافتتن بهم فهم أشد سوءًا وأدخل فى باب الضلال والإضلال حيث يلجأون إلى الكذب والتدليس، والإيهام والتلبيس على الناس حتى أوقعوا الكثيرين فى حبالهم إما اتباعًا لهم فى ضلالاتهم وإلحادهم، وإما إحسان ظنٍّ بهم. فهؤلاء وأولئك.

بهذا يتضح موقف الإسلام من العقلانيين أو أصحاب الاتجاه العقلانى.



سادسًا: مجال عمل العقل فى الإسلام

اتضح لنا فيما سبق موقف الإسلام من العقلانية ومن أصحابها أو الملتاثين بها. وحين نقول إن الإسلام يرفض العقلانية والعقلانيين، قد يظن البعض أن الإسلام يقلل من شأن العقل، ويضع من منزلته، أو لا يقيم له وزنًا فى شئون الإسلام والمسلمين. وهذا ظن خاطىء يدفع بنا إلى أن نبين ـ بإجمال ـ مجال عمل العقل فى الإسلام. ولعله ينبغى أن نبين ـ كذلك ـ منزلته فى الإسلام، ومدى تكريم الإسلام للعقل، واهتمامه به، وتوظيفه فى سبيل هداية صاحبه إلى معرفة الله ـ سبحانه ـ والأخذ عنه ما يبلغه رسل الله ـ صلوات الله عليهم ـ والعمل بمقتضى ما أخذ عنهم. فهذان ـ إذن ـ أمران.

الأول: منزلة العقل فى الإسلام

وهذه منزلة عظيمة وجليلة وخطيرة. ويكفى أن نعرف أن الإسلام جعل العقل مناط التكليف، وأساس حمل الأمانة، والأصل الذى تنبنى عليه مسئولية الإنسان، ويقوم عليه حسابه مثوبة أو عقوبة، ولذلك كان من شروط التكليف بالإسلام؛ العقل، ثم البلوغ، وكان من أسباب اشتراط البلوغ أنه علامة على سلامة العقل وبلوغه تمامه وكماله فى صاحبه، فالإسلام لا يهتم بالعقل فقط، ولا يبنى عليه

التكليف إلا فى حال تمامه وكماله، ومن هنا كانت آيات الله فى خلقه التى لفت القرآن النظر إليها موجهة إلى الذين يتفكرون، والذين يعقلون. يقول الله عز وجل:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤].

وحين نزلت الآيتان من سورة آل عمران فى قوله ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

قال رسول الله ﷺ: **"ويل لمن لاكها بين لحييه ولم يتفكر فيها"** أو كما قال ﷺ.

فالقرآن يخاطب العقلاء، والتكليف خاص بهم، والمسئولية والحساب قصر عليهم، ولذلك قال ﷺ: **"رفع القلم عن ثلاث عن الصبى حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يعقل"** أو كما قال ﷺ.

بل إن العلماء يقررون أن حظ الإنسان من المسئولية والحساب هو على قدر ما منحه الله ـ سبحانه ـ من العقل والفهم، فإن القدرة العقلية ليست فى جميع الناس سواء، فإن منهم من أعطاه الله ـ تَعَالَى ـ الحظ الوافر من العقل والفهم، ومنهم من أعطاه الحظ القاصر من ذلك، وكل له عند الله ـ عز وجل ـ حسابه بقسطاس مستقيم.

والإسلام فى تكريمه العقل والعقلاء وتعظيمه شأنه وشأنهم لم يرفع العقل فوق منزلته، ولم يعطه ما ليس من حقه، ولم يُغَالِ فى تقديره، بل وضعه موضعه الصحيح، وأنزله منزلته اللائقة به دون مغالاة فى شأنه، ولا إسفاف أو استخفاف به وتحقير لشأنه.

والإسلام حين يفعل ذلك، فإنه يفعله عن حق وصدق ويقين، لأن الإسلام جاء من قبل الله ـ عز وجل ـ خالق الإنسان، وخالق العقل فى الإنسان، والعالم لما

خلق، الـــذى خلق فسوّى ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ .[طه: ٥٠]
وقال ـ تعالى ـ :

﴿ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٣، ١٤].

الثانى: مجال عمل العقل فى الإلام

سهل علينا بعد أن عرفنا منزلة العقل فى الإسلام أن نتعرف على مجال عمل العقل فى الإسلام. فالإسلام رسم للعقل مجاله الذى يعمل فيه، وحدد له رسالته، وبين له الإطار اللائق به بلا مغالاة ولا إسفاف. والعقل حين يعمل فى الإطار الذى بينه الإسلام وحدده، فإنه يصيب بقدر الإمكان، وله على ذلك الأجر، ولا يخطىء إلا نادرًا وله كذلك أجر.

وقد حدد الإسلام للعقل مجالات عمله التى أهمها:

١ ـ تلقى وحى الله ـ تَعَالَى ـ عن رسله، وأخذه الدين الذى يبلغه رسل الله ـ صلوات الله عليهم ـ عن الله ـ عز وجل ـ .

٢ ـ العمل فى إطار دين الله ـ سبحانه ـ وفى إطار وحى الله ـ عز وجل ـ والاهتداء فى كل ما يأخذ وما يدع بما جاء من قبل الله ـ تبارك وتعالى ـ.

٣ ـ بذل الطاقة فى تدبر آيات الله ـ سبحانه ـ وفهم مراد الله من آياته، والعمل بمقتضى ذلك الفهم.

٤ ـ تدبر آيات الله عز وجل فى الكون الفسيح. والتفكر فى خلق الله وبديع حكمته، وعظيم عنايته وإتقانه فى كل شىء خلقه.

٥ ـ فهم الثانى على ضوء الأول؛ أى فهم آيات الله فى الكون الفسيح على ضوء آيات الله فى كتابه الكريم ووحيه الشريف، أو كما يقال: فهم الكون المنشور على ضوء الكتاب المسطور.

٦ ـ تدبر آيات الله ـ تَعَالَى ـ المتضمنة الأوامر والنواهى، والمشتملة على الأحكام التشريعية ومحاولة استخلاص الأحكام منها والعمل بها، فيما يسمى بالاجتهاد فى استخراج الأحكام فيما يجوز فيه الاجتهاد، وذلك بعد تحصيل شرائط الاجتهاد وأدواته.

٧ ـ بذل الجهد، وإنفاذ الطاقة فيما يصلح حال الإسلام والمسلمين؛ دعوة إلى دين الله، ونصرة للإسلام، ودفاعًا عنه وعن المسلمين. فإن ذلك من أشرف المجالات التى يجب على كل مسلم أن يسخر عقله وفكره للعمل فيها، وبخاصة فى هذا العصر الذى تكالبت فيه أمم الكفر على أمة الإسلام. وانتصر الكفار لكفرهم، وتخاذل أهل الإسلام عن إسلامهم.

٨ ـ بذل كل مسلم عالم طاقة عقله وفكره للسيطرة على مجالات العلوم بأنواعها، والإبداع فيها، والاكتشاف والاختراع، حتى يستعيد المسلمون زمام المبادرة والسبق كما كان الأوائل، وينخلعوا من هذه الحياة التى يعيشون فيها عالة يَتَكَفَّفُون الأمم الكافرة فى شتى شئون الحياة المختلفة.

* * *

المبحث السادس

الإلحاد

أولاً: التعريف به:

١ ـ فى اللغة:

الإلحاد فى اللغة: الميل. يقال: أَلْحَدَ عن الحق: مال عنه. وأَلْحَدَ السَّهم: مال عن الهدف. وأَلْحَدَ فى شهادته: كذب فيها وقال الزور. وأَلْحَدَ فى الحرم: استحلّه وانتهك حرماته. قال الله عز وجل:

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

أى بانتهاك حرمته، وارتكاب المظالم فيه. ويقال: التحد: مال والتجأ واستجار.

يقول الله عز وجل:

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧].

٢ ـ فى الاصطلاح: الشرعى:

لا نكاد نجد فارقًا يذكر بين المعنى اللغوى للإلحاد والمعنى الاصطلاحى. فإن القرآن العظيم نزل بلغة العرب واستعمل اللفظة فيما استعملها العرب: وهو: الميل عن الحق، أو الميل عن حماية الإنسان نفسه ـ وهو الأصل ـ والالتجاء إلى غيره ليتولى حمايته. وجماع هذه المعانى نجدها فى آيات من القرآن المجيد. يقول الله ـ سبحانه ـ:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾ [فصلت: ٤٠].

يتضح من هذا أن الإلحاد فى جملته سواء كان فى لغة العرب، أو فى القرآن المجيد، إنما يعنى "الميل" بصورة عامة. لكن يختص المعنى الاصطلاحى، أى فى القرآن والسنة عن المعنى اللغوى، بأن الإلحاد لا يعنى الميل مطلقًا، بل يعنى: الميل عن الحق إلى الباطل.

٣ ـ تعريفه فى الإصطلاح الفلسفى.

الإلحاد فى مصطلح المذاهب الفلسفية المعاصرة:

يعنى: إنكار وجود الله ـ سبحانه ـ والإيمان بأن الوجود كله مادى، وأن الطبيعة المادية هى الخالقة وهى المخلوقة. وإنكار كل ما ليس بمادة، فليس هناك غيب ولا وحى ولا دين. وليس فى الوجود كله إلا المادة، والمادة فقط.

ثانيًا: أنواع الإلحاد:

بان لنا أن للإلحاد تعريفات عديدة: أهمها التعريف الشرعى، ثم التعريف الفلسفى. والتعريف الشرعى أعم وأهم، لأنه يشتمل التعريف الفلسفى وغيره. لذا نفضل الأخذ به والبناء عليه. وإذا نحن أخذنا بالتعريف الشرعى، أى نظرنا إلى الإلحاد من وجهة النظر الإسلامية فإننا نجد الإلحاد ينقسم إلى أقسام كثيرة، ويتنوع أنواعًا عديدة نستطيع أن ننسقها على الوجه الآتى:

١ ـ ينقسم الإلحاد ابتداء على نوعين أساسين:

الأول: الإلحاد المطلق، ويقصد به إلحاد المنكرين وجود الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذين لا يؤمنون إلا بالمادة المحسوسة. فكل ما يقع تحت الحس موجود وما لا يقع تحت الحس غير موجود. يكفرون بالغيب والوحى والرسل والرسالات لأنهم أساسًا يكفرون بوجود الله ـ عز وجل ـ:

وهؤلاء أنواع كثيرة قديمًا وحديثًا فمن هؤلاء الملاحدة قديمًا "الدهريون" الذين حكى القرآن المجيد مقالتهم فى كفرهم بالله - سبحانه - وإيمانهم بالدهر خالقًا ومخلوقًا. وقال - تَعَالَى - حاكيًا مقالتهم:

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وهؤلاء الدهريون يسمون لدى البعض "الطبعيون" نسبة إلى الطبيعة، ويقال عنهم أحيانًا "الطبائعيون" نسبة إلى الطبيعة على غير قياس. كما أن الآخرين سموا دهريين نسبة إلى الدهر الذى يرجعون إليه كل شىء.

ومن هؤلاء حديثًا أصناف كثيرة كلهم فى الكفر والإلحاد سواء. فمنهم: "الشيوعيون" و"الوجوديون" و"الداروينيون" و"العلمانيون" فى جملتهم، وإن كان من العلمانيين فريق يؤمن ببعض الأديان - غير الإسلام - ولكنهم قلة، والأديان التى يعتنقونها أديان باطلة، ولا يمكن أن يكون من بينها دين الله الحق الإسلام، لأن الإسلام والعلمانية لا يلتقيان أبدًا، وكذب صراح من يزعم أنه مسلم علمانى، وباطل من يدعى أن الإسلام والعلمانية يلتقيان، وأنه يمكن أن يكون الإنسان مسلمًا وعلمانيًا فى آن واحد.

الثانى: النوع الثانى من الإلحاد هو الإلحاد المقيد، ونعنى به "إلحاد المتدينين"، أى إلحاد الذين يؤمنون بوجود إله خالق لهذا الكون مدبِّرٍ له متصرف فيه.

٢ - وهؤلاء أصناف كثيرة، لكنا نقسم هؤلاء ابتداء إلى قسمين رئيسين:

القسم الأول: إلحاد المتدينين بالأديان الباطلة.

القسم الثانى: إلحاد المنتسبين إلى الدين الحق الإسلام.

أما إلحاد المتدينين بالأديان الباطلة فينقسم إلى قسمين - أيضًا -.

الأول: إلحاد أصحاب الأديان الوضعية، مثل: الهندوسية، والبوذية، والجينية، وغير هؤلاء.

الثانى: إلحاد أصحاب الدينين الكتابيين، ونعنى بهم: اليهود والنصارى.

أما إلحاد أصحاب الأديان الوضعية فهو أشد من إلحاد اليهود والنصارى

وإلحادهم يتمثل فى صور كثيرة أهمها:

١ ـ إلحادهم فى ذات الله ـ سبحانه وتعالى ـ وذلك يتمثل فى عبادتهم أشخاصًا، أو أحجارًا أو أشجارًا. وجمهرتهم يعبدون أصنامًا وأوثانًا لأشخاص حقيقيين كانوا أو متوهمين.

٢ ـ إلحادهم فى صفات الله ـ تعالى ـ وأسمائه. وهذا مبنى على إلحادهم فى ذات الله ـ جل الله وعز ـ فطبعى إذا ألحدوا فى ذات المعبود، فلا بد من أن يكون لديهم صفات وأسماء تتناسب مع هذا المعبود الباطل، وصور ذلك أكثر من أن تحصى.

وقد ذكر القرآن المجيد عددًا من المعبودين لهؤلاء الوثنيين المشركين، وذكر صورًا من إلحادهم فى صفاتهم وأسمائهم التى كثير منها فى أصله من أسماء الله ـ عز وجل ـ ولكنهم حرفوها بهدف إطلاقها على آلهتهم وأوثانهم. ويقول الله ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٣].

فهذه الآيات الكريمات تناولت عددًا من شئون أصحاب الأديان الوضعية المتعلقة بإلحادهم:

ـ فقد تناولت بالذكر إلحادهم فى ذات الله ـ سبحانه وتعالى عما يشركون ـ حيث اتخذوا من دون الله أصنامًا آلهة، مثل: اللات، والعزّى، ومناة.

ـ كما تناولت إلحادهم فى وصف أصنامهم بالذكورة، ووصف الملائكة بالأنوثة. كما بين ذلك ربنا ـ سبحانه ـ فى آية أخرى حيث يقول عز وجل:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ [النجم: ٢٧].

ـ كما تناولت إلحادهم فى أسماء الله ـ تَعَالَى ـ وصفاته، حيث أسموا بعض أصنامهم بـ "اللات" وهو تحريف للفظ الجلالة: "الله" ـ تبارك ـ وأسموا بعضًا آخر بـ "الْعُزَّى" وهو تحريف لاسم الله: "العزيز" ـ تبارك ـ

ـ فالهندوس يلحدون فى ذات الله عز وجل فيتخذون من دون الله أصنامًا آلهة ويسمون كبيرها "برهما"، والثانى: "فشنو"، والثالث "سيفا" وجعلوا لكل واحد وظائف ليست للآخر، ولهم فى صفاتهم وأسمائهم مخاريق عجيبة.

ومثل ذلك لدى البوذيين وأتباع "كونفوشيوس" "وزرادشت" وغيرهم.

أما إلحاد أصحاب الدينين الكتابيين، أو أهل الكتاب: اليهود والنصارى، فمنه ما هو إلحاد فى ذات الله ـ سبحانه ـ ومنه ما هو إلحاد فى صفات الله عز وجل وأسمائه.

أما عن "اليهود" ـ عليهم لعائن الله ـ فقد عظم إلحادهم فى ذات الله ـ عز وجل ـ ومن ذلك قولهم: عزيرٌ ابن الله. قال ـ تَعَالَى ـ:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠].

ومن ذلك اتخاذهم أحبارهم أربابًا من دون الله ـ سبحانه ـ قال عز وجل عن اليهود والنصارى معًا:

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

ولا ينبغى أن يُقَلَّل من اتخاذهم أحبارهم أربابًا من دون الله، بأن ذلك كان بسبب تشريعاتهم لليهود واتباع اليهود إياهم. وكذلك بالنسبة لرهبان النصارى، حيث كانوا يشرعون للنصارى غير ما أنزل الله ـ سبحانه ـ فيتبعونهم، كما ورد فى حديث لرسول الله ﷺ، نقول: لا ينبغى التقليل من ذلك، فإن الله ـ سبحانه ـ قد جعل ذلك عبادة للأحبار والرهبان من دونه ـ عز وجل ـ وجعل ذلك منهم شركًا به، وجعلهم بذلك مشركين به هؤلاء الأحبار والرهبان. وذلك قوله ـ تبارك وتعالى ـ فى الآية السابقة:

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

ومن ذلك كفرهم بالله الحق ـ سبحانه ـ الذى جاء رسول الله موسى ـ عليه السلام ـ يدعوهم إلى الإيمان به، وطلبهم من موسى ـ عليه السلام ـ أن يجعل لهم آلهة أصنام كالتى درجوا على عبادتها والعكوف عليها وقْتَمَا كانوا بمصر مستعبدين أذلاء، فقد طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا صنمًا حجرًا يعبدونه، كما يعبد الوثنيون آلهتهم. وقد حكى القرآن المجيد عنهم أنهم بعد أن عبروا البحر وجاوزه الله ـ تَعَالَى ـ بهم رأوا على شاطئه قومًا وثنيين يعكفون على عبادة أصنامهم لهم فما لبثوا حين رأوا ذلك أن اشتاقوا إلى الأصنام التى كانوا يعبدونها بمصر، فقالوا لموسى ـ عليه السلام ـ اجعل لنا أصنامًا آلهة نعبدها كما يفعل هؤلاء رافضين الإيمان بالله الحق الذى بعث إليهم موسى. والذى أنجاهم من فرعون، قالوا هذا وهم فى قلب المعجزة التى هى انشقاق البحر بعصا موسى، ورمال البحر ما تزال عالقة بنعالهم، كافرين بالله ـ تَعَالَى ـ جاحدين فضل الله عليهم، متنكرين للمعجزة التى هم فى قلبها. فهل هناك أقسى من هذه القلوب الجاحدة التى هى أقسى من الحجر، كما قال الله تعالى ـ فيهم:

﴿ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقد قال الله عز وجل مبينًا رفضهم عبادته ـ سبحانه ـ طالبين من موسى أن يجعل لهم أصنامًا آلهة يعبدونها ويعكفون عليها:

﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

ومن قبل ذلك رفضوا الإيمان بالله ـ عز وجل ـ حتى يريهم موسى إياه ـ تَعَالَى ـ جهرة، أى كما يرى عبَّاد الأصنام أصنامهم. قال الله ـ عز وجل ـ يخاطبهم:

﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٥].

وقال ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٢].

ومثل إلحاد اليهود فى ذات الله عز وجل فقد عظم وفحش إلحادهم فى صفات الله ـ سبحانه ـ وأسمائه. فمن ذلك وصفهم الله ـ تَعَالَىٰ ـ بأنه فقير بينما هم أغنياء، حيث طلب الله ـ تَعَالَىٰ ـ منهم أن يقرضه أغنياؤهم فيعطوا فقراءهم. قال ـ تَعَالَىٰ ـ عنهم: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وكما وصفوا الله ـ عز وجل ـ بأنه فقير، وصفوه بما هو أشد من الفقر، وصفوه ـ تَعَالَىٰ ـ بأن يده مغلولة لا يستطيع التصرف والإنفاق حتى وإن كان لديه ما ينفق. قال ـ سبحانه ـ عنهم:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة: ٦٤].

هذا إلى كفرياتهم الكثيرة التى لا تكاد تحصى، من كذبهم على الله ـ عز وجل ـ وكذبهم على رسله، ثم مواقفهم من رسل الله ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ التى تدور بين أمرين: إما التكذيب فقط، وإما التكذيب والقتل، يقول الله ـ عز وجل ـ عن اليهود:

﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧].

ويقول ـ سبحانه ـ عنهم:

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٦١].

وطبعى أنهم إذا كانوا يقتلون الأنبياء، أن يقتلوا من هم أقل شأنًا من الأنبياء وهم الدعاة إلى الله بحق، هؤلاء الذين يأمرونهم بالعدل والمعروف وينهونهم عن المنكر، يقول ـ تبارك وتعالى ـ عنهم:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: ٢١].

هذا بعض ما ورد عن اليهود وصور إلحادهم فى ذات الله ـ عز وجل ـ وصفاته وأسمائه وتكذيب رسله وقتلهم والكفر به ـ سبحانه ـ فيما رواه القرآن المجيد. أما عما ورد من صور الإلحاد والكفر والفسوق والفجور التى نسبها إليهم كتابهم المقدس ـ التوراة المحرفة ـ وكذلك التلمود؛ فتلك أشياء تقشعر من هولها الأبدان، رغم أنهم هم الذين سطروها بأيديهم يقرون بها على أنفسهم ـ عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ـ.

وأما عن النصارى فقد ألحدوا فى ذات الله ـ سبحانه وتعالى ـ وصفاته وأسمائه. وكان إلحادهم فى ذات الله ـ عز وجل ـ أظهر وأشهر، وأوضح وأقبح وأوجع. ومثل ما بينا عند اليهود كان إلحادهم فى ذات الله ـ تَعَالَى الله عما يقولون هو رأس إلحادهم فى صفاته وأسمائه.

١ ـ وكان رأس إلحادهم فى ذات الله وصفاته وأسمائه هو جعلهم لله ابنًا، وجعلهم الله ثالث ثلاثة ـ سبحانه وتعالى عما يشركون ـ.

ولقد عظم إلحاد النصارى حيث جعلوا المسيح عليه السلام عبد الله ورسوله إلى بنى إسرائيل ابنًا لله وشريكًا له ـ سبحانه ـ وافتروا إلهًا ثانيًا أسموه: "الروح القدس"، ثم جعلوا الاثنين مقدَّمين على الله ـ عز وجل ـ فى الرتبة والمنزلة، فجعلوا الله عز وجل ثالث الثلاثة.

فالمسيح ـ عليه السلام ـ هو المقدم عندهم فى الثلاثة، ثم يليه فى المرتبة "الروح القدس". فهو ثانى الثلاثة، ثم يجعلون الله ـ عز وجل ـ ثالث الثلاثة، فهو ـ سبحانه ـ عندهم ـ أخزاهم الله ـ أقل الثلاثة مرتبة وآخرهم منزلة. يقول الله ـ عز وجل ـ.

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٢ – ٧٣].

والآيتان الكريمتان تبينان قبح إلحاد النصارى، ففى صدر الآية الأولى يخبرنا ـ سبحانه ـ عن حقيقة عقيدة القوم حيث جعلوا الله ـ سبحانه ـ هو المسيح ابن مريم، فهم رغم إيمانهم بآلهة ثلاثة، إلا أن المسيح عندهم هو الله على الحقيقة، وهو كل شىء عندهم. ولذلك أخبر الله ـ تَعَالَى ـ عنهم أنهم يؤمنون بأن الله هو المسيح ابن مريم.. ثم فى الآية الثانية بيَّن الله ـ تَعَالَى ـ أن منزلة الله الحق ـ سبحانه وتعالى عما يشركون ـ عند هؤلاء هى آخر المنازل وأدناها وأضعفها منزلة، وأن الاثنين الآخرين مقدمان فى المنزلة والمرتبة عندهم ـ تَعَالَى الله عما يقول الظالمون ـ وهذا قول الله ـ عز وجل ـ :﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ﴾ .

أما أول الثلاثة عندهم فالمسيح ـ عليه السلام وبرأه الله مما قالوا ـ وأما ثانى الثلاثة فمن يسمونه الروح القدس.

٢ ـ كذلك من إلحاد النصارى فى ذات الله ـ سبحانه ـ اتخاذهم رهبانهم أربابا من دون الله، وقد ذكرنا قبل ذلك أن الله ـ تَعَالَى ـ قد جمع بين اليهود والنصارى فى ذلك حيث قال ـ سبحانه ـ عنهم:

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

فكما اتخذ اليهود أحبارهم أربابا من دون الله يشرعون لهم. كذلك اتخذ النصارى رهبانهم أربابًا من دون الله ـ سبحانه ـ يشرعون لهم، فيحلون ما حرَّم الله، كالشرك والتثليث إلحادًا فى ذات الله ـ تَعَالَى ـ وكأكل لحم الخنزير وهو محرم فى جميع الشرائع

٣ ـ كذلك من إلحادهم فى ذات الله ـ سبحانه ـ اعتقادهم ـ زورًا وكذبًا ـ أن المسيح الذى هو عندهم إله وابن إله قد قتل مصلوبًا وفاضت روحه على الصليب، ثم قام من الأموات بعد أن تم دفنه وقبره.

٤ ـ ومن إلحادهم الكثير الذى مرّ بنا بعضه فى ذات الله ـ سبحانه وتعالى عما يشركون ـ نستطيع أن نضع أيدينا على الكثير من إلحادهم فى صفات الله وأسمائه ـ سبحانه ـ.

ـ ويكفى أن نعطى مثالاً أو أكثر لإلحادهم فى صفات الله ـ تَعَالَى ـ وأسمائه.

٥ ـ فمن ذلك تسميتهم الله ـ سبحانه وتعالى عما يقولون ـ بالآب، أى "الأب".

٦ ـ ومن ذلك وصفهم الله ـ تَعَالَى عما يشركون ـ بأنه لا يعلم الأشياء قبل وقوعها، وبالتالى فهو ـ سبحانه ـ لم يقدرها، كما زعموا أنه ـ سبحانه ـ لم يكن يعلم ولم يقدر عصيان آدم ـ عليه السلام ـ له حين نهاه عن الأكل من الشجرة فأكل منها عاصيًا أمر ربه، لذلك تحيَّر الرب ـ سبحانه ـ كيف يتصرف مع آدم بعد أن عصاه؛ لأنه سبحانه ـ لم يكن يعلم بما سيقع منه من عصيان، ومن ثم فلم يقدِّر له التصرف المناسب.

٧ ـ ومن ذلك ما زعموا أنه ترتب على معصية آدم وأكله من الشجرة مع جهل الله ـ تعالى عما يقولون ـ من أنه ـ سبحانه ـ قد تحيَّر وعجز عن التصرف حيال هذه المعصية، أو كما يسمونها "الخطيئة" من آدم. وقد زعموا ـ أخزاهم الله ـ أنه ـ سبحانه ـ قد تحيَّر بين صفتين من صفاته وهما: "العدل والرحمة". فصفة "العدل" تقتضى أن يعاقب آدم على معصيته، وألا يعفو عنه، لكن ذلك يتناقض مع صفة "الرحمة" التى تقتضى أن يعفو عن آدم ويرحمه وألا يعاقبه. وهكذا وصل بهم السفه والحمق أن يزعموا: "**أن الرب تحير بين صفتى العدل والرحمة، فإن عاقب آدم على خطيئته فقد تحققت صفة العدل فكان إلهًا عادلاً لكنه غير رحيم، وإن عفا عنه فقد تحققت صفة الرحمة، فكان رحيمًا لكنه إله غير عادل، وهكذا ظل الإله عاجزًا عن التصرف فلا هو رحيم ولا هو عادل حتى توصل**

إلى حل لهذا الإشكال بأن ينزل ابنه ـ المسيح فى زعمهم ـ فيعاقبه بصلبه وموته. ثم يعفو عن آدم وبنيه، وبذلك يكون قد حقق العدل والرحمة معا".

هذا الغثاء التافه نص كلامهم الذى بَنَوْا عليه الأساس الأصيل لدينهم النصرانية. فهل ثمة إلحاد فى صفات الله ـ تَعَالَىَ ـ وأسمائه أسوأ من هذا؟!

٨ ـ ومن إلحادهم فى صفات الله عز وجل زعمهم أن الذى سيتولى حساب الناس على أعمالهم فى الآخرة إنما هو المسيح عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ مع أن هذه صفة الله ـ سبحانه ـ أنه المحاسب، ومن أسمائه الحسيب.

٩ ـ ومن إلحادهم فى ذات الله ـ تعالى ـ وصفاته وأسمائه؛ زعمهم أن العبادة بأنواعها صلاة وصيامًا وصدقة ودعاء واستعانة لا تكون إلا للمسيح عيسى ابن مريم الذى يزعمون أنه "الله الابن" ـ برأه الله مما قالوا ـ فقد زعموا أنه هو الذى ضحى بنفسه فداء لآدم وبنيه حيث قَبِلَ أن يصلب ويذوق عذاب الموت صبًا، فهو كبش الفداء والضحية، من أجل ذلك هو الذى يستحق منهم أن يعبدوه ويتوجهوا إليه بكل أنواع العبادة. وقد وضعوا لقبول العبادة والأعمال الصالحة عندهم شرطين: الأول: أن توجَّه العبارة بنية "الله الابن" ـ عياذًا بالله ـ تحديدًا، فلا توجه باسم الثلاثة، ولا باسم الاثنين الآخرين أو أحدهما. بل توجه العبادة والأعمال باسم "الله الابن". الثانى: أن يوقن صاحبها من قبولها ولا يشك، فإن شك فى قبولها بطلت. وهذا إلحاد ينتج عنه أنواع كثيرة، وهو إلحاد فى الذات والصفات والأسماء فالمعبود عندهم غير الله ـ سبحانه ـ والمستعان به غير الله ـ سبحانه ـ والمحاسب للناس غير الله ـ سبحانه ـ إلى غير ذلك من أنواع الإلحاد.

١٠ ـ ومن صور إلحادهم تحريفهم كتاب الله الإنجيل الذى أنزله ـ تَعَالَى ـ على المسيح عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ ونسيانهم الكثير مما أنزل الله عليهم ومما شرع ومما أمرهم ونهاهم. بل إنهم ضيعوا إنجيل المسيح ـ عليه السلام ـ وافتروا على الله ورسوله المسيح كتبًا أخرى وضعوها هم وزعموا أنها هى

الإنجيل، وأنها وحى من عند الله ـ تبارك وتعالى ـ وفى هذا افتراء على الله بكتب لم ينزلها، وكلام لم يقله، ووحى لم يوحه إلى رسوله المسيح عيسى ابن مريم، يقول الله عز وجل:

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

هذا بعض ما ورد عن إلحاد النصارى فى ذات الله ـ سبحانه ـ وصفاته وأسمائه ـ أما ما ورد فى كتبهم التى يسمونها "أناجيل" أو "رسائل" فشىء أكثر وأقبح وأفحش ـ إضافة إلى ما أشرنا إليه قبلا عند كلامنا عن إلحاد اليهود ـ مما ورد فى توراة اليهود المحرفة من إلحاد فى ذات الله وصفاته وأسمائه ورسله وكتبه، فإن ذلك يلزم النصارى ـ أيضًا ـ من حيث إن توراة اليهود المحرفة هى الكتاب المقدس الأول لدى النصارى، يتبعه الكتاب المقدس الثانى لديهم وهو الأناجيل والرسائل، ويسمون الأول "العهد القديم"، والثانى: "العهد الجديد". فهؤلاء قد جمعوا بين الخسّتين، ما ورد لدى اليهود فى توراتهم المحرفة، وما ورد لديهم هم فى أناجيلهم ورسائلهم. ـ سبحان الله وتعالى عما يشركون ـ.

أما عن المنتسبين إلى دين الله الحق الإسلام فهؤلاء صنفان.

الأول: صنف ينتسب إلى الإسلام وليس منه، لا هو من المسلمين، ولا هو من الإسلام فى شىء فنسبته إلى الإسلام باطلة. وهؤلاء أصناف كثيرة نشير إلى أهم أصنافهم وشىء من إلحادهم ـ بحول الله تعالى ـ.

الثانى: هم المسلمون المؤمنون، منهم أهل السنة والسلف، ومنهم المتكلمون، وهم فرقاء، جميعهم مسلمون ـ ولله الحمد والمنة ـ لكن الخلافات التى بينهم لا تخرج أيا منهم عن الإسلام، ولا يفسق بها فريق منهم عن الإيمان، ولا تنأى ببعضهم عن دين الله ـ سبحانه ـ فليس من بينهم ملحد بالمعنى الذى ذكرناه، وكلهم عن الإلحاد وقضاياه وصوره مبرءون بفضل الله ـ سبحانه ـ ومنّه.

أما الصنف الأول وهم المتسبون إلى الإسلام وليسوا منه فهم فرقاء كثيرون لا يكادون يحصون لكثرتهم، وذلك أمر طبعى، فما من طائفة منهم إلا ولها علتها وداؤها التى تشكو به ومنه، وما أكثر العلل والادواء التى يصيب بها الشيطان أولياءه. لذلك كثر أولياؤه بكثرة الأدواء والعلل وأسباب الضلال التى يُمدهم بها الشيطان، فَيَمُدُّهم الله فى طغيانهم يعمهون. لكنا نستطيع أن نسلك أهم هذه الطوائف الملحدة، والتى تنتسب إلى الإسلام رغم إلحادها فى خمس طوائف.

الأولى: طائفة الفلاسفة المتسبين إلى الإسلام والذين يطلق عليهم "الفلاسفة المسلمون" أو "الفلاسفة الإسلاميون".

وهؤلاء رءوس قليلة ـ والحمد لله ـ ولكن أذنابها وأتباعها كثيرون لا يكادون يحصون ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ ولعله من الخير أن نسارع إلى التنبيه إلى أن أذناب الفلاسفة المتسبين إلى الإسلام، وأتباعهم الذين يدينون بمذاهبهم فريقان:

١ ـ الأول من هؤلاء الأتباع سليمو النية، جاهلون بحقيقة مذاهب القوم، غافلون عن أسباب الضلال وأسس الكفر فى عقائدهم، فهؤلاء يحسنون الظن بالفلاسفة، مأخوذون فى ذلك بما أثر عن الفلاسفة، وما خلفوه من علوم فى فروع العلم المختلفة من فلك، ورياضيات، وطب، وموسيقى، وغير ذلك من معارف تضعهم فى القمة من العلماء الموسوعيين، لكن علومهم هذه لم تنفعهم فى الدنيا إذْ لم تهدهم إلى الدين الحق. ولن تنفعهم فى الآخرة، بل ستكون على أصحابها وبالاً، إذ هى حجة الله ـ تَعَالَى ـ عليهم، حيث أمدهم بالعلوم والمعارف، بعد أن زودهم بالذكاء وقوة الفهم، وبدلاً من أن يشكروا الله ـ تَعَالَى ـ على نعمه العظيمة هذه، استعملوها فى حرب الله ـ عز وجل ـ ونصبوها أسلحة ضلال وإضلال لهم ولمن شايعهم. ومن أجل ذلك أصبح شائعًا لدى هذا الفريق من المفتونين بالفلاسفة المتسبين إن أنت حدثتهم عن فساد معتقد هؤلاء الفلاسفة، أن تكون ردودهم منحصرة فى شدة ذكاءهم، وسعة علومهم، ودقة معارفهم، وسبقهم إلى كثير من علوم الفلسفة والفلك والطب

والرياضيات وغيرها، يقول قائلهم: كيف تكفر معتقد القوم وهم فخر الإسلام، وشرف المسلمين، وقد برزوا فى العلوم والمعارف حتى صاروا قدوة فى علومهم، وأذهلوا الأمم كلها حتى صارت الأمم تحسدنا عليهم. يقولون هذا ولم يسأل واحد منهم نفسه إذا كان الإيمان والإسلام إنما يقاس بالبراعة فى الفلسفة والفلك والموسيقى، أو يقاس بالالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ والسير على هدى الأئمة الأعلام من الصحابة والتابعين، وإذا ما كانت نجاة الإنسان فى الآخرة مترتبة على صلته بربه ـ سبحانه ـ واتباعه نبيَّه ﷺ والتزامه دين الله؟ أم أن ذلك مترتب على براعته فى الفلك والطب والفلسفة والموسيقى؟

٢ ـ الفريق الثانى من الذين يتبعون الفلاسفة المنتسبين، ويدينون بدينهم ليسوا بهذه السطحية والسذاجة التى يتسم بها الفريق الأول، ولكن هؤلاء يفهمون عقائد الفلاسفة فهما مفصلاً واضحًا. وقد اقتنعوا بعقائدهم هذه ومن ثم اعتنقوها، أو هم إذ لم يعتنقوها دينًا فقد رأوا القوم جديرين بها، ورأوا أن من حقهم باعتبارهم فلاسفة فى القمة من الذكاء والمعرفة أن يكون لهم فهمهم الخاص للدين وما يقوم عليه من رسل ورسالات ووحى وكتب.. إلى آخر ما يقوم عليه الدين، رأوا أن من حق الفلاسفة أن تكون لهم رؤيتهم الخاصة، وأن يكون ذلك مقبولاً منهم، وألا يكون عليهم من بأس فيما يعتقدون سواء عند الله ـ تَعَالَى ـ أو عند الناس.

وهذا الفريق يقوم على كثير من المثقفين، وبخاصة أساتذة الجامعات والدارسون فلسفة هؤلاء الفلاسفة. وطبعى أن نرى أن هؤلاء يوضعون ويصنفون مع الفلاسفة المنتسبين فى حزمة واحد، إذ هم فى واقع الأمر عصابة واحدة.

أما عقيدة الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام ففيها إلحاد فى ذات الله ـ سبحانه ـ وطبعى أن يكون فيها إلحاد فى صفاته وأسمائه ـ تَعَالَى الله عما يشركون ـ.

فهؤلاء الفلاسفة ـ ومن تابعهم ـ يزعمون أنهم يؤمنون بالله ـ سبحانه ـ ويؤمنون

بما جاء به خاتم رسله وأنبيائه محمد ﷺ. وهذا زعم باطل، يتضح كذبه وبطلانه حين نستعرض عقيدة الفلاسفة فى الإيمان بما يزعمونه إلهًا ومعبودًا لهم، ومقارنة ذلك بما جاء به الدين الحق الإسلام.

إن عقيدتهم فى الله ـ تَعَالَى الله عما يقولون ـ أنه ـ تَعَالَى ـ علة صدر عنها الوجود كله. فالوجود كله بسمائه وأرضه وما فيهما قد صدر عن الله ـ تَعَالَى ـ صدور المعلول عن علته، كما تصدر الحرارة عن النار، والضوء عن الشمس. وكما أن الحرارة تصدر عن النار، والضياء يصدر عن الشمس دون علم من النار أو الشمس، ودون إرادة ولا حكمة ولا إتقان ولا إبداع؛ فكذلك يزعم الفلاسفة أن الوجود كله صدر عن الله ـ تَعَالَى ـ دون علم منه ـ سبحانه ـ ولا إرادة ولا مشيئة ولا قدرة ولا حكمة ولا إتقان أو إبداع.

بل هم يزعمون ـ عليهم من الله ما يستحقون ـ أن الله ـ سبحانه ـ لا يدرى شيئًا عن هذا الوجود ولا يعلم عنه قليلاً ولا كثيرًا ولا يعلم إلا ذاته فقط، فهو ـ جل عما يقولون ـ منغلق على ذاته لا يعلم إلا هى، ولذلك عبَّروا عن هذه العقيدة بقولهم: "**إن الله عقل وعاقل ومعقول**". أى أنه عقل مجرد عن المادة والزمان والمكان، وعاقل، وإذا كان عقلاً عاقلاً فماذا يعقل؟ إنه لا يعقل إلا ذاته، وهذا معنى قولهم: "**ومعقول**".

وقد حاول بعض هؤلاء الفلاسفة أن يهوِّن من ضلال هذه العقيدة وكفرها فأعلن أن الله ـ سبحانه ـ فى عقيدتهم ليس يجهل كل شىء ولكنه يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، أو هو يعلم الجزئيات بعلم كلىّ، بمعنى أن إلههم يعلم أنه سيكون هناك بشر، وأن من بين البشر أنبياء ورسلاً، وأن من البشر مؤمنًا وكافرًا. ولكن من هم الأنبياء؟ ومن المؤمن والكافر من البشر؟ ومتى يبعث كل نبىّ؟ فهذه أمور جزئية لا علم لإلههم بها ـ جل الله عما يقولون ـ.

هذه عقيدة الفلاسفة فى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهذا إلحادهم فى ذاته ـ جل وعلا ـ وطبعى أن يكون ثمة إلحاد فى صفاته، كما ذكرنا أنهم ينكرون كونه ـ سبحانه ـ

خالقًا عالمًا حكيمًا قادرًا مريدًا حسيبًا محييًا مميتًا متكلمًا. لذلك فهم ملحدون بهذه الصفات، وفيما يشتق منها من أسماء، ويترتب كذلك على عقيدتهم أنه يكفرون بالوحى والكتب، لأن الله ـ تَعَالَى ـ عندهم ليس متكلمًا ولا منزلاً لكتب ولا مرسلاً لأنبياء، لأن عقيدتهم تقوم ـ كما ذكرنا ـ على أنه لا يعقل ولا يعلم إلا ذاته، ولا يعلم عن هذا الوجود شيئًا ـ سبحانه وتعالى عما يشركون ـ.

الثانية: من الطوائف المنتسبة إلى الإسلام وما هى منه: "المتصوفة المتفلسفة" أو: "فلاسفة المتصوفة".

والتصوف ـ كما هو معلوم ـ منازع كثيرة، وطوائف عديدة، منها ما هو فى إطار الإسلام، وأصحابه مسلمون.

منهم من هم وثيقوا الصلة بالإسلام.

ومنهم من هو من الإسلام على حرف.

ومن هذه الطوائف من صلته بالإسلام مقطوعة، ونسبته إليه باطلة، وهؤلاء هم المتصوفة الذين تأثروا بالفلسفات الوثنية فخاضوا فيها وآمنوا بها واستبدلوها بالإسلام، وأشهر هذه الفلسفات التى أخذوا عنها عقائدهم واستبدلوها بالدين الحق الفلسفات الهندية أو الهندوسية، والفلسفات النصرانية، ومن قبل ذلك البوذية وغيرها. كل هذه الفلسفات القائمة على الخلط بين الخالق والمخلوق، بين الرب والمربوب، بين العبد والمعبود، والتى اتخذت الحلول أحيانًا، والاتحاد أحيانًا دينًا وعقيدة ومنهج حياة. كل هذه الطوائف انقطعت صلاتها بالإسلام وإن انتسبت إليه. وسبب ذلك إلحادهم الواضح البيِّن فى ذات الله ـ تَعَالَى ـ وصفاته وأسمائه.

نشير هنا إلى طائفتين شهيرتين من طوائف المتصوفة المتفلسفة، ونقصد بهما:

١ ـ أصحاب وحدة الشهود.

٢ ـ أصحاب وحدة الوجود.

١ ـ أما الأولى فتقوم عقيدتها على أن الواحد منهم عن طريق الرياضات النفسية، والمجاهدات البدنية وتصفية النفس وتقويتها عن طريق البعد عن الشهوات،

يستطيع عن طريق ذلك ـ فيما يزعمون ـ أن يتصل بالله ـ عز وجل ـ اتصالاً مباشرًا، حيث ترتفع الحجب، وتنقشع السُّتُر والعوائق، وإذا الواحد منهم يجلس مع ربه مواجهة، ويراه مباشرة، يجالسه ويحادثه ويراه ويناقشه. وهذه الرؤية التى يسمونها "شهودًا" ليست منامية ولا تخييلية، بل هى ـ فيما يزعمون ـ فى غاية الوضوح، ولذلك يقع "الشهود" من العبد لربه كما يقع من الرب لعبده، على مستوى واحد.

فيرى العبد ربه ويشاهده كما يشاهد الرب عبده. لا فرق بين الشهودين. ولذلك سموها "وحدة الشهود".

وفى هذه العقيدة من الإلحاد فى ذات الله عز وجل، ثم فى صفاته وفى أسمائه ما لا يخفى، ومعارضتها ومناقضتها لدين الله الحق واضحة لا تحتاج إلى بيان.

٢ ـ وأما الطائفة الثانية من ملاحدة المتصوفة المتفلسفة؛ فتلك التى تقول بما يسمونه: "وحدة الوجود". وهذه الطائفة أسوأ طوائف الملاحدة بإطلاق. حيث يزعم هؤلاء أن الوجود كله ليس فيه إلا "الله" ـ سبحانه وتعالى ـ وأن الوجود كله عبارة عن ذات واحدة، هى ذات الله ـ تَعَالَىَ الله ـ ولكن هذه الذات تتلبس أشكالاً مختلفة، وتظهر بصور شتى، فالذات واحدة ولكن أشكالها وصورها كثيرة ومتعددة، فليس فى الوجود كله من جماد أو نبات أو حيوان أو إنسان إلا هو صورة للذات الإلهية ومظهر لها. فالكل فى الحقيقة ـ فى زعمهم ـ مظاهر للذات الإلهية، فالإله ـ عندهم ـ يظهر فى صور الجمادات، ويتخذ لنفسه صور الحيوانات والبشر. ومن هنا ذهبوا إلى ما أسموه **"وحدة الوجود"** وصار كل منهم يقول عن نفسه: **"إنه الله"**، وكان أحدهم يقول عن نفسه: **"سبحانى، ما أعظم شأنى"** وكان الآخر يدق على بطنه ويقول: **"ما فى الجُبَّة غير الله"**.

فهذه العقيدة أشد إلحادًا من اليهود والنصارى بل ومن المشركين والوثنيين، وينبنى على عقيدتهم تلك أنه لا فرق بين موسى وفرعون، ولا بين محمد ﷺ وأبى جهل وابن خلف، لأن الجميع عندهم مظاهر لله، وهم جميعًا صور للذات الإلهية ـ

سبحان الله وتعالى عما يصفون ..وإلحاد هؤلاء فى ذات الله ـ سبحانه ـ ثم فى صفاته وأسمائه لا يخفى.

الثالثة: من الطوائف الملحدة وتنتسب إلى الإسلام؛ طائفة "الدروز" أو أصحاب "الديانة الدرزية" ونسميها "ديانة" لأن أصحاب هذه الطائفة تنتسب إلى الإسلام ظاهرًا زورًا وبهتانًا وزيفًا، بينما معتقداتهم تجعلهم أبعد الناس عن الإسلام، بل هم أصحاب ديانة وضعية كالبوذية والهندوسية وغيرهما.

"والدرزية" تقوم على عبادة الأشخاص من دون الله رب العالمين ـ سبحانه وتعالى ـ وهم يؤمنون بـ "الحاكم بأمر الله" الخليفة الفاطمى؛ إلهًا واحدًا أحدًا لا شريك له ولا ولد.

والخليفة الفاطمى "الحاكم بأمر الله" اسمه: "أبو على المنصور بن العزيز بالله ابن المعز لدين الله الفاطمى" وقد كان من عادة الحكام الفاطميين أن يختاروا لأنفسهم ألقابًا بدلاً من أسمائهم.

وكانت أهمية الألقاب عندهم أن تؤكد للناس أن كل ما يفعلونه إنما هو بأمر الله ـ سبحانه ـ ووحى منه، ثم تؤكد كذلك تلك العصمة التى يدعونها لأنفسهم والتى هى من أهم دعائم الدعاوى الباطنية.

والدروز يعتقدون فى ألوهية الحاكم بأمر الله الفاطمى الذى ولد سنة خمس وسبعين وثلاث مائة للهجرة، ومات مقتولاً سنة إحدى عشرة وأربع مائة للهجرة، وقد كان مشوش الفكر، مريض العقل، شاذًا فى أفكاره وأفعاله، لكن الدروز يؤمنون به إلهًا واحدًا أحدًا، لا شريك له، ولا زوجة ولا ولد، فرد صمد، ويسمون أنفسهم: "الموحدون" بسبب توحيدهم لهذا الحاكم المجنون، وحينما قتل اعتقدوا نفس العقيدة التى يدين بها الباطنيون جميعًا، واعتقدوا أنه غاب عنهم، وأنه سيعود مرة أخرى ليثيب أتباعه ويعاقب الكافرين به، وأن عودته هى المسماة عند المسلمين "اليوم الآخر" و"القيامة".. إلى آخر هذه الضلالات. ورغم ذلك يسمون أنفسهم مسلمين، وينتسبون إلى الإسلام.

وإلحاد هذه الطائفة أظهر وأوضح من أن يوضح، كما أن إلحادهم فى ذات الله وصفاته وأسمائه مثل إلحاد المشركين الوثنيين أو أشد منه.

الرابعة: من الطوائف الملحدة التى تنتسب إلى الإسلام رغم إلحادها طائفة: "النصيريين".

"والنُّصَيْرِية" حركة باطنية غالية، ظهرت فى القرن الثالث الهجرى، أتباعها من الشيعة الغلاة. وعقيدتهم تقوم على أن "عَلِىّ بن أبى طالب" رضى الله عنه هو "الرب الخالق"، وأن "عَلِيًّا" الذى هو "الرب الخالق" قد أرسل محمدًا ﷺ رسولاً إلى الناس من قبَله، فمحمد ﷺ رسول عَلِىٍّ إلى الناس، ويعتقدون كذلك أن "عَلِيًّا" الرب الخالق يَحُل فى أئمتهم الواحد بعد الآخر، فكل أئمتهم ـ على هذه العقيدة ـ آلهة، لأن كل واحد منهم قد حل فيه الرب الخالق الذى هو "علىّ".

وعقيدة القوم ـ بنوعٍ من التفصيل يوضح إلحادهم ـ تقوم على الأمور الآتية:

١ ـ "علىٌّ" هو الرب الخالق، وقد خلق "محمدًا" ﷺ.

٢ ـ أن "محمدًا" قد خلق "سلمان الفارسى".

٣ ـ أن هؤلاء الثلاثة بهذا الترتيب هم مركز الوجود كله، وعليهم يدور الكون جميعه. ولذلك يجعلون من الحروف الأولى لأسمائهم الرمز المقدس عندهم. وهو "ع.م.س" أو: "عَمَسَ" الحرف الأول من "على ومحمد وسلمان".

٤ ـ أن "سلمان الفارسى" قد خلق ما يسمونهم "الأيتام الخمسة". وهم الملائكة الموكلون بالكون كله.

٥ ـ أن الأيتام الخمسة ووظائفهم:

أ ـ "المقداد بن الأسود" وهو خالق الناس جميعًا. فالخلق عندهم أربع درجات: علىٌّ خلق محمدًا، ومحمد خلق سلمان، وسلمان خلق المقداد والمقداد خلق الناس جميعًا.

ب ـ "أبو ذر الغفارى" اليتيم الثانى، وهو الموكل بالأفلاك السماوية.

جـ ـ "عبد الله بن رواحة" اليتيم الثالث. وهو الموكل بالرياح وقبض الأرواح.

د ـ "عثمان بن مظعون" اليتيم الرابع. وهو الموكل بالأجساد والمرض والشفاء.

هـ ـ "قنبر كادان" اليتيم الخامس. وهو مَوْلى علىّ بن أبى طالب، وهو الموكل بنفخ الأرواح.

هذه عقيدة "النصيريين" وواضح من عقائدهم أنهم من أشد الطوائف إلحادًا فى ذات الله ـ تَعَالَى ـ وصفاته، وأسمائه ـ سبحانه ـ وأن ما بينهم وبين الإسلام أبعد مما بين سماء الله وأرضه.

الخامسة: من الطوائف التى تنتسب إلى الإسلام رغم كونها ملحدة طائفة: "الإسماعيلية".

"والإسماعيلية" أصل لطوائف كثيرة تفرعت منها وانصدعت عنها. وهذه الطائفة الباطنية تنسب إلى رجل اسمه: "**إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب**" ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ .. "جعفر الصادق" هو الإمام السادس من أئمة الشيعة الاثنى عشرية. وقد كان من أبنائه "إسماعيل" و"موسى". أما الشيعة الاثنى عشرية فقد اختاروا "موسى" إمامًا لهم بعد أبيه "جعفر الصادق" رغم أن موسى هو الأصغر، وذلك لأمور صرفتهم عن إسماعيل رغم أنه الأكبر. لكن طائفة من الباطنية الغالية رفضوا إمامة موسى، واختاروا إسماعيل محتجين بأنه الأكبر. وهؤلاء هم الأساس فى فرقة الإسماعيلية وما تفرع عنها بعد ذلك من طوائف كلها باطنية غلاة.

وقد بدأ ظهور طائفة الإسماعيلية فى القرن الثالث الهجرى حول سنة ستين ومئتين، ثم تفرع عنها بعد ذلك الإسماعيلية القرامطة، والإسماعيلية الحشاشون، والإسماعيلية المستعلية، والنزارية، والأغاخانية، والبهرة، وغير ذلك، وكل هذه الطوائف يجمعها الاعتماد على الباطن، وحلول الإله فى أئمتهم، وسريان ذلك الحلول من الإمام الأول "إسماعيل" إلى كل إمام بعد ذلك.

ويهمنا هنا أن نبين إلحاد هذه الطوائف جميعها فى ذات الله ـ سبحانه ـ وصفاته وأسمائه، وذلك ببيان عقيدتهم.

وتقوم عقيدة الإسماعيلية على الإيمان بإلهين. الإله الأول أوجد الإله الثانى، والإله الثانى أوجد العالم كله بأرضه وسمائه، أما الأول فيسمونه "السابق". وأما الإله الثانى فيسمونه "التالى". فالوجود عندهم مربوب لإلهين: السابق والتالى، والسابق هو الأول الذى أوجد التالى، والتالى هو موجد الكون كله.

وهذه العقيدة توضح أصلهم، وتبين عن حقيقة أمرهم. وأنهم مجوس يدينون بما يدين به المجوس من إخضاع العالم كله لإلهين. كما يوضح حقدهم الشديد على الإسلام والمسلمين. وهم يعتقدون حلول الإله الثانى الذى يسمونه: "التالى" فى أئمتهم، فأئمتهم آلهة بحلول الإله فيهم. وهم يشرعون ما يشاءون.

وبحلول الإله فى أئمتهم أضحوا منكرين للرسل والرسالات والوحى والشرائع. لأنه ما دام أئمتهم آلهة أو حل فيهم الإله؛ فما حاجتهم إلى أنبياء ورسل ووحى وتشريع.

وطبعى أن هذه الطوائف جميعها تسقط شرائع الإسلام، وتكفر برسول الإسلام محمد ﷺ ويسقطون التكاليف، ويعنون أشد العناية بتشريع كل ما يخالف شرع الله الذى جاء به رسول الله . ونزل به الوحيان الشريفان: الكتاب والسنة.

هذه عقائد القوم فى ذات الله ـ سبحانه ـ وواضح إلحادهم الشديد فى ذات الله ـ سبحانه ـ وصفاته وأسمائه، وواضح ـ كذلك ـ أن صلتهم بالإسلام الذى ينتسبون إليه صلة باطلة، وعلاقة فاسدة ودعوة زائفة.

* * *

القسم الثالث

مذاهب فكرية تحولت إلى نظم سياسية واتجاهات عملية

المبحث الأول

الشيوعية الماركسية

الشيوعية اتجاه فكرى فلسفى قديم، لم يخترعه شيوعيو العصر الحديث، ولم يكونوا أول الواضعين إياه، أو الداعين إليه؛ لأن له جذورًا تضرب فى عمق التاريخ الفكرى للإنسان.

ولسنا ندرى متى كانت أول حركة شيوعية لدى المجتمعات البشرية القديمة؟ ولا أين كانت؟ لكنا نعرف أن أول نظام شيوعى سجله تاريخ الفكر الإنسانى كان لدى اليونان، حينها وضع الفيلسوف اليونانى "أفلاطون" تصوره عن نظام شيوعى يمكن تطبيقه فى المجتمع اليونانى. ونحن نعرف كذلك أنه فشل فشلاً ذريعًا فى تطبيق نظامه هذا حين أتيح له تطبيقه.

ثم تـوالت بعد ذلك الدعوات إلى نظام شيوعى على أيدى الكثير من المفكرين فى المشرق وفى المغرب على سواء. بعض هذه الدعوات لم يتعد طور الفكرة والتصور، بينها بعضها الآخر تخطى هذه المرحلة إلى مرحلة التطبيق الفعلى، وبعضها عمَّر سنين طويلة، لكن كان مآل جميع تلك الحركات الشيوعية الفشل الذريع، والرفض التام والقوى من كل مجتمع طبقت فيه، أو حتى دعى إلى تطبيقها فيه مجرد دعوة.

ولقد كان ظهور الفكر الشيوعى والدعوة إليه يرتبطان ارتباطًا وثيقًا بشكل النظام الاجتماعى، ومدى ما يشيع فى ذلك النظام من عدل اجتماعى أوظلم. فالملاحظ أن المجتمع الإنسانى إذا شاع فيه العدل الاجتماعى وشعر الناس فيه بالمساواة، وحصل كل إنسان فيه على حقوقه المشروعة؛ فإن الأمان والرضا يشملان هذه المجتمعات، ولا يسمع فيها صوت يدعو إلى الشيوعية.

أما إذا قام المجتمع الإنسانى على الظلم والقهر، واتسعت الفوارق الاجتماعية والاقتصادية بين طوائفه، واستولى بعض طوائفه على كل شىء، وحرم الآخرون

حقوقهم المشروعة؛ فإن المجتمع آنذاك يعيش حالة من عدم الاستقرار، يفقد فيها الناس الأمن والأمان، ويشعرون بالقهر وهم يرون الآخرين ينعمون بأموالهم وأرضهم التى سلبوهم إياها، واستولوا عليها ظلمًا وعدوانًا، حينذاك يعمل الحقد، الحسد، والضغينة عملها فى القلوب والنفوس، ويستشرف المظلومون إلى الحصول على حقوقهم التى فى أيدى الظالمين، ويتمنون أن يحصلوا عليها، بل وأن يحصلوا على حقوق الأقوياء الظالمين؛ ليذيقوهم من الظلم مثل ما أذاقوهم. فى مثل هذه المجتمعات قد تظهر الدعوات إلى الشيوعية، ليس لأن الشيوعية مظهر من مظاهر النظم السوية للمجتمعات البشرية، بل لأن المجتمعات التى تقوم على الظلم والقهر فقدت السمة الإنسانية التى يتميز بها مجتمع الإنسان، وبذلك كانت مباءة لظهور الأفكار المنحرفة، والاتجاهات الضالة، كالدعوات الشيوعية، وذلك كرد فعل للظلم والقهر اللذين يغشيان تلك المجتمعات.

الدعوة إلى الشيوعية ـ إذن ـ ليست دعوة إنسانية سوية، ولكنها تنشأ باعتبارها ردود أفعال للظروف غير الإنسانية التى تعيشها بعض المجتمعات التى يسود فيها الظلم الاجتماعى، والقهر الطبقى.

ليست القضية ـ إذن ـ قضية فقر وغنى، وليست كذلك قضية طبقات فى المجتمع بعضها غنى وبعضها فقير، كذلك فإنها لا تكمن فى شدة غنى البعض، وشدة الفقر عند الآخرين، فإن المجتمعات البشرية بطبيعتها فيها طبقات وفئات، وفيها فقراء شديدو الفقر، وفيها أغنياء واسعو الغنى، وما دام الأغنياء قد اكتسبوا أموالهم من وجوهها المشروعة، ولم يسلبوها من الفقراء، وما دام الفقر لم يلحق الفقراء بسبب ظلم من الأغنياء وقع عليهم، وما دام الأغنياء لم يمنعوا حقوق الفقراء فى أموالهم من زكاة، وصدقات، وتكافل. فليس ثمة حرج فى أن يكون المجتمع مشتملاً على الأغنياء شديدى الغنى والفقراء كذلك، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو مقسم المعايش، وهو ـ عز وجل ـ موزع الأرزاق، وهو القائل ـ سبحانه ـ:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

ولقد كان رسول الله ﷺ من قلة المال بحيث يأتى عليه الصباح فيسأل عن الطعام فلا يجد، فينوى الصيام لله رب العالمين، وكان يمر به ﷺ الهلال ثم الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهله فى أكثر من شهرين لا يوقد فى أبيات أزواجه نار، يعيشون على الأسودين: الماء والتمر مع ما يأتيهم من هدايا الطعام من أبيات بعض المسلمين.. ولم يَدْعُ رسول الله ﷺ إلى الشيوعية، ولم يَدْعُ إلى ذلك واحد من أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ ولم يدع إلى ذلك النظام الفاسد من المسلمين أحد صادق فى إسلامه، مخلص فى إيمانه.

الدعوة إلى الشيوعية ـ إذن ـ لم تأت فى مجتمع سوى، ولم تصدر عن أناس أسوياء، فالمجتمع الذى تصدر منه هذه الدعوة مجتمع غير سوى، بلغ فيه الظلم الاجتماعى حدًّا فاحشًا، والذين دعوا إلى هذا الفساد أفراد فقدوا الرؤية الصحيحة، وضلوا عن سواء السبيل، فلم يسعوا إلى الحصول على حقوقهم عبر سبل مشروعة يقبلها العقل، ولا تأباها الفطرة، لكنهم بدلاً من أن يسعوا للحصول على حقوقهم أرادوا أن يسلبوا حقوق المجتمع كله، وبدلاً من أن يدفعوا الظلم عن أنفسهم نصبوا أنفسهم عتاة ظالمين، وبدلاً من أن يعيدوا إلى ميزان العدالة اعتداله وسواءه حطموا الميزان، وذبحوا العدالة، وحوّلوا المجتمعات الإنسانية إلى أفحش من غاب الوحوش بهذه الدعوة غير الإنسانية، الدعوة إلى الشيوعية.

يبين لنا من ذلك أن الدعوة الشيوعية حين تظهر فى مجتمع ما فإنها تنم عن حالة مرضية شديدة يمر بها هذا المجتمع، أصابت المجتمع، وأصابت أفراده أو فريقًا من أفراده. وهكذا كانت جميع المجتمعات التى ظهرت فيها هذه الدعوة الفاسدة المفسدة.

يظهر لنا هذا، ويتضح جليًا من خلال النظر فى المجتمعات أو البيئات التى صدرت عنها الدعوة إلى الشيوعية، والتى سوف ننظر فى أحوالها من خلال الحديث عن "جذور الشيوعية عبر التاريخ".

* * *

الشيوعية عبر التاريخ

أشرنا فيما سبق إلى أن الفكر الشيوعي، والدعوة إليه، ومحاولة تطبيقه ليس أمرًا حديثًا، بل يضرب بجذوره فى عمق التاريخ، وعلى الصفحات التالية سوف نشير إلى أشهر الحركات الشيوعية، والذين قاموا بها.

١ ـ الشيوعية لدى اليونان.

إن أول من عُرِفَ فى تاريخ الفكر داعية إلى الشيوعية، ومنظرًا لها هو الفيلسوف اليونانى "أفلاطون –٤٢٧ ق.م".. وقد أقام شيوعيته على أسس أهمها:

أ ـ القضاء على الملكية الفردية، وشيوعية الملكية للجميع.

ب ـ شيوعية النساء والرجال. فكل النساء لكل الرجال، وكل الرجال لكل النساء. فلا يختص رجل بامرأة، ولا تختص امرأة برجل.

جـ ـ شيوعية الأولاد. فلا يعرف رجل ولده، ولا يعرف ولد أباه، ولا امرأة ولدها، وكذلك بالنسبة للأم، وإنما يقطف الأولاد ويُجمعون فى معسكرات تعتبر هى المراضع العامة. ويؤتى بالمرضعات ليرضعن الجميع دون أن تعرف المرأة الولد الذى ترضعه إن كان لها أو لغيرها.

د ـ القضاء على الأسرة. وذلك واضح من الأسس السابقة، فإذا كان الرجل لا يرتبط بامرأة ولا يعرف له ولدًا، وكذلك المرأة لا ترتبط برجل ولا تعرف لها ولدًا، فقد انتفى وجود الأسرة وتلاشى، لأنها إنما تقوم على رجل وامرأة مرتبطين، وولد ينشأ عنهما.

هـ ـ قصر هذا النظام على بعض طوائف الدولة دون البعض. فلم يضع أفلاطون نظامه هذا لكل طوائف الدولة، بل قصره على طائفتين فقط، وهما طائفة الحكام وطائفة الجند. لأنهما فى نظره الطائفتان اللتان تقوم عليهما عمد الدولة، وهما

أ ـ أن "مزدك" كان رجل دين، فاتخذت تلك التعاليم الصبغة الدينية، وحلت من الناس محل العقائد التى يدافعون عنها ويقاتلون من أجلها.

ب ـ أن دعوته اتخذت من بدايتها طابع الإصلاح الاجتماعى، وإشاعة الألفة والمحبة بين الناس على مختلف طبقاتهم، فتمكنت من نفوس الناس فى البداية، وحين ظهر فسادها، واتضحت مثالبها، وفضائحها، وقبائحها، كانت قد تمكنت من نفوس الغاغة والدهماء ممن وجدوا فيها ضالتهم لإشباع شهواتهم، وإرواء نزواتهم، فكان من الصعب ردعهم والضرب على أيديهم.

جـ ـ أن المجتمع الفارسى فى ذلك الزمان كان مجتمعًا ينتشر فيه الظلم والبغى، فكانت عامة الشعب مقهورة محرومة، وما أن فُتِحَ لهم هذا الباب ـ باب الشيوعية فى النساء والأموال ـ حتى اندفعوا كما يندفع السيل؛ حيث وجدوا فى تلك الدعوة المنقذ لهم من الحرمان والقهر، فانطلقوا فى المجتمع كما تنطلق الحيوانات المسعورة، يشبعون شهواتهم من حرمات الآخرين وأموالهم.

وقد شاع الفساد والدمار، وعمت الفوضى، وانتشرت الاضطرابات فى كافة أنحاء البلاد الفارسية بسبب هذه الدعوى، حتى تحول المجتمع الذى زعم "مزدك" أنه سيكون ـ بدعوته الشيوعية ـ مجتمع إخاء، ومحبة، وأمن، وسلام إلى ما يشبه ساحات القتال، وكان الغوغاء والدهماء يلجون على الرجل بيته فيغلبونه على زوجه، وبناته، وأمواله، وداره، ويطردونه خارجًا، لا يملك أن يمتنع منهم. وكانت هذه الأحداث هى الثمرة الطبعية لهذا النظام الفاسد الذى يربأ الحيوان بنفسه أن يعيش فى ظله.

٣ ـ الشيوعية لدى القرامطة الباطنية

وهم ينتسبون لرجل يسمى "حمدان قرمط"، وقد ادعوا ابتداء أنهم من شيعة آل بيت النبى ﷺ وأنهم محبون لهم مدافعون عن حقوقهم، وكان هذا الادعاء ستارًا يعملون من خلفه؛ ليصلوا إلى أغراضهم من هدم الدين، وإطلاق الشهوات، واستحلال الحرمات، يضاف إلى ذلك ستار آخر عملوا من ورائه على هدم الشرائع

وإفساد العقيدة، ذلك الستار الثانى هو "الباطنية"، ودعوى "الباطن" كانت دومًا وراء كل الدعوات والحركات التى تأذى بها المسلمون، وحرف بها الإسلام، وقد ذهب العلماء إلى أن الباطنية ترجع إلى أصول من الكفر ومقت الإسلام والمسلمين. وأهم أصول الكفر التى ترجع إليها الباطنية أصلان: المجوسية، والصابئية، وقد كان زعيم الباطنية الأول فى زمنه "ميمون بن ديصان" مجوسيًّا يدعو الناس إلى ترك الإسلام واللحاق بالمجوسية، وكذلك كان ابنه "عبد الله بن ميمون"، أما "حمدان قرمط" فقد كان صابئيًّا من الصابئة الحرانية.

وعقائد الباطنية تقوم على أن للشرع ظاهرًا وباطنًا، فمن عمل بتأويل الشرع الباطنى فهو من الملائكة البررة، ومن عمل بالظاهر فهو من الشياطين الكفرة. وقد تأوَّلوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلاً يبطله ويخرجه عن حقيقته إلى غرض من أغراضهم الخبيثة، فزعموا أن معنى الصلاة: موالاة إمامهم، ومعنى الحج: زيارة الإمام والعكوف على خدمته، ومعنى الصوم: الإمساك عن إفشاء سر الإمام، وأن الزنى عندهم معناه: إفشاء سر الإمام بغير عهد وميثاق. إلى غير ذلك من مفاسد الباطنية وخبائثهم التى حرفوا بها الدين وآذوا المسلمين، وحاربوا الله ورسوله.

وقد كان من هؤلاء الباطنية الأخباث داعية القرامطة ومؤسس نحلهم "حمدان قرمط" الذى تخفى وراء ادعاء حب آل البيت والتشيع لهم ـ رضوان الله عليهم ـ ثم بدأ يبث سمومه التى انتشرت على يديه وأيدى الدعاة الذين خلفوه على أهدافه الخبيثة.

وقد كانت دعوة القرامطة تقوم على:

أ ـ شيوعية النساء والرجال، فلا يختص رجل بامرأة، ولا امرأة برجل.

ب ـ شيوعية الأموال، وذلك بأن يجمعوا أموالهم كلها فى مكان واحد، ثم يصيرون فيها شركاء، لا يختص أحدهم بشيء منها دون الآخرين.

جـ ـ استحلال المحارم؛ حيث أحلوا الأمهات، والأخوات، والبنات، وجعلوا ذلك من الفضائل، وكمال الإيمان، وصدق الإخلاص للدعوة وصاحبها.

د ـ الإغراق فى قتل الغيرة، والقضاء على كل أثر للأنفة والرجولة، بل والإنسانية؛ وذلك بأن يقف الرجل ينظر الأجنبى ويحرسه وهو يعاشر زوجه، دون أن يحس بالغيرة، وأن ذلك من كمال الإيمان والإخلاص.

ومن تشريعات "حمدان قرمط" ـ لعنه الله ـ ما سماه "الألفة"؛ وذلك بأن يجمعوا كل أموالهم فى مكان واحد ثم يكونوا فيها شركاء، فهذه شيوعية المال، وقد سماها: الألفة. لكن هناك ما هو أدل من ذلك على صحة الود والألفة، وذلك بأن يجتمع الرجال والنساء جميعًا فى مكان واحد، ثم يختلط الجميع، ويعاشر كل رجل امرأة أو أكثر، وكذلك يفعل النساء، شريطة ألا يجتمع رجل مع زوجه، ولا امرأة مع زوجها، وقد زعم "قرمط" ـ أخزاه الله ـ أن ذلك هو صدق الود والألفة.

ومن تشريعاتهم وجود جماعة هم أكمل الناس إيمانًا وأخلصهم للدعوة والداعى، وهذه الجماعة تسمى "الصابرة"، ولا يكون الرجل من الصابرة حتى يرتضى "التشريق" ويزاوله. و"التشريق" عندهم: أن يدعو رجل رجلاً أجنبيًا فيدخله على زوجه، ويسمح له بأن يجامعها، ويقف يحرسه وهو على هذه الحال، حتى إذا انتهى الأجنبى من معاشرة المرأة قام فبصق فى وجه الزوج وصفعه على خدّه وقفاه، وقال له: تصبَّر، فإن تصبر وفرح بذلك الذى حدث كله، كان قد حقق "التشريق"، وصار من تلك الفئة الممتازة: "الصابرة".

ومن تشريعاتهم ـ أخزاهم الله ـ حل البنات والأخوات، ومن أقوال: عبيد الله بن الحسين القيروانى: "وما العجب من شىء كالعجب من رجل يدعى العقل، ثم يكون له أخت أو بنت حسناء، ليست له زوجة فى حسنها، فيحرِّمها على نفسه وينكحها من أجنبى، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبى".

ومن تشريعاتهم ـ أخزاهم الله ـ أن الابن أحق بأمه من الغريب؛ فإذا مات الأب كان على الابن واجب إشباع شهوة أمه، وذلك من البر بها.. وهذه الفضيحة وغيرها دليل على الصلة الوثيقة بين هذه الطغمة الفاسدة، والدعوة التى أتى بها

"مزدك" التى أشرنا إليها قبلاً، وأن هذه الدعوة وتلك إنما تصدران عن غاية واحدة، وهدف محدد، هو القضاء على الإسلام والكيد للمسلمين وأنهم كانوا يوارون هذا الهدف، ويورّون عن تلك الغاية فى بدايات أمرهم، حتى إذا تمكن أمرهم أفصحوا وأباتوا عن مكنونات صدورهم. وقد قال شاعرهم معربًا عن أهدافهم ومخازيهم:

خذى الدفّ يا هذه والْعَبِى ... وبُثِّى فضائل هذا النبى
تولى نبى بنى هاشم ... وجاء نبى بنى يعرب
فما نبتغى السعى عند الصفا ... ولا زورة القبر فى يثرب
إذا القوم صلوا فلا تنهضى ... وإذا صاموا فكلى واشربى
ولا تمنعى نفسك الراغبين ... من الأقربين ومن أجنبى
فكيف حللت لذاك الغريب ... وصرت محرمة للأب
أليس الغراس لمن غرس ... ورواه فى عمره الأجدب
وما الخمر إلا كماء السماء ... طلق فَقُدِّسْتِ من مذهب

* * *

٤ ـ الدعوات الشيوعية لدى الغرب المعاصر

ظهر فى أوربا منذ عصر النهضة دعوات شيوعية كثيرة لا تكاد تحصى وقد تميزت هذه الدعوات فى جملتها بالآتى:

أ ـ أنها غير ناضجة، بمعنى أن الكثرة منها كانت تعبيرًا عن النقمة على النظام الرأسمالى، والظلم الاجتماعى الذى كان سمة المجتمعات الأوربية فى ذلك الزمان، إضافة إلى النقمة على الكنيسة والدين النصرانى لرضاها بذلك الظلم، بل ومشاركتها فيه. ولم تكن هذه الدعوات تشتمل على نظام متكامل تدعو إليه بل كانت لب دعواتها هدم الأنظمة القائمة وإسقاطها.

ب ـ كانت هذه الدعوات فى جملتها تصورات خيالية بعيدة عن الواقع، يصعب أو

يستحيل تطبيقها على أرض الواقع. ومن هنا جاء تسميته تلك الدعوات بالدعوات: "الطوباوية" أى الخيالية، نسبة إلى المدن المثالية، أو التفكير الخيالى الذى يعبر عنه باليوتوبيا.

جـ ـ لم يتعد شأن هذه الدعوات حد الدعوة إليها شفاهة، أو وضعها فى كتب لا يقرؤها إلا قلة من المثقفين فى ذلك الزمان لا يستثنى من ذلك سوى قلة نادرة من تلك الدعوات؛ مثل: الحركة التى قام بها: "فرانسوا إميل بابيف ١٧٦٠ – ١٧٩٧م"؛ حيث دعا إلى النظام الشيوعى، ثم أنشأ مجلة سماها: "منبر الأمة"، وكان يدعو فيها إلى أفكاره، ثم أنشأ جمعية تضم معه كل الذين يشاركونه نفس الأفكار والأهداف، أسماها: "جمعية المتساوين أو الأكفاء"، ثم فى نهاية الأمر قام هو ومن يشايعه بمحاولة للقضاء على السلطة الحاكمة وفَرْضِ شيوعيته بالقوة، لكنه قبض عليه، وحكم عليه بالإعدام.

ولكثرة هؤلاء الخياليين أو "الطوباويين" فإننا لن نقف عند أحد منهم، بل نكتفى بذكر أسمائهم سردًا، أو أسماء أشهرهم فيما يلى:

أ ـ توماس مور "١٤٧٥ – ١٥٣٧م".

الذى كانت له منزلة كبيرة لدى المفكرين الشيوعيين، وقد ذهب بعضهم إلى أن "الفكر الاشتراكى" إنما بلغ أوجه على يد "توماس مور" الذى حلم بإقامة "ملكوت الرب" على الأرض، وكان يتصور ذلك الملكوت مجتمعًا بلا فوارق ولا ملكيات خاصة، ولا حكام... وقد كان "توماس مور" من رجال اللاهوت الكنسى المتعصبين للكاثوليكية ضد المذاهب النصرانية الأخرى.

ب ـ جان جاك روسو "١٧١٢ – ١٧٧٨م".

وهو من مشاهير الفلاسفة الفرنسيين الذين يوصفون بالاشتراكيين، وكان يدعو إلى ما أسماه الحرية، والأخوة، والمساواة، وكان يرى أن الملكية الفردية هى رأس الأسباب التى تؤدى إلى الظلم الاجتماعى وإشاعة العداوات والخلافات فى المجتمعات، وللخلاص من كل ذلك يجب القضاء على الملكيات الخاصة التى هى

من صنع الإنسان، والتى زعم "روسو" أنها تناقض الطبيعة وتفسد العلاقات بين أفراد المجتمع.

جـ ـ فرانسوا إميل بابيف "١٧٦٠ – ١٧٩٧م".

وقد سبق أن تحدثنا عنه، وقلنا: أنه من دون هؤلاء جميعًا حاول أن يطبق نظامه الشيوعى بالقوة، ولكنه قبض عليه وأعدم.

د ـ سان سيمون "١٧٦٠ – ١٨٢٥م"

مفكر اشتراكى فرنسى، وأديب شهير، ترك ثروة أدبية كبيرة، معظمها نقد للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى فرنسا، ولكنه كان معتدل الفكر نسبيًّا إذا قورن بالمفكرين الشيوعيين الآخرين؛ فإنه رغم دعوته إلى قيام الملكية العامة للصناعات، قد أقر بالملكيات الخاصة، وحق الأفراد فيما يملكون.

هـ ـ شارل فورييه "١٧٧٢ – ١٨٣٧م".

مفكر، ورياضى، وفيلسوف فرنسى، انتقد المجتمعات الأوربية، وبخاصة المجتمع الفرنسى، وكان يندد بالظلم الواقع على طبقة العمال، واستغلال أصحاب رءوس الأموال لهم، ودعا إلى مجتمع تزول فيه الفوارق بين الطبقات، وينتهى فيه ظلم الأغنياء للفقراء.

و ـ روبرت أوين "١٧٧١ – ١٨٥٨م".

مفكر وفيلسوف إنجيلزى شهير، كان من أصحاب المصانع الرأسماليين، لكنه تأثر بظروف العمال التى لمسها بنفسه من خلال عمال النسيج فى مصنعه، والذين كانوا يعانون الفقر، والمرض، والضعف، فَرَقَّ لحالهم، ورفع أجورهم، وبنى لهم مساكن، وأدخل أولادهم المدارس، ثم التفت يدافع عن حقوق العمال فى كل البلاد الرأسمالية وبخاصة فى بريطانيا، ورغم أن "أوين" رأسمالى، يملك مصانع للنسيج بها مئات العمال، إلا أنه نادى بإلغاء الملكية الخاصة.

وقد أقام شيوعيته على أساس القضاء على أمور ثلاثة أطلق عليها اسم: "مثلث

المصائب". وقصد به، الدين، والملكية الخاصة، والزواج الشرعى المرتبط بالكنيسة، وما فيه من قيود وضوابط.

هؤلاء المفكرون الشيوعيون ـ رغم التفاوت فيما بينهم ـ كانوا هم الممهدين لظهور الماركسية الشيوعية، وهم الذين حملوا كِبْر هذا الجرم الفادح فى حق الدين، والأخلاق، والمجتمع الإنسانى بصورة عامة.

لكن الثلاثة الأخيرين، وهم "سان سيمون، وشارل فورييه، وروبرت أوين" يقع عليهم الوزر الأكبر؛ إذ هم المعلمون المباشرون الذين أخذ عنهم "ماركس" مبادىء جريمته، وخطط شيوعيته، كما قرر هو ذلك فى مناسبات كثيرة، وكما قال زميله فى الجرم "إنجلز": "إن الاشتراكية النظرية لن تنسى قط أنها قامت على أكتاف سان سيمون وفورية وأوين، ثلاثة رجال يقفون بين أعظم المفكرين فى كل العصور".



مبادىء الشيوعية وأسسها

للشيوعية مبادىء أساسية بنيت عليها، وانطلقت منها، وهذه المبادىء والأسس تحتل عند الشيوعيين منزلة اليقين الذى لا يقبلون فيه مساومة، ولا عنه حيادًا، بل إن هذه المبادىء أضحت لديهم من المسلمات التى لا تقبل البحث، وليست محلاً للمناقشة. وبعض هذه المبادىء يمثل فى نفس الوقت هدفًا أصيلاً من أهداف الشيوعية، وعلى سبيل المثال، من مبادئهم الأساسية: أن الدين خرافة، وأنه من اختراع الإنسان، وأنه لا إله، والكون مادة. وهذا يمثل فى نفس الوقت هدفًا أصيلاً من أهدافهم، وهو القضاء على الدين فى نفوس الشعوب، وإخلاء الحياة منه تمامًا. وهكذا نجد بعض القضايا الأساسية فى الشيوعية تمثل مبدأً وهدفًا فى نفس الوقت، وسوف نشير إلى ذلك منبهين عند الحديث عن هذا النوع من القضايا.

ومبادىء الشيوعية الأساسية تتمثل فى الآتى:

١ ـ فى مجال الدين: لا إله والدين خرافة.

٢ ـ فى مجال الوجود: الكون مادة والمادة سابقة فى الوجود على الفكر.

٣ ـ فى مجال الطبيعة: المادة أصل الوجود ولها قوانينها.

٤ ـ فى فلسفة التاريخ: التفسير المادى للتاريخ.

٥ ـ فى المجال الاقتصادى: نظرية فائض القيمة، وإلغاء الملكية الفردية.

٦ ـ فى المجال الاجتماعى والسياسى: الصراع بين الطبقات، وديكتاتورية العمال "البروليتاريا".

هذه هى أهم مبادؤهم التى يؤمنون بها، والتى سعوا إلى تطبيق الشيوعية انطلاقًا

منها، وسوف نتكلم عن كل منها بما يوضحه ـ بإيجاز ـ يتناسب مع مستوى البحث الذى نحن بصدده.

١ ـ فى مجال الدين: لا إله والدين خرافة.

إن هذا المبدأ الفاسد من مبادئهم يمثل حجر الزاوية فى مذهبهم، وفى نظرتهم إلى الحياة والأحياء، بل إلى الكون بصورة عامة، وهم يعتقدون أن الدين خرافة، وأنه وهم من أوهام الإنسان ومن اخترعه، وفى هذا يقولون قولتهم المعروفة: "إن الله لم يخلق الإنسان، ولكن الإنسان هو الذى خلق الله"، ويقصدون بذلك أن الله لا وجود له، وأنه من اختراع الإنسان ـ تَعَالَى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا ـ وفى ذلك يقول ماركس: "ليس صحيحًا أن الله هو الذى ينظم الأكوان، وإنما الصحيح أن الله فكرة خرافية اختلقها الإنسان، ليبرر عجزه عن فهم الكون، ولذلك فإن كل إنسان يدافع عن فكرة الله هو إنسان جاهل وعاجز".

ويقول "لينين": "إن الإله مهما بلغ الذروة فهو أكذوبة يتذرع بها الطغاة الرأسماليون، ونحن لسنا ملاحدة فحسب، بل نحن ملاحدة مجاهدون، لا نكتفى ببذر الأفكار، بل لابد أن نشعلها ثورة بين الطبقات حتى نصل إلى القضاء على فكرة الدين نهائيًّا".

هذه بعض أقوالهم ـ لعنهم الله ـ التى تعبر عن موقفهم من الدين.

وفى تفسير وجود الدين لهم آراء كثيرة؛ أهمها ثلاثة:

أ ـ أن الدين قد اخترعه الإنسان فى بداية وجوده على هذه الأرض؛ ليبرر به ما يراه من مظاهر وظواهر الطبيعة التى لا يفهمها، ولم يكن يعرف لها تفسيرًا، كالبرق، والرعد، والعواصف، وما إلى ذلك، فإنه لما لم يفهم لها تفسيرًا علميًّا أسندها إلى قوة عليا هى التى تسببها وتسيطر عليها، ومن ثم ظهرت فكرة الإله.

ب ـ أن الدين قد اخترعه السادة والإقطاعيون؛ كى يتحكموا عن طريقه فى الأَرِقَّاءِ والأُجَرَاءِ، ويخضعوهم لسيطرتهم، ويضمنوا استسلام هؤلاء وإذعانهم للظلم

الواقع عليهم؛ أملاً فى عالم آخر، وحياة ثانية ينالون فيها نعيمًا مقيمًا، تعويضًا عما لاقوه فى تلك الحياة من مظالم قبلوها ورضوا بها.

جـ ـ أن الدين من اختراع الضعفاء، والأجراء، والمظلومين؛ كى يخففوا عن أنفسهم من قسوة الحياة، وظلم السادة. فأوهموا أنفسهم بوجود إله سوف ينتقم لهم، ويعوضهم عن هذه القسوة والظلم الذى يعيشونه فى حياة أخرى، فالدين على ذلك هو من خداع النفس وأوهام الشعور.

وقد أشار ماركس إلى الرأى الأول فى النص الذى نقلناه عنه، كما أشار لنين فى النص الذى نقلناه عنه إلى الرأى الثانى.

وهذه المزاعم التى زعموها بالنسبة للدين واضحة البطلان، ومصادمة للفطرة، وهى لا تدل على شىء بقدر ما تدل على ما أصاب نفوس هؤلاء الشيوعيين من مسخ وتشويه، وما لحق بفطرهم من فساد، وضلال، وانحراف، ذلكم أن دين الله ـ تَعَالَى ـ فطرة فطر الله الناس عليها، وأن التدين غريزة، وصبغة، وحاجة من حاجات الإنسان الأساسية التى لا يستطيع أن يعيش إلا بها، ولذلك كانت الآثار الدينية هى القاسم المشترك لدى جميع شعوب الأرض دون استثناء، يستوى فى ذلك الشعوب المغرقة فى البدائية، والشعوب الضاربة فى الحضارة والرقى، ومن بين هؤلاء وأولئك لا يستثنى من هذه القاعدة إلا من مسخ الشيطان فطرهم، فأحالهم أضل من الأنعام؛ نعنى: الشيوعيين ومن كان على شاكلتهم، ولنا فى الرد على مزاعم الشيوعيين فى هذا المبدإ وقفة أخرى عند الحديث على أهدافهم التى منها القضاء على الدين.

٢ ـ فى مجال الوجود: الكون مادة والمادة سابقة فى الوجود على الفكر.

والشيوعيون فى هذا المبدأ يؤكدون على عقيدتهم الأساسية التى تقرر أن المادة هى أصل الوجود وجوهره، وأن الوجود كله منحصر فيها، منها يبدأ، وإليها ينتهى، فليس فى الوجود سواها، وأى حديث عن وجود غير مادى هو حديث خرافة ووهم، وهو خداع وتضليل.

ولأن المادة هى الموجود الوحيد، فإن كل ما فى الحياة منبثق عنها، وناشىء منها، وهى أصله ومنبعه، حتى ولو كان فى ظاهره غير مادى، فالحياة نتاج المادة، والفكر نتاجها، والمشاعر والوجدانات من حب وبغض، وسعادة وتعاسة، ورضى وغضب إلى غير ذلك، كلها نتاج المادة، وبالتالى فهو مادة، وهم يقولون إن الفكر ناتج عن الدماغ، والدماغ مادة، ومن ثم فإن المادة هى كل شىء، وهى سابقة على كل شىء، ومنشئة لكل شىء، ذاتية الإنسان، وماهيته، وفكره، وذكاؤه، وغباؤه، بل وإيمانه وكفره، كل ذلك عندهم ناتج عن المادة، فهو مادة، ولا موجود سواها.

وهذا مبدأ من مبادئهم الخطيرة التى تضع الإنسان فى مصاف الحيوانات الدنيا وتجرده من كل ميزة، لأنه مثل الحيوانات الأخرى، هى مادة، وهو مادة، فالكل متماثل، ولا شىء هناك يميزه عنها. فإن الذى يميز الإنسان عن المخلوقات التى تعايشه إنما هى ماهيته وخصائصه الذاتية، وما دام قد فقدها عند الشيوعيين، وليس ثمة إلا المادة؛ فالإنسان مثل الحيوان، وقد ضاع وزنه، وفقد قيمته.

على أن فى الإنسان نواحى لا يمكن تفسيرها على أساس مادى، فيه الفكر والعقل، وفيه الأحاسيس والعواطف، وفيه الوجدانات والانفعالات، نجده يحب حتى الموت، ونجده يبغض كذلك حتى الموت، ونجد لديه قيمًا عليا يؤمن بها ويضحى فى سبيلها بالمال وبالحياة نفسها، فكيف نُفَسّر ذلك؟ وإلى أى مصدر نرجعه؟.. إنهم يقولون: إن هذه كلها صادرة عن المادة، فهى أصلها، لكن هذه الأمور محال أن تفسر على أساس مادى، إذ لو كان الأمر كذلك لاقتضى الأمر أن زيادة المادة وضخامتها تؤدى إلى زيادة فيما ينتج عنها من فكر، وذكاء، وإحساس بالحب أو البغض، ورقة فى المشاعر.. إلى غير ذلك. كما أنه كلما قلت المادة، وضعف وضَؤُل حجم الإنسان، كان غبيًّا متبلد الإحساس والعاطفة. وذلك غير صحيح، بل إن الأمر يناقضه فى كثير من الأحوال، فقد يكون الإنسان ضئيل الحجم، نحيف الجسم، قليل الوزن من حيث المادة، ومع ذلك يكون حاد الذكاء، مشبوب العواطف، رقيق الأحاسيس، سريع الأنفعال، فى حين يكون من فى ضِعْف وزنه ماديًّا على غير ذلك تمامًا.

على أن ثمة أمرًا جاء به العلم الحديث يهدم نظريات الماديين، ويقلبها رأسًا على عقب. فقد غير العلم كل المفاهيم القديمة عن المادة، وما يتصل بها إلى الحد الذى جعل العلماء لا يتفقون على تعريف محدد للمادة، وذلك منذ فجرت الذرة، وتحولت المادة إلى طاقة. وفنيت المادة الكثيفة التى كانوا يعرفونها بأنها: "مَالَهُ وزن وشغل حيزًا من الفراغ".. لقد تحولت المادة التى كان لها وزن وتشغل حيزًا من الفراغ إلى طاقة لا وزن لها ولا حيز، فماذا يقول الماديون؟ وأين تلك المادة التى يجعلونها الموجود الأوحد؟

وفى إطار الحديث عن العلم الحديث يرد أمر مهم ـ أيضًا ـ يبين مدى قصور النظرية الشيوعية، وأنها تقوم على غير أساس؛ فالمادة التى يبنى الشيوعيون مذهبهم على أساسها، ويعنون بها المحسوسات أثبت العلم بعد استقرار نظرية "الثقب الأسود" أن ما اكتشف من المادة حتى اليوم يمثل "٧٪" سبعة من المائة، وأن ما لم يكتشف بعد يمثل ثلاثة وتسعين جزءًا من المائة، وهذا يعنى أن الشيوعيين يبنون نظريتهم على سبعة أجزاء من مائة من المادة التى يتبجحون بأنهم عرفوها، وأنهم قد سيطروا على الوجود بأكمله، وأنه لا قوة فى الوجود سوى قوتهم، وبناء هذا شأنه ما أشد تفاهته، وما أشد غباء القائلين به!..



٣ ـ فى مجال الطبيعة: المادة أصل الوجود ولها قوانينها

أ ـ القانون الأول: المادية الجدلية.

ب ـ القانون الثانى: الترابط.

جـ ـ القانون الثالث: الحركة.

د ـ القانون الرابع: التطور.

هـ ـ القانون الخامس: التناقض.

أ ـ القانون الأول: المادية الجدلية.

وهذا المبدأ من أهم المبادىء الأساسية التى قامت عليها الشيوعية، وقد ارتبط هذا المبدأ بالشيوعية، حتى صار عنوانًا عليها، فلا تفهم الشيوعية بدونه، ولا يذكر هذا المصطلح فى نظام سوى النظام الشيوعى.

ولكى نفهم ذلك المصطلح أو المبدأ وما يراد به لدى الشيوعيين، يحسن بنا أن نحلله إلى الكلمتين اللتين يتركب منهما، وهما: المادية، والجدلية، ثم نعرف ماذا يراد بكل منهما.

أ ـ المادية: وكلمة "المادية" نسبة إلى المادة، والمادة لها خصائص طبعية يعرفها الشيوعيون وغير الشيوعيين، لكن المادة لها عند الشيوعيين شأن آخر؛ حيث جعلوها الموجود الذى لا موجود غيره، وردوا إليها كل شىء فى الوجود ولو كان غير مادى؛ كالفكر، والوجدان، والشعور، وأنكروا وجود أى شىء غير مادى، حتى أضحت المادة عندهم إلههم الذى يقفون ببابه، ويتعبدون فى محرابه.

وقد تعمدوا أن يذكروا كلمة "المادية" بجانب "الجدلية"؛ لكى تكون قيدًا يخرجون به الجدلية "المثالية" لدى "هيجل" الذى يرجع إليه اختراع كلمة "الجدلية" أو كما يسمونها: "الدياليكتيك"... فالجدل أو "الدياليكتيك" عند الشيوعيين مقصور على المادة وحدها، لسبب بسيط وواضح، هو أنهم لا يؤمنون بشىء إلا المادة ولا يوجد عندهم موجود إلا هى.

ب ـ الجدلية: والجدل فى أصله نظام فكرى خاص ابتدعه الفيلسوف الألمانى "هيجل" الذى كان نصرانيًّا كاثوليكيًّا، وكان فى نفس الوقت يؤمن ـ فيما يتصل بالذات الإلهية ـ بما أثر عن الفلاسفة اليونان بأن الله ـ تعالى عما يصفون ـ عقل مجرد، ولا يخلق الأشياء بعلمه، وإرادته، وقدرته، كما قال ـ سبحانه ـ:﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[يس: ٨٢].

وإنما يؤمنون بأن الأشياء تصدر عن الله ـ تعالى عما يصفون ـ كما يصدر المعلول عن علته دون علم من العلة أو إرادة، مثل صدور الحرارة عن النار، والضوء عن الشمس. دون أن يكون للشمس علم بما صدر عنها، ولا إرادة فى صدوره، ولا قدرة على تصريفه وتدبيره، لكن "هيجل"، وكذلك كل الفلاسفة الذين اعتقدوا فى الله عز وجل هذا المعتقد الفاسد قد اصطدموا بعقبة كبيرة لم يستطيعوا تفسيرها، تلكم هى وجود هذا العالم المادى، وكيف صدر عن الله الذى يعتقدون أنه عقل مجرد؟! فالمشكلة فى زعمهم هى: كيف صدر هذا العالم المادى عن العقل المجرد؟ مع أن المادة نقيض التجرد، فكيف صدر الشىء عن نقيضه أو كيف صدر عن العلة التى هى الله ـ فى زعمهم ـ معلول يناقضها، وهو العالم، وهل يكون المعلول إلا صورة من علته؟

هذه المشكلة لم تشغل "هيجل" وحده، بل شغلت كل الذين يعتقدون معتقده الفاسد فى الله رب العالمين ـ سبحانه وتعالى عما يصفون ـ . لذلك نجدها قد شغلت "أفلاطون" الفيلسوف اليونانى، حتى قال بعالم المثل الذى يمثل نظريته فى الخلق، وقال بالعقل والنفس الكلية، وأن النفس الإنسانية كانت من عالم المثل، فغفلت عنها الآلهة فهبطت إلى العالم المادى، لا هى مادة، ولا بالمادة، ولكنها تحل فى المادة وتدبرها، وقد قال ابن سينا فى عَيْنيته المشهورة معبرًا عن هذا الفكر الأفلاطونى، واصفًا النفس بأنها :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تدلل وتمنع

ثم شغلت الفلاسفة المنسوبين إلى الإسلام، حتى قالوا بنظرية الصدور، أو نظرية العقول العشرة، وهى نظرية تحل ـ فى زعمهم ـ مشكلة صدور المعلول المادى الذى هو العالم، عن علته المجردة التى هى الله ـ سبحانه وتعالى عما يشركون ـ وفى نظريتهم التى أضحكت أصحاب العقول على عقولهم، يزعمون: أن الله ـ تعالى ـ الذى يسمونه "المبدأ الأول" عقل ذاته؛ فنشأ عنه: "العقل الأول"، وهو يشبه المبدأ الأول، أو "علته" فى كل شىء، سوى أن المبدأ الأول علة، والعقل الأول معلول..

الجماعى الأول، **وظهور الملكية الخاصة ونظام الرق**، الذى كان فى أوضح صورة له عند الرومان. وقد كان الرق وتطبيق نظام العبودية ـ كما يقول إنجلز ـ خطوة كبيرة إلى الأمام فى طريق التقدم البشرى، ثم يبرر "إنجلز" الطرق والوسائل الوحشية التى كان يُعامل بها العبيد فى العهد الرومانى بقوله: "ذلك أنه من الحقائق الواقعة أن الإنسان انبثق من عالم الحيوان، وبالتالى فلم يكن هناك بد من استخدام وسائل بربرية تكاد تكون وحشية لتخليص نفسه من البربرية"(١). ولا ندرى كيف تخلص الإنسانية نفسها من البربرية باستعمالها وسائل بربرية وحشية؟!.

وقد كانت معاملة السادة لرقيقهم من البشاعة التى سجلها التاريخ، ولم يكن العبيد ـ رغم أنهم عبيد ـ ليستكينوا لهذه المعاملة البربرية، فقاموا بثورات كثيرة كانت كلها تبوء بالفشل فى نهاية الأمر، لكن الماركسيين يقولون بأن ثورات العبيد كانت هى النقيض أو التناقض الذى نما بداخل عهد الرق، وظل ينمو حتى انقلب النظام وتمخض عن النظام الإقطاعى.

والنظام الإقطاعى لا يفترق كثيرًا عن نظام الرق، فى الظلم الواقع على الطبقة الكادحة، غير أن الرقيق ما كانوا ليمتلكوا شيئًا قط؛ لأن نفوسهم كانت مملوكة للسادة. أما فى عهد الإقطاع فقد كان يمكن للفلاح أن يمتلك هو وأسرته قطعة من الأرض يفلحها ويحصل على إنتاجها مقابل عمله فى أرض السيد هو وأسرته، وقد يكون للفلاح نصيب من الإنتاج فى مقابل عمله.. لكن السيد فى الحالتين كان يحرص على أن ما يأخذه الفلاح من قطعة الأرض التى يسمح له بها، أو حصته فى الإنتاج لا يكاد يكفيه إلا للحياة فى الفقر المدقع، بحيث يظل ذليلاً ضعيفًا خانعًا لا ترتفع رأسه إلى أعلى، مما كان يؤدى فى النهاية إلى تفشى الأوبئة بين الفلاحين، وكذلك أمراض الجوع، وهذه أمور يزعم الماركسيون أنها دفعت بالفلاحين ـ إضافة إلى عوامل أخرى ـ إلى الثورة على الإقطاع.

---

(١) انتى دوهرنج. ص ٢١٧ من الترجمة العربية.

ونتيجة لما ذكرناه من تذمر الفلاحين، وأهم من ذلك: التطور الاقتصادى الذى نشأ عن ظهور الآلات، وإنشاء المصانع فى المدن، وظهور رأس المال العامل فى مجال الصناعة، وحاجة المصانع فى المدن إلى عمالة كبيرة. نتيجة لكل ذلك انتهى عصر الإقطاع ونشأ على أنقاضه عصر رأس المال، أو الرأسمالية، التى يطلق عليه الماركسيون عصر: البرجوازية.

هذه هى العصور الأربعة التى تمت ووجدت حتى عهد ماركس وإنجلز، لكنهم قد تنبئوا بالقضاء على هذا النظام، ليحل محله نظام آخر وأخير، وهو النظام الشيوعى الذى تكون فيه السيادة لطبقة العمال أو "البروليتاريا" التى تقضى على طبقة أصحاب رءوس الأموال أو "البرجوازيين"، وفى هذا العهد المنتظر تؤمم كل الممتلكات، ويقضى على الملكيات الخاصة، ويقضى على الدين، وعلى الدولة، وعلى الجيش، وعلى الأسرة.. إلى آخر الأهداف التى تخيلها هؤلاء المخرفون، والتى لم يتحقق منها شىء واحد، وسوف نتكلم عن تلك الأهداف ـ بحول الله ـ تعالى ـ فى فقرة تالية.

هذا الذى أراده الشيوعيون بمبدئهم "المادية الجدلية".

ب ـ القانون الثانى : قانون الترابط

يرى كل إنسان لديه قَدْرٌ متواضع من الفهم والملاحظة لما حوله من أشياء ثم من أحداث تنتج عن هذه الأشياء وتحيط بها، أن كل ما فى الطبيعة من موجودات، وما يقع لها أو حولها من حوادث أو أحداث، بينها ترابط قائم على التأثير والتأثر، فبعضها يؤثر، وبعضها يتأثر، وقد ينقلب الأمر فيتحول المتأثر إلى مؤثر والعكس، فقضية التأثير والتأثر بين الموجودات أمر قائم وثابت ودائم ومستمر، وهو أساس من الأسس التى تقوم عليها العلاقة بين الموجودات.

وهذا الأمر معروف "بقانون السببية" أو "قانون العلية"، لأنه ما من شىء إلا وقد خلق الله ـ سبحانه ـ له سببًا، وما من سبب إلا وعنه مسبب، كذلك ما من

معلول إلا وله علة، وما من علة إلا وعنها معلول، وقد جعل الله ـ تبارك وتعالى ـ كل شيء في الوجود قائمًا على الأسباب والمسببات، والعلل والمعلولات، وقد شاءت إرادة الله ـ سبحانه ـ أن يكون كل شيء في الوجود قائمًا على قوانين ثابتة ونواميس واضحة، وسنن معلومة، حتى ينظم الناس حياتهم وجميع شئونهم على أساس من تلك القوانين والسنن، لا يتخبطون في حياتهم، ولا يسيرون في أمورهم على غير هدى.

وهذا يعني أن الأشياء والأحداث المحيطة بها بينها ترابط وثيق، فإذا ما وجدنا إنسانًا مريضًا بحثنا عن سبب علته، ولا يمكن فهم المرض، ولا الوصول إلى دواء له إلا إذا عرفنا سببه، وهكذا لا يمكن دراسة ظاهرة ما أو حدث ما بمعزل عن الظروف المحيطة به.

هذه الحقيقة التي تتمثل في وجود العلائق بين الأشياء والأحداث في الطبيعة، والارتباط القائم بينها، معروفة ومعلومة لعامة الناس، والناس جميعًا يقيمون أمورهم الحياتية على أساس من هذه الحقيقة.

لكن الشيوعيين ـ كشأنهم دائمًا في دعاواهم الكاذبة ـ يدعون أن هذه الحقيقة إنما هي من اكتشافهم، وأنهم الذين عرفوها وكشفوا عنها للعالم، ويقيمون الدنيا ويقعدونها زاعمين أن ذلك شيء جديد وأنه خاص بهم، يقول "ستالين" :".. **إن المادية الجدلية لا تنظر إلى الطبيعة باعتبارها مجموعة من الأشياء المتراكمة كل منها مستقل عن الآخر، وإنما تنظر إلى الأشياء على أنها مرتبط بعضها ببعض، ويفهم بعضها في إطار بعض**"(١).

وكشأن الشيوعيين يضخمون كل ما يتصل بهم أو يدَّعونه، فعلوا ذلك مع هذه البدهية من شئون الحياة والطبيعة التي يدركها كافة الخلق حتى الحيوان والحشرات تدركها بغريزتها، وتقيم الكثير من شئون حياتها على أساس منها، فالطيور المهاجرة

(١) نقلاً عن: مدخل إلى المادية الجدلية. موريس كونثورث. ج١ ص: ٩٢.

تبدأ رحلتها من كل عام حين تهب بوادر فصل الشتاء متجهة إلى الأقاليم الدافئة، بينما النمل يبدأ في تخزين ما يكفيه من الطعام طيلة الفصل البارد، على حين نرى الحيوانات ذات البيات الشتوى تصاب بنهم شديد للطعام؛ فتأكل أضعاف ما كانت تأكل طوال العام لتخزين ما يكفيها طيلة بياتها الشتوى من دهن يتحول إلى طاقة تمسك عليها حياتها طوال فصل كامل؛ ـ بفضل الله ـ تدرك تلك الحشرات والحيوانات الترابط بين البرد وتلك الأنشطة والأعمال الحياتية بغريزتها التى زودها بها الله ـ سبحانه ـ ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠].

وإذا كان هذا فى الحشرات والحيوان؛ فإن الإنسان أولى بذلك، فالفلاح إذا ما وجد حرارة الصيف جاءت مبكرة شديدة عن معدلها أدرك أنه سيجنى محاصيله الزراعية مبكرًا، وكذلك يدرك البلَّاح أنه سيجنى من ثمراته المباركة الطيبة القدر الوفير مبكرًا عن موعده.

وأصحاب النفوس السوية والفطر النقية من المؤمنين، يؤمنون بأن ذلك كله من تدبير الله ـ سبحانه ـ الذى يدبر الأمر ويفصل الآيات، وجميع الخلق من إنس وجن وحيوانات وحشرات تقول بلسان الحال ولسان المقال: سبحان الخلاق العظيم بديع السماوات والأرض الذى أتقن كل شىء وأعطى كل شىء خلقه ثم هدى.

أما هؤلاء الملاحدة الذين ختم الله على قلوبهم، وأعمى بصائرهم وأبصارهم، فيملئون الدنيا ضجيجًا حول عدد من القوانين والنواميس والسنن التى أقام الله عليها هذا الوجود. زاعمين أنهم هم الذين اكتشفوها، وأنها من صنع الطبيعة المادية. ثم يعلنون فى كل المناسبات، وفى دساتيرهم أن هذا القانون إنما هو ركيزة من ركائز الشيوعية، وخاص من خصائصها وأساس من أسسها...

بينما كل شىء فى الوجود يكذبهم ويشهد على ضلالهم وزيفهم ـ عليهم من الله ما يستحقون ـ.

* * *

القانون الثالث: قانون الحركة

تعرف الحركة بأنها: "وجود الشيء فى مكانين فى آنين أو فى زمانين".

أما السكون فيعرف بأنه: "وجود الشيء فى مكان واحد فى زمانين أو فى آنين".

فالشيء إذا كان فى مكان ثم فى اللحظة التالية وجد فى مكان ثان، فهو متحرك، أو هذه هى الحركة. أما إذا كان موجودًا فى مكان، ثم فى اللحظة التالية ظل فى نفس المكان، فهذا هو السكون، وهو فى هذه الحالة ساكن.

والحركة نوعان: نوع خفى لا يراه الناس ولا حتى بالمجاهير، وهذه هى حركة جزيئات الذرة من كهيربات وغيرها، وهذا النوع لا صلة له بكلام الشيوعيين عن الحركة، والذى نكتب عنه ونرد عليه.

أما النوع الثانى من الحركة؛ فهى الحركة الظاهرة التى تحدث للأجسام المادية، من الانتقال عبر الأمكنة سواء طوليًا، أو دائريًا، أو ترديًّا، أو غير ذلك، وهذا النوع من الحركة هو الذى يقصده الشيوعيون حين يتكلمون عن قانون الحركة الخاص بهم.

فما هذا القانون كما يعتقده الشيوعيون؟

إن الشيوعيين الماركسيين لديهم تصور عن الحركة وعلاقتها بالمادة لا يوجد لدى غيرهم، وهم يتطرفون فى هذا التصور، ويأتون فيه بكل غريب ـ كشأنهم دائمًا.

فهم يرون أن المادة ملازمة للحركة، وأن الحركة ملازمة للمادة، فبين المادة والحركة تلازم فى الوجود، فلا توجد مادة بلا حركة، ولا توجد حركة إلا فى مادة.

يترتب على ذلك أن المادة إذا وجدت وجدت الحركة بوجودها، وأن الحركة إذا انعدمت انعدمت المادة.

وهذا يعنى أن المادة لن تكون ساكنة أبدًا، بل إن الشيوعيين لا يعترفون بشيء اسمه "السكون"، لأن السكون لن يكون إلا فى مادة، والمادة عندهم لا تكون

ساكنة أبدًا، فهى ملازمة للحركة، والحركة دليل وجود المادة، وإذن فلا يوجد لدى الشيوعيين ما يسمى بحالة "السكون".

هذا الربط القوى الحتمى بين الحركة والمادة، والزعم بأن المادة لا تكون إلا فى حركة دائمة، فإن سكنت فنيت، هذا التصور فيه تكلف واضح، وتعنت شديد، وفيه افتئات على واقع الأشياء وحقائق الأمور.

وقبل أن ننقد هذه الفكرة التى أسموها "قانون" ينبغى أن نفتش وراء ما يهدفون إليه من وراء هذه الفكرة.

إنهم يهدفون من ورائها إلى جعل الطبيعة فى غنى عن خالق يخلقها ومدبر يدبرها، ومحرك يحركها، ومغير يغيرها، من أجل ذلك جاءوا بهذا الهراء الذى أسموه قانونًا وحسبوا أنهم إن ربطوا بين المادة والحركة، وجعلوهما متلازمين، وجعلوا وجود الحركة شرطًا لوجود المادة، فإن المادة من حيث هى متحركة بطبيعتها، وأصل وجودها، لن تحتاج إلى محرك يحركها، فهى تتحرك بذاتها، وبما أن الحركة هى أصل التغير والتطور، فمن ثم تكون المادة التى تتحرك بذاتها، متغيرة بذاتها، ومتطورة من داخلها ولا يحتاج أمر من هذه الأمور كلها إلى قوة من خارجها تفعل فيها الحركة والتغير والتطور، فلا تكون هناك ضرورة للقول بوجود إله، هذا ما هدف إليه الشيوعيون الماركسيون الملاحدة ـ عليهم من الله ما يستحقون ـ.

لكن يأبى الحق إلا أن يظهر، ويأبى زيفهم إلا أن ينكشف، وضلالهم إلا أن يعلن عن نفسه.

فإن المادة يجرى عليها النقيضان جميعًا: السُّكون والحركة، وحدوث النقيضين للمادة أمر مشاهد محسوس لا يمكن إنكاره إلا بإنكار الواقع المشاهد، وأمور الناس الحياتية لا تستقيم إلا بتحقق الأمرين: السكون والحركة، والسكون هو نقيض الحركة، فبم نعرِّفه أو بم يدرك العامَّة معناه؟ إنه لا معنى له إلا: "انعدام الحركة".

وكل شىء فى الوجود شاهد على أن السكون مثل الحركة، يقع للمادة كما تقع لها الحركة.

فالإنسان نفسه يكون متحركًا ثم يسكن، والريح تكون متحركة ثم تسكن، والظل يتحرك بتحرك أشباحه أو أجسامه ثم يسكن بسكونها، وفى سكون الظل يقول الله ـ سبحانه ـ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ [الفرقان: ٤٥].

وفى سكون الريح وحركتها يقول ـ عز وجل ـ : ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٢- ٣٣].

وليس من شك فى أن السكون هو الأصل، والحركة طارئة عليه، وبادئة منه؛ ولذا فكل حركة هى من سكون تبدأ، وإلى سكون تنتهى، وجمهرة خلق الله تتحرك فى النهار، وتسكن فى الليل، بينما هناك من خلق الله ـ تعالى ـ ما يسكن بالنهار ويتحرك بالليل، وقد اختار الله ـ سبحانه ـ السُّكون والسَّاكن والسّكَن ليعبر بها عن شمول ملكه لكل شىء، فقال عز وجل:

﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٣].

فالزعم بأن المادة لا تكون إلا متحركة، وإذا فقدت الحركة فنيت زعم باطل، وافتراء على الحق، وتزييف للواقع، فالجبال التى جعلها الله ـ تعالى ـ للأرض أوتادًا، بم نصفها؟ بالحركة أو السكون؟ إنها منذ خلقها الله ـ سبحانه ـ وهى قابعة فى مكانها، قد يتحرك منها كميات من الرمال أو الأحجار التى تكسو سطوحها، أما هياكلها فراسخة فى أماكنها عبر الآلاف أو الملايين من السنين ـ كما يقدرون أعمار الأرض؛ ولذلك وصفها الله ـ سبحانه ـ بأنها "رواسٍ"؛ أى: ثابتات ساكنات، يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ :

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا﴾ [الرعد:٣].

ويقول ـ عز وجل ـ :

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠].

ومثل الجبال الصحراوات بما فيها من تلال ووهاد، تتحرك سطوحها وجذورها ثابتة.

هذه هى أرضنا التى نعيش عليها، فإذا ما انتقلنا إلى ما يدب على الأرض من حشرات وحيوان وإنسان، فإنه طالما هو حيٌّ فإنه يتحرك ويسكن، فإذا ما وقع به الموت انتقل إلى السكون الذى ليس معه حركة.

وقد يقع هنا خلط بين الحركة فى المادة، والتغير الذى يطرأ عليها، وهذا من جانب الشيوعيين والماديين خلط متعمد، فإن التغير يقع على المادة السَّاكنة فينقلها من حال إلى حال بشكل تدريجى بطىء، وهذه سنة الله فى خلقه، ألا يظل شىء ثابتًا أبدًا، وفرق بين الثبات والسكون، فالمادة تكون ساكنة، ولكنها غير ثابتة على حال، بل تخضع للتغير والتحول، فنحن نرى الجبال والهضاب ساكنة سكونًا واضحًا، ولا نستطيع نحن ولا أحد من العقلاء أن ينظر إلى الجبل ويقول: إنه يتحرك، ولكن الجبل الساكن يقع به ما يقع بكل الأشياء التى خلقها الله ـ سبحانه ـ من تغير وتحول، ولا يسمى هذا التغير حركة؛ لأن الحركة تكون فى الاتجاهات المتقابلة، حركة إلى الأمام، وكذلك إلى الخلف، حركة إلى القوة والجدة، وأخرى إلى الضعف والقدم.

وهكذا تكون الحركة صالحة وواقعة إلى الجهات والأحوال المتقابلة، أما التغير والتحول فله وجهة واحدة، وطريق متعينة، فهو يسير بالأشياء جميعها نحو نهايتها المحتومة، نحو التحول والضعف والفناء، وفرق آخر هام؛ فإن الحركة تكون ذاتية فى الشىء المتحرك إذا كانت لازمة له، لكن التغير والتحول والتحلل يكون فى الأشياء من خارجها قضاء محتومًا قضاه الخالق ـ سبحانه ـ الذى يغير ويحول ولا يتغير ولا يتحول.

على أننا لو سلمنا لهؤلاء الشيوعيين الماركسيين الملاحدة أن المادة تلازمها الحركة، وأنها متحركة دائمًا، وأن حركتها هى آية وجودها، وأن الحركة مؤدية

بالضرورة إلى التغير، نقول: أليست الحركة والتغير دليلين على أن لهذه المادة خالقًا فاعلاً فيها هذه الحركة وهذا التغير؟ إن بداهة العقل، وطبيعة الأشياء تقرر أن كل حركة لا بد لها من محرك، وكل تغير لا بد له من مغير، والمحرك للأشياء والمغير لها إنما هو الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ثم إن الحركة والتغير يدلان على الحدوث بالضرورة، فإن كل حركة فى المادة فإنها تكون قد أحدثت وضعًا لم يكن، وأفنَت وضعًا كان، فإن المادة إذا تحركت فإنها تكون قد انتقلت بحركتها إلى حال لم تكن عليها قبل الحركة، فتلك الحال حادثة يقينًا، وفى ذات الوقت تكون الحال التى كانت عليها قبل الحركة قد فنيت، وهكذا كل حركة فى المادة تفنى وضعًا وتحدث وضعًا؛ لذلك كانت الحركة هى أظهر أدلة الحدوث.

ثم إذا كانت الحركة حادثة، والأوضاع التى تجرى على المادة بواسطة الحركة حادثة؛ فالمادة ـ إذن ـ هى حادثة بالضرورة؛ لأن الملازم للحادث حادث، وما لا ينفك عن الحادث فهو حادث.

وإذا كان ذلك كذلك، أو ليس فى هذا الدليل الأظهر والأوضح على وجود الله ـ سبحانه ـ الذى أحدث المادة وأوجدها؟ وإلا؛ فمن محدثها؟ ومن فاعل الحركة فيها؟ ومن موقع التغير والتحول عليها؟

وهكذا؛ يحاول الشيوعيون الملاحدة الفرار من الإقرار بوجود الله ـ سبحانه ـ فيخترعون أشياء، ويفترون نظريات أو قوانين، وإذا قوانينهم ونظرياتهم هى نفسها تلزمهم الإقرار بوجود الله ـ سبحانه ـ وتقوم هى دليلاً على نقيض ما يدعون، وتنقلب أدلتهم عليهم، ويتظاهر الوجود كله بظواهره ومظاهره ومادته وحركاته وتغيراته ضدهم كاشفًا ضلالهم، مظهرًا زيفهم وافتراءهم.. ولكن؛ هل يعقلون؟ هل يسمعون؟ هل يبصرون؟ أبدًا، لقد قال الله ـ تعالى ـ فيهم وفى أمثالهم:

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ۝ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرًا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

القانون الرابع: قانون التطور

قانون التطور يمثل القانون الثالث من قوانين الجدل التى تقوم عليها الطبيعة المادية التى لا يؤمن الشيوعيون الماركسيون إلا بها، لكن قانون التطور الذى نتكلم عنه يكاد يكون هو صلب عملية الجدل، أو عصب نظرية المادية الجدلية التى يقوم عليها الفكر الفلسفى الشيوعى.

ولفظة "تطور" تعنى: "التغير" بإطلاق لدى البعض، وتعنى: "التغير" من الأدنى إلى الأعلى لدى آخرين، ومن هؤلاء الشيوعيون. فالشيوعيون يرون أن "التطور" لا يكون إلا من الأدنى إلى الأعلى، ولا يكون العكس، وهؤلاء يفرقون بين كلمة "تطور" وكلمة "تغير". فالتغير يكون فى الاتجاهين: من الأدنى إلى الأعلى، ومن الأعلى إلى الأدنى، أما التطور فلا يكون إلا فى اتجاه واحد هو الاتجاه الصاعد من الأدنى إلى الأعلى، مع مخالفة هذه الفكرة لطبائع الأشياء ـ كما سنبينه فى حينه ـ بحول الله تعالى ـ

وقانون التطور الذى يزعمه الشيوعيون له وظائف معينة عندهم:

١ ـ أنه فى طريق صعوده بالأشياء يحدث حالات لم تكن، وتلك هى الأرقى والأعلى، ويفنى الأشياء التى كانت، وتلك هى الأدنى، فهو يفنى الأدنى ويستحدث الأعلى، ويسمون هذه العملية: نفى الجديد للقديم، أو نفى الأعلى للأدنى.

٢ ـ أن عملية التطور تقوم عندهم بشىء عجيب، وهو تحويل التراكمات الكمية إلى الكيفية، وبالعكس، فكلما تراكمت صفات معينة للمادة فى حالتها الكمية، جاء التطور فقلب هذه الصفات الكمية إلى صفات كيفية، وكما يقول "لينين": ".. إن التطور ليس كميًّا فحسب، بل إن الصفات الكمية كلما تراكمت أفضت عن طريق التطور إلى تغيرات كيفية".

فأن تتحول المادة بما يطرأ عليها من تحولات إلى كيف، أى إلى معنى، أى إلى شىء معنوى غير مادى، وأن يتحول الكيف الذى هو صفة معنوية غير مادية إلى كمٍّ، أى

إلى مادة، هذه هى قضية القضايا، أو مشكلة المشكلات عندهم، وهذه هى أهم خصائص المنهج الجدلى أو "المادية الجدلية" عندهم.

٣ ـ أن عملية التطور عملية من صنع الطبيعة وحدها، ولا شأن لها بخالق أو إله يوجدها؛ لأنه لا يوجد إله، وليست الطبيعة بحاجة إليه.

هذه أهم خصائص التطور فى زعم الشيوعيين، والناظر فى تصورهم لما يسمونه: "التطور" يرى أنهم يسندون إليه كل خصائص الإيجاد، والإفناء، وأمور الحياة وما يجرى فيها من تغيرات فى الكم والكيف أو فيهما معًا متبادلين، فالشيوعيون يؤمنون بنظرية "دارون" فى "التطور الحيوى"، ولأن نظرية دارون أمدتهم وأعانتهم فى كفرهم بالله ـ سبحانه ـ وبأنه لا حاجة لإله خالق، وأن المادة والطبيعة وحدها كافية فى تفسير كل شىء فى الوجود، دون حاجة إلى إله. نقول: لأن نظرية دارون أمدتهم بتفسير عن نشأة الحياة وتطورها. فيما يزعمون ـ فقد اعتنقوا النظرية، واتخذوها أساسًا لنظريتهم فى الشيوعية الماركسية، وفى تفسير الحياة والأحياء، بل فى تفسير كل شىء، فأسندوا إلى التطور عملية التحول والتغير إلى الأعلى ـ كما قال دارون ـ وأسندوا إلى عملية التطور إفناء ما يفنى واستحداث ما يحدث، أو إيجاد ما يوجد، كما أسندوا إلى عملية التطور تحويل الكم إلى الكيف، والكيف إلى كم: أى التصرف فى الموجودات على كافة ما يجرى لها دون ما أدنى حاجة إلى قوة خالقة مدبرة هكذا زعموا ـ عليهم من الله ما يستحقون ـ.

هذه فكرة الشيوعيين أو عقيدتهم فيما يسمى "تطورًا"، فما الذى دفعهم إلى هذا الفهم؟ وإلى ماذا يهدفون من ورائه؟

إن الشيوعيين يهدفون من وراء فكرتهم عن التطور إلى أمرين خطيرين:

الأمر الأول: نفى وجود الله ـ سبحانه ـ وإثبات أن الوجود ليس بحاجة إلى إله يوجده ويصرفه ويحدث التغيرات والتحولات فيه، وأنه كافٍ بنفسه، غنى بذاته عن الحاجة إلى قوة تخلقه وتدبره ـ كما بينا ذلك ـ.

الأمر الثانى: أن ما يزعمه المتدينون من دين وعقيدة وقيم وأخلاق وشرائع، كل هذا

خاضع للتطور والتحول، ولا يمكن أن يظل ثابتًا أبدًا، لأن قاعدة الوجود هى التطور.

والتطور يشمل كل شىء، فإذا ادعى المتدينون دينًا يؤمنون به، فالدين لا يمكن أن يظل ثابتًا، فهو يتطور، وأحكامه تتطور وعقائده كذلك؛ لأنه ما من شىء ثابت أو دائم، بل التطور يشمل كل شىء، حتى عقيدة المتدينين فى آلهتهم، وكذلك كل ما يتصل بالدين من عقائد وأحكام، ومثل ذلك الأخلاق والسلوك، وما تقوم عليه الأخلاق والسلوك من قيم وفضائل وضوابط للسلوك، كل هذه لا يمكن أن تكون ثابتة، أو تظل دائمة، بل لابد أن يشملها التطور والتحول، فما هو فضيلة اليوم قد يصير رذيلة غدًا، والعكس صحيح، وما يصدق عليه أنه سلوك حسن، قد ينقلب إلى سلوك سيِّىء بعد ذلك، نتيجة لعملية التطور التى تنال كل شىء فى الوجود من ماديات ومعنويات، والتى يصل سلطانها إلى قلب حقائق الأشياء وتغيير جواهرها، فتقلب الكم إلى كيف والكيف إلى كم، أو المادة إلى معنى، والمعنى إلى مادة، وهكذا.

هذا أهم ما هدف إليه الشيوعيون من وراء ما زعموا "قانون الترابط"، على أننا نلاحظ على قانونهم ـ هذا المزعوم ـ ما يلى:

أولاً: أن التطور أمر طبعى بدهى واقعى، نراه ونحسُّه فى الأشياء من حولنا، ثم فى أنفسنا، فالأشياء من حولنا تتغير وتتطور، ونحن كذلك نتطور أجسامًا، فنولد صغارًا، ثم تزداد أحجامنا، وكذلك نتطور أنفسًا وعقولاً، فنولد لا نفقه ولا نعلم شيئًا، ثم يمنحنا الله ـ تعالى ـ السمع والأبصار والعقول والعلوم، يقول ـ سبحانه ـ:

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

وعلومنا تزداد أو تنقص، تقل أو تكثر، وكذلك أجسامنا.

ثانيًا: عملية التطور تقع على الطبيعة وعلى الأشياء، لكنها ليست من الطبيعة ولا من الأشياء، بل هى من خالق الطبيعة وخالق الأشياء، فالطبيعة والوجود كله هو موضوع يقع عليه التغير والتحول والتطور، ولكن هذه كلها ليست منه ولا إليه، بل هذه كلها من الله ـ سبحانه ـ هى من خارج العالم من خالقه ومدبره، وليس كما يزعم هؤلاء الملاحدة الشيوعيون ومن جرى مجراهم أن الطبيعة تفعل فى نفسها دون حاجة إلى إله ـ عليهم لعائن الله ـ.

ثالثًا: أن عملية التطور تنال جميع الأشياء وجميع الأحوال، لكنها لا تقلب حقائق الأشياء فتتناول الكم زيادة ونقصًا، وكذلك تتناول الكيف قوة وضعفًا، لكنها لا تقلب الكم كيفًا، ولا الكيف كمًا، فالكمُّ مادة له كافة خصائص المادة من حجم ووزن وشغل لحيز من الفراغ، والكيف صفة من صفات المادة ومعنى من معانيها، ولا يمكن أن تنقلب المادة إلى صفة، ولا الصفة إلى مادة.

رابعًا: عملية "التطور" ليست دائمًا من الأدنى إلى الأعلى ـ كما يدعى الشيوعيون الملاحدة.

والوجود كله شاهد على أن عملية التطور تسير من الأدنى إلى الأعلى، ثم من الأعلى إلى الأدنى، فهى عملية تكون أحيانًا صاعدة، وتكون أحيانًا هابطة، فهى ليست صاعدة دائمًا كما يدعى الشيوعيون متابعين فى ذلك أكذوبة "دارون" الشهيرة بـ "نظرية التطور الحيوى"، بل هى صاعدة أحيانًا، وهابطة أحيانًا، والحالتان تقعان دائمًا للأشياء، فليس هناك شىء يكون فيه التطور إلى أعلى دائمًا، وآخر يكون فيه التطور إلى أسفل دائمًا، بل كل شىء يقع فيه التغير والتطور من أدنى إلى أعلا ثم من أعلا إلى أدنى.

على أن واقع الأمور، وحقائق الأشياء تثبت أن التطور عملية تلحق الأشياء والموجودات جميعها ـ فى جملتها ـ من الأدنى إلى الأعلى ابتداءً، ثم تكون فى نهايتها من الأعلى إلى الأدنى، ثم تكون عاقبة كل شىء إلى الفناء والهلاك، هكذا هى سنة الله ـ تعالى ـ فى خلقه، من جماد وحيٍّ ونبات وحشرات وحيوان وإنسان.

فالجمادات من جبال وصخور تتفتت وتتهاوى بمرور الزمن وإن طال، والمعادن والحديد الذى أنزله الله ـ تعالى ـ فيه بأس شديد يصدأ ويتآكل ويتفتت ويفنى، والنبات يكون فى بدايته مخضرًا جميل الهيئة بهىَّ المنظر، ثم يرتفع ويعلو، ثم يهيج، ثم تراه قد اصفر لونه، ثم يكون حطامًا أو هشيمًا تذروه الرياح، يقول الله عز وجل:

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ﴾ [الحديد: ٢٠].

ومثل ذلك الإنسان. يبدأ ضعيفًا، ثم يقوى، ثم يضعف، ثم يزداد ضعفًا ثم يأخذه الموت، يقول الله ـ سبحانه ـ:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤].

يتضح من هذا أن سنة الله ـ تعالى ـ فى خلقه جميعًا أن تكون بداياتهم ضعيفة، ثم يتطور الخلق من ضعف إلى قوة، ثم ينعكس اتجاه التطور من قوة إلى ضعف، أو من أعلى إلى أدنى، هكذا سنة الله فى خلقه أجمعين.

وهذه السنة لا تقتصر على عالمنا الأرضى، بل هى سنة الله فى العوالم العليا، كما هى فى عالمنا الأرضى، فالكواكب الخامدة فى السماوات كانت نجومًا ملتهبة تشع حرارة ونورًا، ثم بمرور الزمن فقدت حرارتها، وتبخرت طاقاتها وخمدت، وهذا مصير النجوم التى تملأ الكون حرارة وضياء وتشاهد بريقها الشديد، سوف يأتى عليها ما أتى على مثيلاتها فتخمد، بل إن كثيرًا من الكواكب والنجوم تتهاوى وتتفتت وتتحول إلى ما يسمى "المذنبات" التى هى فى الأصل أجزاء من أجسام أكبر لكنها تتفتت، بل إن الكثير الذى لا يُحْصَى من عوالم الفضاء نجومه وكواكبه تقع بها حادث الموت، وهذه العبارة تحديدًا تكوِّن مصطلحًا علميًا لدى علماء الفضاء فيكثر حديثهم عن ظاهرة "موت النجوم"، ويقارن حديثهم عن موت النجوم حديثهم عن "مقبرة النجوم" أو ما يطلقون عليه ظاهرة "الثقب الأسود" والثقب الأسود هو الذى يمثل مقبرة النجوم؛ حيث يبتلع كل نجم أو كوكب يقترب منه مهما كان حجمه.

وهكذا يتكلم الشيوعيون الملاحدة عن ظاهرة التطور، زاعمين أنها من اكتشافهم، وأنها تمثل قانونًا من قوانينهم، بينما هى ظاهرة واضحة بينة يدركها جميع الخلق، وتقع لكل شىء فى الوجود، ويراها الناس فى أنفسهم قبل أن يروها فيما حولهم، وتشمل ما فى الأرض والسماء من عوالم، وكلها من فعل الله ـ سبحانه ـ وتدبيره، وبها يقع قضاء الله ـ سبحانه ـ المحتوم على كل ما فى السماوات والأرضين من ضعف وهلاك وفناء.



القانون الخامس قانون التناقض

هذا هو القانون الرابع والأخير المتمم لما يسميه الشيوعيون "قوانين الجدل".

أى القوانين التى تقوم عليها نظريتهم فيما يسمونه "المادية الجدلية" أو "الديالكتيك" الشيوعى.

والقوانين جميعها يمكن أن تندمج فى قانون واحد يعبر فى النهاية عن مضمون ما يسمونه الديالكتيك أو الجدل، ولكنا آثرنا أن نفرد كلامنا بحديث عن كل قانون منها على حدة جريًا على عادات الشيوعيين فى كتاباتهم، وكذلك ما درج عليه الذين يكتبون عن هذه القوانين أو الديالكتيك.

والأصل الذى تقوم عليه "المادية الجدلية" ـ كما سبق وشرحناها فى موضعها من الكتاب ـ أن كل شىء يحمل فى بنائه نقيضه؛ فجميع الأشياء تحمل فى جوفها نقائضها.

ثم وعن طريق الحركة الذاتية للمادة والتطور يتمخض الشىء عن نقيضه، ثم يتحد الشىء ونقيضه ليظهر لنا منهما شىء ثالث يختلف فى صورته وجوهره عن أصله السابق، ثم تتكرر العملية الجدلية من جديد، فيتمخض الشىء الجديد عن نقيضه، ثم يتحدان ليظهر شىء ثالث أعلى وأرقى من سابقه، وهكذا يذهب الشيوعيون إلى أن الأشياء غير ثابتة ولا دائمة، ولكن كل شىء فى الطبيعة يحتوى على نقيضه، والذى يدفع المادة إلى الحركة والتطور إنما هى التناقضات الداخلية فى

المادة أو فى الأشياء أو فى الظواهر الطبعية، ونتيجة لهذه التناقضات تتفاعل الأشياء وتتصارع بين الشىء ونقيضه، ثم ينشأ عنهما شىء أرقى من سابقه، وهكذا تستمر الأشياء فى حركة "جدلية" صاعدة من الأدنى إلى أعلى عن طريق تفاعلات الأشياء بسبب التناقضات الداخلية، ثم بواسطة التطور الصاعد.

والشيوعيون يرون أنهم هم الذين استطاعوا أن يقدموا تفسيرًا علميًّا موضوعيًّا لعملية التطور فى الطبيعة، فالأشياء إذا لم تكن تحمل فى صلبها نقائضها لظلت ثابتة على حالها لا تتغير ولا تتطور؛ لأنه ما الذى يغيرها وهى ثابتة مستقرة خالية من التفاعلات؟

وإذن فالذى يؤدى إلى تطور الأشياء إنما هو التفاعلات التى تنشأ عن التناقضات فى داخل الأشياء والظواهر المادية.

ويشرح "ستالين" هذه العملية فيقول: **"ترى المادية الجدلية أن جميع الأشياء يكمن بداخلها تناقضات تشمل كل الأشياء وظواهر الطبيعة، ففى كل من هذه الأشياء جوانب متناقضة ومتعارضة؛ جوانب سلبية وأخرى إيجابية، جوانب تمثل الماضى وأخرى تحقق المستقبل، جوانب تمثل القديم وأخرى تمثل الجديد، شىء يموت وينتهى، وآخر ينشأ ويتطور، والصراع بين هذه الأضداد، بين ما يمثل الجديد وما هو قديم، بين ما يفنى وينتهى، وما يولد ويتطور، يشكل حقيقة التطور. ومن هنا يرى "الجدل" أن عملية التطور لا تحدث بسبب التناسق والانسجام بين جوانب الظاهرة، وإنما بسبب ما فى الظاهرة من تناقضات داخلية تسبب الصراع بين الاتجاهات المتعارضة"**[1].

ونحن نلاحظ أن الشيوعيين الماركسيين الملاحدة عندهم هوس نفسى وخلل عقلى واضطراب عصبى يصيبهم بسعار اسمه المتناقضات والمتضادات والاضطرابات... إلى آخر هذه الأمور التى تدور كلها حول الخلل العقلى والفساد

---

(١) مدخل إلى المادية الجدلية. ج١ ص ١١٢.

النفسى والصراع الاجتماعى، فهم بطبعهم الفاسد المنحرف لا يقبلون الانسجام والتناسق، ويفرون من التعاون والتآزر، ويمقتون أشد المقت التآلف والتواد، فهذه أمور لا محل لها فى قاموسهم الشيوعى، فالكون كله عندهم قائم على التناقضات، والتناقضات عندهم تشمل كل شىء وتشيع فى كل شىء، وهى مصدر كل حركة وكل تطور، ويصل بهم الشغف والكلف بالمتناقضات إلى حدٍّ أن يجعلوا كل شىء يحمل فى باطنه نقيضه، فليس يوجد شىء إلا وظاهره نقيض باطنه، والشىء الواحد الذى نراه منسجمًا مع ظاهره، جميل الشكل عظيم النفع مثل الوردة أو التفاحة، إنه عندهم يحيا حالة من التفاعلات الداخلية والصراعات بين الظاهر ونقيضه الداخلى.. وهكذا ينظر الشيوعيون إلى الحياة والأشياء التى نراها فى الطبيعة من جماد ونبات وحيوان وإنسان إنها كلها تعيش هادئة فى الظاهر بينما الصراعات تعصف بها من الداخل.

إن قومًا هذه طباعهم، وهذه نظرتهم إلى الحياة والأحياء والأشياء، هل ينتظر منهم خير قط، إنهم يقلبون حقائق الأشياء، ويعكسون أوضاع الطبيعة، ولا يرون فى الكون الجميل فى جملته إلا قبح التناقض، وشرور الصراع، ليس بين الأشياء بعضها مع البعض، بل الشىء مع نفسه.. إن هذا الفهم للطبيعة والأشياء دليل على أن طباعهم فاسدة، ونفوسهم مختلة، وعقولهم مريضة، وأعصابهم مضطربة، وفى داخلهم يكمن عفن الوجود كله.

إن الواقع خير شاهد وأقوى دليل، وأظهر برهان على الحالة المرضية المختلة التى يعيشها هؤلاء الشيوعيون الملاحدة.

إن الوجود كله، بأرضه وسمائه، بكواكبه ونجومه، بشموسه وأقماره، شاهد على أن هذا الوجود البديع المتقن المحكم قائم على الانسجام والتوافق، والتكامل والتوازن حتى الأشياء والظواهر التى نراها متضادة ومتقابلة، لا نجد بينها صراعًا ولا اضطرابًا ولا تعارضًا، بل جميعها يكمل بعضها بعضًا ويتوازن بعضها مع بعض بحيث تمشى الحياة فى انسجام تام، وتتحقق حكمة الله ـ سبحانه ـ فى الوجود والموجودات، فنحن نرى الضد يكمل ضده، ويحقق الحكمة من وجودهما، ولا

يتعارضان أو يتصارعان، فالليل والنهار ضدان يكمل كل منهما الآخر فى تأمين الحياة السوية للأحياء، ولو أن أحدهما ساد حياة الناس واختفى الآخر؛ لضاق الأحياء بالحياة، ولعجزوا عن الاستمرار فيها، يقول الله عز وجل:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٣].

كذلكم إذا ما نظرنا إلى الذكورة والأنوثة، إنهما ضدان، لكنهما متكاملان متوازنان يؤديان أعظم رسالة فى استمرار الوجود، وبقاء الأنواع، بدءًا من أصغر خلية فى ذرة، حتى أكبر الموجودات فى العالم، من أجل ذلك يحدثنا القرآن المجيد أن الله عز وجل قد أقام الوجود على التزاوج أو الزوجية فى كل شىء يقول الله عز وجل:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذريات: ٤٧ - ٥٠].

٤ - فى فلسفة التاريخ: التفسير المادى للتاريخ

لقد عرفنا الماركسيين يفسرون كل شىء تفسيرًا ماديًا بحتًا، بعيدًا عن القيم والدين والأخلاق. وهم فى هذا المبدأ الذى معنا يطبقون منهجهم هذا، وبصورة أوضح فى التعنت والتكلف ومخالفة كل المسلمات.

فقد زعم الماركسيون أن المادة والعامل الاقتصادى هو الذى يوجه سلوك الإنسان ويتحكم فى مسيرته عبر التاريخ، والعامل المادى هو الذى يفسر أحداث التاريخ البشرى من بدايته، فلا يوجد حدث فى التاريخ قام به فرد، أو جماعة، أو أمة، إلا والعامل المادى وراء ذلك الحدث.

وقد ذهبوا إلى أن الإنسان لا يُعَرَّف بأنه: حيوان ناطق، أو حيوان مفكر، لأن هذه تعريفات فاسدة ومجافية للحقيقة، والتعريف الصحيح للإنسان عند هؤلاء الشيوعيين أنه: "حيوان اقتصادى" المادة أو الاقتصاد عنده كل شيء. وهم يعللون ذلك بأن الإنسان منذ وجد فإن الحاجات الأساسية لديه هى المأكل والمشرب والمسكن والملبس، وهذه حاجات لا يستغنى عنها الإنسان، فحياته كلها من مبدئها إلى نهايتها محكومة بتلك الحاجات، والعمل على توفيرها. وكل نشاط للإنسان لا بد أن يفسر كذلك حتى ولو بدا فى ظاهره مخالفًا. فالدين والأخلاق، والقيم، ثم الحروب والهجرات، والاستعمار، ولا يستثنى من ذلك ما يقال عن بعثة الرسل والأنبياء، وما جاءوا به، والغزوات التى قاموا بها. والفتوحات.. كل ذلك عند هؤلاء ـ أخزاهم الله ـ سببه اقتصادى مادى، وليس له تفسير آخر.

وفى إطار التفسير المادى للتاريخ والحياة الاجتماعية، فسروا الأخلاق، والدين، والأسرة. لأن هذه كلها فى نظرتهم "نتاج لأوضاع المجتمع الاقتصادية السائدة فى زمنها".

فالأخلاق لا تفسر ولا تفهم فى إطار ما يسمى "بالقيم" و"العدالة" الثابتة التى لا ينبغى أن تتغير من شخص إلى آخر، بل يجب أن تكون ثابتة، وأن يكون الجميع بالنسبة إليها سواء، لكن الأخلاق تفسر بالطور الاقتصادى الذى تعايشه، ومن ثم فإن الأخلاق فى عهد الرق تختلف عنها فى عهد الإقطاع وهذه الأخيرة تختلف عن أخلاق الرأسمالية.

فالأخلاق فى عهد الرق ـ على سبيل المثال ـ كانت تعامل الرقيق ليس كإنسان بل كانت تعامله كشىء من الأشياء التى يملكها السيد وله حق التصرف فيها، ولذلك كانت الأخلاق تبيح تعذيب الرقيق وإنزال العقاب بهم حسب مشيئة السيد، وذلك ما كان يحرك شعورًا، ولا يوقظ ضميرًا.

أما أخلاق الإقطاع فكانت تعامل الأُجَرَاء وعمال الزراعة ليس كأشياء، بل كانت تعاملهم كأناس. ولكن من درجة دنيا، غير الدرجة التى تضع فيها السادة

أصحاب الإقطاعيات، وكانت تلك الأخلاق تبيح للسيد ظلم رقيق الأرض، وحرمانهم من أبسط الحقوق الإنسانية دون أن يشعر بوخزة ضمير واحدة.

أما الأخلاق الرأسمالية فقد غلفت نفسها بدعاوى الحرية والديمقراطية.. وغيرها من الدعاوى التى هى فى حقيقة أمرها لم تمنع الرأسماليين من امتصاص دماء العمال، واستغلالهم أسوأ استغلال، وحرمانهم من أبسط حقوقهم كآدميين منتجين.

إنهم يزعمون أن الأخلاق تصل إلى وضعها الصحيح فى المجتمع الشيوعى، حين تنتصر الشيوعية وتطبق، فلا يكون هناك سادة وعبيد، ولا إقطاعى ورقيق للأرض، ولا رأسمالى وعامل، ولكن الجميع يعيشون تحت مظلة طبقة واحدة ليس فيها ظالم ولا مظلوم.

هكذا فسروا الأخلاق تفسيرًا خاضعًا لنظريتهم فى المادية الجدلية، وجعلوا الأخلاق نابعة وتابعة لتلك المراحل التى تخيلوها، وفرضوها فرضًا دون أن يكون لديهم دليل واحد على صدق تلك الأوضاع التى تصوروها. وهم هنا يجعلون الأخلاق نتيجة للأوضاع الاقتصادية، ويجعلون صورها التى ذكروها صورًا حتمية لا مجال لتغييرها..

ومثل ذلك يتكلمون عن نظام الأسرة فى المجتمعات الإنسانية فيقسمون المراحل التى مرت بها الأسرة، أو العلاقة بين الرجل والمرأة إلى أوضاع هى من نسيج خيالهم المريض، كما أنهم أرجعوا تلك الأوضاع إلى العوامل الاقتصادية التى تتحكم عندهم فى كل شىء.

إنهم يقسمون أشكال الأسرة أو فلنقل: أشكال العلاقة بين الرجال والنساء إلى أطوار أربعة:

أسرة الجيل، أسرة الشركاء، أسرة الزوج الواحد، أسرة الزوجة الواحدة.

أما الأسرة التى تسمى "أسرة الجيل" فيعنون بها: العلاقة الجنسية القائمة بين الرجال والنساء من جيل واحد؛ أى: بين جميع الإخوة وجميع الأخوات على سواء. وفى هذه المرحلة كانت العلاقة الجنسية محرمة بين الأجيال المختلفة، فالعلاقة لا تكون بين الآباء والبنات، ولا بين الأبناء والأمهات، ولا بين الجيل السابق والجيل اللاحق. لأنها فى هذا الطور ـ كما تخيل الشيوعيون ـ محصورة فى أولاد الجيل الواحد.

وأما أسرة الشركاء فقد حرم فيها اتصال الإخوة والأخوات، لكن كان الاتصال فى هذه المرحلة مشاعًا بين الرجال والنساء، فالمرأة تكون شركة بين الكثير من الرجال، وإن هى حملت وولدت، فالولد يكون مجهول الأب، وينسب إلى الأم، وهى التى تتولى تربيته، أو تقوم القبيلة على ذلك.

وأسرة الزوج الواحد، أو الأسرة الزوجية كما قد يطلق عليها، فهى الصورة الأولى للأسرة المعروفة فى المجتمعات، حيث يرتبط الرجل بامرأة واحدة أو أكثر، وتكون المرأة خاصة بهذا الرجل الواحد، لا تعاشر غيره، لكنه قد يعاشر غيرها، إما على هيئة تعدد الزوجات، أو تعدد الخليلات، فالتعدد فى العلاقة من حق الرجل وحده، وفى هذه المرحلة يكون رباط الزواج عرضة للانحلال من خلال الرجل أو المرأة عن طريق الطلاق، والأولاد فى هذه المرحلة معروفة آباؤهم وأمهاتهم.

وأما أسرة المرأة الواحدة؛ ففيها يكون الرجل الواحد للمرأة الواحدة فلا يتزوج الرجل إلا امرأة واحدة، وهذه هى الصورة المنتشرة اليوم ـ كما يقولون ـ.

والغرض من وجود الأسرة ذات الزوج الواحد، أو الأخيرة ذات المرأة الواحدة، إنما هو إنتاج أولاد لا يشك فى نسبهم، بغرض أنهم هم الذين سوف يرثون كل ما يخلفه الأب والأم.

ويلاحظ على هذا التقسيم الأسرى لدى الشيوعيين أمورًا:

١ ـ أنهم يجعلون العلاقة بين الرجال والنساء تابعة للعامل المادى أو الاقتصادى كما هو شأنهم دائمًا، فالصورة الأولى والثانية صورة واحدة فيها شيوعية النساء والرجال، فالمرأة لا ترتبط برجل واحد، ويعللون ذلك بأن المرأة والرجل كانا يعملان على قدم المساواة، وكان كل منهما ينفق على نفسه، فلم تكن المرأة مضطرة إلى الارتباط برجل واحد لينفق عليها، ومن هنا كانت حرة فى علاقاتها الجنسية.

أما فى الصورتين الأخيرتين فقد أضحى الرجل هو الذى ينفق على المرأة ومن ثم فقد أضحت المرأة محتاجة إليه، مضطرة إلى أن تعيش عنده رقيقًا أو خادمة ـ كما يزعمون ـ تخلص له، ولا تقيم علاقة مع غيره، بينما هو فى كل الحالات حر فى أن يعدد فى الحالة الثالثة، أو يخونها مع الخليلات فى الحالة الأخيرة، وذلك ناشىء من حاجتها إليه ماديًّا أو اقتصاديًّا.

٢ ـ أنهم يركزون بشدة على أن المرأة مظلومة، وأن حقوقها مهضومة، وأنها تعيش لدى الرجل خادمًا أو رقيقًا، وأن ذلك يعود إلى حاجتها إليه ماديًّا أو اقتصاديًّا.

٣ ـ أنهم يزعمون أن الصورتين الأخيرتين مخالفتان للطبيعة، حيث تحرم المرأة من حريتها فى معاشرة من تشاء من الرجال، كما يضيق ـ نوعًا ـ على الرجال فى معاشرة من يشاءون من النساء.

٤ ـ يزعم الشيوعيون ـ أخزاهم الله ـ أن العلاقات الطبيعية بين الرجال والنساء سوف تعود عندما تطبق الشيوعية، حيث تتولى الدولة كفالة الجميع، وتتولى تربية الأولاد على نفقتها، وتحرر النساء من الحاجة إلى الرجال للإنفاق عليهن، ومن ثم فلا يكون هناك ما يدعو إلى أن تربط امرأة نفسها برجل معين أو أن تقصر علاقتها عليه وحده، وسوف يختفى الخوف والقلق من قلوب الفتيات فيسلمن أنفسهن ـ بلا أدنى خوف ـ لمن يحببن، وتشيع فى المجتمع

الحرية الجنسية، ولا يكون هناك ما يسمى بشرف العذراء، وبذلك تعود الأمور ـ كما يزعمون ـ إلى طبيعتها.. ومرة ثانية وثالثة، وإلى مالا نهاية ـ أخزاهم الله ـ.

يقول "إنجلز" فى كتابه "أصل الأسرة": "فبإلغاء الملكية الفردية، وانتقال وسائل الإنتاج إلى ملكية عامة، لا تبقى الأسرة الفردية هى الوحدة الاقتصادية للمجتمع، ويتحول الاقتصاد البيتى إلى صناعة اجتماعية، وتصبح رعاية الأطفال من شئون الدولة العامة. وبذلك يختفى القلق الذى يملأ قلب الفتاة ويمنعها عن تقديم نفسها لمن تحب بلا أدنى حرج، وهذا سيكون سببًا كافيًا لازدياد حرية الوصال الجنسى شيئًا فشيئًا، ومن ثم فى نشوء رأى عام أكثر تساهلاً فيما يتعلق بما يقال عن شرف العذارى وعار النساء"(١).

والذى نلاحظه فى حديثهم عن الأخلاق وصورها، وعن الأسرة ومراحلها إنما هو حديث تحكمى تقريرى، بلا أدنى دليل يثبت شيئًا من كل التصورات الخيالية التى ذكروها.

والحق الذى لا ريب فيه أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد خلق الإنسان الأول على هذه الأرض نبيًّا، وأن الشيوعية فى النساء لم تكن الصورة الأولى، ولن تكون الأخيرة، كما يتمنون، ويمنون فاسدى الأخلاق من أمثالهم، وأن هذه الصور التى ذكروها من شيوعية فى العلاقات لم تكن سمة عامة ـ إن صح أنها كانت فى حالات ـ فإن الله تعالى ـ ما ترك خلقه هملاً، وإنما كانت رسل الله تترى بالهداية والإرشاد، وقد قال الله عز وجل:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤] فما من أمة من الأمم إلا جاءها من الله ـ عز وجل ـ نذير من الرسل والأنبياء، فأين هى تلك الأمة التى شاع فيها تلكم الصور من العلاقات الشيوعية، أو ما يماثلها؟ أم هل

(١) ص: ١١٨ نقلاً عن مذاهب فكرية معاصرة. الشيخ محمد قطب.

كانت تلك الصور موجودة فى حضرة من الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ الذين بعثهم الله ـ تعالى ـ فى كل أمة؟

إن الشيوعيين ومن لف لفهم يفرزون أمانيهم التى يتمنونها زاعمين أنها حقائق كانت. وأنها ستعود، وهم ـ أخزاهم الله ـ يوهمون البعض بأن مزاعمهم حقائق علمية، ووقائع تاريخية وصور واقعية، وما هى فى حقيقة الأمر إلا أباطيل، روجها فى أذهان البعض توقح الشيوعيين فى القول بها، وتبجحهم فى عرضها، وإصرارهم الشديد على التمسك بها، والإلحاح فى نشرها على أنها نظريات علمية مقطوع بها، وهم بهذه الطريقة يروجون باطلهم، ويخدعون البعض.

على أن إبطال مزاعمهم تلك، وإظهار زيفها وبهتانها لا يكلفنا سوى نظرة فى كتاب الله ـ سبحانه ـ ثم وقفة متأنية عند بعض آياته البينات، وكلها تظهر زيف وكذب دعاوى هؤلاء السِّفْلة من الخلق، ولنأخذ من كتاب الله عز وجل قوله ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ إلى قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣١].

هذه الآيات البيّنَات فى وضوحها وبيانها تظهر كذب دعوى الشيوعيين ومزاعمهم التى وصموا بها البشرية، حين ذهبوا إلى أنها فى عهودها الأولى كانت تصطنع الشيوعية فى الأموال وفى النساء. وتبين أن دعواهم كذب وبهتان.

فالآيات نزلت فى شأن ابنى آدم ـ عليه السلام ـ قابيل وهابيل، ويروى المفسرون أن آدم ـ عليه السلام ـ كان يرزق بتوأم فى كل حمل تحمله حواء، وكان التوأم يأتى ذكرًا وأنثى، وأنه ـ عليه السلام ـ كان يزوج الذكر من حمل بأنثى من الحمل الآخر، ولا يزوج الذكر بتوأمه أو الأنثى بتوأمها، وكان ذلك تشريعًا خاصًا بآدم وأبنائه وبناته، لعدم وجود بشر آخرين سواهم. يقول المفسرون: إن قابيل وهابيل اختلفا على أخت لهما جميلة، فأراد كل منهما أن يستأثر بها زوجًا له، فارتضيا أن يقدم كل

منهما قربانًا لله ـ عز وجل ـ والذى يتقبل الله ـ سبحانه ـ قربانه يكون الزوج لتلك الأخت، وهكذا فعلا، فنزلت نار بأمر الله ـ عز وجل ـ فأكلت قربان هابيل، وبقى قربان قابيل كما هو لم يقبله الله ـ تعالى ـ عند ذلك غضب قابيل وتحرش بأخيه ثم قتله.

والشاهد هنا أن الواقعة تنفى أمرين:

الأمر الأول: الشيوعية فى النساء لدى الإنسان الأول؛ لأنه لو كان ثمة شيوعية فى النساء ما اختلف الأخوان، ولكانت الأخت المتنازع عليها لهما جميعًا، وما كان هناك مشكلة بينهما، لكن الخلاف إنما كان بين الأخوين لاختصاص الرجل بامرأته، وقصر المرأة على زوجها فقط، وبذلك بان كذب الشيوعيين ـ أخزاهم الله ـ فى دعواهم تلك.

أما الأمر الثانى: فينفى زعم الشيوعيين أن البشرية فى بداية عهدها كانت تعيش شيوعية الملك، وأنها ما كانت تعرف المِلْكية الفردية، فهذا الزعم تبطله الآيات الواردة، وتثبت أنه كذب وبهتان، فإن الآيات الكريمة تثبت أن كلاً من الأخوين تقــدم إلى الله ـ تعالى ـ بقربان من ماله الخاص، فهابيل قدم قربانًا من ماله، ومثل ذلك فعل قابيل، وإذن فإن كلاً منهما كانت له ملكية خاصة به، بعيدًا عما يملك أخوه.

وهكذا يتضح كذب هؤلاء فيما يزعمون.

فإذا ما عرفنا أن قصة هابيل وقابيل مذكورة ـ أيضًا ـ فى توراة اليهود المحرفة التى يؤمن بها اليهود، وكذلك يؤمن بها النصارى ويسمونها "العهد القديم"؛ فإن القصة تصلح أن تكون دليلاً ضد مزاعم الشيوعيين وأكاذيبهم، يستوى فى ذلك المسلمون، ثم اليهود والنصارى، وأكاذيب الشيوعيين إنما بدأت لدى النصارى ثم انتقلت إلى المجتمعات الإسلامية، فلو عقلنا مغزى القصة لبان كذب هؤلاء الأفاكين لدى المسلمين والنصارى معًا، ولما كان لهم مكان لدى أى من الفريقين.

* * *

٥ ـ فى المجال الاقتصادى: القضاء على الملكية الفردية وتأميم وسائل الإنتاج، ثم نظرية فائض القيمة

من أهم مبادىء الشيوعية الماركسية إلغاء الملكيات الخاصة وتملُّك الدولة كل شىء. ومن هذا المبدأ جاء الاسم: "الشيوعية"، أى شيوعية كل شىء لكل الناس، ولا يختص أحد بأى شىء. وزعموا أن الدولة التى تملك كل شىء سوف تعطى الناس ما يحتاجون من مأكل وملبس وعلاج. وأنها ستطبق مبدأ: "من كل بحسب طاقته، ولكل بحسب حاجته". ولكن ذلك المبدأ لن يطبق إلا حين يتحول العالم كله إلى الشيوعية كاملة. وحتى يتحقق ذلك لابد من إيغار صدور العمال على أصحاب العمل. وتأجيج نار الحقد فى قلوب العمال ضد أصحاب المصانع ورءوس المال حتى يثوروا ضدهم. وفى ذلك الإطار وتحقيقًا لهذه الخطة ابتدع "ماركس" ما أسموه: "نظرية فائض القيمة" كى يثور العمال على أصحاب المصانع. ونوضح فيما يلى هذه النظرية.

من المغلطات التى قامت عليها الشيوعية ـ وكل دعاواها مغالطات ـ ذلك المبدأ الذى زعم الشيوعيون أنه أساس من الأسس التى يجب أن تحكم العلاقة بين صاحب المصنع أو صاحب المزرعة والعمال الذين يعملون هنا أو هناك، وتحديدًا قد نادى "ماركس" بهذا المبدأ، ليكون المنظم للعلاقة بين صاحب رأس المال بمصانعه، والأجراء الذين يعملون عنده لإنتاج السلع الاقتصادية.

ويقوم هذا المبدأ على أساس أن قيمة السلعة المنتجة هى ما يبذل فى سبيل إنتاجها من عمل، فالعمل المبذول فى إنتاج سلعة ما يمثل قيمتها الحقيقية، دون اعتبار لأية عوامل أخرى، وبالتالى يكون هذا العمل هو الذى يقدر الثمن الذى تباع به، دون نظر إلى أية اعتبارات أخرى تتعلق بالسلعة. وعلى سبيل المثال: لو أن مصنعًا به مائة عامل، أجر العامل فى الشهر مائة فرنك، وهؤلاء العمال أنتجوا ألف قطعة من الملابس، فكم يكون ثمن القطعة الواحدة؟ أو ما قيمة القطعة الحقيقية؟ يقول ماركس إن قيمة القطعة تساوى عشرة فرنكات؛ لأن هذه هى القيمة التى أخذها

العامل فى مقابل العمل الذى بذله فى إنتاجها، أو كما يقولون: قيمة العمل المبذول فى إنتاجها عشرة فرنكات.

لكن صاحب المصنع يبيعها بأكثر من قيمة العمل المبذول فى إنتاجها، فهو لا يبيع القطعة بعشرة فرنكات، بل يبيعها بعشرين... والفارق الذى هو بين قيمتها التى هى عشرة فرنكات، وثمنها الذى بيعت به وهو عشرون فرنكًا، يسميه ماركس "فائض القيمة"؛ أى: ما زاد على قيمة السلعة الحقيقية.

الذى يقصده ماركس من كل هذه المغالطات الواضحة أنه يقول: إن فائض القيمة هذا هو من حق العامل، وليس من حق صاحب المصنع، وأن صاحب المصنع يأخذ فائض القيمة هذا الذى هو حق العمال ويحتفظ به، وتتراكم عنده الأموال وتتضخم، وهى كلها فى الواقع حقوق العمال سلبها صاحب المصنع. وعلى العمال أن يثوروا من أجل الحصول على حقوقهم تلك التى يضعها صاحب المصنع فى حسابه.

الهدف - إذن - من كل هذه الأباطيل إنما هو الدعوة الملحة التى نذر ماركس وأتباعه أنفسهم من أجلها، وهى الثورة العمالية الشاملة التى يحطم فيها العمال المصانع ويحرقون المزارع، ويسفكون دماء أصحابها، لتنتصر الثورة الشيوعية، وليُرْضِى ماركس ومن شايعه أحقادهم وضغائنهم ضد الأثرياء الناجحين فى أعمالهم، أو المنتجين الرابحين من وراء الإنتاج صناعة كانت أو زراعة.

وليس يخفى على النظرة العجلى - فضلاً عن المتأنية - ما فى هذا المبدأ من تجن على الحق، ومخالفة لبدائه الأمور، وعمى متعمد عن الأوليات فى النظام الاقتصادى.

ذلكم أن الزيادة فى ثمن السلعة عن تكلفة إنتاجها أمر لا بد منه، لأنه يمثل ربح صاحب المصنع أو صاحب رأس المال، ذلك الربح الذى لولاه ما خاطر صاحب رأس المال بماله، ولا كلف نفسه مشقة بناء المصنع، وإحضار الآلات بما تكلف من أموال كبيرة، ولا أتعب نفسه فى التخطيط والتفكير والإشراف، ثم فى البحث عن الأسواق لتسويق المنتجات، إلى غير ذلك من أمور كلها مكلفة ومتعبة.

يضاف إلى ذلك أن صاحب رأس المال حين ينشىء مصنعًا فإن عنصر المخاطرة قائم، واحتمال الخسارة فرضية موجودة، ففيم يجازف صاحب رأس المال، ويخاطر بأمواله، إذا لم يكن هنالك مقابل مجز من الربح يعوضه عن تلك المجازفة، ويدفعه فى نفس الوقت إلى تلك المخاطرة؟

ثم هناك الضرائب التى تتفاوت من دولة إلى أخرى، فإذا لم يكن ثمة ربح فوق تكلفة السلعة؛ فمن أين يدفع صاحب رأس المال الضرائب المطلوبة منه؟

ثم إن ماركس ومن بعده الشيوعيون يتعامون عن أمر هام وبدهىٌّ، ذلكم هو تكلفة المواد الخام التى يصنع منها المنتج، بما فيه من أثمانها، وتكلفة نقلها، وفحصها، وما يتلف منها أثناء النقل أو التخزين، فمن أين يدفع صاحب رأس المال تلك النفقات، إذا لم يكن هناك ربح يغطى ذلك كله، ويفيض عليه بما يشجعه للاستمرار فى عملية الإنتاج؟

ثم هناك صيانة الآلات، وإصلاح ما يخرب منها، إضافة إلى حراسة المصانع بما فيها من آلات ومبان، وغير ذلك.

نقول: إذا كانت قيمة السلعة يجب أن تكون مقدرة بما يأخذ العامل من أجر لينتجها؛ وإذا كانت الزيادة على هذه القيمة هى من حق العامل وحده، وليس لصاحب رأس المال فيها من حق كثيرًا كان أو قليلاً؛ فمن أين يأتى صاحب المال بتلك النفقات الكثيرة التى عددنا أهمها ولم نأت على جميعها؟ وفى مقابل ماذا يخاطر صاحب المال بماله مع احتمال الخسارة وضياع المال؟ وفى مقابل ماذا ـ أيضًا ـ يتعب صاحب رأس المال نفسه، ويجهد فكره، ويسهر ليله، ويجد ويجتهد فى التفكير والتخطيط والتنظيم.

إذا لم يكن هناك مقابل لكل ذلك فلم يقوم صاحب المال بإنشاء المصنع؟ إنه ـ بداهة ـ سوف يضع ماله تحت عينه، ولا يجازف به، ولن يفتح مصنعًا، بل ولن يفكر فى ذلك مجرد تفكير.

وفى هذه الحالة من يكون الخاسر ؟ صاحب المصنع الذى كدس المال عنده، يأكل منه. وينفق على نفسه وأسرته؟ أم العامل الذى لا يجد عملاً. ويعيش حالة من

البطالة والفقر ولا يجد لقمة الخبز التى تسد رمقه وتحفظ الحياة على أولاده؟ ليس من شك فى أن صاحب المصنع سوف يكون مطمئنًا على ماله، مستريحًا، ما دام لا يجنى ربحًا من وراء المصنع، أما الخاسر الحقيقى فهو العامل الذى لا يجد مجالاً للعمل. لأنه مقضى عليه لا محالة، فى مجتمع غربى لا يعرف التكافل والتعاون.

وبذلك يكون ذلك المبدأ وبالاً على العمال، وليس على أصحاب رءوس الأموال.

إن ماركس وأضرابه لو نظروا فى الإسلام نظرة متأنية منصفة لوجدوا العلاج الإلهى العادل، والوسيلة المأمونة الحكيمة التى جاء بها شرع الله ـ تعالى ـ وطبقها المعصوم رسول الله ﷺ، والمؤمنون المسلمون من بعده.

إن الإسلام وازن بين حق صاحب رأس المال فى أن يربح ربحًا شريفًا حلالاً طيبًا، يجزئه عن مخاطرته بماله، وعن كل ما يتكلف من نفقات لشراء الآلات، وبناء المصانع، وشراء المواد الخام، وكل ما يتصل بذلك من نفقات، ويبقى له بعد ذلك نصيب يشجعه ويدفعه إلى القيام بذلك الجانب الهام والرئيسى من جوانب الاقتصاد الذى لا يستغنى عنه بلد. نقول: إن الإسلام وازن بين حق صاحب رأس المال فى الربح، وحق العامل فى أن يحصل على مقابل مجز لتعبه ومجهوده الذى يقوم به، ويكون فى نفس الوقت كافيا لتوفير حياة شريفة إنسانية له ولأسرته.. وفى هذا الإطار أوصى الإسلام العامل بالإخلاص فى عمله وإتقانه، فقال رسول الله ﷺ: "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته... والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته" وليس من شك فى أن العامل داخل فى هذا العموم. وكما أوصى الإسلام العامل، أوصى صاحب العمل بألا يكلف العامل فوق ما يطيق، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : "لا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون وإن كلفتموهم فأعينوهم"، وفى إطار الأجر قال ﷺ لأصحاب الأعمال: "أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه" لذلك لم يكن فى الإسلام مثل هذه المشكلة، ولا أثر لمثل ذلك المبدأ الفاسد.

* * *

٦ ـ فى المجال الاجتماعى والسياسى: الصراع بين الطبقات، وديكتاتورية العمال (البروليتاريا).

وهذا المبدأ يقيمه الشيوعيون انطلاقًا من نظرتهم المادية إلى الحياة والأحياء وكذلك من مبدأيهم السابقين: المادية الجدلية، والتفسير المادى للتاريخ..

وقد سبق أن بينا أنهم يقسمون أدوار التاريخ البشرى إلى: شيوعية أولى بدائية، ثم إلى مرحلة الرق، ثم إلى مرحلة الإقطاع، ثم إلى مرحلة الرأسمالية، ثم يتنبئون ـ أخزاهم الله ـ تعالى ـ بالوصول إلى الشيوعية الأخيرة.

والشيوعيون يقيمون نظريتهم فى الصراع بين الطبقات بناء على هذه التقسيمات، فهم يزعمون أن الشيوعية البدائية لم يكن فيها صراع واضح، وأن الصراع بدأ من عهد الرق إلى عهد الرأسمالية، مرورًا بعهد الإقطاع، فالعهود الثلاثة كانت مجالاً للصراع بين الطبقات، وكل صراع فى كل مرحلة يتمخض عن المرحلة التالية، التى تكون أيضًا مجالاً للصراع الذى يقضى عليها ويتمخض عن المرحلة التالية، وأن الصراع لن ينتهى إلا حين تصل البشرية إلى مرحلة الشيوعية الأخيرة، التى ينتهى فيها الصراع، لأنها لا تحتوى على طبقات يقع بينها صراع، وإنما يكون المجتمع فيها عبارة عن طبقة واحدة.

وهم يزعمون أن الصراع فى عهد الرق كان بين طبقة السادة الذين يملكون كل شىء، والعبيد الذين لا يملكون أى شىء، بل هم أنفسهم مملوكون للسادة، وقد ظل الصراع يقوى ويزداد حتى تمخض عن قيام المرحلة التالية التى هى مرحلة الإقطاع. وفى مرحلة الإقطاع قام الصراع بين طبقة رقيق الأرض الذين يمثلون الغالبية، وطبقتى الأمراء ورجال الدين الذين كانوا يملكون الإقطاعات، ولهم كافة الامتيازات، وفى هذه المرحلة اشتد الصراع حتى جاءت المرحلة التالية التى هى الرأسمالية، وفيها انتقل الصراع إلى وضع مختلف؛ حيث صار بين الرأسمالية "البرجوازيين" أصحاب المصانع. والعمال الذين تقوم على أكتافهم حركة الإنتاج. لكن الرأسمالى أو البرجوازى يستولى على فائض القيمة الذى هو من حق العامل،

ويضمه إلى رأس ماله فتزداد أمواله ويزداد غنى، ويزداد العمال فقرًا، وهذا وضع يؤدى حتمًا إلى تذمر العمال، ويدفعهم إلى إشعال الصراع ضد البرجوازيين، ثم إلى ثورة عارمة تدمر وتحرق المصانع، وتقضى على أصحاب رءوس الأموال أو البرجوازيين، وتضع الطبقة العاملة أو الأَجَرَاء أو "البروليتاريا" يدها على مقاليد الأمور. وحينذاك تبدأ المرحلة الخامسة والأخيرة من مراحل تاريخ البشرية. وتتحقق الشيوعية التى تبيد فيها الطبقات وتذوب فيها الفوارق، ويصير الجميع طبقة واحدة، وينتهى الصراع آنذاك بانتهاء الطبقات.

هذا مبدأهم فى الصراع بين الطبقات، وقد أوحى إليهم به شيطانهم وخيالهم المريض الذى لا يعرف من العلاقات الإنسانية بين الإنسان وأخيه فى مجتمع البشر إلا الأحقاد، والمقت والكراهية، ثم الصراع والتقاتل.

وقد أخطأ ماركس ومن تابعه فى حساباتهم، فلم يتحقق شىء مما قالوا عن الثورة العمالية، والصراع المدمر بين العمال وأصحاب المصانع، حيث قصروا نظرتهم على ما كان واقعًا فى فترة معينة من تاريخ الصناعة فى ألمانيا، وعمموا ذلك على سائر البلدان وكافة العصور، وظنوا كذلك أنها تستمر وتتفاقم بمرور الوقت، لكن الذى حدث، أن أصحاب المصانع بدأوا يتفهمون مشاكل العمال، ويرعون ظروفهم فى الصحة، والمأكل، والمسكن، وسائر ظروفهم الحياتية، ثم تكونت نقابات العمال التى صارت تدافع عن حقوق العمال، وتوفر لهم كافة حقوقهم، وبدأ أصحاب رءوس الأموال يتفاوضون مع هذه النقابات وينفذون ما تطلب، فانتهى ذلك العهد الذى تنبأ فيه المتنبئ الكذاب بتفاقم الصراع، والثورة العارمة المدمرة، ومجىء عهد الشيوعية، إن الذى وقع أنهم قاموا بثورة شيوعية سالت فيها الدماء أنهارًا، وقتل فيها عشرات الملايين على مذابح أطماعهم وأحقادهم، ثم شاء الله ـ تعالى ـ أن يقضى على هذا النظام الفاسد الملحد، وأن تتمخض شيوعيتهم عن الرأسمالية التى بدأت تأخذ طريقها إلى المجتمع الروسى من جديد.

إن الإسلام قد أنشأ مجتمعه المسلم على نظام إلهى حكيم، قطع الطريق على أمثال

هذه الدعوات الهدامة، والنزعات المدمرة لكل المعانى الإنسانية قبل أن تكون مدمرة لمصنع أو مزرعة.

إن الإسلام أقام مجتمعًا جعله جسدًا واحدًا، الناس فيه أغنياء وفقراء حكامًا ومحكومين يمثلون أعضاء ذلك الجسد، فهم من الجسد إما رأس؛ أو يد، أو رجل، وكلها متعاونة ليبقى الجسد حيًّا سليمًا معافى، وفى ذلك يقول الرسول ﷺ: (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر).

كذلك قام المجتمع المسلم على التراحم المنبثق من الأخوة التى تجمع بين المؤمنين، أخوة فى الله ـ سبحانه ـ لقول الله عز وجل:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠].

كذلك قام المجتمع المسلم على أساس أن التفاضل الحق بين الناس لا يكون بالمال، أو السلطان، أو الجاه والقوة، وإنما بقدر ما يتقى الإنسان ربه فى نفسه، ثم فى إخوانه الذين يشاركونه مجتمعه. يقول ـ سبحانه ـ.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

إن الإسلام لم يوغر صدور الفقراء ضد الأغنياء، ولا خوف وحذر الأغنياء من الفقراء، بل أقام المجتمع المسلم على أساس من التكافل والتعاون والتآزر، فجعل الأغنياء مسئولين عن الفقراء، وجعل فى مال الأغنياء حقًّا معلومًا للسائلين والمحرومين، وجعل تلك الحقوق فى أموال الأغنياء حقوقًا للفقراء معلومة، بل وزاد على ذلك فرغب فى الصدقات، وهى بذل الأغنياء من أموالهم للمحتاج حتى يستغنى... إلى غير ذلك من الأسس التى أقام الإسلام المجتمع المسلم عليها، والتى تجعله مجتمعًا متماسكًا متراحمًا متلاحمًا تشيع فيه الرحمة، والألفة، والمودة، والأخوة.

على أنه إن كانت هذه الدعوة الهدامة التى تنضوى عليها الأفكار الشيوعية، قد تسللت إلى بعض المجتمعات الإسلامية، فإن ذلك إنما كان فى غيبة من تعاليم الإسلام، وتنكب من هذه المجتمعات لهذه التعاليم الربانية الراشدة، ورغم ذلك فإن عمرها قصير، وأملها محدود، هى مقضى عليها ـ بحول الله ـ تعالى ـ.

* * *

أهداف الشيوعية الماركسية

للشيوعية الماركسية أهداف قامت لتحقيقها والوصول إليها، وقد وضع زبانية الماركسية تلك الأهداف نصب أعينهم وجدُّوا، وقتلوا عشرات الملايين، وأشقوا وأتعسوا المئات من الملايين، رغبة فى تحقيق تلك الأهداف، ولكن الله ـ تعالى ـ كان لهم بالمرصاد، فلم يتحقق منها شىء ذو بال كما سيتضح من دراستنا إياها، وأهم هذه الأهداف ما يلى:

١ ـ القضاء على الدين، ومحوه من قلوب ونفوس الشعوب.

٢ ـ القضاء على الملكية الفردية.

٣ ـ تأميم وسائل الإنتاج، وتملك الدولة كل وسيلة من وسائله.

٤ ـ إلغاء الطبقات والإبقاء على طبقة واحدة هى طبقة العمال ـ البروليتاريا ـ.

٥ ـ كفالة الدولة لجميع المواطنين، وذلك بتطبيق مبدأ: "من كل حسب قدرته، ولكل حسب حاجته".

٦ ـ إلغاء الدولة، والشرطة، والجيش.

٧ ـ الوصول فى النهاية إلى مرحلة "الأممية"، فينصهر العالم كله فى أمة شيوعية واحدة تلغى فيها الحدود بين الدول، كما يقضى فيها على القوميات والجنسيات، وتذوب دول العالم كلها فى أمة واحدة شيوعية ماركسية. هذه هى الأهداف الرئيسية للشيوعية الماركسية، وقد تكون هناك أهداف أخرى فرعية، لكنها تندرج تحت تلك الأهداف التى ذكرناها، فلا حاجة للإطالة بذكرها.

وسوف نقف مع كل هدف من هذه الأهداف وقفة يسيرة، ننظر فى أهميته

بالنسبة للنظام الشيوعى ومنزلته منه، ثم نرى إن كانوا قد نجحوا فى تحقيقه؟ ومدى ذلك النجاح؟

* * *

١ ـ القضاء على الدين، ومحوه من نفوس وقلوب الشعوب.

إن هذا الهدف عندهم قائم على مبدأ من المبادىء الأساسية فى البناء الشيوعى الماركسى، ذلك المبدأ الذى يقول: "لا إله، والكون مادة". وهذه المقولة الفاسدة لا تمثل مبدأ من مبادئهم فقط، بل تمثل حجر الزاوية فى شيوعيتهم، لأنهم يدركون جيدًا أن مذهبهم يصادم الدين، سواء كان الدين حقًّا أو باطلاً، ولذلك وضعوا فى أولوياتهم أن يزيحوا الدين من طريقهم، حتى تخلو لهم الساحة دون عقبات.

وإن كان الدين الذى نشأت فى ظله الحركة الشيوعية الماركسية هو النصرانية، فإنهم أدركوا جيدًا أن الإسلام أشد خطرًا على دعوتهم الفاسدة من النصرانية وغيرها؛ حيث إن الإسلام بتشريعاته الحكيمة التى تشيع العدل والمساواة، وتزرع الود، والحب، والوئام، وتقضى على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، يقف عقبة كأداء أمام الشيوعية الماركسية التى تعتمد ـ أساسًا ـ فى دعواها على الظلم الواقع على طبقة العمال والأجراء. ثم إن ثمة سببًا ثانيًا يجعل الإسلام هو العدو الأول للشيوعية الماركسية، ذلكم أن النصرانية انزوت داخل الكنيسة وتركت الدنيا للناس يصوغونها كما يشاءون بما تشتمله نظمهم من ظلم وفساد. ومن ثم فإن النصرانية لا تمثل عائقًا أمام الشيوعية الماركسية، أما الإسلام فإنه قد شمل بتشريعاته وأحكامه شئون الناس الحياتية كلها، فلم يترك مجالاً لمذهب فاسد، أو نظام باطل أن يفسد على الناس حياتهم، أو يحولهم إلى قطيع يسومه أصحاب النفوس المريضة، وذوو الأغراض الخبيثة.

ومن هنا كان الإسلام هو صاحب الحظ الأوفر من عداء هذه الطغمة الشيوعية الفاسدة، وكانت جهودهم للقضاء على دين الله الحق الإسلام أضعاف جهودهم التى بذلوها مع النصرانية، ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعًا فيما سعوا إليه وأملوا فيه من

القضاء على دين الله الإسلام فى روسيا، وبخاصة فى الجمهوريات الإسلامية التى استولى عليها الشيوعيون الروس بالقوة الغاشمة، ورغم أنهم قتلوا من المسلمين الآلاف بل عشرات الآلاف بل مئات الآلاف، فإن دين الله ظل يشع بنوره فى تلك البقاع، وما انطفأ نوره ولا خبا.

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨].

بل إنهم ما استطاعوا القضاء على النصرانية الدين الباطل على ما فيه من مناقضات للفطرة، وانزواء داخل الكنائس، وانطواء عن شئون الناس الحياتية، فكيف يقضون على الدين الحق الإسلام الذى هو فطرة الله التى فطر الناس عليها.

إن الشيوعيين بذلوا محاولات مستميتة للقضاء على الأديان التى كانت تدين بها الشعوب التى تحت سلطانهم، ولكنهم فشلوا لأن التدين غريزة فطرية، لا يمكن أن يعيش الإنسان دون إشباعها ـ ولأن الله ـ تعالى ـ فطر الناس على التدين، فإن الناس حين منعوا عن إشباع فطرتهم هذه بالدين الحق، لجئوا إلى الأديان الباطلة، كالعطشان الذى لا يجد ماء طاهرًا ليروى به عطشه، فإنه يشبع غريزة العطش عنده بما يجد من ماء مالح، أو نجس، أو حتى خمر.

ومن هنا ما كادت الشيوعية تسقط فى روسيا، حتى عاد الناس يزاولون شعائر دينهم بحرية وفى ضوء النهار، بعد أن كانوا يزاولونها سرًا فى عهد الطواغيت الشيوعيين، وعادت حركة العمارة إلى دور العبادة لتقف من جديد شاهقة شاهدة على فشل الشيوعية والشيوعيين.

* * *

٢ ـ القضاء على الملكية الفردية.

وهذا مبدأ آخر من مبادىء الشيوعية، وهو فى نفس الوقت هدف من أهم أهدافها، أو هو فى الواقع أهم أهدافها على الإطلاق، لأن اسم المذهب "الشيوعية"

يشير تحديدًا إلى هذا المبدأ "إلغاء الملكيات الخاصة"، فهذا المبدأ هو الهدف الأساس الذى قامت الشيوعية لتحقيقه.

لكن الشيوعية التى فشلت فى كل شىء سعت إليه، وكذبت فى كل أمر تنبأت به، قد فشلت فى تطبيق هذا المبدأ.

وحين قامت الثورة الشيوعية بقيادة "لينين" ـ لعنه الله ـ كان يظن أنه سيطبق الشيوعية بسهولة ويسر، وأن مبادىء "ماركس" سوف تصبح بين عشية وضحاها واقعًا ملموسًا، لكنه فوجىء بصعوبة تطبيق هذا المبدأ، بل باستحالته، ورغم أن "لينين" السفاح قد قتل ملايين الناس، نعم: ملايين الناس، كى يطبق مبادىء الشيوعية، وعلى رأسها ذلك المبدأ، إلا أنه فشل فى ذلك، وارتد خائبًا، يبيح الملكية الفردية فى إطار الأسرة، بل ويبيح وسائل الإنتاج شريطة ألا يستخدم المنتج عمالاً، بل يكتفى بنفسه وأولاده، بل إنه ـ أخزاه الله ـ قد قسم المزارع إلى ما سمى بالمزارع الجماعية، كل جماعة معينة يعملون فى مزرعة ليعطوا نصيبًا مقررًا من إنتاجها إلى الدولة، ثم يأخذوا هم ما زاد على ذلك، بل إنهم أخذوا يتوسعون فى تمليك الأفراد والمجموعات حصصًا من الملكيات التى كانوا أمموها لصالح الدولة. كل ذلك لأنهم وجدوا أن اقتصاد روسيا قد انهار تمامًا، وأضحت الدولة التى كانت تنتج ما يكفيها من الطعام ويزيد، أضحت لا تجد رغيف الخبز إلا من المعونات التى تمنحها إياها أمريكا، عدوتها اللدودة.

بل إن الصين التى ناصبت روسيا العداء متهمة إياها بالتحول عن مبدىء "ماركس" ـ لعنه الله ـ فيما يتصل بالملكية الخاصة، إن الصين نفسها قد تحولت الآن تبيح من الملكيات الخاصة فوق ما كانت تصنع روسيا قبل سقوطها، وتخون مبادىء ماركس فوق ما كانت تفعل روسيا، ذلكم أن "التَّملُّك" غريزة من الغرائز الأصلية فى الإنسان، وحاجة من حاجاته الفطرية، وقد قرر العلماء أن من غرائز الإنسان التى يولـد بـها ما يسـمى بـ "غـريزة التمـلك"، ومقاومة الحاجات الفطرية،

والضروريات الغَرْزِية أمر محكوم عليه بالفشل، ومن هنا كان فشل الشيوعية فى هذا المجال.

* * *

٣ ـ تأميم وسائل الإنتاج، وتملك الدولة كل وسائله.

لقد فشلت الشيوعية والشيوعيون فى ذلك، وقد بينا فى الفقرة السابقة أن الشيوعيين فى بداية ثورتهم طبقوا التأميم على كل شىء ثقة منهم فى ترهات "ماركس"، لكنهم ـ وقبل أن يمر عام واحد رجعوا فأباحوا من وسائل الإنتاج ما كان خاصًّا بالأسرة دون أن توظف لديها عمالاً من غير أفرادها، ثم رجعوا فى تأميم الأرض، وهى وسيلة الإنتاج الزراعية، فقسموا الأرض على جماعات، كل جماعة مسئولة عما تحت يديها من الأرض بحيث تنتج قدرًا معينًا للدولة، وما بقى يعود عليها.

أما وسائل الإنتاج الصناعية فقد فشلت فشلاً واضحًا منذ تأميمها، وعجزت عن مسايرة الصناعات الغربية، وأضحى معلومًا تخلف الصناعة فى روسيا بمراحل، ولم ينكر الشيوعيون ذلك، وهذا بسبب تأميم الصناعة، على عكس تنبؤاتهم، ولم يفلحوا إلا فى الصناعات الحربية التى فاقوا فيها الغرب من حيث الكم، وليس من حيث الكيف، وذلك لتركيزهم الشديد على هذا النوع من الصناعة، بسبب كونهم يعدون للعدوان على الأمم الأخرى الضعيفة لنشر شيوعيتهم بها.

وما أن سقطت الشيوعية فى روسيا حتى سارع الشعب والكثيرون من قواده، وجمهرة المثقفين تطالب بالعودة إلى النظام الحر فى الصناعة، وتمليك وسائل الإنتاج إلى القادرين من أفراد الشعب، أو ما يسمونه بنظام "الخصخصة"؛ أى: تخصيص وسائل الإنتاج بدلاً من تعميمها.

* * *

٤ـ إلغاء الطبقات جميعها،والإبقاء على طبقة واحدة هى طبقة العمال (البروليتاريا)

وهذه إحدى الأكاذيب الكبرى لماركس ومن شايعه، فقد تنبأ مُتَنَبِّىء الشيوعية الكذاب بأن جميع الطبقات سوف تنتهى ويقضى عليها، لتحل محلها طبقة العمال، أو ديكتاتورية البروليتاريا.

وقد بنى مبدأه ذلك على نبوءة من نبوءاته الكثيرة التى لم يصدق منها شىء، حيث زعم أن المصانع الكثيرة التى كانت منتشرة فى عصره، والتى تقوم على أعداد هائلة من العمال، سوف يتقلص عددها، نتيجة المنافسة بين المصانع الكبيرة القوية والمصانع الصغيرة، حيث يعجز أصحاب المصانع الصغيرة عن المنافسة فيغلقون مصانعهم، أو يبيعونها لأصحاب المصانع الكبيرة، فتختفى الصغيرة، وتتضخم الكبيرة، وباختفاء المصانع الصغيرة، وهى كثيرة، وتمثل القاعدة العريضة للصناعة، سوف تتوفر أعداد هائلة من العمال، لا يجدون عملاً، ولا مصدرًا للقوت الضرورى، ثم بتقدم الصناعة، وظهور الآلات التى تحل محل العمالة اليدوية، سوف يتوفر أعداد أكثر وأكثر من العمال، الذين يجدون أنفسهم مضطرين فى نهاية الأمر إلى مواجهة أصحاب المصانع ورءوس الأموال، والثورة عليهم، وبما أن أعداد العمال تفوق أعداد أصحاب المصانع بنسبة كبيرة، وسوف يستعمل العمال كل وسيلة للقضاء على أصحاب المصانع "طبقة البرجوازيين" فيخرب العمال المصانع، ويعطلون الآلات، ويهدمون المبانى، ولا يتركون شيئًا من امتيازات طبقة البرجوازيين ـ أصحاب المصانع ـ فإن النتيجة ستكون ـ حتمًا ـ القضاء على جميع الطبقات، وبالذات الطبقة "البرجوازية" التى تملك المصانع وتسخر العمال ولا يبقى فى المجتمع كله سوى الطبقة المنتصرة، طبقة العمال أو "البروليتاريا".

وقد أقام "ماركس" نبوءته هذه على أساس فساد الصلة بين العمال وأصحاب المصانع وظلم أصحاب المصانع للعمال، وبتفاقم ذلك الظلم بمرور الوقت. لكن الذى حدث كان عكس ما توقعه تمامًا، فقد بدأ أصحاب المصانع فى تحسين معاملة العمال، ووضع البرامج لرفع مستواهم صحيًا واجتماعيًا، ثم تكونت نقابات العمال

التى تتحدث باسم العمال وتدافع عن حقوقهم، وكان أصحاب المصانع يستجيبون لمطالب النقابات، مما حَسَّنَ العلاقة بين الطائفتين، وقضى على نبوءة "ماركس"، ووأد آماله فى مهدها، ولم يتحقق من مبدئه ذاك شىء.

* * *

٥ ـ كفالة الدولة لجميع المواطنين، وتطبيق مبدأ: (من كل حسب طاقته، ولكل حسب حاجته).

هذا المبدأ يعتبر الهدف الأسمى بالنسبة للحياة الاجتماعية، وإشاعة الأمان لأفراد المجتمع، كما تخيله فلاسفة الشيوعية.. ومقتضاه أن يعمل جميع المواطنين، ويبذلوا كل ما فى طاقاتهم، ثم يحصلوا فى مقابل ذلك على الأجر المجزى مقابل عملهم، وإذا كان هناك من لا يستطيع العمل كالمرضى، والزمنى، المسنين، والعجزة، فإن المجتمع الشيوعى يكفل حاجاتهم، ويقوم بقضاء ضروراتهم المعيشية، وهذا هو المراد بما زعموه من كفالة المجتمع لكافة المواطنين.

لكن ذلك لم يتحقق أبدًا، شأنه فى ذلك شأن جميع أكاذيبهم، ولكى يعللوا عدم تحقيقه، زعموا أن تحقيق الشيوعية يمر بمرحلتين، مرحلة أولى سابقة على الشيوعية، ويسمونها مرحلة "الاشتراكية"، وهى مرحلة ضرورية للتمهيد لتحقيق الشيوعية، وفى مرحلة الاشتراكية هذه لا يطبقون المبدأ المذكور، بل يطبقون مبدأ آخر هو: "من كل حسب طاقته، ولكل حسب عمله"؛ وهذا يعنى: أن الدولة الشيوعية فى المرحلة الأولى التى تعتبر ـ عندهم ـ تحضيرًا وتمهيدًا للشيوعية وهى مرحلة الاشتراكية، لا تكفل الدولة جميع المواطنين، وإنما تكفل الذين يعملون وينتجون، أما الذين لا يعملون لشيخوخة، أو عجز، أو مرض، أو بسبب كونهم غير مؤهلين للعمل المتوفر، كل هؤلاء لا تكلفهم الدولة، وهى غير مسئولة عن إطعامهم، فليموتوا جوعًا، ومرضًا، وعجزًا، أو فليكفلهم جار لهم أو قريب، أو فليضموا إلى جيوش المتسولين.

وقد كان الأمر كذلك بالنسبة لجمهرة كبيرة من الشعب السوفيتى الذى ابتلى

بتلك الطغمة من الشيوعيين الذين حكموه بالحديد والنار قرابة الثمانين عامًا، فلما سقطت الشيوعية كشفت الأحداث الستار عن المآسى الرهيبة التى كان يرزح تحت نيرها الشعب السوفيتى من الفقر، والجوع، والعوز، وصرنا نقرأ ونشاهد بالصور حشود الرجال والنساء الطاعنين فى السن وقد جلسوا فى الطرقات يعرضون للبيع بعض الأوانى المنزلية المستعملة، أو بعض الملابس التى هم فى أشد الحاجة إليها، لكنهم يبيعونها طمعًا فى أن يحصلوا أو يحصلن فى مقابلها على ما يشترون به بضعة أرغفة من الخبز تملأ أجوافهم الخالية.

لقد تعرَّى ذلك النظام الفاسد الذى زعم أنه قام لتحقيق المساواة، وإعادة الحقوق إلى الفقراء، و"كفالة جميع المواطنين"، فإذا جميع المواطنين جوعى ومرضى، وفى حال من العوز والبؤس لم يسمع بها فى تاريخ البشر، لا يستثنى من ذلك سوى طبقة الحكام السادة الذين سخروا الدولة كلها لشهواتهم وأطماعهم.

* * *

٦ ـ إلغاء الدولة، والشرطة، والجيش.

وهذا وهم آخر من أوهامهم، وأكذوبة من الأكاذيب التى روجوا بها لمذهبهم الفاسد، وهى نبوءة تنضم إلى ركب نبوءات الماركسيين الواهمة التى بينها وبين الواقع والتطبيق كمثل ما بين سماء الله وأرضه.

لقد زعم هؤلاء أن الدولة فى حقيقة أمرها إنما هى سلطة للضغط والقمع، وهى للضغط على أفراد المجتمع وتخويفهم وقمعهم، حتى لا يتجاوزوا القانون، ويتعدوا على النظام، ويشيعوا الفساد فى المجتمع، وقد زعموا أنه فى الدول الرأسمالية "البورجوازية" تكون قوة الدولة موجهة من الرأسماليين لقمع طبقة العمال، وتخويفهم، واستعبادهم لصالح أصحاب رءوس الأموال، أما فى النظام الشيوعى، فإن الدولة تكون على عكس ذلك، فإن قوتها وإمكاناتها تكون موجهة لقمع الرأسماليين، حتى لا تطل الرأسمالية برأسها ثانية، وتفسد النظام الشيوعى.

والدولة بهذا المعنى تكون الحاجة إليها فى وجود النظم الرأسمالية، أما حين تنتصر الشيوعية، وتعم العالم كله شرقًا وغربًا، ويقضى على جميع الأنظمة الرأسمالية "البرجوازية"، ويكون العالم كله دولة شيوعية واحدة، فإنه فى تلك الحال تكون السيطرة لطبقة العمال، ولا يكون هناك خوف من النظم البرجوازية نظرًا لانتهائها، ومن ثم فلا تكون هناك حاجة للحكومة، لأن طبقة البروليتاريا المهيمنة على العالم كله آنئذ ستكون آمنة من وجود الرأسمالية المستغلة.

كذلك سيكون جميع سكان العالم تحت النظام الشيوعى الشامل قد اطمأنوا إلى أن حاجاتهم متوفرة، وحقوقهم مضمونة، وبالتالى فلن يكون هناك حاجة إلى رجال للشرطة.

كما أن تحول العالم إلى شعب شيوعى واحد يجعل وجود جيش أو قوة مسلحة أمرًا لا معنى له؛ لأن الجيش إنما هو للدفاع عن الدولة ضد الدول الأخرى، وليس هناك إلا دولة واحدة أو شعب واحد فى العالم كله، فلا خوف من اعتداءات خارجية ومن ثم فلا وجود للجيش فى الشيوعية المنتظرة ـ فى زعمهم ـ.

* * *

٧ ـ الوصول إلى الأممية النهائية.

إن الأممية أو الدولية مصطلح يطلقه الشيوعيون على الحركات الاشتراكية التى تمهد للوصول إلى الشيوعية، وهى حركات قائمة على استثارة العمال فى الدول الأوربية، ثم على تجميعهم فى اتحادات شيوعية أو اشتراكية تمهدهم لعمل ثورى ضد أنظمة الحكم القائمة.

ولقد أسس "ماركس" ما أسماه "الأممية الاشتراكية، أو الدولية الاشتراكية الأولى". فى عام ١٨٦٦م، وقد ظلت هذه الدولية الاشتراكية قائمة فعالة حتى عام ١٨٧٠م، حيث أضعف من شأنها الحرب بين فرنسا وألمانيا، وقد كانت تلك الأممية أو الدولية عبارة عن تجمع لاتحادات العمال فى أوربا، يقوم بنشاط واسع لنشر أفكار

ماركس الشيوعية، لكن الخلافات وقعت بين القائمين به حتى إن بعضهم أسس هيئات منافسة لتلك الهيئة الشيوعية.

وفى المؤتمر الثانى المنعقد بباريس ١٨٨٩م أسس أتباع ماركس الدولية الاشتراكية الثانية.

ثم فى سنة ١٩١٧م قامت الثورة الشيوعية فى روسيا مؤسسة الدولية الاشتراكية الثالثة.

وهذه الدوليات أو الأمميات الاشتراكية إنما هى تمهيد للوصول إلى الأممية النهائية، التى يزعمون أن الشيوعية فيها ستعم وجه الأرض، وستكون دول العالم قد بادت وقضى عليها، وقامت على أنقاضها الأممية الشيوعية، التى أشرنا فى الفقرة السابقة أنها ستكون بلا دولة، ولا حكومة، ولا شرطة، ولا جيش.. إلى غير ذلك من أوهامهم وأكاذيبهم التى لم يتحقق منها شىء بل تحقق كل ما هو نقيض لها ومخالف، حتى كان سقوط الشيوعية فى معقلها السوفيتى الذى أعطى الدليل الواضح على أن كل مزاعم الشيوعيين أكاذيب وأوهام وأباطيل.

* * *

المبحث الثانى

نظرية التطور الحيوى

أولاً: التطور: مفهومه والمراد به

"الطور" فى اللغة: الحال، والتارة، والمرة، يقال: طورًا بعد طور؛ أى: حالاً بعد حال، وتارة بعد تارة، ومرة بعد مرة، والناس أطوار؛ أى: حالات، وأشكال، وأخلاق شتى، وقد قال الله عز وجل فى التنزيل الشريف:

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: ١٣، ١٤].

أى: خلقكم على أشكال، وألوان، وأحوال مختلفة.. وقد يراد بالأطوار فى الآية الكريمة المراحل التى يمر بها خلق الإنسان منذ كان نطفة حتى يصير تام الخلق، مكتمل التكوين، قال الفراء: أطوارًا؛ أى: خِلَقًا مختلفة متتالية: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة.. وإلى ذلك ذهب جمهرة المفسرين؛ قالوا: طورًا نطفة، وطورًا علقة، وطورًا مضغة.. وقد قال الرسول ﷺ: (يجمع ابن آدم فى بطن أمه أربعين ليلة نطفة، ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح...)، الحديث؛ أى يجمع فى بطن أمه طورًا بعد طور.

والطور - أيضًا - الحد والمنتهى؛ يقال: فلان تخطى طوره؛ أى: جاوز قدره، وتعدّى حدّه.

ومن المعانى المتقدمة لكلمة "طور" اشتقت كلمة "تطوُّر" التى تعنى الانتقال من طور سابق إلى طور لاحق، أو من حال إلى حال، تارة بعد تارة، وذلك كما انتقل الإنسان - بأمر الله - سبحانه - من طور النطفة، إلى طور العلقة، إلى طور المضغة، والتى تعنى - أيضًا -: تعدى الشىء حدَّه، ومجاوزته قدره الذى هو عليه، حيث يكون الشىء على حال ثم يتعداها إلى حال جديدة.

فالتطور يعنى التغير التدريجى والانتقال المتوالى من حال إلى حال، فى رحلة قد تنتهى بعد نقلة واحدة، فيكون تطور الشيء قد انتقل به من حال سابقة إلى حال لاحقة ثم توقف ـ إن جاز أن يتوقف التطور ـ. وقد تستمر رحلة التطور عبر عدد متتال من الأطوار والحالات.

"والتطور" يختلف عن "التغير"، من حيث إن التطور يعنى التغير مع قيد التقدم والترقى إلى الأعلى والأكمل، أما التغير فيعنى الانتقال من طور إلى طور، سواء كان انتقالاً إلى الأعلى والأكمل، أو إلى الأدنى والأسفل.

على أن هناك من لم يعتبر ذلك القيد، فذهب إلى أن التطور هو التغير، سواء كان إلى الأعلى والأكمل، أو إلى الأدنى والأسفل، فالتطور عند هؤلاء قد يكون انتقالاً من طور إلى طور أقل منه كمالاً، وأدنى رقيًّا.

والتطور قد يكون فى أمور مادية حسية، وقد يكون فى أمور معنوية عقلية، وكما يكون التطور فى البنية الجسمية للكائنات الحية، وكما يكون فى الإنسان حين ينتقل من طور النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى أن يصير سويًّا عند مولده، ثم يتطور بعد ذلك من طفولة، إلى شباب وقوة، ثم إلى شيخوخة وضعف.

يكون التطور كذلك فى الأمور المعنوية العقلية؛ مثل الأخلاق، والسلوك، والعلاقات، والنظم السائدة فى المجتمعات البشرية.

وهذا ما أشار إليه واضعو "المعجم الوسيط"؛ حيث عرفوا التطور بأنه: "التغير التدريجى الذى يحدث فى بنية الكائنات الحية وسلوكها، ويطلق ـ أيضًا ـ على التغير التدريجى الذى يحدث فى تركيب المجتمع، أو العلاقات، والنظم، والقيم السائدة فيه"[١].

* * *



(١) م: ٢- ص: ٥٧٠.

التطور لدى دارون وأشياعه

هذا الذى ذكرناه هو بيان المراد بالتطور بصورة عامة.

أما التطور لدى "دارون" وأتباعه؛ فإن له معنى مختلفًا عما بيناه قبلاً، فهم يطلقون كلمة تطور ويقصدون بها مذهبهم فى أن الكائنات كلها نباتًا، وحيوانًا، وإنسانًا قد نشأت عن أصل واحد أو عدد محدود من الأصول، ثم تفرعت وتطورت إلى تلك الأنواع التى لا تحصى. ولهم فى تعريف ذلك عبارات كثيرة نشير إلى بعضها:

التطور يعنى: "نظام التغير، والتحول، والصيرورة الذى لا يمكن وقفه أو عكسه، والذى بمقتضاه تصير الكائنات فى حالة تنوع وتكامل مستمرين".

التطور يعنى: "الاعتقاد بأن النباتات والكائنات الحية تكونت وانبثقت عن أشكال سبقتها؛ نتيجة تحول مستمر، وصيرورة تدريجية متواصلة، ينتج عنها تغير صور الكائنات الحية، وظهور أشكال وأنواع جديدة منها".

التطور يعنى: "افتراض أن جميع الكائنات الحية التى تعيش على الأرض قد نشأت عن أصل واحد، أو بضعة أصول، وأنه نتيجة للتغيرات المستمرة التى حدثت لها قد تحولت من كائنات بسيطة التركيب إلى كائنات أخرى أكثر تعقيدًا"(١).

مما تقدم من تعريفات لنظرية التطور لدى "دارون" وأشياعه يبين لنا أن المراد بالتطور عندهم: رَجْع الموجودات النباتية، والحيوانية، وكذلك الإنسان إلى أصل واحد، أو عدد محدود من الأصول، نشأت على هيئة كائن وحيد الخلية ثم ترقى عن طريق التطور حتى وصل إلى الكائن الأكثر سموًّا وتعقيدًا فى الوجود الأرضى، وهو

(١) راجع فى هذه التعريفات وغيرها: المعجم الفلسفى: مجمع اللغة العربية. ص ١٧٥، ومجلة عالم الفكر، م: ١٢ ـ ص ٢٣٦. وراجع مقالاً جيدًا فى التطور الحيوى بمجلة كلية أصول الدين والدعوة. ع. ٧ للأستاذ الدكتور عبد الرحمن المراكبى سنة ١٩٧٨م. وراجع: نظرية التطور. د. محفوظ عرام ص: ١٨ ـ ص٢.

الإنسان، وهم يصورون هذه المسيرة التطورية ـ الافتراضية ـ من وجود الخلية إلى وجود الإنسان على النحو التالي ـ تقريبًا وباختصار ـ:

كائن وحيد الخلية "الأميبا" كائنات متعددة الخلايا كالفطريات ـ كائنات نباتية ـ نبات يشبه الحيوان: الهيدرا ـ حيوان يشبه النبات كالمرجان ـ حيوانات لا فقارية كالتى تعيش داخل القواقع ـ حيوانات فقارية دنيا كالزواحف، والأسماك، والطيور ـ حيوانات فقارية أرقى من سابقتها كالثدييات الدنيا ـ القردة الدنيا ـ القردة العليا التى يطلق على بعضها "إنسان الغاب" ـ حلقة مفقودة بين النوع الأخير الذى هو القردة العليا والإنسان ما يزالون يبحثون عنها، يسمون تلك الحلقة "القرد الإنسان" أو الإنسان القرد" ـ ثم الإنسان، فى نهاية المطاف.

هذا ـ بإيجاز ـ ما يقصده "دارون" والذين تابعوه بما يسمى "التطور العضوى" أو "التطور الحيوى".

والنظرية لها جانبان: جانب مادى طبعى: وهو ما يتصل بالكائنات الحية، وهل يصدق فيها ما قاله أصحاب النظرية؟

أم أنه حديث خرافة؟

والجانب الثانى: جانب عقدى معنوى؛ ونقصد بذلك علاقة النظرية بالإيمان بالله الخالق الحكيم ـ سبحانه ـ وصلتها بالدين ـ هل محتوى النظرية يتفق مع الدين؟ أم يعارض الدين وينقضه؟

هل كان دارون مؤمنًا بالنصرانية؟ وهل احتفظ بدينه الذى ينص على أن الله ـ سبحانه ـ هو خالق الوجود بما فيه من جماد، ونبات، وحيوان، وإنسان؟ أم أنه خلف دينه وراء ظهره، ورمى به دَبْر أذنه، وركن إلى الطبيعة والبيئة باعتبارها ـ وحدها ـ الموجود والمكون، ثم المصنف والمنوع للموجودات؟ ثم ـ وبصرف النظر عن الرجل نفسه ـ ما مردود النظرية وآثارها على مشاعر الناس ومعتقداتهم؟

هل شدت من عضد المؤمنين فى مواجهة الماديين الطبعيين؟ أم أنها اعتبرت سندًا وعضدًا للملاحدة الماديين القائلين بالطبيعة ولا شىء سواها فى مواجهة المؤمنين؟

هذه الأسئلة تثيرها النظرية ليس هنا محل الإجابة عنها، وسوف نحاول الإجابة عليها ـ بحول الله ـ سبحانه ـ عند نقد النظرية.. والله المستعان.

ثانيًا: نظريات التطور عبر التاريخ.

يخطيء البعض حين يظن أن "دارون" هو أول من قال بنظرية التطور، أو أن هذه النظرية من اختراعه هو دون سابقة فى هذا المجال، والحق أن التطور فى الخلق فكرة قديمة، ونظرية قال بها كثير من المفكرين على فترات من التاريخ متعاقبة، نشير إلى أهمها فيما يلى:

١ ـ التطور لدى الإغريق.

وجدت نظرية التطور لدى البعض من فلاسفة الإغريق، وبخاصة فيلسوفهم الأشهر "أرسطو".

وقد كانت نظريته تقوم على أن الكائنات الحية جميعها قد بدأت بنوع أو أنواع بسيطة التركيب، ثم ترقت إلى الأنواع المعقدة، ثم إلى الأكثر تعقيدًا، حتى وصلت فى نهاية المسيرة التطورية إلى الإنسان الذى يحتل قمة التطور فى الكائنات الحية، وقد رأى "أرسطو" أن التطور فى الكائنات الحية قد شمل النواحى النفسية والعقلية كما شمل البنية الجسمية، يقول "ول ديورانت"ـ مصورًا رأى أرسطو فى التطورـ:"من الممكن ترتيب التنوع غير المتناهى فى الحياة فى سلسلة مستمرة لا تختلف كل حلقة فيها ـ فى الأغلب ـ عن السابقة، ففى كل ناحية، سواء فى البناء الجسمى، أو نمط الحياة، أو التناسل، أو التربية، أو الإحساس والشعور يوجد تدرج دقيق وارتقاء من أحط الأنظمة العضوية إلى أسماها، إن الحياة قد تطورت باستمرار فى تعقيد وقوة، وإن الذكاء والعقل قد تقدم مرتبطًا مع تعقيد البناء وتحرك النوع، وبالتدريج خلقت الحياة لنفسها جهازًا عصبيًا وعقلاً، وتحرك العقل بحزم للسيادة على البيئة المحيطة به.. وقد تصور "أرسطو" أن الطيور والزواحف متقاربة فى البناء والتركيب، وأن القرد فى شكله وسط بين الإنسان والحيوان، وأعلن مرة بشجاعة أن الإنسان ينتمى إلى مجموعة واحدة من الحيوانات الولود ـ الثدييات .."[1].

---

(١) قصة الفلسفة. ص: ١٠٨، ١٠٩.

٢ ـ فى الفكر الإسلامى.

كما وجدت فكرة التطور لدى المفكرين الإغريق، كذلك وجدت فى الفكر الإسلامى لدى عدد غير قليل من المفكرين والفلاسفة الإسلاميين، وأشهر هؤلاء الذين تكلموا عن تطور الحياة والأحياء:

١ ـ أبو الريحان البيرونى.

٢ ـ إخوان الصفا.

٣ ـ مسكويه أو ابن مسكويه ـ كما يعرف ـ.

٤ ـ ابن خلدون.

لكن التطور فى الفكر الإسلامى، ولدى المفكرين الإسلاميين يختلف اختلافًا جوهريًا عن مثيله لدى المفكرين الغربيين، وبخاصة لدى "دارون" ومن سار فى ركابه؛ فالتطور لدى الإسلاميين لا يعنى انبثاق الموجودات بعضها عن بعض، أو نشوءها عن أصل واحد أو بضعة أصول مشتركة، وإنما التطور لدى الإسلاميين يعنى نوعًا من الترتيب والتصنيف بين الموجودات من حيث زمان الوجود، ورتبته، وأفضليته، ثم غائيته.

فمن حيث التصنيف والترتيب الزمانى؛ فقد وجد الماء قبل التراب، والبحر قبل البر، والنبات قبل الحيوان، والحيوانات الدنيا قبل العليا، ثم توج الوجود الأرضى بوجود الإنسان، وهذا التدرج فى الوجود لا يعنى انبثاق اللاحق عن السابق، ولا نشوءه وتطوره عنه، ولا يعنى بالضرورة علاقة عضوية بين الاثنين، وإنما كل خلق مستقل عن الآخر، وناشىء نشوءًا مستقلاً بعلم الله ـ تعالى ـ وقدرته وحكمته، وهذا لا يمنع التأثير والتأثر بين الاثنين؛ مثل كون وجود السابق ضروريًا لوجود اللاحق، أو كون اللاحق لا يستغنى فى وجوده عن السابق، ومن هنا يأتى الحديث عن الأفضلية والغائية بين مراتب الموجودات؛ فالبحر ضرورى لوجود البر، والماء ضرورى للتراب، والتراب ضرورى لوجود النبات، والنبات ضرورى لوجود الحيوان، والنبات والحيوان كلاهما ضروريان لوجود الإنسان، فالإنسان أفضل

الموجودات الأرضية، وكل شيء في الوجود الأرضي إنما وجد من أجله، والشيء الذي يوجد من أجل شيء آخر يكون سابقًا له في الوجود، ومتقدمًا عليه.

"ومن ثم كانت مراتب الموجودات من حيث الزمان هكذا.. فالماء قبل التراب، والبحر قبل البر، والنبات قبل الحيوان، والحيوان متقدم في الوجود على الإنسان بالزمان؛ لأنه له ولأجله، وكل شيء هو من أجل شيء آخر فهو متقدم عليه في الوجود"(١).

٣ـ التطور في العصر الحديث

لم يكن "تشارلس دارون" أول القائلين بالتطور، ولا أول من وضع نظرية فيه؛ فقد سبقه إلى ذلك أعداد كبيرة من الفلاسفة الطبعيين الماديين، ولحقه ـ أيضًا ـ أعداد من هؤلاء، ومن اللاحقين من وافقه على ما جاء به، ومنهم من خالفه، ولقد كان انتشار نظرية "دارون" راجعًا إلى بعض من جاءوا بعده، وأجروا عليها، وأضافوا إليها الكثير من فكرهم وآرائهم، وسنشير ـ فيما يلي ـ إلى عدد من الذين جاءوا قبله ومهدوا لنظريته في التطور.

كان من الذين سبقوا دارون إلى القول بالتطور:

أ ـ لا مارك "١٧٤٨ – ١٨٢٩م".

بدأ دراساته بالفلك والجيولوجيا، ثم عين أستاذًا لعلم الحيوانات اللافقارية، وقد بدا له أثناء دراساته أن الحيوانات قد تكون نشأت عن أصل واحد في حلقات متصاعدة، وأنها قد تكون بدأت بالحيوانات اللافقارية، ثم تدرجت إلى أعلى، وترقت حتى وصلت إلى الإنسان، "وذلك بمعونة زمن طويل وظروف مواتية، وقد بدأ خطبة افتتاح دروسه لسنة ١٨٠٠م بالتصريح بنظريته تلك، فكان بذلك أسبق من "دارون" في القول بالتطور الحيوي"(٢).

---

(١) رسائل إخوان الصفا. م ٢ ـ ص: ١٢١.

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم. ص: ٣٠٠.

ب ـ إراسم دارون "١٧٣١ - ١٨٠٢م".

وهو جد "تشارلس دارون" لأبيه، وقد كان طبيبًا وعالمًا طبعيًّا، تأثر ببعض الفلسفات الطبعية السابقة عليه، ثم ذهب إلى أن الصفات التى لدى الحيوان والإنسان تكتسب عن طريق المواءمة مع البيئة وبتأثيرها، وقد قال بقانون التنازع من أجل البقاء الذى قال به "دارون" بعد ذلك، وقال بأن الصفات المكتسبة نتيجة ملاءمة البيئة تنتقل من الأصل إلى الفرع عن طريق الوراثة، وهو من القوانين التى قال بها "دارون" الحفيد بعد ذلك.

جـ ـ هربرت سبنسر "١٨٢٠ - ١٩٠٣م".

شغف منذ حداثته بالعلوم الطبيعية، وعمل لبضع سنوات مهندسًا بالسكك الحديدية، ثم عكف على قضية التطور التى كان القول بها شائعًا فى ذلك العصر، ثم درس علم الأجنة، وقد وصل من دراسته إلى القول بالتطور، وأن الانتقال من "المتجانس" ـ يقصد النوع الواحد ـ إلى "المتنوع" ـ يقصد الأنواع الكثيرة المختلفة ـ هو قانون الطبيعة، فالحيوانات بدأت نوعًا واحدًا متجانسًا، ثم تحولت عن طريق التطور إلى أنواع كثيرة متنوعة، وقد عرض ما وصل إليه فى دراساته فى مؤلف عنوانه "التقدم: قانونه وعلته"، سنة ١٨٥٧م، وقبل ذلك عرض للفكرة نفسها فى كتاب عن التطور وتعدد النوع عن طريق الوراثة عنوانه "مبادىء علم النفس"، سنة ١٨٥٥م.

د ـ توماس هكسلى "١٨٢٥ - ١٨٩٥م".

ممن اشتهروا بالقول بالتطور، وقد وصل إلى علمه أن البعض اكتشف فى قاع البحر مادة هلامية لزجة، فسارع "هكسلى" يعلن أن هذه المادة هى حلقة الانتقال من عالم الجماد إلى عالم الحياة، وأنها حلقة الوصل بين ما هو قبل انبثاق الحياة وما بعدها، وأنها النقطة التى انطلقت منها الحياة الأولى أول مرة ، وأطلق على هذه المادة اسم: "بروتوبلاسما"، ثم اتضح بعد ذلك أن هذه المادة عبارة عن نوع من أنواع لطين لا أقل ولا أكثر، أو أنها مخلفات عن تحلل بعض الكائنات العضوية، واعترف

بعد ذلك "هكسلى" بخطئه هذا واعتذر عن تضليله الكثيرين الذين اعتقدوا صدق كلامه عن المادة الأولى للحياة، ولكن "هكسلى" ظل ـ رغم ذلك ـ على موقفه من تطور الحياة من الجماد ثم صيرورتها إلى الكائنات الأعلى، بل كان من أكثر الناس ضجيجًا، وجدلاً،ومهاترة حول دعوى التطور ونشأة الحياة من الجماد.

* * *

وهكذا يتضح لنا أن "نظرية التطور" التى أثبت البحث العلمى القائم على الحقائق الموضوعية، البعيد عن الخيال والوهم، أنها لم ترق إلى مستوى النظرية، بل إنها مجرد "فرض" خيالى توهمى ثبت بطلانه بكُلِّ المقاييس.. يتضح لنا أن القول بالتطور ليس من ابتداع "دارون" أحد فلاسفته ومفكريه، بل كان للقول بالتطور جذور عميقة وقديمة تضرب بأصولها حتى فلاسفة اليونان، وربما كان ثمة من قال بها قبل اليونان من مفكرى العالم القديم، غير أنه لم يصلنا فكرهم. ونحن لا نرى ذلك أمرًا بعيد الوقوع، نظرًا لأن الباعث على القول بالتطور مساوق لوجود الإنسان، بل وسابق على وجوده، نعنى بذلك التشابه الكبير بين الموجودات بأنواعها المختلفة بعامة، وبين بعضها والإنسان بشكل خاص، فى البنية الجسمية من بعض وجوهها، مما يدفع بالبعض ـ ممن فقد الإيمان بالله القادر الحكيم، أو كان ضعيف الصلة به ـ سبحانه ـ أو كان على دين باطل ـ إلى القول بأن الحياة نشأت نشوءًا آليًا، وأن الأحياء تطور بعضهم عن بعض صعودًا حتى الإنسان، وكان "دارون" هو الحلقة الأخيرة من القائلين بذلك، لكن مذهبه اختلف عن السابقين بأمور نبينها ـ بحول الله ـ تعالى ـ فى موضعها من البحث.

* * *

ثالثًا: الفروق بين التطور لدى الإسلاميين والتطور لدى الغربيين.

ثمة فروق جوهرية وجذرية بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى فيما يتصل بقضية التطور، وأهم هذه الفروق:

١ ـ أن ما يسمى تطورًا لدى الإسلاميين لا يعدو كونه تصنيفًا للموجودات، وترتيبًا

لها من حيث الوجود الزمنى، ثم المرتبة والأفضلية، ثم الغاية من وجودها، أى من حيث علاقة الموجودات بعضها ببعض، وحاجة بعضها إلى بعض.

٢ ـ أن ما يسمى "تطور الموجودات" لدى الإسلاميين لا يعنى انبثاق بعضها عن بعض، ولا إرجاعها كلها إلى أصل واحد عنه خرجت، ثم تطور بعضها عن بعض فى سلسلة حلقاتها تبدأ من كائن وحيد الخلية وتنتهى بالإنسان، مرورًا بما لا حصر له من الموجودات التى كان آخرها قبل الإنسان هو القرد، أو حلقة مفقودة بين القرد والإنسان ما يزالون يبحثون عنها وينتظرون ظهورها لتكمل بها حلقات السلسلة.. التطور لدى الإسلاميين لا يعنى شيئًا من ذلك، وإنما يعنى الإسلاميون ـ بل يعتقدون جزمًا ويقينًا ـ أن الموجودات كلها قد جاءت عن طريق الخلق المستقل لكل نوع على حدة.

٣ ـ يؤمن الإسلاميون أن الموجودات جميعها قد وجدت بقدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ أوجدها الخالق البارىء المصور ـ سبحانه ـ وأن وجودها على ما هى عليه، وتنوع هذا الوجود، والاختلافات الواضحة بين كل نوع وآخر من جانب، والتشابه من جانب آخر، وترتيب الموجودات وتصنيفها، والعلاقة بين بعضها البعض، كل ذلك يدل على أن وراء ذلك خالقًا حكيمًا، جعل هذه الأنواع والأصناف فى المخلوقات دليلاً على حكيم خلقه، وبديع صنعه.

٤ ـ أن ما يسمى "تطورًا" لدى الإسلاميين هو تطور مقصود، موجه، هادف، لا محل للصدفة فيه، ولا مجال للارتجال أو الاعتباط، ليس تطورًا أعمى قد أتى مصادفة، أو أتى بفعل البيئة ومواءماتها، وإنما هو تنويع وتصنيف صدر عن الخالق الحكيم البديع.

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام: ١٠١ ـ ١٠٤].

مما سبق يتضح لنا أن ما يسمى "تطورًا" لدى الإسلاميين يختلف اختلافًا جوهريًا وأساسيًا عن التطور لدى الغربيين، وأنه ليست هناك صلة بين الفكرين ولا من بعيد، بل إن كلمة "تطور" ليست صائبة، ولا دقيقة، ولا مطابقة فى إطلاقها على ما يراه الإسلاميون، وما كان أَحْرَانَا أن نضرب صفحًا عن إيراد الفكر الإسلامى فى هذا المجال؛ إذ لا صلة له بالتطور الذى يقول به "دارون" وأمثاله، والذى هو محل الحديث هنا، لكنا آثرنا أن نذكر ما ذكرناه عن الفكر الإسلامى؛ لأمرين:

الأول: أن الكثيرين ممن يكتبون عن نظرية التطور لدى الغربيين يدرجون الفكر الإسلامى فى ثنايا كتاباتهم، باعتبار أن الإسلاميين ـ فيما يزعمون ـ قد قالوا بتلك النظرية، أو ما شابهها، وأن لهم اجتهادات فى هذا المجال، بل إن بعضهم قد أغرق فى الضلال فزعم أن القرآن قد أشار إلى تلك النظرية، وما احتوته من مضمون.

الثانى: من أجل ذلك حرصنا على أن نورد شيئًا من فكر الإسلاميين الذى يزعم البعض أنه قول بالتطور، وأنه شبيه بما جاء به "دارون" أو مثيل له، زاعمين أن الإسلاميين قد سبقوا دارون فيما جاء به، نقول: حرصنا على الإشارة إلى أهم ما ورد لدى الإسلاميين فى هذا المجال؛ لنبين الخطأ الفاحش، والضلال المبين الذى يقع فيه هؤلاء الكتاب حين يدرجون الفكر الإسلامى ضمن الفكر القائل بالتطور العضوى، فقد بان لنا، بوضوح شديد ـ أن الإسلاميين لم يقولوا بذلك الذى جاء به "دارون" ومن شابهه، وما كان للإسلاميين أن يقولوا بذلك.

على أننا ننبه إلى أمر على جانب كبير من الأهمية والخطورة، ذلك أن ما نسميه "فكرًا إسلاميًا" أو "مفكرين إسلاميين" لا يعنى ـ بالضرورة ـ تواؤمهم مع الإسلام ولا سلامة ذلك الفكر وصوابه فى ميزان الدين الحنيف، وليس أدل على ذلك من أن "إخوان الصفا" الذين نقلنا عنهم تلكم الفقرة السابقة ليسوا ملتزمين بدين الله "الإسلامى"، ولا مرتبطين به، وإن صُنِّفُوا ضمن "الإسلاميين": أى

المنسوبين إلى الإسلام، وقد بان بكل المقاييس أن هذه النسبة غير دقيقة، بل غير صحيحة؛ فهؤلاء جماعة خلطوا تعاليم الإسلام وأحكامه بأخلاط من الفلسفات والديانات الأخرى، وبنوا أفكارهم وكتاباتهم على أسس من التورية، والتلوّى، والتلون. وقد صار شأنهم بيّنًا للجميع، وقد أردنا أن نبين أن هؤلاء - رغم ضلالاتهم - لم يقولوا بما قال به "داروين" وشيعته، وإن كان الآخرون - ممن قالوا بما ذكرناه عن فكر الإسلاميين فى قضية التطور - ليسوا بهذا السوء الذى عليه "إخوان الصفا"، وذلك مثل "ابن خلدون" العالم الفقيه وأضرابه.

* * *

تشارلس داروِن

(١٨٠٩- ١٨٨٢م)

حياتــــه:

ولد "تشارلس دارون" لأبوين نصرانيين، وكان جده لأبيه "إراسم دارون"، (١٨٠٩- ١٨٨٢م) عالمًا فى الطبيعة، وقد وضع نظرية فى التطور.

وقد بدأ "دارون" رحلته العلمية بدراسة الطب بجامعة "أدنبره"، لكنه لم يحقق نجاحًا فى دراسة الطب؛ فاتجه إلى دراسة اللاهوت بجامعة "كمبردج"، بيد أنه لم يكمل دراسته اللاهوتية، وذلك لأن همه كان محصورًا فى دراسة العلوم الطبعية ـ الجيولوجيا، والنبات والحيوان ـ ثم عَرَضَ له ما يخدم اتجاهاته فى ذلك الجانب؛ حيث دُعِيَ إلى الاشتراك فى رحلة علميةَ بحرية، وقد استغرقت تلك الرحلة خمس سنوات (١٨٣١- ١٨٣٦م)، مر فيها بكثير من سواحل أمريكا الجنوبية، ثم أبحر فى المحيط الهندى، وكانت تلك الرحلة هى الدافع له إلى اتجاهاته وآرائه التى نادى بها بعد ذلك، كما أنها أمدته بكل ما يعد أساسًا لنظريته التى اشتهر بها، وأفنى حياته فى الدعوة إليها: "**نظرية التطور**".. فى هذه الرحلة عكف على جمع المعلومات والمعارف التى أسس عليها النظرية، لكنه لم يسارع بنشر هذه المعلومات، بل قضى بعد ذلك ربع قرن من الزمان يراجع آراءه، ويجرى تجاربه، وينظم أفكاره، ثم فى النهاية أصدر كتابه الأول والأشهر تحت عنوان: "**أصل الأنواع**"، (١٨٥٩م)، وقد أحدث الكتاب ضجة كبيرة، كما أحدث ردود أفعال متباينة، وكانت أشد ردود الافعال لدى رجال الكنيسة الذين اتهموه بالإلحاد، والكفر، والخروج على تعاليم الكتاب المقدس، واتهمهم هو بالجهل ومحاربة العلم والتقدم، وقد انقسم العلماء فى ذلك الوقت على فرق ثلاث؛ مؤيدين للنظرية التى تضمنها الكتاب، وفريق ثان:

معارض لها تمام المعارضة، ثم فريق ثالث: شغل نفسه بمحاولة التوفيق بين ما جاءت به النظرية وما يقول به الدين النصرانى.

ثم أيَّد "دارون" كتابه: **"أصل الأنواع"** بكتاب ثان أصدره عام (١٨٦٨م) تحت عنوان: **"تغير الحيوان والنبات فى حال الدجن"**.

وقد كان "دارون" فى هذين الكتابين قاصرًا نظريته على النبات والحيوان، ولم يكن قد تناول الإنسان فيها بشىء لكنه ما لبث أن أدرج الإنسان ضمن النظرية فى كتابه الذى أصدره عام (١٨٧١م) تحت عنوان: "تسلسل الإنسان والانتخاب الطبعى".

ففى هذا الكتاب طبق نظريته التى كانت إلى ذلك الوقت خاصة بالنبات والحيوان، على الإنسان، ثم انطلق بنظريته حتى النهاية حين أصدر كتابه: **"التعبير عن الانفعالات فى الإنسان والحيوان"**، وفى هذا الكتاب طبق التطور المادى فى نظريته على العقل والفكر لدى الإنسان، وبذلك وضع الإنسان فى قفص واحد مع بقية الحيوانات، ثم أغلق على الجميع أبواب نظريته التى زعم أنها أتت بالقول الفصل فى كل ما عرضت له من قضايا.



فلسفة دارون

١ ـ ربما لم يكن لدى "دارون" فكرة مسبقة عن كل هذه الآراء التى اقتنع بها واعتنقها، ثم قضى حياته فى محاولة إقناع الآخرين بها، المؤكد أنه كان شغوفًا بدراسة الأحياء، وكان شديد الذكاء، صبورًا على البحث، دءوبًا مصرًّا على الوصول إلى ما يريد من أبحاثه، لكن الذى أفسد عليه فكره، وهوى به فى حضيض تلك النظرية الفاسدة أمور كثيرة ربما كان أهمها أمرين:

الأول: رغبته الشديدة والملحة فى أن يأتى بالجديد الذى لم يسبقه إليه أحد، وبخاصة وأن العصر الذى كان يعيش فيه كانت تتجاوب جنباته بأصداء النظريات الكثيرة عن التطور، والتى سبقه إلى القول بها العديد من العلماء على ما بينا قبل ذلك. ومن ثم كانت الرغبة ملحة وشديدة لدى "دارون" فى أن يأتى بالجديد الذى لم يسبق إليه فى هذا المجال، مما دفع به إلى الوقوع فى أخطاء علمية فادحة، تلك الأخطاء التى كانت أهمها ذلك الأمر الثانى من الأمرين الذَّين نتكلم عنهما.

الثانى: انتقاله السريع من مقدمات غير علمية ولا يقينية إلى نتائج لا تؤدى إليها تلك المقدمات، أو ليس بينها وبين تلك المقدمات صلة وثيقة، ولا هى من نتائجها الصحيحة.

٢ ـ أثناء رحلته البحرية التى استغرقت خمس سنوات، قضاها عاكفًا على دراسة الأحياء المائية، لاحظ ملاحظتين هامتين:

الأولى: أن هناك تشابهًا كبيرًا وأصيلاً بين الأحياء فى البنية الجسمية، يلفت النظر ـ فيما يرى ـ إلى أن ثمة علاقة عضوية قوية وحتمية بين أنواع الأحياء على اختلافها.

الثانية: أن الأحياء رغم تشابهها الشديد فى البنية الجسمية، إلا أن ثمة فروقًا بين فصائلها يؤدى إلى تنوع الأحياء إلى أنواع كثيرة، ثم لاحظ أن هذه الفروق بين أنواع الحيوان وفصائله تتناسب وتتواءم مع البيئة التى يعيش فيها كل نوع، وكأنها ما وجدت إلا بسبب أن الحيوان يعيش فى تلك البيئة تحديدًا.

٣ـ هنا عرض سؤال هام لدارون وهو: كيف نفسر التشابه الشديد فى البنية الجسمية لدى الحيوان من جهة، ثم التنوع والفروق التى بين أنواعه، حيث يمتاز كل نوع بفوارق تلائم البيئة التى يعيش فيها كل الملاءمة؟

٤ ـ عند هذه النقطة من البحث لعله قد عرض لدارون فرضية التطور؛ أى:أن الحيوانات كلها تطورت عن أصل واحد مشترك، ثم بقى فيها آثار ذلك الأصل الذى هو البنية الجسمية العميقة، وتفرعت عنها الفروق التى نشأت واختلفت فى الأنواع باختلاف البيئة التى يعيش فيها كل نوع عن التى تعيش فيها الأنواع الأخرى.

ولم يكن دارون فى هذا الفرض مبتكرًا ولا منشئًا شيئًا جديدًا، فإن فلاسفة كثيرين قبله كانوا قد أصيبوا بمثل هذا الهوس والمهاترات حول ما يسمى بتطور الحيوانات بعضها عن بعض فى سلسلة ترجع إلى أصل بسيط، بل منهم من قال بنظرية "التولد الذاتى"، التى يقصدون منها أن الحياة نشأت "ذاتيًا" من اللاحياة، أو من الجماد، ثم تطورت بعد ذلك حتى وصلت إلى الإنسان؛ ومن هؤلاء "توماس هكسلى" الذى زعم أن الحياة نشأت وتولدت ذاتيًا ـ أى بلا خالق ـ من مادة هلامية فى قاع البحر أطلق عليها اسم: "بروتوبلاسم"، ثم ظهر كذبه، ومنهم: "أرنست هكل"، (١٨٣٤- ١٩١٩)، الذى سبق "دارون" فى كل مزاعمه تقريبًا؛ حيث زعم أن الحياة تولدت ـ ذاتيًا ـ من عدد من ذرات الأزوت، والهيدروجين، والأوكسجين، والكربون، فنشأ من هذا الخليط أول ما نشأ ما يسمى "المونيرا"؛ وهى أول شكل من أشكال الحياة، ثم تطورت عبر أجيال عديدة حتى وصلت إلى الإنسان، ويحصى "هكل"اثنتين وعشرين حلقة بين "المونيرا" التى هى الصورة

الأولى للحياة المتولدة ذاتيًا، والإنسان الذى هو أعلى صور الحياة على الأرض، وقد حاول "هكل" أن يستعين بأدلة واهمة من الحفريات وبقايا الحياة المطمورة تحت الأرض.

٥ ـ فى هذه الفترة وبينما دارون يفكر فى فرضية التطور، وقع فى يده كتاب من تأليف "مالتوس"[(١)] حول مشكلة "السكان والغذاء" فى هذا العالم، وقد زعم مؤلف الكتاب أن السكان يتزايدون بمتوالية هندسية: (٢- ٤- ٨)، وأما الغذاء فيتزايد بمتوالية حسابية: (٢- ٤- ٦)، وأن السكان يتضاعفون فى كل ربع قرن، لكن الأوبئة، والحرب، والفقر تعمل على تقليل أعدادهم.

شغلت هذه القضية ذهن دارون، وتوسع فى الاهتمام بقضية التكاثر بين الأحياء، وأخذ يدق على هذا الوتر: إن زوجين من الأحياء من أى نوع يمكن أن يغطى نسلهما سطح الأرض فى فترة وجيزة ما لم يحدث من الكوارث والعقبات ما يحول دون ذلك بفناء الجزء الأكبر من النسل.

والجنس البشرى الذى هو أبطأ الأحياء فى سرعة توالده، يمكن لرجل وامرأة فقط أن ينجبا فى ألف عام عددًا يبلغ من الكثافة بحيث تضيق الكرة الأرضية عن استيعابهم وقوفًا كتفًا إلى كتف، ولو سار التوالد على هذا المنوال فلن تنقضى مائة عام فقط إلا ويقف الناس بعضهم على رءوس بعض.

لكن "دارون" لاحظ أن أعداد الأحياء لا تزداد بهذه الكثافة، بل هى عند حدود معينة لا تزيد عنها، فما الذى سَبَّبَ هذا؟ لا بد أن الذى يحفظ أعداد الكائنات الحية عند حد معين هو ندرة القوت أو الغذاء، وأن الأحياء على اختلاف أنواعهم يتنازعون. من أجل الحصول على الغذاء الذى لا يكفى إلا قلة منهم، فالقوى ينال ما يمسك حياته من الغذاء، والضعيف يموت، وبذلك وصل دارون إلى بعض قوانينه التى أقام عليها نظريته، نقصد بذلك قانون:

---

(١) مالتوس Malthus فيلسوف اقتصادى انجليزى عاش بين ١٧٦٦ - ١٨٣٤م.

٦ ـ الصراع من أجل البقاء، وما يتبعه ويترتب عليه، وهو قانون: "البقاء للأقوى". فالحياة صراع من أجل البقاء، والبقاء إنما هو للأصلح والأقوى، أما الضعيف فيفنى ليخلى الحياة لغيره.

٧ ـ اهتم دارون ـ أيضًا ـ بالتجارب التى يقوم بها "مربو الحيوانات"؛ حيث رآهم يحصلون على أصناف جديدة داخل النوع الواحد عن طريق المزاوجة بين الأفراد الذين يلاحظون فيهم تغيرات ضئيلة ملائمة أو ذات فائدة بيئية مرغوبة. وأن هذا النوع من التزاوج يؤدى إلى استحداث صفات جديدة لم تكن موجودة فى الأبوين، مثل طول المنقار، أو الألوان الجميلة الزاهية فى الطيور. وكذلك استحداث أنواع جديدة من الزهور ذات ألوان وأشكال لم تكن موجودة، وذلك عن طريق "التهجين" فقدَّر دارون أن الأفراد ـ من أى نوع ـ الذين يحصلون على صفات جديدة على هيئة عضو ملائم لظروف حياتهم وبيئاتهم، أو وظيفة جديدة لعضو قائم فعلاً، هم أقدر على الصراع من أجل البقاء من العاطلين عن هذا العضو الجديد، أو تلك الوظيفة لعضو قائم فعلاً، فيبقى النوع الأول، ويحسِّن من صفاته عن طريق اكتساب أعضاء موائمة لحياته أو وظائف جديدة لأعضائه، بينما يفنى العاطلون عن هذه الأعضاء، أو عن تحويل أعضائهم القائمة فعلاً لاكتساب وظائف جديدة نافعة لحياتهم.

٨ ـ هناك ـ إذًا ـ "انتخاب طبعى" يشبه "الانتخاب الصناعى" غير أنه خال عن القصد والنظام الموجودين فى الانتخاب الصناعى الذى يزاوله مربو الحيوان.

٩ ـ عند هذا الحد وصل دارون إلى صلب نظريته ـ أو الفرض غير العلمى الذى اعتبره نظرية علمية ـ حيث قرر الآتى: إن الأنواع من الحيوان والنبات على اختلاف أنواعها وفصائلها ترجع إلى أصل واحد، أو بضعة أصول مشتركة، نمت هذه الأنواع، وتفرعت، وتكاثرت، وتنوعت عن الأصل الواحد، أو بضعة الأصول عبر أزمان طويلة، وأحقاب مديدة، وقد تم ذلك بمقتضى عدد من القوانين التى تخيلها "دارون" معتبرًا إياها حقائق موضوعية

لا يرقى إليها الشك؛ وبناء على تلك القوانين قامت نظريته فى التطور، فما تلك القوانين؟

١٠ ـ القوانين التى قامت عليها نظرية دارون هى:

أ ـ قانون الملاءمة بين الكائن الحى والبيئة التى يعيش فيها.

فبمقتضى هذا القانون تتحول أعضاء الكائن الحى، لتلائم البيئة التى يعيش فيها، فالجمل تكونت له أخفاف مفلطحة فى قدميه، لأنه يعيش فى بيئة رملية حتى لا تغوص أرجله فى الرمال، وأما الحصان فلأنه يعيش فى بيئة صخرية، فقد تكونت له حوافر صلبة يستطيع بها أن يمشى على الصخور بأمان، والطيور المائية لأنها تسبح تكونت بين أصابعها أغشية تساعدها على العوم، وذلك بخلاف الطيور البرية التى تحتاج إلى أصابعها طليقة من هذا الغشاء، لتحفر الأرض بحثًا عن رزقها من الحب المخبوء تحت سطحها، وعلى نفس النسق طالت عنق الزرافة بينما قصرت عنق الضفدع.

ب ـ قانون الانتخاب الطبعى.

ويزعم دارون بهذا القانون أن الطبيعة تمد الكائن الحى الذى يعيش فيها بأعضاء جديدة لم تكن فى أسلافه، أو تطوِّر عضوًا، ليؤدى بعض الوظائف التى لم يكن يؤديها لدى الأجيال السابقة.

وهذا القانون مرتبط بالقانون السابق، فإن الملاءمة بين الكائن الحى والبيئة التى يعيش فيها إنما تأتى وتتحقق عن طريق هذا القانون: الانتخاب الطبعى.

ويرتبط بهذا القانون قانون ثالث يعتبر موضحًا له ومبينًا لآثاره، وذلك القانون هو:

جـ ـ قانون: استعمال الأعضاء أو عدم استعمالها.

ويقصد بهذا أن العضو الذى يستعمله الكائن الحى يبقى ويقوى بقدر كثرة استعمال الكائن الحى إياه، ويضعف أو يضمر ويفنى بقدر إهمال استعماله أو عدم استعماله.

فالكائن الحى إذا استعمل عضوًا بقى ذلك العضو، واشتد، وقوى؛ كاستعمال بعض القردة أذيالها فى التعلق بالأشجار وتسلقها، وبسبب ذلك قويت ذيول هذه الأنواع من القردة، بل وتحورت فطالت عما كانت عليه، وأصبح لتلك الذيول عضلات قابضة مثل الذراع لدى الإنسان، فأضحت يدًا ثالثة لأصحابها، وذلك بسبب استعمالها، بينما ضمر الذيل فى الإنسان، وضعف، ثم فنى ولم يعد له وجود، ليبقى أصله دالاً عليه وهو العصعص، تلك العظمة المدببة فى أسفل العمود الفقرى، فاستعمال الأعضاء أو عدم استعمالها تحت ظروف البيئة التى يعيش فيها الكائن الحى تجعل بعض الأعضاء تبقى وتقوى، وبعضها يضعف أو يفنى، بل إن الكائن الحى تحت ظروف البيئة قد تظهر لديه أعضاء جديدة تبعًا للمواءمة بينه وبين البيئة التى يعيش فيها ـ كما يزعم دارون ـ.

د ـ **قانون الوراثة**، أى: انتقال ما عليه الكائن الحى إلى ذريته، فتكتسب الذرية ما وقع للكائن الحى نتيجة المواءمة بينه وبين البيئة، سواء كان ذلك عضوًا قويًّا أو ضعيفًا، أو عضوًا ضامرًا أو فانيًا، أو حتى عضوًا مكتسبًا لم يكن فى الأجيال السابقة، كل ذلك ينتقل إلى الذرية بالوراثة، وهذا يتم عن طريق الانتخاب الطبعى، كما يشاهد فى الانتخاب الصناعى، حيث يتوصل مربو الحيوان إلى صفات جديدة عن طريق "التهجين"؛ أى: المزاوجة بين اثنين من فصيلتين مختلفتين كحصان وأتان، ليصلوا إلى صفات جديدة ليست فى الأبوين، ثم تنتقل هذه الصفات بعد ذلك إلى ذرية النوع المكتسب عن طريق الوراثة.

هـ ـ **قانون الصراع من أجل البقاء.**

وقد أشرنا إلى ذلك القانون قبل ذلك، حيث رأى دارون أن الكائنات الحية تنمو بأسرع مما ينمو القوت أو الغذاء، والنتيجة أن الأحياء تتكاثر، ويقل الغذاء بالنسبة لها، فيقع ما لا بد منه، وهو صراع الأحياء الموجودة على الغذاء القليل الذى لا يكفيها كلها، بل يكفى البعض منها، فينال الأقوياء ما يمسك عليهم حياتهم، ولا يجد الآخرون الضعفاء ما يعيشون عليه، فتكون عاقبتهم الفناء.

و ـ قانون البقاء للأصلح، أى: للأقوى.

وهذا القانون هو النتيجة اللازمة للقانون السابق، فما دام الغذاء لا يكفى جميع الأحياء الموجودة، وما دام هذا مؤديًا بالضرورة إلى تنازع الكثرة على الغذاء القليل، فإن نتيجة التنازع هى فناء الضعيف وبقاء الأقوى.

١١ ـ بان لنا أن نظرية "دارون" نظرية آلية جامدة، تقوم على الصدفة والاتفاق دونما غاية تسعى إليها، أو هدف تعمل على تحقيقه، فهى خالية من كل غاية أو هدف.

وهذا يعنى أنه لا محل للكلام عن حكمة أو إبداع، وبالتالى لا محل لذكر كلمة "الخلق" فى إطار هذه النظرية على الإطلاق، لأن الخلق، والإبداع، والحكمة إنما تذكر تعبيرًا عن قوة خالقة مدبرة حكيمة عالمة هادفة وراء الكائنات جميعها، وحيث إن نظرية دارون قد خلت من كل ذلك، بل عارضت ورفضت القول بحكمة، وإبداع، وخلق، وذهبت إلى أن كل شىء على ظهر الأرض خاضع للصدفة الآلية، ولا عمل فى الكائنات إلا للطبيعة الجامدة عن طريق قوانينها المادية الآلية التى ذكرناها، فإن الأمر ينتهى بالنظرية وصاحبها إلى القول بأن الطبيعة عبارة عن آلة ضخمة تعمل فى الكائنات الحية من نبات وحيوان تبعًا لظروف البيئة، والغذاء، وغير ذلك عملاً يقوم على الصدفة وكيفما اتفق، وقد عبر دارون عن ذلك بقوله:

"إن الطبيعة تخبط خبط عشواء. NATURE WORKS HAPHAZARDLY"[١]

* * *

(١) نقلاً عن: مذاهب فكرية معاصرة. محمد قطب. ص ٩٤.

دارون والإنسان

أعلن دارون نظريته في التطور في كتابه "أصل الأنواع" الذي نشره سنة ١٨٥٩م. وكان دارون في هذا الكتاب الذي يعتبر سجل نظريته وأشهر كتبه في هذا المجال قد قصر حديثه عن التطور على النبات والحيوان، ولم يكن قد تعرض للإنسان في كتابه هذا ولا أدرَجَه ضمن قائمة التطور للأحياء. لكن دارون ما لبث أن أصدر كتابه: "تسلسل الإنسان" (١٨٧١م)، وفيه طبق نظريته كاملة على الإنسان، وأدرجه ضمن سلسلة الأحياء التي رأى أنها نشأت عن أصل واحد تدرج في التطور رقيًا حتى كان الإنسان هو أرقى صور ذلك التطور الحيواني.

وقد ترتب على إدراج الإنسان ضمن الحيوانات المتطورة عن أصل واحد بسيط، أن طبق دارون نظريته في التطور على قوى الإنسان التي يمتاز بها عن الحيوانات كلها؛ نعني: العقل، والذكاء، والاستفادة من الخبرات السابقة، والانتفاع بها في مثيلاتها، بل والبناء على الخبرات السابقة وتطويرها، لإنتاج ما يسمى بالمخترعات، والقوى الفكرية بكافة درجاتها، والإبداع في المعنويات والماديات، ثم الأخلاق، والسلوك، والقيم التي على أساس منها تَقُوم الأخلاق، ويُقوَّم السلوك، كل هذه أدرجها دارون ضمن نظريته في التطور، وأعلن أنها تطورت وترقت مع تطور البنية الجسمية للإنسان، وأن كل نوع من أنواع الكائنات الحية لديه حظ من تلك القوى يتناسب مع حظه من التطور الجسمي، وأنها قوى تكتسب بالخبرة والتجربة، ويقول: إن الفرق بين الإنسان والحيوان فرق بالكم أو الدرجة فقط، وأن المسافة بين القوى الفكرية لحيوان من أدنى الفقريات، والقوى الفكرية لقرد من القردة العليا أكبر من المسافة بين القوى الفكرية في القرد وبينها في الإنسان، كما يقول: إن الحيوان يكتسب الفطنة والحذر مما يعرض له من تجربة، وما

يتحمل من ألم، وإن له ذاكرة، وذوقًا فنيًا، وغريزة تعاطف فلا يسوغ نفى العقل عنه"[1].

ويقول دارون: **"لا نستطيع أن نفرد الإنسان بأصل مغاير لأصول ذوات الثدى ما دامت مشابهته الطبيعية لها بالغة ذلك المبلغ البعيد، أو نفرض أنه قد نشأ بطريقة مخالفة للطريقة التى نشأت بها تلك الحيوانات"**[2].

إن التطوريين يختلفون فيما بينهم حول الأصل الذى يسبق الإنسان مباشرة، والذى تطور عنه الإنسان؛ هل انحدر الإنسان عن القرد، مع وجود حلقة مفقودة بين أعلى القردة الموجودة الآن والإنسان، بحيث تكون تلك الحلقة المفقودة قد تطورت عن أرقى القردة الحالية، ثم تطور الإنسان عن تلك الحلقة. أم أن القردة الموجودة الآن والإنسان كلاهما تطورا عن جدّ مشترك؟.

لكن التطوريين ـ رغم اختلافهم هذا الذى لا يقدم ولا يؤخر فى صلب الموضوع نفسه ـ متفقون فى أن الإنسان قد تطور عن أصل حيوانى سابق عليه، سواء كان ذلك الأصل هو القردة، أو الحلقة المفقودة بينه وبين القردة أو الأصل المشترك الذى عنه نشأ الإنسان والقردة جميعًا.

وهكذا سلك دارون الإنسان مع الحيوانات جميعها فى سلك واحد، وجعله فرعًا عن القردة التى هى بدورها متطورة عن أحط الكائنات الحية، وفى سبيل الوصول إلى هذا الهراء الذى لا يقوم على عقل ولا منطق، والذى يعارض ويناقض المسلمات والأوليات، تجاهل دارون كل ما يتميز به الإنسان عن غيره من الكائنات الأرضية. من عقل وفكر، وذكاء وإبداع، وإنشاء واختراع، وأنه الوحيد بين تلك الكائنات الذى يعيش بعقله وفكره، وليس بالغريزة الجامدة، وهو الوحيد الذى تكون كل جماعة منه مجتمعًا له صبغته الخاصة بها، والتى تختلف عن بقية المجتمعات الإنسانية الأخرى سياسيًا واقتصاديًا، ودينيًا واجتماعيًا، كل جماعة من الناس فى إقليم يكونون

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة. يوسف كرم، ص: ٣٥٣.
(٢) أصل الأنواع. المقدمة. ترجمة إسماعيل مظهر. ص: ٧٢.

مجتمعًا يختلف عن بقية المجتمعات الأخرى فى الأقاليم النائية، مما يدل على أن الإنسان يعيش بفكر، وعقل، وخبرة، ويبدع مجتمعاته ونظمه، بينما الأنواع من الحيوانات تعيش بصورة تكاد تكون واحدة متماثلة، فكل نوع من الحيوان، كالشمبانزى ـ على سبيل المثال ـ يعيش بصورة متماثلة مهما بعدت به البيئة التى يعيش فيها، فالشمبانزى فى أفريقيا يعيش نفس الطريقة التى يعيش بها الشمبانزى بأمريكا، وكذلك بقية الأنواع والفصائل، مما يدل على أنها تعيش بغريزتها دون فكر أو عقل، تعيش بطريقة آلية أو شبه آلية، أما الإنسان، فرغم وجود عشرات المجتمعات أو مئاتها، فإنه لا يتشابه مجتمع مع آخر، بل لكل مجتمع مقوماته الخاصة به، لكن الغرض ـ كما يقولون ـ مرض، والهوى يعمى ويصم، ومن هنا جاءت تلك النظرية فى كافة جوانبها ـ وبخاصة فيما يخص الإنسان ـ عبارة عن تهريفات جماعة من العمى الصم الذين لا يعقلون.

* * *

دارون وقضية التدين

لقد ولد دارون لأبوين نصرانيين، وقد عمده ذووه نصرانيًّا كما هو متبع لدى النصارى، ولكن البعض قد ظن أن دارون يهودى الديانة، وإنما لحقه هذا الظن نتيجة لبعض خصائص نظريته التى منها:

١ ـ انحرافها عن جادة الحق.

٢ ـ نتائجها المصادمة للدين.

٣ ـ نتائجها المدمرة للأخلاق والسلوك.

٤ ـ نتائجها المدمرة للعلاقات الإنسانية، بل وللحياة الإنسانية بصورة عامة، هذه الأسباب ـ وغيرها ـ ذهب الظن ببعض الباحثين إلى أن دارون يهودى، وإنما سبق الظن إلى ذلك لأمرين:

١ ـ ما اشتهر به اليهود من رغبة شديدة، عارمة فى إفساد الإنسانية، وتدمير كل شىء صالح، وحق، وخير، ودفع الإنسانية دفعًا إلى مهاوى الرذيلة والفساد، والدمار الدينى، والخلقى، والسلوكى، ونظرية دارون ذات إسهام كبير فى تحقيق هذه الجوانب التى يتبناها ويتمناها اليهود، لذلك ظن أنه يهودى.

٢ ـ تَبنىِّ اليهود نظرية دارون فى التطور منذ أعلن عنها، وتلقفهم إياها، ووقوفهم وراء نشرها بكل ما يملكون من إمكانات مادية وسياسية، وما يتسمون به من مكر، وخديعة، وخبث، ودهاء، وكما ذكروا هم فى أحد "بروتوكولاتهم": "**إننا نحن الذين عملنا بكل نشاط على إنجاح نيتشه ودارون وشيوع أفكارهما لما لها من تأثير مدمر على حياة الأمميين، وإن تأثير آرائهما على عقائد وأديان الأميين واضح لنا بكل تأكيد**".

دارون ـ إذن ـ رجل يدين بالنصرانية، بدأ أبحاثه فى ما يسمى بالتطور الحيوى للكائنات الحية من نبات وحيوان، والسؤال هو: هل ظل "دارون" على دينه النصرانى مؤمنًا بما يؤمن به النصارى؟ وأهم جانب يعنى به الباحثون هو إيمانه بوجود إله خالق حكيم خلق الحياة والأحياء، وأن الله الخالق الحكيم وراء هذه المسيرة الطويلة من التطور للأحياء، بدءًا بالحيوان وحيد الخلية إلى الإنسان، وبلتالى تكون عملية التطور من مبدئها إلى منتهاها ـ إن كان لها عندهم منتهى ـ ليست عملية عشوائية من أعمال الطبيعة المادية الجامدة، ولا هى خاضعة لما يسمى "**بالصدفة**"، وإنما هى من خلق وتدبير إله خالق. حكيم وتكون عملية التطور لا تعدو أن تكون قانونًا من قوانينه، وسنة من سننه التى سَنَّها لتسير الحياة والأحياء وفقها وعلى أساس منها.

نقول: هل "دارون" كان يؤمن بهذا؟ وهل كان فهمه للتطور على هذه الشاكلة؟ إذا كان ذلك فهو مؤمن بالنصرانية، يدين بذلك الدين الكتابى.

أم أن "دارون" بدأ نصرانيًّا، ثم انتهى بأبحاثه، أو انتهت به أبحاثه إلى الكفر بالنصرانية والأديان بعامة، وأضحى ملحدًا زنديقًا لا يؤمن إلا بالمادة أو الطبيعة، يرجع إليها كل شىء، بدءًا من انبثاق الشرارة الأولى للحياة فى الجماد، إلى الإنسان الذى يتربع على القمة من هرم التطور، مرورًا بكل مراحل التطور من أدنى الكائنات الحية إلى أعلاها قبل الإنسان وهى القردة؟

لقد اختلفت الآراء حول "دارون": هل هو مؤمن على دين النصارى، ومن ثَمَّ فتطوره الذى دعا إليه وراءه خالق حكيم؟ أم أنه ملحد، زنديق، مادى، طبعى، لا يؤمن إلا بالطبيعة، وأنها وحدها وراء التطور؟

ونحن لا تهمنا عقيدة الرجل بقدر ما تهمنا نظريته، ثم النتائج التى تؤدى إليها، والتأثير الذى تتمخض عنه.

ليس من شك فى أن النظرية فى جملتها، ثم فى النتائج والآثار المؤدية إليها نظرية إلحادية مادية بحتة، وأنها نظرية ـ كما بينا سابقًا ـ آلية جامدة تعتمد فى كل قوانينها

على الطبيعة المادية فقط، ولا تدع مكانًا لإله خالق حكيم بديع، فقد بدأها صاحبها بصورة مادية بحتة، ثم انتهى منها بشَرٍّ مما بدأها به، وكان كلما أغرق فى النظرية وتقدم فى قوانينها وفصل فيها، ابتعد عن الإيمان بالخالق أكثر فأكثر، حتى انتهى منها وليس فى مرحلة من مراحلها، ولا قانون من قوانينها محل للعناية الإلهية، ولا الحكمة الربانية.

وهكذا كانت نتائجها وآثارها الفعلية منذ أعلن عنها صاحبها وحتى اليوم نظرية إلحادية. تخدم الفكر المادى الإلحادى، وتدفع بكل من اعتقدها إلى الإلحاد، وليس من مراء فى أن كل من اطلع عليها يشعر بهذه الحقيقة، نعنى بالطابع الإلحادى المادى للنظرية، يشعر بهذا الطابع يعلن عن نفسه فى كل قانون من قوانينها، أو قاعدة من القواعد التى أقيمت عليها. لذلك لم يكن عجيبًا أن رحب بها دعاة الإلحاد، واحتفى بها الماديون، وسعد بها كل السعادة أعداء الدين الذين وجدوا فيها سلاحًا يشهرونه فى وجه الإيمان بالخالق الحكيم رب هذا الوجود وإلهه، فها هو الدليل الأقوى على وجود الله، والذى يستدل به المؤمنون على حكمة الله ـ تعالى ـ وقدرته، وعلمه وإرادته، وبديع صنعه وعنايته، والذى يعتمد على الاستدلال بالمخلوقات على الخالق، ها هو الدليل ينهار من أساسه؛ حيث عاد كل شىء إلى الطبيعة الجامدة بصورة آلية مادية لا تحتاج إلى خالق، ولا محل فيها لعناية أو حكمة، بل تسير عشوائيًّا، كما قال دارون نفسه: "**إن الطبيعة تخبط عشواء**"، وقال ـ أيضًا ـ "**إن الطبيعة تخلق كل شىء، ولا حد لقدرتها على الخلق**"[(١)].

والطابع الإلحادى الكُفرى الذى يحيط بنظرية التطور ويشملها ويغلفها من ألفها إلى يائها واضح لكل من يطلع عليها، ويظهر ذلك منها لأول وهلة، ولا يحتاج الأمر إلى كبير جهد، أو كثير فكر لإدراك هذه الحقيقة، ولقد أقر بذلك كل المفكرين الذين قرأوا النظرية، ولم يشك فى هذا إلا بعض المخدوعين ممن حاولوا التوفيق بين ما جاء به "دارون" وما وردت به الأديان الكتابية، يستوى فى ذلك من حاولوا التوفيق

---

(١) نقلا عن: مذاهب فكرية معاصرة. محمد قطب، ص:٩٤.

بينها وبين النصرانية، أو بينها وبين الإسلام، وإنه لزيف وضلال ما فعلوا، فإن الرجل جعل نظريته مادية آلية لا محل فيها لعناية إلهية ـ كما بينا قبلاً ـ يقول **"يوسف كرم"** : "فالنظرية الداروينية آلية بحتة، تستبعد كل غائية، ولا تدع للكائن الحى قسطًا ما من التلقائية، بل تعتمد على محض الاتفاق والصدفة فى حياة النبات والحيوان"[١].

هذا فيما يخص النظرية فى ذاتها ومعطياتها وما تتركه من انطباعات إلحادية لدى من يطلع عليها، فضلاً عمن يصدق بها، ويقتنع بما ورد فيها.

أما فيما يتصل بصاحب النظرية؛ وقد سبق أن قلنا: ونحن لا تهمنا عقيدة الرجل بقدر ما تهمنا نظريته. لكن لا بأس ـ وقد بينا ما فى نظريته من إلحاد ـ أن نشير إلى ما ورد حول عقيدة الرجل، مع تحفظ هام وخطير، ذلك أن عقيدة إنسان ما لا يمكن لأحد أن يقطع فيها برأى إلا من خلال الدلائل البينة الملموسة وليس لدى الباحثين شىء من ذلك بالنسبة لدارون، سوى أنه كان مستترًا بالصمت فحسبه الناس مؤمنًا بالدين النصرانى، وكان ذلك قبل أن ينشر كتابه عن **"تسلسل الإنسان والانتخاب الطبعى"**، عام (١٨٧١م)؛ حيث أعلن فى ذلك الكتاب كفره بوضوح، وأعلن أنه لا حاجة لما يسمى بالعناية الإلهية، بل أعلن أن القول بعناية إلهية فى هذا الوجود قول يخالف الحقيقة، وأن الإنسان يستطيع أن يقوم بما يتطلبه وجوده فى هذا العالم دون حاجة إلى القول بوجود إله، أو الإيمان بذلك الإله، يقول **"يوسف كرم"**: وقد كان **"دارون"** مؤمنًا بالله إلى وقت ظهور كتابه **"أصل الأنواع"**، حيث قال فى ختامه إن الصور الأولى للحياة مخلوقة، ثم تطور فكره شيئًا فشيئًا حتى أعلن أسفه لاستعماله لفظة: **"الخلق"** مجاراة للرأى العام، وصرح بأن الحياة لغز من الألغاز، وأن ما فى العالم من ألم يعدل بنا عن القول بعناية إلهية"[٢].

وهذا الذى كتبه **"يوسف كرم"** من أن الرجل لا يؤمن بقضية الخلق، وأنه قد

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة. ص: ٣٥٢ ٣٥٣.
(٢) المصدر السابق. ص: ٣٥٤ ٣٥٥.

أسف لاستعماله كلمة "الخلق" فى كتابه "أصل الأنواع"، وأنه لم يستعمل تلك الكلمة اقتناعًا بها، بل استعملها مجاراة للرأى العام، وأنه يؤمن بأن ما فى الحياة من شرور وآلام دليل على أنه لا توجد عناية إلهية؛ أى لا وجود لإله فى هذا الكون، تقول: هذا الذى كتبه "يوسف كرم" ليس اجتهادًا منه، بل هو نقل ما كتبه "دارون" نفسه، حيث كتب ترجمة لحياته نشرت عام ١٨٧٦م.

وهذا اعتراف وإقرار من دارون يبين عن كفره وإلحاده، والواقع أن الأمر ما كان بحاجة إلى كل ذلك الجهد لتبين عقيدة دارون، فإنه إذا كان الإناء ينضح بما فيه، وكانت نظريته على ما بينا من إلحاد وإنكار لله ـ سبحانه ـ وخلقه هذا الكون بما فيه؛ فإن ذلك وحده كاف فى بيان كفر النظرية وكفر من جاء بها.

* * *

تقويم النظرية

إذا كانت نظرية التطور لداروِن قد شغلت العلماء حينًا من الدهر؛ وإذا كان الناس ـ فى ذلك الحين ـ قد فتنوا بتلك النظرية باعتبارها حقيقة علمية، واعتبروها آكد الحقائق فى علم الحياة والأحياء.

وإذا كانت تلكم النظرية قد أشعلت الجدل بين العلماء ردحًا من الزمن، حتى صارت ـ وقتذاك ـ المادة الفكرية الأكثر شيوعًا بين المثقفين وأنصافهم.

وإذا كان أولادنا قد تعرضوا لما يشبه "غسيل الدماغ" طيلة سنين كثيرة فرضت فيها عليهم دراسة هذه النظرية على أنها المفتاح السحرى الذى يفتح جميع مغاليق العلم، وبه تنكشف لنا أسرار الحياة والأحياء.

إذا كان ذلك كله قد حدث ـ وقد حدث فعلاً ـ فإنه كان أشبه بغمامة قاتمة مرت بسماء العلم الصافية فألقت بظلالها السوداء على شمس الحقيقة حينًا من الدهر، ثم انقشعت كما ينقشع دائمًا الباطل، والكذب، والخداع، وأطلت الحقيقة تعلن أن النصر للحق ولو بعد حين.

إن فساد تلك النظرية وضلالها وخطرها لم يقتصر على علم الأحياء وما يتصل به من جوانب العلوم المختلفة، بل تخطى ذلك كله إلى مجالات أخطر بكثير من مجالات الأحياء وعلومها، فقد استغلت النظرية ومعطياتها الضالة سلاحًا ماضيًا فى أيدى الملاحدة، والزنادقة، وأعداء الدين، أعداء الحق والخير، وكل ما هو جميل فى هذه الحياة، يشهرونه فى وجوه المتدينين باعتباره الدليل القاطع على أنه "لا إله"، وأن الوجود كله غنى بنفسه عن وجود إله يوجده ثم يدبره، فقد ادعت تلك النظرية أن الطبيعة المادية هى كل شىء، وموجدة كل شىء، وهى وراء كل ما نراه من حياة وأحياء، وهى صاحبة الإبداع وصانعة الإتقان، ومنوعة الأنواع، هذا الإبداع

والإتقان والتنوع الذى ينظر إليه المؤمنون فيقولون: سبحان الله الذى أحسن كل شيء خلقه. فتبارك الله أحسن الخالقين، فإذا هؤلاء الملاحدة يتلقفون تلك النظرية ليقرروا بمنتهى التبجح والتوقح أنه لا خالق، ولا خلق، ولا مخلوق، وإذا صاحب النظرية بعد أن استعمل كلمة: "**الخلق**" بجانب الأحياء ـ مجاراة للرأى العام كما قال هو نفسه ـ يعلن أنه أسف أشد الأسف لاستعماله تلك الكلمة التى تشير إلى وجود إله خالق. وأن الأحياء من خلقه وصنعه، وأن ذلك التنوع العجيب فى المخلوقات، ثم الإتقان والعناية فى كل مخلوق على حدة، كل ذلك من خلق الله ـ سبحانه ـ وحكمته، أعلن الرجل "**دارون**" اعتذاره عن استعماله لفظة "الخلق" ـ رغم أنه أعلن بوضوح أنه لم يستعملها عن عقيدة وإيمان، بل "**مجاراة للرأى العام**" ـ وأعلن كلمته النهائية فى هذا المجال، وهى: أنه لا حاجة بهذا الوجود إلى إله، وأن الطبيعة كافية وحدها لتفسير كل شيء فى هذه الحياة.

كان هذا شأن النظرية، وشأن صاحبها، ثم كان شأن الملاحدة الذين اتخذوا منها سلاحًا يحاربون به الدين والمتدينين.

لكن الباطل قصير العمر مهما علا صوته واشتد ضجيجه زمنًا، وهكذا قدر لهذه النظرية الباطلة، أن تندحر وتندثر، وأن تتحول أثرًا بعد عين، وأضحت مثالاً لما يمكن أن ينتشر من ضلال، ويرتكب من فساد باسم العلم وعلى أيدى من يسمون العلماء.

وقد قدر لهذه النظرية أن يكون القضاء عليها، وهتك أستارها، وفضح أسرارها على أيدى جمهرة من نفس الفصيل الذى جاء ذيوعها وشيوعها على أيديهم، أى من علماء الأحياء المتخصصين، وهم قبيل "دارون" ومن سار معه، غير أن الله ـ تعالى ـ قدر أن يُقْضَى على النظرية بأيدى علماء الأحياء، التى جاءت النظرية على أيدى جماعة من السابقين عليهم فى نفس التخصصات الحيوية، وكان رد علماء اليوم على علماء الأمس بالأدلة العلمية القاطعة بتكذيب النظرية، وفساد جميع قوانينها التى زعموا أنها مسلمات، كان ذلك الرد بمثابة "شاهد من أهلها" أن النظرية والقائلين بها فى ضلال مبين.

وسوف نورد بعض المآخذ والأدلة على فساد النظرية بإجمال، ثم نذكر بعض الشواهد والقواطع العلمية التى أوردها علماء الأحياء المحدثون على فساد النظرية وزيفها ـ كل ذلك بحول الله سبحانه ـ.

١ ـ **النظرية قائمة على مجرد افتراضات حدسية ظنية**، ليس عليها دليل واحد، ولا يمكن أن يقوم على شىء منها دليل واحد، وكل ما أوردوه على أنه أدلة علمية، وملئوا الدنيا ضجيجًا حوله، لا يعدو كونه مشاهدات حاولوا تعليلها بافتراضات حدسية تخييلية هيأها لهم وأمدهم بها خيال مريض تغذيه نزعة شديدة، وإصرار عجيب على الكفر، والإلحاد، وإنكار الدين النصرانى بخاصة، والأديان بعامة، تلك النزعة التى كانت سمة العلماء فى عصر دارون وقبله بقليل، مما جعل علماء ذلك العصر يفتشون عن كل ما يؤيد إلحادهم، وكفرهم، وإنكارهم الألوهية، فكان ما جاء به دارون ـ مع من سبقه ولحق من التطوريين ـ مغذيًا لنزعتهم الإلحادية، ومحققًا لرغبتهم فى إنكار الخالق ـ جل وعلا ـ وإرجاع كل شىء إلى الطبيعة، وهذا يفسر تلقف علماء ذلك العصر نظرية دارون وتأييدهم إياها، وكذلك يفسر وقوف اليهود وراء النظرية بكل ما يملكون من تأثير مادى وسياسى، وعملهم على نشرها بكل وسيلة متاحة.

٢ ـ **أن القضايا التى تتناولها النظرية**، والقوانين التى تتحدث عنها، وتقوم عليها، مرتبطة بعصور سابقة عبر آلاف الملايين من السنين ـ كما يزعمون ـ وأن التحقق من افتراضاتها التى افترضتها هو من أكثر الأمور استحالة لارتباطه بهذه الأحقاب السحيقة فى الماضى عبر ملايين السنين.

فهم حين يقررون أساس نظريتهم الذى يقول: إن الحياة بدأت على الأرض على هيئة خلية انبثقت فيها الحياة فجأة ـ كيف؟ لا أحد يدرى، لكنهم هكذا يزعمون ـ ثم تطورت هذه الخلية ارتقاء بناء على قوانينهم التى ذكروها، وأهمها قانون "**الانتخاب الطبعى**" الذى يرجعون إليه تطور وتنوع الحياة والأحياء، وهم حين يقررون أن هذا التطور من الخلية حتى الإنسان ـ مرورًا بكل أشكال الأحياء ـ قد

تم عبر آلاف الملايين من السنين.. نقول: كيف للباحث أن يتحقق من صدق هذه الافتراضات الواهمة التى تقوم على مئات أو آلاف الملايين من السنين؟

لذلك قلنا أن افتراضاتهم التى سموها "قوانين" مغرقة فى الخيال الواهم، وأن التحقق من صدقها، أو بعضها، أو شيء منها ضرب من المحال.. ويبقى السؤال: كيف تقوم نظرية أو مذهب يوصف بأنه "علمى" على افتراضات لا يمكن التثبت من صدق شيء منها ولو يسير، إنها بذلك تظل مجرد افتراض تائه فى بيداء الخيال الكاذب، والوهم الفاسد، والتفكير المريض.

٣ ـ كما أقام الرجل نظريته على افتراضات تتصل بالأحقاب الماضية، كذلك ربط بين نظريته والعصور المستقبلة، على أساس من الوهم بأن العلم فى المستقبل وعن طريق الأحافير سوف يأتى بالأدلة القاطعة على صدق نظريته، وذلك بالعثور على بعض الهياكل التى تكمل الحلقة أو الحلقات المفقودة بين القرد والإنسان ـ بزعمه ـ.

فقد زعم الرجل أن الحياة بدأت بخلية واحدة، ثم تطورت حتى وصلت إلى القردة، وأن الحلقات بين الخلية الأولى والقردة متتالية متوفر ما يدل عليها من الصور المختلفة للأحياء، لكن بين القردة والإنسان الذى هو آخر حلقة فى سلسلة التطور حلقة مفقودة، أى أن هناك كائن حى تطوَّر عن القرد، وعنه وجد الإنسان، وهذا الكائن المفقود هو الحلقة الفاصلة بين القرد والإنسان، وقد أطلق عليه "**داروين**" اسم: "**القرد الإنسان**" أو "**الإنسان القرد**".. وقد زعم أن تلك الحلقة قد فنيت واندثرت بعامل الصراع بين الأحياء، والبقاء للأقوى، وعامل الانتخاب الطبعى.

يقول بروفيسور "داون. ت. كيسن": "وإذا كان داروين قد تكلم عما يسميه بالحلقة المفقودة بين القردة العليا والإنسان بوجه عام، فالواقع أن هناك "حلقات مفقودة" كثيرة تتمثل فى تلك الأنواع، أو الأشكال الهامشية، والوسيطة التى يخلو منها سجل الحفريات، وقد كان داروين يرى أن العثور على مزيد من الحفريات كفيل

بسد تلك الثغرات، وبالتالى إثبات صحة نظريته، وهذا أمر لم يتحقق. إن ما حدث كان على العكس تمامًا، فعلى الرغم من زيادة أعمال الحفريات والتنقيبات طيلة المائة سنة الأخيرة زيادة كبيرة، إلا أن النتيجة التى أصبحت تتأكد سنة بعد الأخرى كانت مخيبة لآمال التطوريين، فهذه الحفريات جميعها تشير إلى أن جميع أنواع الحيوانات والنباتات ظهرت هكذا فجأة ودون أية مقدمات أو أية حلقات وسطى مزعومة"[١].

ويقول "د. أحمد أبو زيد": "يكاد العلماء يجمعون الآن على أن أنواع الأحياء لم تكن تظهر نتيجة لتراكم التغيرات الصغيرة خلال فترات طويلة جدًا من الزمن ـ كما زعم دارون ـ ولكنها كانت تظهر فجأة، ثم تستمر فى الوجود دون أن يظهر عليها أية تغيرات كبيرة حتى تندثر وتختفى، لكى يظهر من بعدها ـ وبطريقة فجائية ـ أيضًا ـ أنواع أخرى تختلف عنها اختلافًا كبيرًا، ودون أن يكون هناك مقدمات أو شواهد فى الأنواع القديمة تبشر بظهور هذه الأنواع الجديدة الأكثر تطورًا وتمهد لها"[٢].

ويقول الأستاذ "جون ـ ن ـ مور" المتخصص فى علم الأحياء والأحافير: "لقد توصلنا من تدقيق المتحجرات إلى النتائج الآتية:

أ ـ لا نجد أية متحجرة تعود إلى حياة سابقة لحياة اللافقريات.

ب ـ أن الأنواع الرئيسة من الأحياء تظهر بشكل فجائى دون أن تكون متطورة عن أحياء سابقة.

جـ ـ خلافًا لما تدعيه نظرية دارون: لا نجد أية متحجرة تعود إلى الحلقات الوسطى المزعومة، التى قيل: إنها بين القردة والإنسان.

---

(١) فى نظرية التطور: هل تعرضت لغسيل الدماغ؟. محاضرة علمية ألقاها الأستاذ: دوان. ت. كيسن ترجمة وتعليق وتقديم: أورخان محمد على ـ ضمن سلسلة: أبحاث فى ضوء العلم الحديث. ص: ٦ -٧

(٢) د. أحمد أبو زيد: "أفكار دارون أمام القضاء.. هل مات دارون حقا؟" بحث نشرته مجلة العربى الكويتية. ع: ٢٨٤ ـ يوليو ١٩٨٢. ص: ٧١- ٧٢.

د ـ إن السجل التاريخي للأحياء يهدم نظرية دارون، ويقضي على القول بالتطور بدل أن يقوى النظرية ويساندها[١].

٤ ـ يتضح مما سبق فى الفقرة (٣): أن افتراضات ومزاعم التطوريين عن المستقبل الذى سوف يدعم نظريتهم ويؤكدها، قد جاء العلم بما يناقضها ويهدمها تمامًا، فقد أثبت العلم فساد النظرية وضلالها، وبعدها الشاسع عن الواقع، بل ومصادمتها لهذا الواقع، فكل ما فيها مخالف للحقائق التى تنبيء عنها الحية والأحياء، وعلى سبيل المثال:

أ ـ أن البحوث العلمية، والحفريات، والتنقيبات قد أثبتت طيلة المائة سنة الأخيرة أنه لا يوجد ما أسماه التطوريون "الحلقة المفقودة" بين القردة والإنسان، ومع أنهم قد أقروا بأن الفارق بين القرد والإنسان حلقات كثيرة، وليس حلقة واحدة، فإنه لم يوجد فى تاريخ الإنسان أو الحيوان عن طريق الأحافير، أو حتى الاستنباط الذهنى ما يؤكد ذلك، بل الذى حدث عكس ذلك كلية فقد وجدت آثار الأنواع الحيوانية متمايزة بعضها عن بعض تمامًا.

ب ـ أثبتت الحفريات التى وجدت متحجرة منذ أحقاب سحيقة وجود جميع الأنواع البدائية، والزاحفة، التى تمشى، والتى تتسلق، كلها وجد بعضها بجوار بعض فى نفس الأحقاب الضاربة فى القدم، فلم توجد الزواحف أولاً، ثم تأخر عنها فى الوجود الأنواع الأرقى، بل وجدت كلها معًا، مما يدل على أنها لم يتطور بعضها عن بعض، بل وجد كل نوع منها فى الوقت الذى وجد فيه فجأة، ودون أية مقدمات.

جـ ـ ليس من شك أن بعض أنواع الأحياء وجد قبل البعض الآخر، وأن أنواعًا كان وجودها حديثًا بالنسبة لأنواع سابقة عليها، وأن الفترات الزمنية الفاصلة

(١) من بحث تقدم به الأستاذ: "جون. ن. مور" إلى "معهد بحوث التطور" بفلادفيا ـ بمناسبة مرور ١٢٨ عامًا على إنشاء المعهد، ونشرها المعهد فى ٢١ ديسمبر ١٩٧١. نقلاً عن أورحن محمد على فى بحثه: فى نظرية التطور. ص: ٧.

بين بعض أنواع الأحياء والبعض الآخر متفاوتة تفاوتًا شديدًا، كذلك فإن الإنسان قد وجد فى فترة متأخرة نسبيًا عن كثير من أنواع الأحياء. إن ذلك كله مسلم؛

لكن من المؤكد ـ أيضًا ـ أنه لا صلة عضوية بين الأنواع السابقة، والأخرى اللاحقة فى الوجود، فليس ثمة دليل واحد يدل على أن الأنواع اللاحقة أو الحديثة قد تطورت عن الأنواع السابقة عليها، بل المؤكد الذى أثبتته الحفريات أن أنواعًا راقية نسبيًّا كان وجودها مساوقًا لوجود الأنواع الأخرى التى عدها التطوريون متدنية الرتبة بين الموجودات.

د ـ مما يؤكد ما قلنا فى الفقرة السابقة، أن الأساس الذى قامت عليه النظرية من أن الحياة بدأت بالموجودات الدنيا، ثم الزاحفة، ثم التى تمشى على أربع، ثم الإنسان ـ على تفصيل كبير لديهم فى ذلك ـ إن هذا الأساس منقوض بوضوح شديد، فقد كانت "الديناصورات" بأنواعها، ومثيلات لها، والتى تعد من أضخم الموجودات على الأرض، كانت موجودة فى عصور ساحقة، ولا يتخيل تطورها عن موجودات سابقة عليها، ولا تطورت عنها موجودات لاحقة لها، فقد كانت الزواحف موجودة مع الديناصورات، ثم جدَّت أنواع من الزواحف بعد عصر الديناصورات، فلا الديناصورات تطورت عن الزواحف السابقة عليها، ولا الزواحف التى جدَّت بعدها قد تطورت عنها.

هـ ـ كذلك مما يدل على فساد ذلك الأساس الذى أشرنا إليه، أنهم أقاموا نظريتهم على أن الموجودات الدنيا التى تتمثل فى الحشرات الزاحفة قد وجدت أولاً، ثم تطورت شيئًا فشيئًا إلى موجودات أعلى حتى كان الإنسان.. هكذا زعموا.

لكنا نرى جميع تلك الأنواع حية تسعى على سطح الأرض، بل نجدها فى البيئة الواحدة. نجد أقل الحشرات وأكثرها ضآلة، ونجد الزواحف بأنواعها من ديدان الأرض، وثعابينها، وحَيَّاتها، كما نجد الجراد، والقمل، والضفادع، وما يماثلها يقاربها، كل ذلك نجده بجانب الفيلة، والقردة، والحصان، والإنسان.

فلماذا لم تنقرض الديدان والزواحف حينما ترقى عنها غيرها؟ وإذا كان البعض من الزواحف ترقى والبعض الآخر بقى على حاله؛ فلماذا لم يطَّرد ذلك القانون فى الزواحف جميعها، فترقى كلها أو تبقى على حالها كلها ـ أيضًا ـ؟

وإذا كان ما زعموه قانونًا، قد فقد سمة الاطراد فى جميع الحالات المشابهة والمتماثلة؛ فكيف يكون قانونًا، وكيف يزعمون لأنفسهم العلم؟ ولتدك التهريفات التى يقولون بها أنها نظرية علمية؟

ثم لماذا نجد الكائنات الحية البسيطة موجودة باقية، وقد حازت أعظم المهارات الحياتية التى حفظت عليها وجودها وبقاءها أحقابًا متتالية؛ وذلك مثل: "البكتريا"؛ فهذا الكائن البسيط وحيد الخلية، استطاع أن يعيش ويحتفظ بوجوده منذ أحقاب سحيقة، وقد قهر جميع الظروف التى مرت به، أو مر بها، وما يزال يتحدى دارون ونظريته. بينما نرى أنواعًا من الأحياء متطورة متقدمة ـ كما يقولون ـ تنقرض وتتلاشى من الوجود مثل الديناصورات بأنواعها.

إن ذلك مخالف ومبطل لما تزعمه النظرية وواضعوها، من أن الكائنات البسيطة تتطور إلى الأكثر تعقيدًا ثم تفنى ويبقى المتطور عنها.. وهكذا.

فإن الذى حدث هو العكس، ففنى النوع المتقدم والأكثر تعقيدًا، وبقيت أبسط أنواع الحياة على حالها.

٥ ـ إن التطوريين يزعمون أن عملية التطور مستمرة ودائمة ولا تتوقف، وإذا كان الأمر كذلك؛ فلماذا نرى أنواعًا كثيرة تفنى، وتختفى وتنقرض، فى حين أننا لا نرى أنواعًا تحدث وتظهر بديلا عن التى تختفى بحجة أنها تطورت عن التى اختفت ـ كما يزعمون ـ؟ إنهم يقررون أن أنواعًا كثيرة قد اختفت من سجل الأحياء كالديناصورات ومثيلاتها، فأين ذلك الذى تطور عنها، وأضحى بديلاً لها؟ إن هذا مما يدل على أن ادعاءاتهم التى زعموها قوانين إنما هى دعاوى وهم وتهريف.

٦ ـ ثم نسأل هؤلاء ـ وقد زعموا أن عملية التطور مستمرة ولا تتوقف ـ أين الآثار الملموسة لعملية التطور هذه فى مجتمعاتنا وبيئاتنا التى نعيشها؟ إنهم يزعمون

أن الإنسان بوضعه وشكله الحالى قد وجد منذ نصف مليون سنة تقريبًا، وإذا كان ذلك صحيحًا؛ فأين أثر قانون التطور فى الإنسان منذ ذلك الزمن البعيد؟ لماذا توقف قانون التطور، ولم يظهر أثره على الإنسان طوال نصف مليون سنة؟ أليس كان ـ من البدهى ـ أن يتطور الإنسان، فتظهر أنواع جديدة متطورة عنه، تختلف عن ذلك الذى ظل نصف مليون سنة على حال واحدة؟ وكيف استطاع ذلك الكائن الذى وجد نتيجة لعملية التطور ـ بزعمهم ـ أن يقاوم تلك العملية؟ ولماذا توقفت تلك العملية بالنسبة إليه؟ إن الإنسان ظل على حاله طوال تلك المدة التى زعموها هم، لم تزدد أصابعه إصبعًا فى يد ولا رجل، ولم تنقص، ولم تتحور ذراعاه إلى أجنحة، رغم محاولاته العديدة كى يطير، حتى اضطر أن يبتدع آلات الطيران لما عجز عن ذلك بنفسه.

إن الإنسان يمثل الدليل الأوضح والأقوى على فساد تلك النظرية وضلالاتها، وزيف كل ما جاء عنها مما زعموه قوانين ثابتة مستمرة، فإن الإنسان منذ وجد هو الإنسان بشكله وصورته وتكوين أعضائه داخلية وخارجية، وليس ذلك فى بيئة دون بيئة، حتى يتعللوا ـ كشأنهم بالبيئات والانتخاب الطبعى وغيره ـ بل إن الإنسان هو هو فى جميع البيئات التى وجد فيها، فى الحضر، فى الريف، فى الغرب، وفى الشرق، فى الأدغال والأحراش، فى المجتمعات المتمدنة، أو فى القبائل التى اكتشفها العلماء فى بعض الغابات لا يعرفها أحد ولا تعرف أحدًا، لم يطرأ عليه تغير ولو طفيفًا طوال نصف مليون سنة ـ كما زعموا ـ وهذا يعنى أحد أمرين: أنه لا يوجد قانون للتطور ـ كما زعموا ـ وأن النظرية باطلة، أو أن القانون الذى زعموه مستمرًا ودائمًا، قد توقف وتعطل، ولم يعد يعمل منذ نصف مليون سنة. وفى كلا الاحتمالين هم مهرفون مضللون، ونظريتهم فاسدة باطلة.

٧ ـ وإذا ما تركنا المجتمعات الإنسانية التى لم يطرأ على الإنسان فيها تطور طوال تلك المدة التى قدروها لوجود الإنسان، وهو تقدير غير مسلم ـ ثم ذهبنا إلى مجتمعات الأحياء الأخرى كالقردة ـ على سبيل المثال ـ فإننا نجد الشىء نفسه الذى أشرنا إليه فى الفقرة السابقة عن الإنسان.

فإن القردة أسبق بملايين السنين من الإنسان فى الوجود ـ كما زعموا ـ والقردة على كثرة أنواعها وأشكالها، ظلت تلك الملايين من السنين وهى على وضعها لم تتغير. وكذب وافتراء ما زعموا أنها تحولت وتطورت إلى الإنسان. وأدلة كذبهم وافترائهم كثيرة، فإذا كانت القردة قد تطورت إلى الإنسان، أو تطور عنها الإنسان، فَلِمَ لَمْ تتطور جميعها، ولماذا تطور بعضها وبقى البعض، والبيئات هى البيئات، والظروف هى الظروف؟

ثم: لماذا توقفت عملية تطور القردة إلى الإنسان منذ ذلك العهد البعيد؟ ولماذا لم يشاهد الناس طيلة آلاف من السنين وعاها الإنسان وسجل أحداثها لماذا لم يشاهد قردًا تطور إلى إنسان؟ لماذا لم يسجل التاريخ ولو حدثًا واحدًا أن الناس دخلوا إلى غاب القرود فوجدوا بينها إنسانًا قد تطور عنها، أو حتى نصف إنسان ونصف قرد؟

إنهم يتحدثون عن حلقة مفقودة بين القردة الموجودة، وبين الإنسان؟، تلك الحلقة التى تطورت عن القردة الحالية، ثم تطور الإنسان عنها؛ إنهم يبحثون عنها بين الآثار والأحافير، والسؤال لماذا لم يتطور عن القردة الحالية تلك الحلقة التى هى بين الإنسان والقردة، إذا كانت قد تطورت قبل ذلك؟ لماذا توقفت عملية التطور عن إنتاج مثيل لتلك الحلقة التى أطلقوا عليها: "**القرد الإنسان**"، أو "**الإنسان القرد**"؟ لماذا؟ والقردة موجودة وعملية التطور ـ كما يقولون ـ قانون آلى يعمل بلا وعى ولا بصيرة؟

إن كلامهم باطل بكل المقاييس؛ فالقردة على كثرة أنواعها، لم يحدث أن خرج من نوع قرد يشبه نوعًا مختلفًا من القردة، فكيف يخرج من القردة إنسان؟ بل إنه لم يحدث أن حدث تحوُّر فى بعض أعضاء القردة كنوع من التطور المزعوم.

فهل يعقل أن يكون ثمة شىء يسمى التطور الخلقى، أو الحيوى، ثم يظل الإنسان طيلة نصف مليون سنة دون أن يتطور إلى مخلوق أسمى وأكثر رقيًّا كما تزعم النظرية التطورية الباطلة، كما أنه لا يعقل أن تظل القردة ملايين السنين ـ كما يقرون هم ـ ثم لا نجد بينها عبر آلاف من السنين أثرًا ولو يسيرًا من التغير يطرأ على أى نوع منها على كثرة أنواعها وشيوعها.

٨ـ ومما يؤكد بطلان نظرية التطور وضلال القائلين بها، وكذب كل ما أقاموها عليه من قوانين، أن التجارب التى أجريت حول تلك النظرية طوال المائة سنة الأخيرة، ـ وهى تجارب كثيرة، وجادة، ومتنوعة ـ قد أثبتت كذب النظرية، وأن الأنواع الحية قد وجدت مستقلاً بعضها عن بعض، وأنه لا علاقة عضوية تربط نوعًا بنوع آخر على أساس من تطور هذا عن ذاك.

لقد بذلت محاولات جادة، وصعبة، ومكلفة، من المال والجهد لاختبار وصدق النظرية التطورية، وهذه المحاولات بذلت من كلا الفريقين، المؤيدين للنظرية. رغبة فى تقويتها وتأكيدها، والمعارضين لها؛ رغبة فى كشف زيفها وبطلانها، وكانت النتائج جميعها مخيبة لآمال التطوريين، مؤكدة أن الأنواع الحية قد وجدت مستقلاً بعضها عن بعض، وأن القول بتطور بعضها عن بعض أكذوبة كبرى.

ولنستمع إلى الأستاذ "جون ـ ن ـ مور" فى بحثه الذى قدمه إلى "معهد بحوث التطور" بفلادلفيا بأمريكا، والذى اقتبسنا منه قبل ذلك؛ لنسمعه يقول فى نهاية بحثه: "... وأخيرًا فإنه قد تم التوصل إلى ثبوت الأنواع، وأن التفكير الحيادى المستند على البحوث التى أجريت خلال المائة سنة الأخيرة يقودنا إلى هذه الحقيقة، ففى عالم الخلية وقوانين الوراثة لا يعثر التطوريون على أى دليل يسند نظريتهم، فالصفات المكتسبة لا تورث، والأنواع لا تنتج إلا نفس أنواعها.. وعندما لجئوا إلى الطفرة لعلها تكون التفسير الوحيد لتغير الأنواع وتطورها، لم تسعفهم تلك بشىء، فقد حاولوا جهدهم، وبكل الطرق، أن يحدثوا طفرة كبيرة ونوعية فى المختبر، واستعملوا كل عوامل ووسائل إحداث الطفرات، من الأشعة فوق البنفسجية، والأشعة السينية، والمواد الكيماوية، ودرجات الحرارة المؤثرة.. إلخ فلم يحصلوا إلا على تغييرات طفيفة جاءت على هيئة تشوهات خلقية فى الكائنات الحية التى أجروا عليها التجارب، فقد أجروا التجارب على ثمان مائة جيل متعاقب "لذبابة الفاكهة" أجروا عليها تجارب متصلة ومستمرة. ـ وهذه الأجيال الثمان مائة لذبابة الفاكهة تساوى فترة زمنية تقدر بعشرين ألف سنة بالنسبة للإنسان، إذا اعتبرنا الجيل البشرى خمسة وعشرين عامًا ـ لكنهم لم يحصلوا من تلك التجارب على ذبابة الفاكهة

إلا على تشوهات طفيفة؛ أى أن الذبابة ظلت ذبابة، ولم يقع لها أى تطور فى قليل أو فى كثير، رغم أنهم حاولوا إحداث تغييرات فى البيئة، وفى ظروف المناخ، وفى كل شىء تعلل به التطوريون على أنه سبب للتغيير، ورغم تلك الأجيال الثمان مائة المتعاقبة. وقد خرج العلماء من تلك المحاولة بالنتائج التالية:

١ ـ أن أغلب التغيرات تكون ضارة ـ وليست نافعة كما يزعم التطوريون ـ.

٢ ـ أن الطفرات نادرة الحدوث فى الطبيعة، وكلما ترقى الكائن قل احتمال حدوث الطفرات عنده.

٣ ـ أن التغير الطارىء نتيجة الطفرة يبقى داخل النوع أى لا يمكن لأية طفرة تغيير نوع الكائن الحى، إذ أن هناك هوة سحيقة فاصلة بين كل نوع ونوع، هوة لا يمكن تجاوزها بأى حال من الأحوال[1].

يتضح من ذلك أن كل ما قاله التطوريون دارون ومن تابعه، إنما هو كذب وضلال، وأن القوانين التى وضعوها ليصبغوا ضلالهم هذا بصبغة علمية، إنما هى مفتريات وتحريفات، ولم يصل منها شىء إلى مستوى القانون العلمى، بل إنها لم يتوفر فيها شرائط "**الفرض العلمى**"، وهذا الذى نقوله ليس من رأينا، وإنما هو كلام العلماء المتخصصين فى علوم الحياة والأحياء، وكلامهم هذا لم يقم على أساس نظرى، لكنهم قرروه بعد مراحل قاسية ومضنية من التجارب العلمية التى شملت كل جوانب النظرية التطورية، ويكون ـ بذلك ـ هذا الذى نقوله فى النظرية والداعين إليها، هو "**كلمة العلم والعلماء**" أو هم "**أهل الذكر**" فى هذا المجال.

٩ ـ لعله من الأوفق والمستحسن ـ قبل أن نختم نقد النظرية التطورية بالفقرة التالية والأخيرة ـ أن نقدم للقارىء صورة من صور تفكير التطوريين، ونعطى مثالاً لما عليه هؤلاء من فكر مشوه، وخيال مريض، وسوف نبين فى هذا المثال كيف يفكر

---

(١) نقلاً عن أبحاث فى ضوء العلم الحديث: بحث فى نظرية التطور. ترجمة. أورحان محمد على. ص: ٨.

هؤلاء، وكيف يوضحون للناس عملية التطور من نوع إلى نوع، سنختار هنا تصويرهم عملية تطور "الأسماك" إلى "زواحف"؛ أي كيف نشأت الزواحف عن الأسماك، التي يقول دارون ومن معه: إن الزواحف نشأت وتطورت عنها. وسنأخذ هذا المثال عن كاتبة من اللائى يناصرن التطوريين ويدافعن عنهم، تلكم هى الكاتبة الأمريكية "إليانور كلايمر" فى كتابها: "قصة الحلقة المفقودة"، تقول الكاتبة:

"وظهر الجفاف بالقرب من نهاية الزمن الباليوزى[1]، واستطاعت الأسماك القديمة ـ بعد جفاف البرك والأنهار ـ أن تزحف على الأرض للوصول إلى ما تبقى من هذه البرك، وكان لهذه الأسماك التى استطاعت أن تتحرك على سطح الأرض أحفاد استطاعت هى نفسها أن تبقى خارج الماء لفترات أطول...".

هل رأينا كيف تفسر تلك المرأة تطور الزواحف عن السمك؟ إنها ترى أن السمك حين جفت البرك حوله لم يمت، وإنما أخذ يزحف، كى يصل إلى أماكن من البرك بقى فيها بعض الماء، ولو سألناها: كيف لم يمت السمك حين جف الماء؟

ونحن لا نعيش فى عالم والسمك فى عالم، بل السمك معنا نأكله على أصناف شتى، ويربيه بعضنا فى بيوته، وقد عرفنا منذ وعت البشرية أن السمك إذا حرم الماء لسبب من الأسباب كان الموت نهايته الحتمية، على اختلاف بين أنواعه فى المدة التى

---

(١) الزمن الباليوزى يعبر به عن حقب الحياة القديمة. ويشتمل الزمن الباليوزى على العصور التالية:
١ ـ العصر "الكمبرى" واستغرق مائة مليون سنة، وهو الفترة بين: ٥٢٠- ٤٢٠ مليون سنة مضت.
٢ ـ العصر "الأردفيشى" واستغرق سبعين مليون سنة. ما بين: ٤٢٠-٣٥٠ مليون سنة مضت.
٣ ـ العصر "السيلورى" واستغرق حوالى ٣٠ مليون سنة. ما بين: ٣٥٠- ٣٢٠ سنة.
٤ ـ العصر "الديفونى" واستغرق ٤٥ مليون سنة. ما بين: ٣٢٠- ٢٧٥ مليون سنة قبل الآن.
ويقولون إن الأسماك قد ظهرت فى ذلك العصر. وكذلك البرمائيات. وبعض الحشرات كالعناكب وظهرت النباتات.
٥ ـ العصر "الكربونى ـ الفحمى" واستمر حوالى عشرين مليون سنة. بين: ٢٧٥- ٢٥٥ مليون سنة مضت.
٦ ـ العصر "البرمى" واستمر حوالى ستين مليون سنة. بين: ٢٥٥- ١٩٥ مليون سنة مضت. وفيه تحولت الأسماك إلى زواحف. أو تطورت الزواحف عن الأسماك. كيف ذلك؟ هذا ما نراه فى الفقرة التى ننقلها عن المؤلفة. والتى تثير الإشفاق أكثر مما تثير السخرية والتهكم.

يقضيها حيًّا بعد خروجه من الماء، فبعضه يظل دقيقتين، والبعض عشر دقائق، والبعض ـ ربما ـ أكثر من ذلك بقليل، لكن النهاية الحتمية لكل أنواعه هى الموت. فكيف بقى السمك حيًّا بعد أن جفت المناطق التى هو فيها من البرك والأنهار؟ وكيف أخذ يزحف على الأرض ليصل إلى الأماكن التى ما يزال فيها بعض الماء؟

وهنا أسئلة كثيرة ليس لها أجوبة عند هؤلاء: كيف زحف السمك على الأرض؟ ونحن نعرف أن السمك يحسن العوم والسباحة، ولا يعرف الزحف على اليابسة أبدًا؟

ثم كيف رأى السمك الأماكن التى ما يزال بها بعض الماء ليزحف إليها؟ ومن المُسَلَّمات أن السمك لا يرى إلا فى الماء، فإذا خرج من الماء فقد الرؤية.

ثم كيف ظل حيًّا دون أن يدركه الموت وهو يزحف المسافات بحثًا عن الماء؟ وهل رأى أحدٌ منا السمك يزحف حين يخرج من الماء، ويظل حيًّا يبحث هنا وهناك عن الماء، إن الذى يفعله السمك حين يخرج من الماء ليس سوى القفز مرات ومرات مما يعانى من سكرات الموت، وذلك قبل أن يدركه الموت الحتمى.

هذا الذى نقوله هو الواقع المُسَلَّم، والذى يدركه الخلق جميعًا، لكن هؤلاء التطوريين ليسوا معنا، إن لهم أن يتخيلوا ويتوهموا ثم يخرجوا على الناس بتلك الأضاليل، والواجب على الناس أن يصدقوا ويذعنوا.

إن هذا ليس كل ما فى جعبة تلك المرأة التى ننقل عنها، فلنكمل روايتها عن الزواحف، وكيف تطورت عن أبيها السمك؛ تقول "إليانور كلايمر":

"واكتشفت بعض أحفاد البرمائيات ـ فى يوم صاف جميل ـ أنها قادرة على البقاء خارج الماء بصفة مستمرة، وهكذا بدأ زمن الزواحف..."[1].

المسألة ـ إذن ـ فى غاية البساطة واليسر، ولماذا نصعب الأمور نحن؟ إن السمك ـ

(١) قصة الحلقة المفقودة. تأليف "إليانور كلايمر". ترجمة د. محمد رشاد الطوبى، ص: ٣٦ مكتبة الأنجلوا المصرية.

فى يوم صاف جميل ـ اكتشف فجأة أنه يستطيع أن يعيش خارج الماء، كما اكتشفت الأسماك أن بعضها يمكن أن يتحول إلى ثعابين وحيات، وبعضها إلى سحالى. والبعض اختار أن يكون ضبًّا أو تمساحًا.. وهكذا.

على أننا يجب أن نلاحظ أمرًا هامًا ينبه إليه الأستاذ "أورخان محمد على" فيقول: "إن السمكة لكى تتحول إلى حيوان برمائى، فإنه من الضرورى أن يتغير فيها كل شيء: خياشيمها، عضلاتها، عظامها، دورتها الدموية، نظامها العصبى، أطرافها.. إلخ"[1].

فهل تغير كل ذلك فجأة ـ فى يوم صاف جميل ـ كما تدعى المرأة التطورية؟ هل زحف السمك بحثًا عن الماء، وأثناء زحفه تغير فيه جسمه، وخياشيمه، ودورته الدموية، وأطرافه، وجهازه العصبى.. إلخ؟.

إن خير تعليق على ذلك الكلام التخريفى الساقط، قول أحد علماء الأحياء: ـ تعليقًا على نظرية التطور، وتلك الآراء التى يأتى بها أصحابها ـ :"**إن هذه النظرية تذكرنا بقصص الجن والسحرة، عندما يقوم الساحر بقلب إنسان إلى حيوان، أو حيوان إلى إنسان**"[2].

١٠ ـ نأتى بعد ذلك إلى الفقرة الخاتمة فى نقد النظرية، وقد تعمدنا أن نجعلها آخر الفقرات، لأنها تمثل معول الهدم الرئيسى للنظرية؛ ونعنى به قضية الحياة، ونشأتها فى الجماد، وتلبسها للمادة الميتة، وفى هذا المجال يكون السؤال الأهم هو: كيف نشأت الحياة على الأرض؟

وهذا السؤال لا يمثل مشكلة للمؤمنين المتدينين، حتى أولئك الذين يدينون بالأديان الباطلة، لا تمثل هذه القضية مشكلة لهم؛ لأنهم جميعًا يعتقدون فى أن الحياة نشأت على ظهر هذه الأرض بمستوياتها المختلفة، من نبات وحيوان وإنسان، بفعل

(١) أبحاث فى ضوء العلم الحديث، ص: ١٠.
(٢) المصدر السابق. ص: ١١.

إله خالق.. قلنا: قد يكون بعض المتدينين معتنقين أديانًا باطلة، لكن قضية الإيمان بخالق لهذا الكون، ومانح الحياة للأحياء فيه، قضية مسلمة عند الجميع، وهى القاسم المشترك بين أصحاب الأديان على اختلافها، لهذا قلنا: إن الإجابة على هذا السؤال لا تمثل مشكلة بالنسبة للمؤمنين بخالق للحياة، وباعث لها فى الأحياء.

أما الملاحدة الذين لا يؤمنون بوجود إله خالق لهذا الكون، وباعث للحياة فى الأحياء، فهؤلاء الملاحدة على اختلاف أصنافهم عليهم أن يجيبوا على هذا السؤال. على الزنادقة، والدهريين، والشيوعيين، والماديين، وبخاصة التطوريين أن يفسروا لنا: كيف نشأت الحياة على هذه الأرض؟

كيف تحولت المادة الجامدة الميتة إلى شىء حى، فيه الحركة، والنماء، والتغذى، والحس، والشعور، والوعى، والإدراك، والعقل والذكاء؟

إن الماديين لهم فى هذا المجال تهريفات كثيرة، هى عبارة عن **"فروض"** يلقون بها، لإزاحة الهم الجاثم على صدورهم، بسبب عجزهم عن الإجابة على هذا السؤال، إنهم يزعمون ـ أحيانًا ـ أن الحياة نشأت على ظهر الأرض، بسبب **"جراثيم كونية"** كانت هائمة، ثم وصلت إلى الأرض، وعنها نشأت الحياة.

وأحيانًا يتحدثون عما يسمونه **"التولد الذاتى"** للحياة فى المادة.

وأحيانًا يشيرون إلى ما يسمونه **"نظرية الكمون"** فى نشأة الحياة على الأرض، إلى آخر هذه التهريفات التى هى فى واقع الأمر خيالات مرضى، أو أوهام مخبولين، وإذا كانوا يلقون بتلك الفروض، محاولين إيجاد وسيلة للإجابة على السؤال الذى طرحناه؛ فإنهم فى الحقيقة لا يجيبون، بل هم بتلك الفروض يفضحون عجزهم، ويكشفون حيرتهم، ويعلنون عن فشلهم.

ولن نتكلم فى كل تلك الفروض التى يتحدث عنها الماديون الملاحدة، لكننا نقف وقفة يسيرة عند **"فرض"** من هذه الفروض، يسمونه: **"نظرية الانبثاق"**.

وإنما اخترنا هذا الفرض؛ لأن التطوريين يستمسكون به على أنه هو الموضح

وإن تعجب من ذلك؛ فعجب أن ينفض الغرب يده من النظرية والقائلين بها، ونحن فى المجتمعات الإسلامية ما نزال نستمسك بها، وندرسها لأولادنا على أنها حقيقة علمية.. وإذا كنا نقول عن دارون ومن معه إنه ضال مخرف، فليس من شك شفى أن الأشد منه ضلالاً وتخريفاهم أولئك الذين يُرَوِّجُونَ لها، ويستمسكون بها، ويدافعون عنها.

* * *

المبحث الثالث

العلمانية

أولاً: التعريف وأصل الاشتقاق:

"العلمانية" مصطلح مستحدث للدلالة على اتجاه فكرى عملى يقوم على أن الدين ـ أى دين ـ لا صلة له بشئون الحياة الدنيا، وأن الحياة الدنيا بما فيها، وما عليها، وما تحويه من شئون حياتية مختلفة لا علاقة لها بالدين، وإنما يتم تنظيمها، وتوجيهها، وتصريف أمورها انطلاقًا من العالم الطبعى المادى وقوانينه التى يقوم الحس دليلاً عليها، بعيدًا عن الدين، وما يقوم عليه من وحى وغيبيات، أو ما يسمى: "ما وراء الطبيعة".

ولأن هذا المصطلح مستحدث فإننا لا نجد له ذكرًا فى معاجم العربية، إلا فيما استحدث منها، كالمعجم الوسيط الذى وضعه مجمع اللغة العربية بمصر. وقد ورد فيه: "العلمانى" نسبة إلى الْعَلْم بمعنى العالم، وهو خلاف الدينى أو الكهنوتى"[(١)].

لكن معاجم اللغة التى وضعها بعض نصارى لبنان، كالبستانى والجسر، كانت أسبق فى ذكر هذا المصطلح، لما أن المصطلح وضع أصلاً لفصل "النصرانية" عن شئون الحياة فى أوربا، وحبسها داخل جدران الكنائس، فالعلمانية مشكلة نصرانية أولاً وأخيرًا، ولذا نجد أن نصارى لبنان كانوا أسبق اهتمامًا بها، واستعمالاً لها فى معاجمهم.

وقد ورد فى معجم البستانى: "العلمانى: العامى الذى ليس بإكليريكى".

كذلك ورد فى معجم خليل الجسر: "العلمانى: ما ليس كنسيًّا ولا دينيًّا".

وواضح أثر النصرانية على بيان معنى الكلمة لدى المعجمين، حيث استعمل كل

---

(١) ح: ٢ - ص: ٦٢٤ ـ ط: ٢، وقد صدر المعجم المذكور سنة ١٩٦٠م.

منهما بعض الألفاظ النصرانية: "إكليريكى"، "كنسى"، إضافة إلى ما يعنيه هذا من أن الكلمة وضعت أصلاً للنصرانية والمجتمعات التى تدين بها.

وقد عرفتها دائرة المعارف البريطانية بأنها: "حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالحياة الآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها".

وقد كانت دائرة المعارف الأمريكية أوضح فى بيان المراد من المصطلح؛ حيث استبدلت به كلمة: الدنيوية. وقد ورد فيها: "الدنيوية: نظام أسس على مبادىء الأخلاق الطبيعية، وهو مستقل عن الديانات السماوية أو القوى الخارقة للطبيعة". ثم تبين دائرة المعارف الأمريكية مبادىء القانون الأخلاقى الطبعى الذى أشارت إليه فتقول: "المبدأ الأول من مبادىء الأخلاق الطبيعية هو: حرية الفكر؛ فمن حق كل إنسان أن يفكر لنفسه وأن يختلف عن الآخرين ومعهم فى أى موضوع من الموضوعات التى يتناولها الفكر بإطلاق. ومن مبادىء الأخلاق: أسس الدين، وجود الله، خلود الروح، الوحى، الغيب. وأن يقبل أو يرفض أيًا من هذه. ومن مبادىء الأخلاق الطبيعية: أن الخير فى هذه الحياة الدنيا حق وثابت، وأن السعى لتحصيله حق، والخير فى حياة أخرى أمر محتمل، وهو خاضع للبحث لمن أراد، لكن الخير فى هذه الحياة ثابت ومؤكد، ومن المستحيل أن يعيش إنسان فى هذه الحياة محرومًا مما فيها من خير ومتع..."[1].

لقد أطلنا فى النقل فى هذه الفقرة، لما اشتملت عليه من وضوح وتفصيل لمعنى "العلمانية" وما يراد بها، حتى إن المصدر الذى جاء هذا النص منه استعمل لفظة: "الدنيوية" بدلاً من: "العلمانية".

ويذهب "د. عبد الحليم محمود" شيخ الأزهر الأسبق إلى أن أصل الكلمة مشتق من العالم وليس من العلم؛ فيقول: "ويقصدون بها "اللا دينية"، وهى منسوبة إلى "العَلم"، بفتح العين وليس بكسرها، كما يخطىء الأكثرون متوهمين أنها من العلم

(١) نقلاً عن مذاهب فكرية معاصرة. محمد قطب. ص: ٤٤٥.

بكسر العين وليست به، وهى بهذا تكون منسوبة إلى "الْعَلم"، بفتح العين؛ والمراد به العالم أو الدنيا فى مقابل الآخرة"[١].

لكن الدكتور "محمد البهى" رئيس جامعة الأزهر الأسبق لا يرضيه أن تنسب الكلمة إلى العَلْم أو العالم، ويبين أنها تنسب إلى العِلم ـ بكسر العين ـ ثم يعلل تلك النسبة فيقول: "وعرف هذا الاتجاه فى محيط المجتمعات الإسلامية بعد الاتصال الفكرى بين الشرق والغرب باسم الاتجاه العَلَمانى، ولعله منسوب على غير قياس إلى العالم، وهذا الاسم ترجمة للكلمة اللاتينية: secularius، وهى تعرف فى الإنجليزية باسم: secular كوصف، وتعرف: secularism باعتبارها اتجاهًا ومذهبًا. لكن أصل الكلمة معناه العلم؛ لأن معناه اللاتينى الذى أخذت عنه وهو secularius؛ بمعنى: عالم شهير أو متبحر. وقد نشأت الكلمة أصلاً فى المجتمع الأوربى الذى حاربت فيه الكنيسة العلم والمعرفة، فكانت الكنيسة فى كفة، والعلم والعلماء فى كفة، فانفلت الناس من جهل الكنيسة وحجرها على العقول إلى العلم والمعرفة باعتبارها ذلك معارضًا للكنيسة، وسمى هذا الاتجاه: العلمانية"[٢].

بان لنا مما تقدم أن الآراء اختلفت حول مرجع الكلمة: "العلمانية"، وحول أصل اشتقاقها، فمنهم من أرجعها إلى "العالم"، ونطقها بفتح العين "الْعَلْمنية" مع فتح اللام أو إسكانها تخفيفًا، وهذا اشتقاق على غير قياس ـ كما قالوا ـ.

وإلى هذا الرأى ذهب الأكثرون، بل نص العديد من هؤلاء على خطأ الذين ينطقونها بكسر العين: "العلمانية" نسبة إلى العِلم، وقد جهد هؤلاء فى التأكيد على قطع الصلة بين العَلمانية والعِلم؛ كراهية للكلمة، ومقتًا لما تدل عليه من الاتجاه الإلحادى الكافر بالدين، ونفيًا لما قد يتوهم من أن الاتجاه الذى تدل عليه الكلمة قائم على علم صحيح، أو فكر سوى، ومن ثم بيان أن الكلمة قائمة على جهل

(١) عن: الاتجاهات الفكرية المعاصرة. د. على جريشة. ص:٧٥.

(٢) مقدمة كتاب: دلائل النبوة. إصدار: دار الإنسان بالقاهرة.

بالدين الصحيح، وانحراف عن الفكر السوى، وخداع وتضليل لكل من تخاطبهم هذه الكلمة، وتدعوهم إلى تطبيقها والأخذ بها.

ومن الباحثين من أرجعها إلى العِلْم، وقال: إنها مشتقة من العِلم، ومن ثم فإن الكلمة هي: العِلْمانية ـ بكسر العين ـ مستدلين على ذلك بالأصل الذى أخذت عنه تلك الكلمة سواء اللاتينيى أو الإنجليزى، ومن هؤلاء الدكتور "محمد البهى" الذى أسلفنا رأيه، الذى دعمه بالأدلة الموضوعية عن أصل الاشتقاق، ثم أضاف إلى ذلك بيان سبب اختيار الغربيين لهذا المصطلح الذى نحتوه من العِلم.

وغنى عن البيان أن المصطلح مأخوذ عن كلمة تفيد العِلم، بل تفيد التحر فى العِلم والبراعة فيه، ولسنا مع الذين يحاولون نفى الصلة بين العِلمانية والعِلم من حيث أصل الاشتقاق، بدعوى أن تلك الصلة خداع، وتمويه، ومخالفة للواقع(١). لسنا مع هؤلاء؛ إننا لا نحاسب الناس على اختيارهم مصطلحاتهم، وليس من شأننا أن نعدّل لهم ما اعوج من تلك الاختيارات، وما دام سبيلنا ـ بالنسبة لهذا المصطلح أو غيره ـ هو النقل عنهم، والأخذ منهم؛ فالأمانة تقتضى أن نأخذ المصطلح على ما كان من واضعيه، ثم نتفهم سبب اختيارهم إياه عَلَمًا على المعنى المعين الذى وضعوه له، ثم لنا من بعد ذلك أن نبين موقعنا منه قبولاً أو رفضًا.

وإذ قد بينا المراد بالعلمانية، والأصل الذى اشتقت منه هذه الكلمة وأخذت عنه فى اللغات الأوربية التى نشأ هذا المصطلح عندهم؛ فقد آن أن نبين أمورًا تتعلق به.

١ ـ موقفنا من هذا المصطلح.

وموقفنا من هذه الكلمة "العلمانية" هو رفضها، وعدم قبولها، يستوى فى ذلك أن تكون مشتقة من العَالَم أو العَلم ـ بفتح العين ـ أو أن تكون مشتقة من العِلم ـ بكسر العين.

فالقضية عندنا ليست فى فتح العين أو كسرها، وليست فى كونها موصولة بالعلم

---

(١) المصدر السابق. ص: ١١.

أو مقطوعة عنه؛ فإن هذه أمور هينة الشأن، قليلة الخطر، ما ينبغي أن نشغل أنفسنا بها، أو نلقى بالاً إليها.

الأمر الذى يجب أن نهتم به هو صلة هذا المصطلح بعالمنا الإسلامى، وهل له مكان فيه أم لا؟

والأمر البدهىُّ الذى لا يحتاج إلى تأكيد أن هذه اللفظة بما تدل عليه من اتجاه لا صلة لها بعالمنا الإسلامى، ولا مكان لها فيه، سواء كانت مشتقة من العِلم أو من العَلم، وسواء نطقت بكسر العين أو فتحها.

أما إذا كانت مشتقة من العِلم ـ بكسر العين ـ فالأمر واضح فى أن الإسلام الذى شرفنا الله ـ تعالى ـ به، وأكرم المجتمعات الإسلامية بالانتساب إليه، لا يعادى العلم، ولا يضطهد العلماء.

كيف؟ وقد جعل الله ـ تعالى ـ العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، كل على قدر طاقته، وما أتيح له من مؤهلاته وأسبابه، ويكفى أن أول آيات من كتاب الله ـ سبحانه ـ جاءت بالعلم، وأدواته، ووسائله من القلم والقراءة؛ يقول ـ عز وجل ـ:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

وقد رفع الله ـ سبحانه ـ مكانة العلماء بسبب علمهم النافع، فقال ـ سبحانه ـ:

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

وروى أبو الدرداء رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من سلك طريقًا يبتغى فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها

لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض"(١).

ويقول الرسول ﷺ: "من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع"(٢).

والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصى، وهى أشهر من أن نعرف بها أو نشير إليها.

لكن يرد سؤال هنا: هل المراد بالعلم فى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة العلم الشرعى؛ أى: المتصل بأحكام العبادات وفقه المعاملات فقط، أم أن العلم هنا يشمل كل ما يحقق مصالح العباد، وعمارة الكون، فيشمل العلوم الرياضية، والكيميائية، وغيرها من علوم الطبيعة؟

ليس من شك فى أن الإسلام يُعْنَى بالعلم الشامل للعلوم الشرعية، والعلوم الكونية الطبيعية، والناظر فى القرآن المجيد يجد فيه آيات بينات لا تكاد تحصى تلفت الأنظار إلى ما فى الطبيعة من عجائب وأسرار، وتحضّ المسلمين على الاشتغال والجد، بحثًا فى هذه العجائب، وكشفًا لأسرارها التى أودعها الله فيها ووصولاً إلى قوانينها التى أقامها الله ـ تعالى ـ عليها، ويكفى أن نذكر آية من كتاب الله ـ عز وجل ـ تبين ذلك وتوضحه؛ يقول ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

اقرأ هذه الآية، ثم حدثنى بربك، هل وجدت مثلاً لها، لا نقول فى النظم فهو

(١) راجع مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب ٤٤٥، واتجاهات فكرية معاصرة، على حريشة. ص ٧٣ وما بعدها.

(٢) رواه أبو داود، والترمذى.

معجز: حيث هو كلام رب العالمين، بل فى تلك الجوانب التى لفتت الأنظار إليها من عالم الطبيعة الجامد فى صورة الجبال، ثم فى عالم الخلق الحى بكافة عوالمه، من الناس، والأنعام، وكل ما يدب على الأرض؟ أو لست معى فى أن الآية الكريمة ما تركت شيئًا من خلق الله ـ عز وجل ـ من جامد وحى إلا لفتت إليه الأنظار حاضة المسلمين على التفكر فيه، والتدبر فى أسراره، ثم دراسته، والوصول إلى القوانين التى أقامه الله ـ تعالى ـ عليها؟ .. ثم انظر إلى حكمة الله ـ سبحانه ـ فى ختمه الآية الكريمة بالإشارة إلى مكانة العلم والعلماء، وأن العلماء الذين يدركون أسرار خلقه فى الكون، ويتدبرون عظمته ـ سبحانه ـ من خلال بحثهم فيما خلق، هؤلاء هم أهل خشيته، وإنما كانوا أهل خشيته؛ لأنهم صاروا من خلال بحوثهم وعلومهم أهل العلم بعظيم حكمته وجليل صنعه فى خلقه.

الإسلام ـ إذن ـ يحض أتباعه على التعلم، وتحصيل العلم، ويرفع من شأن العلماء، ويعلى من منازلهم، والمراد بالعلم هنا هو ما يشمل العلوم الفقهية الشرعية، والعلوم الكونية الطبيعية.

العِلْمانية ـ إذن لا صلة لها بمجتمعاتنا المسلمة، لأنهم إن كانوا اشتقوها من العلم بهدف إعلان معارضتها للكنيسة ورجالها، لمواقفهم المعارضة للعلم والعلماء، فالإسلام ليس كذلك، بل إن هى ذكرت عندنا فسوف تدل على نقيض ما قصدوا، فإذا قيل عِلْمانية، نسبة إلى العلم، قلنا هذا تعبير عن توجه إسلامى صحيح، وليس توجهًا معارضًا، من حيث أن الإسلام دين العلم ودين المعرفة النافعة.. كما سبق وبينا.

وأما إن كانت الكلمة مشتقة من العالم الطبعى المادى، أو منسوبة إليه، فى مقابل الدين الذى تمثله الكنيسة فى نظر أتباعها، والدين قائم على الوحى والوحى قادم من عالم مناقض لهذا العالم الطبعى المادى، إنه عالم الغيب، أو "عالم ما وراء الطبيعة"، كما يطلقون عليه، تعبيرًا عن مناقضته للعالم الطبعى المادى الذى لا يعرف العلمانيون

عالمًا سواه، يحصرون فيه ثقتهم، وينكرون كل ما عداه. نقول: إن كانت الكلمة مشتقة من العَلَم ـ بفتح العين ـ نسبة إلى العالم الطبعى وإن كان الغربيون أرادوا بهذا المصطلح مناقضة الكنيسة التى تقيم ديانتها على كهنوت لا يقره عقل ولا تقبله فطرة. فإن ذلك لا يستقيم مع الإسلام، ولا مكان له فى المجتمعات الإسلامية.

ذلكم أن الإسلام لا يعادى العالم الطبعى المادى، كما هو الشأن عند الكنيسة ورجالها، كما أن الإسلام لا يعتبر العالم الطبعى المادى رجسًا ونجسًا يجب الابتعاد عنه واعتزاله فى صوامع وبيع، كما هو الشأن لدى الكنيسة ورجالها، كذلك فإنه لا يوجد فى الإسلام تعارض ولا تناقض بين العالم الطبعى أو الحياة الدنيا والحياة الآخرة. بل بين الدنيا والآخرة تكامل وتناسق، هو من نوع التكامل الذى يكون بين الشجرة والثمرة، أو بين الوسيلة والواسطة من جانب، والغاية والهدف من جانب آخر، فالحياة الدنيا خلقها الله ـ سبحانه ـ لتكون ميدانًا يتنافس فيه خلق الله فى طاعة الله والاجتهاد فى عبادته. والحياة الدنيا لا ينظر إليها الإسلام على أنها رجس يجب تجنبه، كيف؟ وقد خلق الله فيها الجن والإنس لعبادته والتقرب إليه، وأرسل فيها الرسل، وأنزل فيها الكتب، وجعلها مقر الصالحين من عباده حتى يلقوه، وجعلها كذلك مقرًّا لأنبيائه وأوليائه، ومسرحًا يزاولون فيه مهامهم من الدعوة إلى الله وتبليغ رسالاته. كذلكم فإن الله ـ سبحانه ـ قد جعل فى الحياة الدنيا معايش لعباده، يقول عز وجل:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠].

وقال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾ [الحجر: ١٩، ٢٠].

ولكى يُحصل الناس ما به معيشتهم فى الحياة الدنيا، فقد سخر الله لهم: الأرض وذللها ويسر سبل الحياة فيها، وسهل وسائل الحصول على الرزق من خلالها، يقول ـ سبحانه ـ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥].

بل إن الله سبحانه ـ جعل الحياة الدنيا بما فيها من عوالم الطبيعة، وما تشتمل عليه تلك العوالم من آثار قدرة الله ـ تعالى ـ فى الخلق والرزق، وحكمته فى الإبداع والإتقان والعناية، جعل كل ذلك دليلاً يوصل الإنسان إلى معرفته ربه، وإدراك ما لله ـ عز وجل ـ من حقوق على عباده، وأعلاها وملاكها إخلاص العبودية له ـ عز وجل ـ وإفراده بالعبادة، ونفى الشركاء والأنداد.

يقول الله عز وجل: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٥].

لكل الذى قدمنا ـ وغيره كثير ـ لم يعاد الإسلام الحياة الدنيا، ولم ينظر إليها على أنها رجس يجب تجنبه، ولم يعتبرها هملاً لا ينبغى الاهتمام بها أو العمل من أجلها، بل بين الإسلام أنها مزرعة الآخرة، وأن الله ـ سبحانه ـ إنما استخلف المسلمين فيها ليعمروها ويبتغوا فيها من الرزق ما قدر الله ـ تعالى ـ لهم، وجعل ـ سبحانه ـ السعى على الرزق نوعًا من ذكر الله وعبادته، يقول عز وجل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة: ٩، ١٠].

ثانيًا: عوامل نشأة العلمانية فى الغرب النصرانى.

نشأت العلمانية فى الغرب النصرانى نتيجة عوامل قد أشرنا إلى أهمها عند الحديث على عوامل نشأة المذاهب الفكرية الإلحادية فى الغرب، لكن رغم ذلك فإنه يحسن بنا أن نذكر بأهم العوامل التى أثرت تأثيرًا مباشرًا فى نشأة العلمانية فى المجتمعات الغربية النصرانية فيما يلى:

١ ـ موقف الكنيسة من الرقابة على القلوب والضمائر.

لقد أقامت الكنيسة من نفسها رقيبًا على قلوب الناس وضمائرهم، تكاد تشق عن صدور الناس لتحاسبهم على دخائل نفوسهم، وهواجس مشاعرهم، وقد حرَّمت على الناس قراءة كتاب النصرانية المقدس عندهم بحرية وفهم، بل قصرت فهمه على رجال الدين النصارى، وقصرت تفسير كل ما ورد فيه على الرهبان، ثم فرضت ذلك الفهم والتفسير على جميع الناس الذين يخضعون للكنيسة، فإذا ما أبدى واحد منهم فهما لبعض ما جاء فى مصادرهم المقدسة، أو فسر بعض ما جاء فيها تفسيرًا يغاير تفاسير الكنيسة، أو أظهر اعتراضًا أو تحفظًا على بعض تفاسير الكنيسة لكتبهم المقدسة، فإن الكنيسة سرعان ما ترميه بالكفر والزندقة، أو بما يسمونه فى مصطلحاتهم "الهرطقة"، ثم يحاكمونه، فإن استطاعوا أعدموه حرقًا، كما كان يحدث إبان محاكم التفتيش، وإلا فإنهم يصدرون ضده ما يسمى بقرار "الحرمان". أو قرار "التحريم"، وهو قرار بموجبه يصير الإنسان النصرانى مطرودًا من الكنيسة قد حل عليه غضب "البابا"، وبالتالى فإنه يكون مطرودًا من ذلك الذى يسمونه "ملكوت الله" أو "ملكوت السماوات"، وقد حل عليه غضب الرب، ـ الذى هو عندهم "المسيح" ـ عليه السلام ـ عياذًا بالله ـ ثم بمقتضى هذا القرار يحرم على جميع الشعب النصرانى أن يتصل بذلك الإنسان الذى "حرمته" الكنيسة. أو يكلمه أو يقترب منه لمسافة معينة يحددها قرار التحريم.

وفيما يلى ننقل نص قرار الحرمان الذى أصدره المجلس الملى اليهودى ضد الفيلسوف الشهير "سبينوزا"، لأنه قد أباح لنفسه فهمًا خاصًا لبعض ما جاء فى الكتاب المقدس لدى اليهود، وفوق ذلك فقد رأى أن بعض ما فى كتابهم المقدس هذا لا يمكن أن يكون وحيًا، بل هو خرافة وأضاليل. ونص القرار كما يلى:

"بقرار الرب والملائكة وحكم القديسين، نحرم ونلعن، ونصب دعاءنا ولعناتنا على "باروخ اسبينوزا"، بموافقة الطائفة المقدسة كلها، وفى وجود الكتب المقدسة ذات الست مائة والثلاثين عشر ناموسًا المكتوبة بها، نصب عليه اللعنة وجميع اللعنات المدونة فى سفر الشريعة، وليكن مغضوبًا عليه، وملعونًا نهارًا وليلاً، وفى نومه وصحوه، ملعونًا فى ذهابه وإيابه، ودخوله وخروجه، نرجو الله ألا يشمله بعفوه أبدًا، وأن ينزل عليه غضبه وسخطه دائمًا، ويحمله جميع اللعنات المدونة فى سفر الشريعة، ونسأل الله أن يخلص أولى الطاعة منه وينقذهم منه ومن شروره، وعلى جميع الشعب ـ شعب الكنيسة ـ ألا يتحدث معه أحد بكلمة، أو يتصل به كتابة، وألا يقدم له أحد مساعدة أو معروفًا، وألا يعيش معه أحد تحت سقف واحد، وألا يقترب منه أحد على مسافة أربعة أذرع، وألا يقرأ أحد شيئًا جرى به قلمه، أو أملاه لسانه"(١).

فهذا جانب من جوانب تسلط الكنيسة ورجالها على قلوب وضمائر الشعوب التابعة لها. ولسنا نقصد مقاومتها للعلوم والمخترعات، لكنا نقصد موقفها من كل ما يعتقده أتباعها أو يؤمنون به مما تهديهم إليه عقولهم وقلوبهم من خلال الاطلاع على الكتاب المقدس لديهم، فإن الآباء النصارى قد قصروا فهم الكتاب، وشرحه، وتفسيره على أنفسهم، ثم هددوا بالطرد والحرمان كل من تسول له نفسه التعدى على هذه الخصوصية لهم بأن يقرأ الكتاب، ويفهم منه ما يهديه إلى عقله وقلبه. أما مقاومة الكنيسة ورجالها للمكتشفات العلمية فذلك نبينه فيما يلى:

---

(١) قصة الفلسفة. ص : ١٩٣، ول ديورانت. ترجمة : فتح الله محمد المشعشع. والنص الحرمانى المذكور أصدره المجلس الملِّى اليهودى ضد "باروخ سبيلنوزاى الفيلسوف المعروف، لأنه فصح رجال الدين اليهود وبين مفاسدهم .. وهذا النص هو نفس نص الحرمان الذى تصدره الكنيسة ضد من توجه اليهم تهمة" الهرطقة" أو الانحراف الدينى.. ولسنا ندرى مَنْ مِن الفريقين أخذ نص الحرمان عن الآخر: النصارى أخذوه عن اليهود، أم اليهود أخذوه عن النصارى ؟ .. الأرجح أن اليهود أخذوه عن النصارى بعد محاكم التفتيش.

٢ ـ موقف الكنيسة من العقل، والفكر، والمكتشفات العلمية.

وهذا جانب من الجوانب الهامة التى كانت السبب المباشر لنشأة الفكر العلمانى وانتشاره، وقد فصلنا ذلك فى موضع سابق أفضل تفصيل، وبينا هناك الموقف المتعصب المقيت الذى وقفته الكنيسة من العلم والعلماء، والذى كان من نتيجته أن قضى كثير من العلماء نحبهم إما حرقًا أو سجنًا، أما الذين لم يقع بهم ذلك ونجوا من محاكم تفتيش النصارى فإنما كان ذلك بسبب رجوعهم عن آرائهم العلمية، وإعلانهم بطلان تلك الآراء، خوفًا على حياتهم والمصير الرهيب الذى ينتظرهم، كما فعل "جاليليو" وغيره.

٣ ـ موقف الكنيسة ورجالها من الإقطاع، ومساندتها لأمراء الإقطاع فى ظلمهم للشعب، بل ومشاركة الكنيسة فى ذلك النظام الجائر بامتلاكها أكبر حصة من الإقطاعيات، وجبر الناس على العمل فى إقطاعاتها بدون أجر طلبًا لرضا رجالها، والحصول على بركاتهم المزعومة.

٤ ـ فضائح الكنيسة، وانحراف رجالها خلقًا وسلوكًا.

فإن ظلم الكنيسة وجبروتها كان يمكن أن يحتمل نوعًا ما، وأن يُصبِّر الناس أنفسهم على ظلمها، لو أن رجالها اتسموا ـ ولو إلى حدٍّ ما ـ بالصلاح والاستقامة، والطهارة والنقاء.. لكن الذى كان واقعًا أن رجال الكنيسة على ظلمهم وجبروتهم، وإغراقهم فى القسوة والطغيان، كانوا يعيشون حياة الفجور والدنس، وكانت فضائحهم وقبائحهم وفجورهم تُصَبِّح الناس وتمسيهم. مما أفقد الناس الثقة فيهم، وأفقدهم بالتالى الثقة والاقتناع بالدين الذى يمثله هؤلاء الفجرة الأدناس، وكان الناس يعيشون تحت سيطرة هؤلاء المرتزقة بالدين تحت سطوة الخوف والرعب، ويتمنون اليوم الذى يتخلصون فيه من هؤلاء ومما يمثلونه من دين ومقدسات، لذلك ما أن حانت الفرصة للتخلص منهم، ونبذهم بعيدًا عن حياة الناس فى الغرب، حتى انتفض الناس جميعًا متكاتفين يرحبون بالتخلص من رجال الدين ورجال الإقطاع معًا، وينادون بمثل تلك الكلمة: "اشنقوا آخر أمير بأمعاء آخر قسيس".

٥ ـ **ظهور الكثير من المفكرين الذين أخذوا يندّدون بالكنيسة ويهاجمون رجالها، ويكشفون فضائحهم، وينشرون قبائحهم،** مما كون رأيًا عامًّا أخذ يقوى ويزداد، معارضًا للكنيسة، رافضًا إياها، مطالبًا بتنحيتها بعيدًا عن حياة الناس، حتى تحقق ذلك عن طريق الأخذ بالنظم العلمانية.

٦ ـ **جهود بعض المفكرين الذين تميزوا بالجرأة وقوة التأثير فى الشعوب النصرانية،** وقد أخذوا على عاتقهم القضاء على سلطة الكنيسة، ونذروا أنفسهم لتخليص الشعوب النصرانية من ظلم الكنيسة وفساد رجالها، ومن أشهر هؤلاء:

أ ـ مارتن لوثر "١٤٧٣ - ١٥٤٦م".

ومارتن لوثر ليس من هؤلاء الذين قلنا إنهم نقموا على النصرانية، ونذروا أنفسهم لتخليص الناس من شرورها، ولا هو من الذين عملوا على تنحية النصرانية عن حياة الناس ليحل محلها النظام العلمانى، ليس "مارتن لوثر" كذلك، لأنه أولاً وأخيرًا قسٌّ نصرانى، ورجل من رجال الكنيسة، لكن مارتن لوثر كان له تأثيره فى القضاء على سلطة الكنيسة فى قلوب الناس، وفى تشجيعهم على الخروج على سلطان "بابا" الكنيسة، وإغراء الناس وحضهم على الثورة ضد الكنيسة، وذلك حين ثار هو نفسه على سلطان الكنيسة الكاثوليكية، وخرج على طاعة "البابا"، ورفض قرار الحرمان الذى أصدره ضده، بل إنه أحرق قرارات البابا علانية أمام الحاضرين فى كنيسته.

هذا الذى فعله مارتن لوثر كان له أثره البالغ فى تشجيع الناس على الثورة على الكنيسة، والخروج على طاعتها، ورفض الخضوع للقرارات التى يصدرها رجال الكنيسة.

وقد اتضح أثر ثورة مارتن لوثر على الكنيسة الكاثوليكية، فيما وقع بعد ذلك من ثورات على الكنيسة والأديرة؛ وأشهر هذه الثورات:

ثورة الفرسان فى القرن السادس عشر، أى بعد ثورة مارتن لوثر بسنوات قليلة؛ حيث قام جماعات من الفرسان فى ألمانيا بثورة ضد الكنيسة، هاجموا فيها المئات من الكنائس والأديرة، وحطموا ما كان فيها من تماثيل، وطردوا الرهبان منها وضربوهم، واستولوا على ما كان فيها من مال وذهب ومتاع.

ثورة الفلاحين فى ألمانيا ـ أيضًا ـ وقد جاءت بعد ثورة الفرسان بقليل، وقد طالب فيها الفلاحون بإلغاء ضريبة العشور التى تحصل عليها الكنيسة، كما طالبوا بأن يكون من حقهم اختيار رجال الدين، وألا يفرضوا عليهم من قبل البابا، وقد قتل فى هذه الثورة عشرات الألوف، وما أشبهها بثورة العبيد على العهد الرومانى، التى أطلق عليها ثورة "اسبارتاكوس".

ويلاحظ أن هاتين الثورتين وقعتا فى ألمانيا التى نشأت فيها حركة مارتن لوثر، وأنهما وقعتا بعد حركته بسنين عددا.

ثورة الأراضى المنخفضة ـ هولندا وما حولها حاليًا ـ حيث ثار الشعب ضد الكنيسة والأمراء، وحطم الثائرون فوق الأربع مائة كنيسة، والكثير من الأديرة، وقد قتل فيها قرابة العشرين ألف ثائر، وفر أضعاف ذلك خارج البلاد.

ب ـ الفيلسوف الألمانى "رينيه ديكارت"

الذى كانت له مكانة بارزة فى الفكر الألمانى والأوربى، والذى قرر فى كثير من كتاباته أن العالم الطبعى المادى الذى يعيشه الناس، لا سلطان للدين عليه، ولا مكان للدين فيه، والسلطان فى هذا العالم إنما هو للعقل وحده، وأما مجال الدين فالعالم الآخر، ومكان ذلك داخل الكنيسة وليس خارجها.

جـ ـ الفيلسوف الفرنسى "فولتير"

الذى كان من أشد وأعنف الذين كتبوا ضد الكنيسة، بل إنه هاجم الديانة النصرانية بقسوة وجرأة، وقد كان يطلق على الكنيسة ورجالها وصف: "الكائنات الحقيرة"، وقد هاجم النصرانية فى كتاباته، ومما قاله عنها: "إن النصرانية ديانة متناقضة، تعيش على امتصاص دماء الأبرياء، ويقوم على شأنها عصابة من الأشرار الفاسدين".

د ـ الفيلسوف الفرنسى "جان جاك روسو"

الذى كانت كتاباته تهاجم رجال الكنيسة والحكام معًا، فكان يكتب ضد الكنيسة، وضد الأمراء والملوك.

وقد جاء بنظريته الشهيرة فيما أسماه: "العقد الاجتماعى"، وأراد بتلك النظرية أن يقضى على سلطة رجال الدين والملوك، وأن يرجع الحكم ومقاليده إلى أفراد الشعب، ومجمل نظريته تلك: أن الناس ولدوا أحرارًا من كل قيد يحد من تلك الحرية، لكن لأنهم يعيشون فى مجتمع واحد، يزاولون فيه حياتهم، فقد وجدوا أنفسهم بحاجة إلى إقامة دولة ترعى مصالح الجميع، ولكى يتحقق ذلك فقد اتفقوا فيما بينهم وتعاقدوا على أن يتنازل كل منهم عن قدر من حريته، ليضمن الآخرون حرياتهم، ولما كان من العسير أن يشترك المواطنون جميعًا فى تصريف شئون الدولة، فقد وكلوا عنهم أفرادًا معينين، لينوبوا عنهم فى تصريف شئون الدولة والمجتمع، وهؤلاء الأفراد هم أعضاء الحكومة. وهذا المعنى هو ما عناه "روسو" بالعقد الاجتماعى.

٧ ـ **الثورة الفرنسية التى قامت ـ أساسًا ـ للقضاء على الملكية، وعلى نفوذ رجال الدين، بل وعلى الدين برمته، ولذلك كان شعارها الذى أطلقه بعض القائمين عليها: "اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس".**

وقد كان نفوذ الكنيسة ورجالها قد ضعف إلى حد كبير قبل قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، وكان ضعف الكنيسة، وضياع هيبتها، وفقدانها نفوذها، نتيجة لمجهودات الكتاب والمفكرين التى أشرنا إليها، وكان من نتيجة ذلك أن تكونت أول حكومة علمانية فى فرنسا عام ١٧٧١م. لكن صورة العلمانية، وتطبيقها فى كافة المستويات لم يتم ويكتمل إلا بعد قيام الثورة الفرنسية التى روت الأرض بدماء الأمراء الإقطاعيين، ورجال الدين على السواء.

٨ ـ **بعد أن ظهرت العلمانية فى فرنسا، وطُبِّقَت** اجتاحت أوربا كلها أو أغلب بلادها كالإعصار، نتيجة للمعاناة التى كانت تعانيها الشعوب الأوربية من فساد

الكنيسة، ورجالها، وظلم الإقطاع، والعلاقة الوثيقة بين الاثنين، لذلك ما أن بدأت فرنسا بتطبيق العلمانية، حتى انتقل ذلك إلى الدول الأخرى، حتى استقر الأمر على سجن النصرانية ورجالها داخل جدران الكنيسة، وتنقية المجتمع من فسادهم وضلالهم، وأقرت الكنيسة ذلك ورضيت به مرغمة، بعد أن كان البابا بكلمة منه يذل رقاب جبابرة الملوك وطغاة الأباطرة.. على ما بينا قبل ذلك.

٩ ـ **كان للثورة الفرنسية آثار هامة وخطيرة على المدى القصير والبعيد** امتدت تلك الآثار فشملت أوربا، بل وبعض البلدان الأخرى خارج القارة، وكان من أهم آثارها فيما يتصل بموضوعنا:

أ ـ التأكيد على إنهاء سلطة رجال الدين، بل وسلطة الدين نفسه لدى الكثير من الطوائف، وتقييد تلك السلطة بحدود جدران الكنيسة، حتى أضحت أبواب الكنائس فيصلاً بين عالمين، من باب الكنيسة إلى الداخل يكمن عالم الدين ورجاله، وتقبع سلطاتهم التي أضحت كسيحة تستجدى عواطف الناس تحت رسوم بالية وطقوس فَقَدَ الجمهور ثقته فيها، ومن باب الكنيسة إلى الخارج عالم آخر فسيح، ليس للكنيسة سلطان عليه فى قليل أو فى كثير، إلا ما يرجع إلى مشاعر الناس الخاصة، ومدى تأثرهم بتعاليم ديانتهم النصرانية التى ضرب الناس بها وبتعاليمها عرض الحائط، فلم يعد منها إلا بقايا حطام، هشمه فساد رجال الدين النصارى قبل أن تهشمه الثورة، وقد ساعد على إنهاء سلطان الكنيسة على الناس وشئون حياتهم الفرحة الغامرة التى عمت الناس بنجاح الثورة، والقضاء على الطغيان المتمثل فى الكنيسة ورجال الحكم والإقطاع، فانخلع الناس من ربقة دينهم النصرانى كما انخلعوا من ربقة الإقطاع.

ب ـ القضاء على السلطة المطلقة والحكم الجائر الذى كان يزاوله الملوك والأمراء قبل قيام الثورة؛ فقد كان الملوك يزاولون حكمهم المطلق تحت دعوى أن الله هو الذى منحهم ذلك الملك، وهو الذى فوضهم القيام به، وهو الذى منحهم تلك السلطات الواسعة التى يزاولون من خلالها حكمهم، وهذا المعنى هو ما أطلقوا عليه: "الحق الإلهى" فى الملك والحكم.

وطبعى أنه ما دام حكمهم وسلطاتهم ممنوحة لهم من الله ـ سبحانه ـ فإنه ليس لأحد من الشعب ـ أيًا كان ـ الحق فى محاسبتهم، أو الانتقاص من حقوقهم، أو الخروج على طاعتهم؛ لأن فى الخروج على طاعتهم خروجًا على إرادة الله الذى اختارها للحكم، ومنحهم سلطاته.

جـ ـ إعلان ما أطلق عليه: "حقوق الإنسان".

لقد كان الإنسان الفرنسى محرومًا من كافة الحقوق حتى حق الحياة، إذ كان للإقطاعى أن يصدر أحكام القتل على بعض العاملين فى إقطاعيته، وينفذ ذلك الحكم، وكانت الكنيسة تسكت على ذلك، بل وتشجعه وتباركه، فلما قامت الثورة انطلق الناس كالقطيع النهم، الذى طال جوعه وحرمانه، ينهبون ويسرقون، بل ويدمرون، تطبيقًا لقاعدة الفعل ورد الفعل، فعلى قدر حرمانهم وظلمهم، كان انفجارهم كالبركان المدمر، ثم لما هدأت الأمور ـ نوعًا ـ أعلنوا ما سمى بحقوق الإنسان، والتى كان أهم ما قامت عليه: حق الحرية، وحق التملك، وحق المساواة، وحق الإنسان فى الدفاع عن نفسه وعما يملك.

وكانت هذه قفزة كبيرة فى التمدن، والتحضر، وتأكيد إنسانية الإنسان، لولا أن الذين أعلنوا هذه الحقوق لم يقصدوا بها فى واقع الأمر الإنسان فى كل مكان، أو الإنسانية بصورة عامة، بل اتضح من سير الأحداث بعد ذلك أنهم قصدوا بها الإنسان الفرنسى، وكذلك كل بلد أوربى أخذ بتلك المبادىء والحقوق إنما قصد بها مواطنى بلده فقط دون أمثالهم فى البلدان الأخرى. وجاء الدليل على ذلك سريعًا ممثلاً فى انطلاق الفرنسيين لاستعمار الشعوب الأفريقية، بل ومحاولة تكوين امبراطورية على حساب بعض الشعوب الأوربية، وكان الفرنسيون فى كل بلد يحتلونه يحرصون على أن يسلبوا شعوب تلك البلاد ما أسموه قبل ذلك بحقوق الإنسان، يسلبونهم حق الحرية، وكذلك حق الملكية، وحق المساواة، ثم إذا قام هؤلاء للدفاع عن بلدهم وأنفسهم أعملوا فيهم حد السيف، ونصبوا لهم المشانق، ورفعوهم على أعوادها.

ثالثًا: عوامل انتقال العلمانية إلى المجتمعات الإسلامية.

كما أن ثمة عوامل قامت على أساسها العلمانية فى الغرب النصرانى، كذلك ثمة عوامل أدت إلى انتقال ذلك الاتجاه الإلحادى الغريب عن الإسلام وعن المسلمين - وبالتالى عن مجتمعاتهم وبيئاتهم - إلى تلك المجتمعات والبيئات، وهذه العوامل قد أشرنا إلى أهمها ضمن الحديث عن انتقال المذاهب الفكرية الإلحادية إلى المجتمعات الإسلامية. لكن يحسن بنا أن نشير هنا إلى أهمها - بإيجاز - من باب التذكرة والتنبيه، ولقد نبهنا هناك إلى أن تلك العوامل منها ما هو ذاتى يرجع إلينا - نحن المسلمين - ومنها ما هو خارجى يرجع إلى أمور خارجة عنا، وكذلك ننبه هنا إلى هذا التقسيم.

أما العوامل الذاتية التى ترجع إلينا - نحن المسلمين - فأهمها:

١ - جهل المسلمين بحقائق دينهم، دين الله الحق، بما يدعو إليه من عوامل القوة والاعتلاء فى كافة مناحى الحياة، وبخاصة ما يتصل بالتقدم، والترقى، والتحضر، والأخذ بأسباب ذلك من العلوم المادية، والسيطرة على الطبيعة وقواها، وذلك بالبحث والكشف عن قوانينها التى خلقها الله - تعالى - وجعلها أسبابًا ووسائل لمن يَجِدُّ ويسابق فى الحصول عليها واستغلالها لصالحه وصالح الإنسانية، لكن المسلمين حين جهلوا هذه الحقائق تخلفوا عن ركب التقدم العلمى، والمنافسة على كشف قوانين الطبيعة، وأسباب تسخير قواها التى خلقها الله - عز وجل - ويسرها لمن يسابق فى الحصول عليها.

٢ - تخلف المجتمعات الإسلامية فى جوانب الحياة، وبخاصة فى الجوانب المادية التى تقوم على الكشف، والاختراع، وعلم قوانين المادة.

ولم يكن ذلك إلا بسبب جهل المسلمين بدينهم الذى أشرنا إليه سابقًا.

٣ - الجهل بتاريخ المسلمين الأوائل الذين فهموا الإسلام، وحقائقه، وما يدعو إليه من العلم؛ فكانوا هم الذين أنشئوا أعظم الحضارات فى العالم، وذلك بكشفهم عن قوانين العالم الطبعى من رياضيات، وكيمياء، وفيزياء، وطب، وقوانين

الضوء. إلى آخر تلك النهضة العلمية التى كانت السبب الحقيقى والمباشر فى النهضة الأوربية فيما بعد.

ولو أن المسلمين الأواخر فهموا سيرة الأوائل، واعتبروا بهم، وساروا سيرتهم، ما تخلف المسلمون وتقدم غيرهم، ولكان المسلمون الأواخر هم الأولى بالأخذ عن سلفهم من الغرب النصرانى الذى أخذ الفتات المتساقط من موائد علوم المسلمين، ثم حوله إلى سلاح ضدهم استعمرهم به، وفتنهم، وصدَّر إليهم إلحاده وكفرياته.

٤ ـ افتتان الكثيرين فى المجتمعات الإسلامية بالمجتمعات الغربية، والرغبة الشديدة عندهم فى التشبه بالغرب النصرانى، ليس فى تقدمه العلمى أوالتقنى، بل فى تفسخه الاجتماعى، وانحلاله الخلقى، وإسفافه السلوكى.

هذا التفسخ، والانحلال، والإسفاف الذى أظهرته وتظهره وسائل الإعلام لدى الغرب وكل من شايعه، وكذلك وسائل التغريب والاستعمار، على أنه هو التقدم، والتحضر، والتمدن، فتن به الكثيرون، وسعوا ويسعون للتشبه بالغرب فى ذلك المضمار، وقد وقع فى هذه الفتنة الكثيرون، وبخاصة أولئك الذين تربوا على أيدى المستشرقين فى الداخل والخارج، أو تتلمذوا على موائد الثقافة الغربية المنحلة، فكل هؤلاء إلا من ـ رحمه الله ـ وقليل ما هم، قد وقعوا فى شباك تلك الثقافة الفاسدة، وفتنوا بها، ويسعون إلى تطبيقها، وقد طبقتها ـ فعلاً ـ الكثير من المجتمعات الإسلامية، وبخاصة فى كل ما يتصل بالمرأة، بدءًا من نبذ الحجاب، بل وجانب كبير من الثياب، ثم فى المناداة بالمساواة بينها وبين الرجل، ثم فى الاختلاط بين النساء والرجال، فى دور التعليم على اختلافها، وفى مجالات العمل، ثم ـ وليس آخرًا ـ برفض المبدأ الشرعى فى تعدد الزوجات، والشغب على ما شرع الله لها من الميراث، وجاء من يقول: إن الأوفق أن يكون للأنثى مثل حظ الذكرين؛ وذلك لضعفها عن العمل، ووجوب رعايتها ومن تعول من أبناء.. إلى آخر هذه المفاسد التى دخلت علينا من الأبواب والنوافذ، بسبب افتتان البعض بالمظهر الزائف البراق لحضارة تقوم على الإسفاف والانحلال، حضارة أعطت ظهرها لكل قيمة، وخلق، ومبدأ، وولت وجهها شطر كل ما هو فاسد ودنىء.

٥ ـ تقصير الكثيرين من علماء الدين، ودعاة المسلمين، فى القيام بواجب الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ على بصيرة، ومن واجباتهم، بل من أوجب تلك الواجبات فى هذا الزمان بخاصة، وفى كل زمان بعامة، تحذير المسلمين من مفاسد الحضارة الغربية، ومن كل التيارات الدخيلة التى تهب علينا من جهاتها، وتبصير المسلمين بالخطر العظيم الذى يترصدنا ويتهددنا فى ديننا ودنيانا إن نحن خُدعنا بتلك الحضارة، وسقطنا فى مصائد شباكها.

هذه أهم العوامل الذاتية التى ترجع إلينا فى ذلك البلاء الذى نزل بمجتمعاتنا الإسلامية؛ وهو العلمانية.

أما عن العوامل الخارجية التى أسهمت فى ذلك؛ فأهمها:

١ ـ ظهور النهضة العلمية والتقدم المادى فى الغرب مع تطبيق العلمانية فى تلك المجتمعات، وذلك قد ولد إحساسًا لدى الشعوب، بأن التقدم العلمى، والنهضة، والتمدن لا يكون إلا بالتخلى عن سلطان الدين جملة، أو بتنحيته بعيدًا عن حياة الناس، وسجنه داخل دور العبادة.

وذلك الإحساس صادق بالنسبة للعالم الغربى، وللدين النصرانى الذى كان يتحكم رجاله فى أقدار الناس، فيحجرون على القلوب والعقول، ويضربون على البلاد التى تدين بالنصرانية ستارًا كثيفًا من الجهل والتخلف، ويرفعون على رءوس الناس ورقابهم عقوبة الموت حرقًا، أو العيش محرومًا شريدًا طريدًا ـ نقول: إن ذلك حق. فما كان للغرب أن يتقدم علميًّا، بل وأن يحصل الإنسان فيه على الحد الأدنى من حقوقه وكرامته كإنسان، إلا بالتخلص من سلطات الكنيسة ورجالها، وتنحية سلطانهم عن حياة الناس، وقبر هذه السلطات بشرورها وآثامها داخل جدران الكنائس.

كل ذلك حق..

لكن الذى ليس بحق، بل هو الباطل الصراح، والضلال البواح، أن يطبق ذلك

على الإسلام، ذلكم أن الإسلام يختلف في هذا الجانب مع النصرانية اختلافًا جوهريًّا وجذريًّا، فالإسلام لا يقاوم أو يحارب الفكر والعلم، ولا يحجر أو يعادي المفكرين والعلماء، وبينما تحارب النصرانية الفكر، وتحجر على العقول، وتجرم العلماء، وتحيلهم إلى المحاكمات التي تنتهي؛ إما بأن يجحدوا مكتشفاتهم، وينكروا علومهم، ويرتدوا إلى جهل سابق على علم توصلوا إليه، وإما بإحراقهم أحياء، جزاء خروجهم على قوانين الجهل والجمود التي فرضتها الكنيسة على البلاد التي تدين بالنصرانية، نقول: بينما ذلك يحدث في النصرانية، وينفذه زبانيتها من رجال دينها، نرى الإسلام يقف من الفكر والعقل موقف الاحترام والتقدير، ويقف من العلم والعلماء موقف التبجيل والتكريم؛ فيجعل العقل مناط التكليف بأحكامه وشرائعه، ويجعل الإنسان العاقل هو الجدير بشرف الخطاب الإسلامي عقيدة وشريعة، وعلى قدر ما منح الله الفرد المسلم من قوى العقل وملكاته تكون مسئوليته أمام الله ـ سبحانه ـ عن أعماله.

وبينما تقرر النصرانية أن عقائدها فوق مستوى العقل، وأن رأس تلك العقائد وهي عقيدة: "التثليث والتوحيد" هي للإيمان وليست للاقتناع والفهم، وأن على النصراني أن يؤمن بها دون أن يفكر فيها أو يحاول فهمها، نقول: بينما ذلك هو واقع النصرانية، فإن الإسلام يفرض على المؤمنين به أن يعملوا عقولهم، ويزاولوا القيام بأحكامه من خلال الفهم والاقتناع، ذلكم أن الإسلام لا يريد أن يكون أتباعه قطيعًا من السوائم تؤمن به بلا فهم أو اقتناع، ولكنه دين العقل، ودين الفكر، ودين العلم. لذلك لا نجد مَلَكة ذكرت من ملكات الإنسان وصفاته في مجال التقدير كما ذكر العقل، والفكر، واللُّب، بل إن الإسلام جعل من صفات "عباد الرحمن" أنهم إذا ذكروا بآيات الله ـ سبحانه ـ لم يأخذوها دون فهم أو تفكير وتدبر، وإنما يأخذونها فهمًا، وتدبرًا، وتذكرًا، يقول عز وجل في حديث القرآن الكريم عن عباد الرحمن:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٣].

بل إن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يتوعد بالويل من يقرأ الآيات القرآنية دون أن يتدبر ويتفكر ما فيها؛ فعندما نزلت الآيتان الكريمتان من قوله ـ تعالى ـ:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

قال رسول الله ﷺ: "ويل لمن لاكها بين لَحْيَيْه ولم يتفكر فيها".

ولسنا بحاجة إلى أن نطيل فى بيان موقف الإسلام من العلم، والعلماء، فقد سبق أن تكلمنا عن ذلك بما فيه البيان والتوضيح.

٢ ـ الاستعمار العسكرى للبلاد الإسلامية.

فقد وقعت البلاد الإسلامية ـ فى جملتها ـ تحت نير الاستعمار العسكرى الذى ورد عليها من الإنجليز، والفرنسيين، والطليان، بل وهولندا، وذلك نتيجة ضعف المسلمين لأسباب ليس هنا محل ذكرها وقد أشرنا إلى أهمها.

وقد ورد الاستعمار العسكرى على البلاد الإسلامية، ومعه كل أفكاره، ومذاهبه الإلحادية، سواء فى الجانب الفكرى النظرى، أو فى الجانب العملى التطبيقى، وقد جثم الاستعمار على البلاد الإسلامية عشرات من السنين، عمل بكل طاقاته على تطبيق مذاهبه، وإلحاده وضلالاته فى البيئة الإسلامية، وكان همه الأكبر أن يقضى على الإسلام، حتى يتمكن من البقاء فى تلك الديار، وكان المستعمرون يدركون جيدًا أنه لا بقاء لهم فى بلد يدين أهله بالإسلام نقيًا خالصًا؛ ومن ثم فقد بذلوا جهودهم؛ كى يفسدوا البيئات الإسلامية بأفكارهم الإلحادية والعلمانية، ويلوثوا المجتمعات المسلمة بسلوكياتهم المسفة التى هى تطبيق للمبادىء العلمانية التى يدينون بها، وذلك سعيًا منهم إلى أن يحيلوا مجتمعاتنا على صورة من مجتمعاتهم، ليس فى التقدم العلمى أو التَّقَنِيِّ، ولكن فى التفسخ الاجتماعى، والانحلال الخلقى.

وقد نجح الاستعمار فى ذلك نجاحًا نلحظ آثاره فى كثير من البيئات الإسلامية التى ابتليت بالاستعمار، ثم شاع فيها ما خَلَفَهُ الاستعمار خلفه من مفاسد، ومباذل وتفسخ، وانحلال.

٣ ـ الاستعمار الفكرى والعقلى أو ما يسمى بالغزو الفكرى.

فقد نشط الاستعمار العسكرى فى تجنيد العملاء من بين أبناء البلاد المسلمة التى كان يحتلها. وطوال احتلاله العسكرى لتلك البلاد وهو ينتقى من بين أهلها من يجندهم لخدمته، والدعوة للخضوع له، والأخذ بمبادئه ومناهجه فى الحياة، وبخاصة فى العلمانية؛ أى: الدعوة إلى أن ينحى المسلمون دينهم عن شئون حياتهم، ويزاولوا حياتهم بعيدًا عن هدى الله، وعن أحكام شريعته، وقد نجح الاستعمار ـ أيضًا ـ فى ذلك؛ فحين هَبَّ المسلمون فطردوا المستعمرين الأجانب من بلادهم بقى أولئك العملاء الذين هم صنيعة الاستعمار وأذنابه، ظلوا يؤدون دور المستعمر الملحد، ويدعون إلى نهجه فى الحياة، ويستمسكون بوسائله وأساليبه، وكثيرًا ما يخدع البعض بهؤلاء الأذناب العملاء، باعتبارهم ليسوا أجانب، بل هم من أهل البلد، ويزعمون أنهم مسلمون، وواقع الأمر أنهم أشد عداء للإسلام من الأعداء الحقيقيين فى الغرب الصليبى، وليس أدل على ذلك من أننا حين نبحث عن الذين مكنوا للعلمانية والإلحاد فى البلاد الإسلامية فسوف نجدهم هم هؤلاء الأذناب، الذين كانوا يدينون بالإسلام، وكانوا من أهل هذه البلاد المسلمة، ثم نبذوا الإسلام واتخذوه ظهريًا حين ولوا وجوههم شطر العلمانية والعلمانيين، ثم صاروا ألد الأعداء لأوطانهم وأهليهم حين تحولوا إلى أذناب للمستعمر، فصاروا أشد خطرًا من المستعمر نفسه.

ولسنا نقسو على هؤلاء الناس حين نصفهم بالعداء الشديد لدينهم والمسلمين؛ إذ من الواضح الجلىّ أن الأمر بين اثنين لا ثالث لهما، إما الإسلام، وإما العلمانية، وليس ثمة واسطة، ولا مجال للجمع بينهما، وهؤلاء الدعاة إلى العلمانية، وإلى مناهج وسلوك الغربيين هم فى الواقع دعاة على أبواب جهنم، يدعون الناس إليها

ويرغبونهم فيها. وقد تكون لنا ـ بحول الله ـ تعالى ـ عودة للحديث عن هؤلاء الدعاة على أبواب جهنم، فنسأل الله التيسير.

٤ ـ ويلحق بالعامل السابق وسائل كثيرة ساعدت على التمكين للعلمانية وما يجرى مجراها من المذاهب الإلحادية، وهذه الوسائل قويت وتمكنت حتى خرجت عن إطار الوسائل التى تعمل تحت إطار عامل معين، إلى عوامل قائمة بذاتها، لها هى الأخرى وسائل خاصة بها، وأهم هذه الأمور:

أ ـ المستغربون.. ونقصد بهم هؤلاء الذين ذهبوا إلى الغرب، ليحصلوا علمًا ينفع بلدهم وأهليهم، فلم يحصِّلوا إلا الانحلال، والتفسخ الخلقى، والإسفاف السلوكى، ثم عادوا من تلك البلاد لا يحملون علمًا، بل يحملون نفوسًا ممسوخة مشوهة، فُتنت بما فى الغرب من انحلال وتهتك، وجاءوا يدعون إلى مثل ذلك فى بلادهم الإسلامية، تحت مسميات مضللة؛ مثل: التقدم، والتمدن، والتحضر.. إلى آخر هذه الأسماء التى لا مضمون لها سوى شىء واحد هو الفساد الخلقى، والإسفاف السلوكى، والتخلى عن كل قيمة ومبدأ.

ب ـ المستشرقون.. وهم أناس من الغرب، عملوا فى الدراسات الإسلامية، فدرسوا كل ما يتصل بالإسلام، وبخاصة ما يعينهم على تحقيق أهدافهم الخبيثة.

وهؤلاء قد عرفوا ـ كلهم أو جلُّهم ـ حقيقة الإسلام، وأنه دين الله الحق، وأنه مصدر الهدى والنور للعالمين، لكن أحقادهم وأضغانهم دفعت بهم إلى هجر ما عرفوا من الحق، والتقول على الإسلام، ورميه بكل نقيصة لا توجد إلا فيهم، وليس لكلامهم مصدق إلا من هو على شاكلتهم عداء للإسلام والمسلمين.

جـ ـ المُنَصِّرون، أو الدعاة إلى النصرانية فى البلاد الإسلامية.

وهذه الفئة من أشد الفئات حقدًا على الإسلام ومقتًا للمسلمين، ولقد بدأت تزاول نشاطها تحت سُتُر عديدة، وأنشطة خادعة كثيرة، وأهم هذه الستر والأنشطة الجوانب الاجتماعية؛ مثل المستشفيات، ودور رعاية اليتامى، وإيواء العجزة

والمسنين.. إلى آخر تلك الأنشطة التى لا تتم إلا من خلال الاتصال بالجماعات، والاختلاط المستمر بأفراد المجتمع وفئاته، مما ييسر لهم مهمتهم فى تضليل الجهلة والعوام. وبث الشكوك فيما يعتقدون، ولأن هذه الفئات من المجتمع عوام وجهال فمن اليسير بذر بذور الشك فى نفوسهم، وليس لديهم من فهم الدين، وإدراك جوانبه ما يعينهم على درء هذا الخطر، وكشف ما فيه من خطأ، ثم يتدرجون بعد ذلك إلى الدعوة إلى دينهم النصرانى، وهو على وضوح بطلانه، إلا أن لهم وسائلهم التى دربوا عليها فى التلبيس على البسطاء، وقلب الحق باطلاً والباطل حقًّا، وإخفاء ما فى دينهم النصرانى من أمور لا تستقيم مع عقل ولا منطق، وإظهاره بمظهر دين الرحمة، والألفة، والمحبة، وأن المسيح هو الذى أرسلهم، ليساعدوا المحتاجين، ويخففوا آلام المتألمين، ويعطوا للفقراء والمحتاجين، ومثل هذه الأكاذيب مع الإلحاح الذكى والمتابعة، من شأنها أن تحتل عند الجهال مكانًا ولو على هامش نفوسهم.

* * *

رابعًا: مجالات تطبيق العلمانية فى البلاد الإسلامية.

نتيجة للعوامل السابقة التى أشرنا إلى أنها أدت إلى انتقال العلمانية إلى البلاد الإسلامية، فقد أخذت الكثير من البلاد الإسلامية بالنظام العلمانى، وقد طبقته تلك البلاد فى كافة مناحى الحياة ومجالات الأنشطة، وكانت أهم المجالات التى طبقت فيها العلمانية فى تلك البلاد ما يلى:

١ ـ مجال التشريع.

لقد كان أول مظهر من مظاهر تطبيق ذلك النظام الإلحادى فى البلاد الإسلامية تطبيقه فى التشريعات والقوانين التى تحكم بها تلك المجتمعات المسلمة، وهذا من أعجب الأمور وأكثرها تناقضًا، أن تكون مجتمعات توصف بأنها إسلامية، ويوصف أهلها بأنهم مسلمون، ثم ينحى دين الله ـ تعالى ـ الإسلام، وترفض تشريعاته وأحكامه، ويستبدل بتلك التشريعات الإلهية تشريعات أجنبية بشرية وضعية، وتخلى الساحة من قوانين رب العباد، ليحل محلها قوانين العباد، لكن ذلك

ـ على ما فيه من عجب ـ هو الذى قد كان.

وإن تعجب فعجب أن يقيم دعاة العلمانية فى الدول الإسلامية دعوتهم إلى تنحية شرع الله ـ تعالى ـ وتطبيق العلمانية بحجة حرصهم على مصالح الناس، والأخذ بأسباب التقدم والتحضر، والمدنية. كأن مصالح الأمة المسلمة مهددة حين يطبق شرع الله ـ سبحانه ـ وكأن فى تطبيق شرع الله ـ تعالى ـ خطرًا محدقًا وفسادًا محققًا، ولن تنجو المجتمعات الإسلامية من الأخطار والمفاسد المحدقة بها، ولن تتحقق مصالحها إلا بالتخلص من شرع الله ـ تعالى ـ والأخذ بقوانين الفرنسيين والإيطاليين، والسويسرين والألمان، والإنجليز، والرومان، كل هؤلاء وغيرهم تحقق قوانينهم مصالح الأمة المسلمة، بينما لا يأتى شرع الله ـ سبحانه وتعالى عما يصفون ـ إلا بالأخطار والمفاسد.

وقد كان أول مظهر من مظاهر علمنة القانون فى تركيا التى كانت مقر الخلافة الإسلامية، والتى أتى عليها حين من الدهر كانت المظهر الواضح الرسمى للإسلام، والمدافعة عن مصالح المسلمين.. لكن لله فى خلقه شئون.

وقد بدأت علمنة القوانين فى تركيا عام ١٨٥٧م، ثم تلاه فى مصر عام ١٨٧٥م، حيث صدر ت بعض القوانين مستمدة من القوانين الوضعية، ثم تبع ذلك إنشاء المحاكم الأهلية التى تحكم بالقوانين الوضعية، بعيدًا عن الشريعة الإسلامية. ومن عجب أن بعض دعاة العلمانية وأقطابها فى مصر، قام فى عام ١٩٨٣م، يطالب الأمة المسلمة بمصر بالاحتفال بالعيد المئوى لإنشاء المحاكم الأهلية وتحكيم القانون الوضعى بمصر الذى بدأ فى عام ١٨٨٣م. ولأن هذه المحاكم بدأ العمل بها على أساس من القوانين الوضعية بتاريخ ٣١/ ١٢/ ١٨٨٣م، فإن المسئولين بمصر يعتبرون ذلك اليوم من كل عام عيدًا للقضاء المصرى تقام فيه الاحتفالات بهذه المناسبة، وكأنهم يحتفلون بتنحية شرع الله ـ تعالى ـ عن الحكم، وتحكيم شرع البشر.

"ومع إلغاء الخلافة الإسلامية فى تركيا، تم فى عام ١٩٢٤م ما يلى:

أ ـ إصدار قانون مدنى مستمد من القانون السويسرى.

ب ـ إصدار قانون جنائى مستمد من القانون الإيطالى.

جـ ـ إصدار قانون تجارى مستمد من القانون الألمانى.

وفى مصر، تم فى عام ١٩٤٨م صدور القانون المدنى نَاصًّا فى مادته الأولى على أن مصادر القانون فى مصر هو: التشريع الوضعى، ثم الأعراف الوضعية، ثم الشريعة الإسلامية والقانون الطبعى، فقد كان حظ الشريعة الإسلامية فى ذلك القانون المصرى الصادر عام ١٩٤٨م أن تأتى فى المرتبة الثالثة بعد القانون الوضعى، ثم العرف الوضعى، ومعه فى تلك المرتبة القانون الطبعى"(١).

ولقد استمرت علمنة القوانين والتشريعات فى الدول الإسلامية، حتى لم يبق من شرع الله ـ سبحانه ـ فى قوانين الكثير من الدول الإسلامية إلا ما يسمى "الأحوال الشخصية"؛ أى: التشريعات الخاصة بالزواج والطلاق والميراث. وحتى هذه كثيرًا ما تدفع الأهواء بعض المسئولين لمحاولات التعدى عليها، وإدخال تعديلات عليها مخالفة لشرع الله، من مثل ما هو واقع فى بعض الدول الإسلامية من الحجر على تعدد الزوجات، ومنع الرجل من الزواج بالثانية، وتجريم ذلك، ومثل التشريع الذى ينص على عدم جواز الزواج بالثانية إلا بموافقة الأولى، فإذا لم توافق لا يجوز الجمع بين الاثنين فى عصمة الرجل ومثل اقتراح البعض بأن يكون الطلاق حقًّا للمرأة كما هو للرجل.. إلى آخر هذه الضلالات التى تضمنتها وثيقة مقترحة عرضت بمصر مؤخرًا.



٢ ـ فى مجال التعليم.

إن العملية التعليمية تقوم على أساس إعداد أولادنا الذين هم الامتداد الطبعى

(١) التاريخ الأورتى الحديث، د. عبد الحميد البطريق وآخر. نقلاً عن الاتجاهات الفكرية المعاصرة. ص ٦٢.

لنا، والذين هم الأجيال القادمة، إعدادًا تتحقق فيه قيمنا، ومثلنا، وأخلاقنا، وسلوكياتنا، ومن قبل ذلك كله ومن بعده ديننا الإسلام الذى ندين به، والذى منه نستمد كل ما نحرص عليه من قيم، ومثل، ومبادىء، وأخلاق، وسلوك. فالعملية التعليمية هى الطريقة التى من خلالها نغرس فى أولادنا منذ أيامهم الأولى عقيدتنا التى نؤمن بها، وآمالنا وتطلعاتنا، ونعدهم لكى يواصلوا مسيرتنا، وليحققوا ما لم نستطع تحقيقه، إن شخصية الأمة، وذاتيتها، وآلامها وآمالها، ودينها، وقيمها التى تصوغ نظرتها للحياة والأحياء مرتبط بالتعليم، والوسائل التى يتم بها نقل الخبرات الحياتية من الآباء إلى الأبناء، ومن الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة.

وبما أن كل أمة لها شخصيتها وذاتيتها، وقيمها، ومبادئها، ودينها وعقائدها، ولها كذلك نظرتها إلى الحياة التى تستمدها من كل ما ذكرنا؛ فإنه من البدهى أن يكون لكل أمة أسلوبها الخاص فى تعليم أولادها، وهو أسلوب يختلف جوهريًّا وجذريًّا عن أساليب الأمم الأخرى التى تختلف عنها فى عقيدتها، ومثلها، وقيمها، ونظرتها إلى الحياة.

إن المؤسسات التعليمية أشبه شىء بالمعامل التى تذوب فيها العناصر ويختلط بعضها ببعض حسب خطة معينة، لتخرج لنا بعد ذلك العناصر فى صورة جديدة تمامًا غير التى كانت عليها، كذلك أولادنا يدخلون المدارس التى تصوغهم صياغة جديدة فى الفكر، والخلق، والسلوك، بل وفى العقيدة بالشكل الذى تؤدى إليه العملية التعليمية، والقائمون عليها.

من كل ما سبق نستطيع أن نقرر بوضوح، بأن مناهجنا التعليمية لا يجوز أن تستورد من خارج حدودنا، وما ينبغى أن نستمد علومنا، أو وسائلنا فى تربية أولادنا وتعليمهم أو المواد التى نعلمهم إياها، من غير بلادنا وأمتنا المسلمة.

نعم؛ هناك قاعدة عريضة من العلوم المشتركة بين الناس جميعًا، وبخاصة تلك العلوم الطبعية والرياضية، وهى علوم لا تختلف فى أسسها أو معطياتها عندنا عنها عند الآخرين، لكن بجانب تلك العلوم تقوم العلوم التى توصف بالعلوم

الإنسانية، وهى علوم لا تقوم على عقل الإنسان بقدر ما تقوم على مشاعره وأحاسيسه. ولذلك تختلف هذه العلوم من أمة إلى أمة، سواء فى النظرة إليها، أو فى وسيلة تدريسها، أو فى النتائج الموصلة إليها أو المستقاة منها، وهذه العلوم هى التى تحتل المكانة الخطيرة فى صياغة التلامذة والطلاب، والتأثير فيهم تأثيرًا ينقلهم من عدوة الإيمان إلى عدوة الإلحاد ـ عياذًا بالله ـ والعكس صحيح. وهذا ما يفسر لنا تلك الحال التى يعود بها الكثير من أولادنا الذين يبعثون إلى الخارج، فيعودون إلينا بوجه غير الذى خرجوا عليه، إنهم يعودون صورًا مشوهة ممسوخة، وقد تنكر الكثيرون منهم لدينهم، وعقيدتهم، وقومهم، ومثلهم، إنهم يعودون أبواقًا تدعو إلى التغريب، تدعو إلى أن نسير وراء الغرب النصرانى فى كل شىء، وأن نتمثل أخلاقه، وسلوكه، وبذاءته، وإسفافه، إن شر مثال على ذلك نجده فى "رفاعة الطهطاوى" الذى ذهب ليكون إمامًا وواعظًا للبعثة العلمية التى أرسلها "محمد على" إلى فرنسا، فعاد من هناك ليدعو إلى الأخلاق الغربية، واللباس الغربى، وحتى أن يرقص الشرقيون كما يرقص الغربيون نساء ورجالاً.. وأكثر شرًا منه وضلالاً "طه حسين" الذى كان أزهريًّا ثم فصل من الأزهر، فنقم على الأزهر، وعلى كل شىء، ثم سافر إلى فرنسا ليعود بعد ذلك ويقول بأعلى صوته فى كتابه "مستقبل الثقافة فى مصر": "إن من السخف اعتبار مصر جزءًا من الشرق.. إننا ننتمى إلى حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط، إننا يجب أن نتبع الغرب فى كل شىء.. يجب أن نأكل كما يأكل الغربيون، ونلبس كما يلبس الغربيون ونشعر كما يشعر الغربيون، ونفكر كما يفكر الغربيون، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها الغربيون..."(١).

ولكى يحقق هذا المستغرب هدفه هذا، فيجعل المصريين المسلمين صورة مشوهة من الغرب النصرانى، لم يجد وسيلة أجدى من التعليم، لذلك سعى هو ومن وراءه حتى تولى وزارة التعليم فى مصر، فحول مناهجها إلى صورة من مناهج التعليم فى الغرب، وفى هذا يقول هذا المستغرب: "التعليم عندنا على أى نحو، قد أقمنا

---

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة. ص:١١٣، ١١٤.

صروحه، ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضى على نحو أوربى خالص، ما فى ذلك شك ولا نزاع، نحن نكون أبناءنا فى مدارسنا الأولية، والثانوية، والعالية تكوينًا أوربيًا خالصًا لا تشوبه شائبة"[1].

إن علمنة التعليم فى البلاد الإسلامية استمرت ومضت فى مسيرة طويلة حتى استقرت على الركائز الآتية:

أ ـ تحجيم التعليم الدينى والتضييق عليه، وسد أبواب التوظيف أمام خريجيه.

ب ـ إنشاء التعليم المدنى أو غير الدينى ليكون فى مواجهة التعليم الدينى وينافسه فى الحصول على التلامذة. وتوسعة أبواب التوظيف أمام خريجيه.

وقد نشأ عن العاملين السابقين، أن أصبح الطالب الذى يتم التعليم الدينى فى الأزهر لا يجد وظيفة يلتحق بها، وإن وجدها فإنه يحصل على راتب يساوى ربع ما يحصل عليه المتعلم فى المدارس المدنية، ونشأ عن ذلك ـ أيضًا ـ أن تكدس المتخرجون من الأزهر فى أعداد كبيرة لا تجد وظائف، ومن ثم كانوا يعملون فى الزراعة والحرف الأخرى طلبًا لما يسدون به حاجتهم، وعاشوا عيشة بؤس وفقر، بينما زملاؤهم الذين ولوا وجوههم شطر التعليم المدنى الذى هو صورة من التعليم الأوروبى يجدون الوظائف بمجرد إتمامهم التعليم، بل ولهم نوعيات من وظائف لا يرقى إليها المتعلمون فى التعليم الدينى، مثل الوظائف فى دواوين الوزارات، ووزارة الخارجية، والسفارات.. وما إلى ذلك، وقد نتج عن ذلك كله أن شوهت صورة التعليم الدينى فى عيون المجتمع، وانصرف الناس عنه، وبخاصة طبقة الأثرياء، وذوى النفوذ، ثم، ومن جانب آخر اقتصرت الوظائف العليا والمؤثرة فى الدولة على هؤلاء الذين تخرجوا من المدارس المدنية التى هى صورة من المدارس الأوربية، فأصبح القرار على مستوى مؤسسات الدولة فى أيدى هؤلاء المستغربين، مما دفع بعملية العلمنة، والأخذ بالنظم الغربية الإلحادية إلى السير بخطى أسرع، وتشمل كافة أنظمة الدولة.

---

(١) مستقبل الثقافة فى مصر. طه حسين ص: ٤١.

جـ ـ لم يكتف دعاة العلمنة والإلحاد بالتضييق على التعليم الدينى وسد أبواب الوظائف أمام خريجيه، لأنه ـ رغم ذلك ـ كان الكثيرون من الأسر ذات الأصالة والعراقة تحرص على توجيه أولادها إلى التعليم الدينى وبخاصة الأسر الريفية التى تحرص على الدين وتضحى من أجله، لذلك لم يكتف هؤلاء العلمانيون بما فعلوا، بل جاءوا إلى الأزهر ـ وهو الجامعة التى يؤمها الكثرة من أبناء الأمة الإسلامية من كافة أقطار الأرض ليتزودوا من التعليم الدينى بالأزهر، ثم لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، وليكونوا دعاة فى بلادهم ـ نقول: جاءوا إلى الأزهر بقانون أسموه قانون: "تطوير الأزهر". ودون دخول فى تفاصيل كثيرة، فقد تحول الأزهر بذلك القانون إلى مؤسسة تعليمية شبيهة إلى حد كبير ببقية المؤسسات الأخرى التى تشرف عليها وزارة التعليم، أى أصبح قريبًا من التعليم المدنى. بل وأسوأ منه، حيث أضحى صورة مشوهة ممسوخة، لا هو دينى، ولا هو مدنى، وبذلك وصلوا إلى كافة أهدافهم من علمنة التعليم، وأصبح التعليم مدنيًا بكامله، حتى الذى يتخرج من الأزهر أضحى أشبه بالأمى فى العلوم الدينية، وهذا ما هدفوا إليه.

د ـ من صور العلمنة فى التعليم تدريس المواد التى تصادم الدين، وتعارض مسلمات العقيدة الإسلامية، وهى ـ بطبيعة الحال ـ نظريات ومواد باطلة وفاسدة، حتى بعد أن قام الدليل لدى الغربيين أنفسهم على بطلان هذه النظريات، فإن الكثير من الدول الإسلامية التى تطبق العلمانية ما زالت مستمسكة بتلك الأباطيل التى رفضها واضعوها من الغربيين، وذلك. مثل:

"نظرية دارون" أو "نظرية التطور"، التى تصادم الإيمان بأن الله ـ سبحانه ـ هو الخالق، وأنه خلق كل الخلائق على غاية من العناية، والإبداع، والإتقان. ورغم أن الغرب قد تخلى عن النظرية، وقد قام الكثيرون فى الغرب يعارضون ويقيمون الأدلة على بطلانها، فإن المدارس عندنا ما زالت عاشقة لهذا الإلحاد ومصرة عليه.

القاعدة التى تقول: "إن المادة لا تفنى ولا تستحدث". وهى قاعدة تصادم فى

وضــوح شديد الإيمان بأن الله ـ سبحانه ـ قد خلق الأشياء من عدم، وأنه ـ عز وجل ـ يقول للشيء كن فيكون، وأنه ـ تعالى ـ يفنى الأشياء ويستحدثها كما يشاء ـ سبحانه ـ ذلك رغم أن العلم قد أثبت أن المادة التى يتحدثون عنها، ويزعمون أنها لا تفنى قد فقدت أهم خصائصها، وتحولت إلى شيء آخر غير الذى يتحدثون عنه، وذلك يوم تفجرت الذرة، وتحولت المادة بذلك التفجير من مادة إلى طاقة، وفقدت المادة خصائصها من كونها ذات كتلة، ووزن، وتشغل حيزًا من الفراغ، فإذا هى تفقد الصفات الثلاث الرئيسية المميزة لها حين تفجيرها.

هذا فى جانب العلم الطبعى.

أما فى جانب الفلسفة وعلم النفس، فهناك الكثير، مثل نظرية "فرويد" اليهودى فى علم النفس والتحليل النفسى، تلك النظرية القائمة على أن الدافع الجنسى هو مدار الحياة البشرية، وأن تاريخ البشرية منه يبدأ وإليه ينتهى، وأن الإنسان لكى يكون سويًا سليمًا من الأمراض والعقد النفسية ليس أمامه إلا سبيل واحد، هو إطلاق العنان للدافع الجنسى لديه يشبعه دائمًا وبأية وسيلة، وبلا قيود أو حدود، وأن على المجتمع أن يساعد أفراده على ذلك برفع العوائق، وإتاحة الفرص للإشباع الجنسى عند الجميع، دون اعتبار لتلك الضوابط التى تضعها الأديان، والتى هى السبب الرئيسى فيما يصيب الناس من الأمراض. وهذا إضافة إلى الأضاليل المسفة التى تدرس لأولادنا من خلال تلك النظرية، والتى تقرر أن الطفل الذكر يعشق أمه منذ يومه الأول عشقًا جنسيًا، والبنت تعشق إباها عشقًا جنسيًا منذ ولادتها. وما ضربنا عن ذكره من نظريات ذلك اليهودى المخبول أكثر وأدخل فى باب الفحش مما ذكرناه ولكن الذين هم أكثر خيالاً منه إنما هم الذين يقبلون تلك النظريات، ثم يدرسونها لأولادهم على أنها علم صحيح.

هـ ـ ومن صور العلمنة فى التعليم "الاختلاط"، أو التعليم المختلط.

وفى هذا النوع من التعليم يختلط الأبناء مع البنات فى الجامعات وهم فى تلك السن الخطرة، وينتج عن ذلك من المآسى الخلقية والسلوكية ما يتحدثون عنه فى

جمهرة أفلامهم السينمائية، والتلفازية، وما تحكى عنه صفحات الحوادث فى الصحف اليومية. وما ذلك إلا لأنهم خالفوا شرع الله ـ تعالى ـ وتنكبوا صراطه المستقيم، واتبعوا السبل، وصدق الله العظيم القائل:

﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

و ـ ومن صور العلمنة فى التعليم إرسال أولادنا إلى البلاد الغربية النصرانية ليحصلوا العلوم فى فروع تتوفر لدينا مؤسساتها وأقسامها، ونفتح بذلك على أولادنا باب الفتنة على مصراعيه، ولا ينجو من ذلك إلا من عصمه الله ـ سبحانه ـ.

على أن ثمة صورًا كثيرة للعلمنة فى التعليم، لكنا نجتزىء بذلك، وفيه الكفاية، وفيها ذكر دليل وإشارة إلى ما لم يذكر.

* * *

٣ ـ فى مجال الاقتصاد والمعاملات المالية.

طبقت العلمانية فى مجال المعاملات المالية من بيع، وشراء، وقروض، ورهون، وتعاملات بنكية، يستوى ذلك تعامل الدولة مع الدول الأخرى، أو تعامل الدولة مع المواطنين، أو المواطنين مع بعض، وهذه الأنواع المختلفة من المعاملات سواء فى صورها وأشكالها، أو فى أطراف المتعاملين بها، تقوم فى جملتها على قاعدة عريضة مما حرمته الشريعة الإسلامية، وهى قاعدة المعاملات بالفائدة، أو التعامل بالربا.

ومن المقرر أن الله ـ عز وجل ـ قد حرم أنواعًا من المعاملات، تلك الأنواع التى تقوم على أكل مال الآخرين بالباطل، أى بأسلوب باطل غير سليم، مخالف للحق والعدل، وهذا النوع من المعاملات جاء النهى عنه بصورة مجملة عامة شاملة، ولم تفصل فيه صوَرُهُ وأشكاله وذلك لكثرتها أولاً، ولأنها لا تنتهى عند حد معين، بل تتجدد وتتغير وتتكثر ثانيًا، فيصعب حصرها؛ ولذلك جاء النهى عنها بصورة شاملة تحت قاعدة عامة، هى أكل المال بالباطل، ورأس الباطل فى تلك المعاملات

هى الادعاءات الكاذبة على الآخرين، ثم اللجوء إلى المقاضاة لدى الحكام الذين قد يجهدون صاحب الحق بإجراءات كثيرة، وقد يأخذون الرشا، وقد يضلون عن الحق لحجة باطلة يأتى بها الخصم.. إلى آخر تلك الأمور التى قد تنتهى بإعطاء المال لغير أهله، يقول ـ تعالى ـ:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٨].

ويقول ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء: ٢٩].

هذا هو النهى عن أنواع من المعاملات الباطلة بصورة مجملة عامة وشاملة، لكن بجانب هذا النهى العام هناك نهى خاص، ومحدد، وقاطع، ذلكم هو النهى عن "الربا" بكافة صوره وأشكاله، ورغم أن الربا باطل، وأن أكل المال عن طريق المعاملات الربوية هو أكل للمال بالباطل، وأن ذلك داخل دخولاً أوليًا فى النهى السابق عن أكل المال بالباطل، إلا أن القرآن المجيد، والسنة النبوية قد نَصَّا على النهى عن الربا، وعلى حرمة أكله بنصوص قاطعة صريحة حاسمة، وذلك لخطورته، ولشيوعه فى المعاملات، ولأمور كثيرة يعرفها المعنيون بالاقتصاد.

يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ [البقرة. ٢٧٥ ٢٧٦].

ويقول ـ سبحانه ـ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٠- ١٣٢].

ويقول ـ سبحانه ـ:

﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الروم: ٣٩].

فهذه آيات بينات، وهى دلائل قاطعة على حرمة الربا بكل أشكاله وصوره، وقد اشتد وعيد الله ـ سبحانه ـ فى ترهيب وتخويف آكلى الربا المصرين على التعامل به رغم تحريمه، يقول الله ـ سبحانه ـ بعد أن بينَّ تحريم الربا:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٨- ٢٧٩].

ولم يرد فى كتاب الله ـ سبحانه ـ أنه ـ تعالى ـ آذن قومًا بالحرب على معصية عصوها، أو جرم ارتكبوه، أو منهيٍّ عنه فعلوه، إلا فى آكلى الربا، وهذا يدل على عظم تحريمه، والتشديد على تحريم آكله، وقد بين الله ـ سبحانه ـ عظيم جرم اليهود فى أخذهم الربا، رغم جرائمهم العديدة التى نص عليها، إلا أنه ـ سبحانه ـ لم يغفل الربا وسط تلك الجرائم الكثيرة لهؤلاء الأخباث، يقول ـ تعالى ـ عن اليهود وهو يعدد جرائمهم:

﴿ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾ [النساء: ١٦١].

ورغم هذا الحديث الذى يطول لو أننا استقصينا دلائل حرمة الربا، وعظم جرم التعامل به، وشدة غضب الله ـ سبحانه ـ على المتعاملين به أفرادًا، أو مؤسسات، أو مجتمعات ودولاً، رغم ذلك فإن الاقتصاد فى الدول الإسلامية أو فى الجمهرة الغالبة فيها يقوم فى أساسه، وأصوله، وفروعه، على التعامل بهذا الذى حرمه الله ـ

سبحانه ـ وشدد فى تجريمه، وأعلن الحرب على المتعاملين به، وليس الأمر مقصورًا على أن التعامل بالربا وأكل المال بالباطل صورة من صور التعامل فى اقتصاد الدول الإسلامية، بل هو أساس المعاملات جميعها، إلى حد أن الإقراض بالربا ـ أو كما يسمونه "الفائدة" ـ أضحى الركيزة الهامة، والأساس القوى لكل صور الاقتصاد، وأصبح الإقراض بالربا أكثر الأنشطة وأهمها بالنسبة للنظام البنكى، بل هناك بنوك لا عمل لها إلا إقراض المتعاملين معها بالفوائد الربوية. وقد شملت هذه المعاملات الربوية الدول، والمؤسسات، والهيئات، والأفراد، حتى الفلاح فى عمله الأساسى وهو الزراعة، لا غنى له عن التعامل بالربا عن طريق البنك الزراعى الذى يمده بالبذور، والأسمدة، وكافة حاجاته بالربا أضعافًا مضاعفة.

وحين جاء قوم قد هداهم الله إلى الحق، وفتح عيونهم وقلوبهم على طريق العودة بالاقتصاد الإسلامى إلى ما أحل الله بعيدًا عن الربا بكافة صوره ـ فقاموا بإنشاء أنظمة وبنوك تقوم على المعاملات الإسلامية عن طريق المضاربة، والعودة إلى أحكام الشريعة.. لم يرض هذا العلمانيين ومن وراءهم وأعلنوها حربًا شعواء على المصارف الإسلامية، والقائمين عليها، وما تزال ـ وستظل ـ المعركة محتدمة بين حزب الرحمن وحزب الشيطان.. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

* * *

٤ ـ فى مجال السياسة.

و"السياسة" فى أصل وضعها لفظ يشمل كيفية تصريف الإنسان شئونه الحياتية جميعها سواء فى سياسة نفسه، أو سياسة أسرته، أو سياسة مجتمعه، أو سياسة دولته مع الدول الأخرى إن كان مسئولاً أو حاكمًا وكان من شأنه ذلك. وهى مأخوذة من "ساس يسوس" أى: راض، وأدَّب، ورعى، ووجه، وأرشد، وقاد.. فالسياسة ـ إذن ـ معنى يشمل جوانب الحياة، ولكل منها حظه فيما يتولاه ويرعاه.

لكن استعمال هذه اللفظة أضحت علمًا على تصريف أمور الدولة، سواء فيما

يخصها من شئونها الداخلية، أى شئون الرعية، أو ما يتصل بعلاقاتها مع الدول الأخرى، وهكذا استقر معناها عند إطلاقها.

وسواء أريد بها هذا المعنى العام الذى أشرنا إليه أولاً، أو أريد بها ذلك المعنى الخاص الذى يستعمله رجال السياسة والحكم، فإن الكلمة بمعنييها تقع فى إطار التشريع الإسلامى الحكيم، ولا تخرج عنه فى شىء مما تستعمل فيه أو تنطبق عليه.

فمن المقرر أن شرع الله الذى تضمنه دينه الحق الإسلام قد شمل كل صغيرة وكبيرة فى حياة المسلم: فردًا، أو أسرة، أو مجتمعًا، أو دولة، ومن المقرر ـ أيضًا ـ أن الإسلام فى شريعته الشاملة الكاملة لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وقد شرع لها، ووضع لها الأحكام الملائمة، ومن ثم فإن دين الله ـ تعالى ـ لم يترك فى حياة المسلم فردًا، أو جماعة ثغرة خالية من التشريع، أو فارغة من أحكامه، بحيث يجد المسلم نفسه مضطرًا إلى البحث لها عن تشريع أو أحكام خارج شرع الله الحكيم، نقول: إن ذلك غير كائن، ولا يمكن أن يكون، فشرع الله فى سياسة الفرد نفسه، أو مجتمعه الصغير ـ نعنى أسرته ـ أو مجتمعه الكبير، أو دولته فى إطار الدول الأخرى، شرع حكيم، وقائم، ومتكامل، وشامل، كذلك كان، وكذلك يظل، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لكن العلمانيين خرجوا علينا بنظامهم الفاسد الذى نحَّوا فيه شرع الله ـ سبحانه ـ عن سياسة الدولة، إن فى داخلها، وإن فى خارجها، وقد أرادوا بذلك أن ينفلتوا من إطار الشرع الحكيم، فيشبعوا أهواءهم فى التسلط والتحكم والسيطرة، دونما رقابة من دين الله، أو علماء الأمة، وقد صاغوا مذهبهم الفاسد هذا فى ذلك الشعار الفاسد الذى يقول: "لا سياسة فى الدين، ولا دين فى السياسة"، وهو شعار أطلقه ونفذه مؤسس العلمانية، ومسقط الخلافة الإسلامية، وعدو الله وعدو رسوله وعدو المسلمين "مصطفى كمال أتا تورك" ـ عليه لعائن الله ـ وقد جاء من يرون أنفسهم خلفاء له يرددون الشعار الفاسد. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨].

٥ ـ فى مجال الإعلام.

كلمة "الإعلام" مصطلح يقصد به كل وسيلة يتم بها نقل المعلومات والمعارف وما هو من قبيل الثقافة إلى جميع الناس، دون تمييز بين شخص وآخر، أو طائفة من المجتمع وطائفة أخرى، فلا يدخل فى الإعلام مؤسسات التربية والتعليم لأنها خاصة بطوائف التلامذة، وإن كانت لنقل المعارف، لكنها وسيلة خاصة بمن ينتسب إليها، وهكذا كل وسيلة تميز فئة أو تخاطب طائفة لا تدخل فى الإطار العام لكلمة "إعلام".

الإعلام ـ إذن ـ هو الوسائل التى تخاطب الناس جميعًا على سواء، ومن ثم فإنه يشمل: الإذاعة، والتلفاز، والصحف، والمجلات، والسينما، والمسرح، كذلك يشمل الأغانى، والموسيقى، وكل ما يدخل فى إطار ما يسمى "الفن"، كذلك يشمل الكتب والنشرات التى تصدرها بعض الهيئات الإعلامية، إلى آخر تلك الوسائل التى لا تقف عند حد، والتى يخرج علينا منها كل صباح الجديد والخطير.

والإعلام هو أول وأخطر المجالات التى سيطرت عليها العلمانية وزبانيتها، وهو الوسيلة التى استغلها هؤلاء الزبانية لنشر علمانيتهم فى شتى المجالات، ومن ثم فإن الإعلام ـ بهذا المعنى ـ وسيلة فاعلة ومنفعلة ـ بمعنى أنها قد تم علمنتها، فأضحت خاضعة للنظام العلمانى فى وسائلها، وبرامجها، وأساليب أدائها، وقد تجردت فى كل ذلك عن الدين وأحكامه، وما يحل وما يحرم، وبخاصة فى قضية اللباس من حيث حجاب المرأة وزينتها، فطغت سمة العرى والتبذل على كافة البرامج والوسائل، إلا من ـ رحم الله ـ وقليل ما هن، بل أقل من القليل هن، وكذلك هم فيما يتسمون به ويحرصون عليه من التخنث والتأنث.. إلى غير ذلك. هذا من حيث كونها منفعلة.

أما كونها فاعلة، فإن وسائل الإعلام التى أشرنا إلى أهمها ـ وهناك غيرها كثير ـ قد أضحت جميعها وسائل لنشر النظام العلمانى فكرًا وتطبيقًا فى كافة جوانب الحياة، وقد قام منهج القائمين على الإعلام فى نشر العلمانية على محورين:

الأول: تحقير الدين: والتهوين من شرائعه وأحكامه، والسخرية بعلمائه القائمين على تعليمه وتطبيقه ورعايته فى نفوس الأمة وأجهزتها، والتهكم بالدعاة وكل ما يتصل بوسائل الدعوة، وإظهار الدعاة إلى الإسلام بمظهر التخلف عن مسيرة الحياة، وإظهار الخارجين عن الشرع وأحكامه بمظهر التحضر والتمدن والرقى، كل ذلك فى أسلوب ملتو خبيث، له تأثيره فى نفوس النشء، والشباب،وعامة الناس.

الثانى: الإشادة بالنظام العلمانى فى كافة صوره وأشكاله، وعلى كافة المستويات، وإظهار النظام العلمانى على أنه السبيل الوحيد إلى التقدم والتحضر، وأن الخروج عليه ورفضه يعنى الإصرار على التخلف والجمود.

هذه المعانى يقوم عليها الإعلام بوسائله المتعددة المؤثرة التى تصل إلى كل مكان، وتتصل بكل فرد، ومن هنا يتضح خطورة الإعلام كوسيلة من وسائل نشر العلمانية، بل أخطر وسائلها، وبخاصة إذا سخرت له الإمكانات المادية والسلطوية بلا حدود أو قيود، وقام عليه أعداء الدين، أنصار العلمنة والإلحاد. والإعلام بهذه الصورة يجعل من مجهودات الدعاة والمصلحين، والقائمين على رعاية شرع الله، مجهودات ضعيفة التأثير إلى حد كبير.

لكن الأمل فى نصرة الله الذى ينصر أولياءه ويخذل أعداءه، وما ذلك على الله بعزيز.



المبحث الرابع

الوطنية والقومية

أولاً: الوطنية



أولاً: تعريف الوطنية.

تعرف الوطنية بأنها: شعور جميع أبناء الوطن الواحد بالولاء لذلك الوطن، والانتماء إليه، والتعصب له، وما يتبع ذلك من واجب الحفاظ عليه والدفاع عنه، أيًا كانت أجناسهم التى ينتمون إليها، أو أصولهم وأعراقهم التى انحدروا منها.

فالولاء والانتماء هنا إنما هو للأرض التى يقع الوطن ضمن حدودها، دونما اعتبار للجنس، أو القوم، أو اللغة، فالوطن الواحد يجمع ضمن مُوَاطنيه أجناسًا مختلفة، وأعراقًا متعددة، وقد يكون مواطنوه يتكلمون لغات متعددة، غير أنه إن تعددت لغات مواطنيه، فإنه لا بد من وجود لغة معينة يتفق أبناء الوطن جميعًا على أنها اللغة الأم، أو كما يقولون: "اللغة الرسمية" للدولة أو الوطن، على الجميع أن يجيدها، وأن يتعامل بها أمام هيئات الدولة ومؤسساتها.

ثانيًا: تعريف الوطن.

الوطن أرض ذات حدود معينة حاصرة، يعيش عليها أناس قد اكتسبوا حق البقاء عليها، ومزاولة شئونهم الحياتية فيها؛ إما بحق طبعى أو بحق قانونى.

والذين اكتسبوا المواطنة بحق طبعى هؤلاء هم الذين عاشوا منذ أجيال على هذه الأرض، وامتدت جذورهم فى الماضى، وكان لهم حضور على أرضه بأنفسهم وآبائهم وأجدادهم يوم استقرت حدوده واعترف بها. أما الذين اكتسبوا حق المواطنة عن طريق القانون؛ فهؤلاء هم الذين لم يكن لهم جذور سابقة، ولكنهم طلبوا حق الجنسية أو التجنس، فمنحوها من قبل المسئولين فى الدولة تبعًا للأنظمة المعمول بها.

ثالثًا: المواطنة والتملك

لا يوجد تلازم بين التملك والمواطنة؛ فقد يكون مواطن مواطنة طبعية، وله حضور على أرض الوطن بآبائه وأجداده عبر أجيال سابقة، ومع ذلك لا يملك على أرض وطنه شيئًا قليلاً ولا كثيرًا، سكنه استئجار، ويعيش عن طريق العمل لدى الدولة أو أحد الأفراد.

بينما قد يوجد آخر ليس مواطنًا، ولكنه يملك الكثير على أرض ذلك الوطن، قد يملك شركة كبيرة، أو أرضًا زراعية، ومسكنًا، وأموالاً، وغير ذلك، كل ذلك حسب قوانين الدولة المعمول بها. من أجل ذلك قلنا: لا يوجد تلازم بين المواطنة والتملك؛ فقد يوجد مواطن لا يملك، وقد يملك من لا يتمتع بحق المواطنة.

رابعًا: الوطن صنعة بشرية، وغير مستقرة.

الناظر فى الأوطان القائمة الآن، يجدها لم تكن على هذه الصورة، لا فى حدودها الطبيعية، ولا فى مواطنيها، منذ مائة سنة، وبعضها منذ بعض عشرات من السنين، وبعضها منذ عشر سنين أو أقل.. فالأوطان تتكون نتيجة عوامل كثيرة؛ أهمها وأكثرها فاعلية فى تكوين الأوطان وتغيير حدودها هى الحروب، ثم القوانين الدولية، والاتفاقات التى تقوم بين دولة وأخرى مجاورة لها.

فنتيجة للحروب تتغير حدود الدول والأوطان، فقد تتسع حدود وطن ليأكل فى بطنه وطنًا مجاورًا أو أوطانًا، كما حدث فى الحرب العالمية الثانية وكما حدث يوم أن قام الاتحاد السوفيتى الشيوعى بابتلاع الجمهوريات الإسلامية التى كانت تجاوره بالقوة، والتى استقلت عنه بعد ذلك، فكما اتسع ليبتلعها، تفتت لتستقل عنه وتعود أوطانًا لأصحابها مصونة الكرامة، وقد تتفق دولة مع أخرى على تخطيط للحدود، بمقتضاه تُضَم بعض بقاع من أحد الوطنين إلى الآخر، فتنتقل الأرض بمن عليها من وطن إلى آخر، ومن دولة إلى أخرى.

نخلص من كل ذلك إلى أن حدود الأوطان إنما هى من صنعة البشر، وأنها ليست دائمة، ولا مستقرة، والجنسية التابعة لدولة ما أو وطن معين جنسية غير ثابتة

دائمًا، فقد تنتقل مدينة على حدود دولتين، من إحداهما إلى الأخرى حسب حرب أو اتفاق سلم، وبذا تنتقل جنسية سكان تلك المدينة من دولة إلى دولة.. هكذا.

خامسًا: الركائز والأسس التى تقوم عليها العاطفة الوطنية

يقوم الإحساس بالوطنية، والارتباط بالوطن، والانتماء إليه، والولاء له على أسس وركائز أهمها:

١ ـ أصول الإنسان وجذوره التى تتمثل فى أجياله السابقة عليه، والتى تمتد فى الماضى عشرات السنين، فهذه تولد شعور الإنسان بالانتماء لتلك الأرض التى عاش فيها أسلافه، ويراوده شعور صادق بأن تلك الأرض هى بمثابة ميراث تركه له هؤلاء الأجداد، ولا ينبغى أن يفرط فيه أو يبتعد عنه، ويزيد ذلك الشعور إحساسه بأن ذلك الميراث أمانة فى عنقه ائتمنه عليها أسلافه، وإن من الوفاء لهم الحفاظ على ذلك الميراث، ورعاية تلك الأمانة.

٢ ـ الأحداث والذكريات التى صاحبت الإنسان منذ مولده حتى شبابه وهرمه، بل إن الذكريات المتصلة بأصوله من الآباء والأجداد لتمثل بالنسبة إليه معالم تجتذبه إليها وتثير فيه كوامن الحنين إليها والحرص عليها.

٣ ـ روابط الإنسان وصلاته بالآخرين من أبناء الوطن، من نسب، وجيرة، وصهارة، وصداقة، بل حتى العداوة، وعلائق التحدى والمنافسة لتحيى فيه حب الوطن، ومشاعر الحرص عليه، والارتباط به.

٤ ـ العادات، والتقاليد، والأعراف التى تعد الوعاء النفسى الذى يحوط بالإنسان، ويعيش الإنسان بداخله أو فى إطاره، فيشعره بالألفة، والأمان، والاطمئنان، على عكس العادات والتقاليد الغريبة عن الإنسان، التى تثير فى الإنسان مشاعر الاغتراب والوحشة.

سادسًا: الوطن البديل.

رغم هذه الركائز التى يقوم عليها حب الإنسان وطنه، وارتباطه به، وولاؤه

وانتماؤه إليه، فإن ثمة كثيرين من الناس يغيرون أوطانهم، أو يتخذون لهم أوطانًا جديدة غير أوطانهم السابقة، أو بجوارها، وذلك حين يهاجر الإنسان من وطنه إلى بلد آخر، يقيم فيه، ويعمل، ويتزوج، ويتكيف، أو يندمج فى الوطن الجديد ويذوب فيه، ويصبح مواطنًا من مواطنيه، وفى وضعه الجديد هذا لا ينسى وطنه القديم، بل يحتفظ به فى زاوية من زوايا نفسه، وهذا الوطن الجديد قد يسمى "الوطن البديل"، وموقف الإنسان بين الوطنين تحدده عوامل كثيرة، وأهم هذه العوامل ما كان يجده الإنسان فى وطنه القديم وما صار يجده فى وطنه البديل. وعلى ضوء ذلك قد تظل مكانة الوطن القديم قوية منيعة لا تفقد حصونها فى مواجهة الوطن الجديد، وقد يحدث العكس إذا ما خرج الإنسان من وطنه الأصيل طريدًا شريدًا فارًا من حياة صعبة قاسية، وأصحاب قساة غلاظ، فوجد فى الوطن البديل ما عوضه من حياة سهلة رغدة، وأناس أصدقاء أوفياء كرماء، وحاجات متوفرة مقضية. فإن ذلك كله من شأنه أن يلقى بظلاله على الوطن القديم فيزيحه عن مكانه قليلاً ليحتل ذلك أو جزءًا منه الوطن الجديد، وهناك عوامل كثيرة ترجع إلى التكوين النفسى والمزاج الشخصى للإنسان نفسه، مما يؤثر فى العلاقة بين الوطنين وموقف الإنسان وشعوره تجاه كل منهما.

على أنه فى كل الحالات، وأيا كانت تلك العوامل من القوة أو الضعف، وأيا كانت الظروف التى يعيشها الإنسان فى وطنه البديل، والتى كان يعيشها فى وطنه الأصيل؛ فإن شيئًا من ذلك كله لن يستطيع أن يجتث جذور الوطن الأصيل من قلب المواطن، ولن يقتلع من قلبه ومشاعره، ووجدانه ولاءه لهذا الوطن وشعوره بالانتماء إليه مهما كان ذلك الشعور ضعيفًا، ذلك أن الوطن الأصيل ـ كما أشرنا قبلاً ـ ليس أرضًا فقط، بل هو يمثل للإنسان آباءه وأجداده، وأعمامه وعماته، وأخواله، وخالاته، وكل ما هو أصل له وأساس ـ ولن يستطيع ذلك إنسان إلا إذا انتقل من عدوة الإنسان إلى عدوة الحيوان. ولو أن إنسانًا وصل إلى هذا المستوى لما كان إذ ماثًا، ولخرج ـ بالضرورة ـ عن موضوع كلامنا هنا.

ثانيًا: القومية

أولاً: تعريفها.

أن يشعر جميع أبناء الأصل الواحد والعرق المشترك بالولاء والانتماء لأصلهم الذى جاءوا منه، وعرقهم الذى انفصلوا عنه، مهما تعددت الأوطان التى يعيشون فيها، والأرض التى يزاولون حياتهم عليها. ويتبع ذلك الولاء لأصولهم وقومهم سعى حثيث، وجهد دائم لجمع شملهم فى وطن واحد، على أرض واحدة، ويتبع ذلك ـ أيضًا ـ الحرص على العوامل والأسباب التى من شأنها أن تقوى رابطة الأصل الواحد، والجنس المشترك عندهم، من مثل اللغة المشتركة التى هى لغتهم القومية، والتمسك ببعض ما ورثوه عن أصولهم من عادات وتقاليد تميزهم عن الأقوام الآخرين.

ثانيًا: الدواعى إلى القومية فى العصور السابقة.

كان الناس فى العصور القديمة، وتحديدًا فى عصور الإمبراطوريات الشاسعة، مثل الإمبراطورية الرومانية، يعيشون قوميات متعددة داخل وطن واحد من حيث الشكل، أما من حيث الواقع فقد كانت أوطانًا كثيرة تحت ظلال الإمبراطورية الأم، ولم يكن هناك أى نوع من الاهتمام تعطيه الإمبراطورية لتلك الأوطان، أو تلك القوميات والأجناس الكثيرة التى تعيش تحت ظلالها، كان ما يهم الإمبراطورية هو جمع الأموال من الولايات التابعة لها بالحديد والنار ـ كما يقال ـ . وكذلك جمع الجنود ليقاتلوا ويدافعوا عن الإمبراطورية، وكانت أحوال الأوطان المتعددة والأجناس والقوميات الكثيرة داخل الإمبراطورية على قدر من البؤس والشقاء إلى حد أن الإمبراطورية والقائمين عليها كانوا يعتبرون الناس فى تلك الولايات على اختلاف أجناسهم وقومياتهم عبيدًا فى خدمة الإمبراطور والإمبراطورية.

فى ظل أوضاع كهذه لم يكن هناك من سبيل للخروج من هذا الشقاء، والخلاص من ذلك البؤس وتلك التعاسة إلا باللجوء إلى الروابط التى تربط بين الناس بعضهم وبعض، ليكونوا قوة لها وزنها تستطيع أن ترد إليهم ما فقدوا من عزة قومية، وكرامة وطنية، وسمات إنسانية، لذلك نشطت الدعوة إلى القومية، فصار كل قوم يتجمعون تحت ظلال قوميتهم، ويَجِدُّون فى الحصول على وطن خاص بهم.

ولعل أصدق وأوضح مثال على ذلك "أوربا" يوم أن كانت تحت ظلال الإمبراطورية الرومانية؛ فقد كانت تمثل أجناسًا وقوميات مختلفة تحت ظلال دولة واحدة. ثم قامت الدعوة إلى القوميات، وآل الأمر إلى ما نراه من استقلال القوميات أو أكثرها بأوطان خاصة، لكل قومية وطنها.

الدعوة إلى القومية فى السابق ـ إذن ـ كانت بسبب الظلم الواقع على الناس، وكانت بسبب تجاهل حقوقهم المشروعة، وكان الهدف منها الحصول على حقهم فى عيش كريم داخل وطن عزيز.

ثالثًا: الداعى إلى القومية العربية.

جاء دين الله "الإسلام" فوحَّد المسلمين بجميع أجناسهم، وقومياتهم، وأصولهم، وكذلك بجميع أوطانهم تحت مظلة دين الله الحق "الإسلام"، واستبدل الناس رابطة الإسلام بالروابط الأخرى من قومية، ووطنية، وإنسانية، وغير ذلك، وفى ظل الإسلام انصهرت تلك الروابط وذابت؛ وذلك لقوة الرابطة الإسلامية مقارنة بروابط القومية والوطنية، ولم يعرف العالم قديمًا وحديثًا رابطة استطاعت أن تذيب العنصريات وجميع الفروق بين أتباعها كما فعلت الرابطة الإسلامية بالنسبة لجميع المسلمين.

ولم تكن الرابطة أو الوحدة الإسلامية حديثة، بل قد وضعت أسسها ودعائمها على يد رسول الله ﷺ ثم أصحابه من بعده؛ فلقد كان رسول الله ﷺ يجتمع حوله بلال الحبشى، وصهيب الرومى، وسلمان الفارسى، ثم أصحابه من العرب، ولم يكن

هناك شعور بالفروق إلا فروق السبق فى الإسلام، والبذل فى سبيله، ومن قبل ذلك تقوىٰ الله ـ سبحانه ـ يقول الله ـ سبحانه ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولقد عنى الرسول ﷺ بالتأكيد على أنه فى ظل الإسلام لا توجد إلا رابطة الدين، ورابطة الانتماء إليه، ثم على جميع الروابط الأخرى العفاء، وكان رسول الله ﷺ يقول: "سلمان منا أهل البيت"، فلم تذهب فارسية سلمان فقط ليصير عربيًّا، بل صار من آل بين النبى ﷺ فى الذروة العصماء، ثم جاء عمر رضى الله عنه ليؤكد هذا المعنى وليقول: "أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا"؛ يقصد أن أبا بكر أعتق بلالاً ـ رضى الله عن الجميع ـ فعمر وهو فى الذؤابة من قريش، يقول عن بلال: بلال سيدنا ـ وهو حبشى ـ.

وقد سارت على ذلك الدولة المسلمة، لا يرى فيها المسلمون رابطة تربط بينهم على اختلاف أوطانهم وأجناسهم سوى رابطة الإسلام، وهم فى ذلك يتمثلون سيرة النبى ﷺ وسيرة أصحابه ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ ثم من قبل ذلك ومن بعده يعتبرون بما ورد فى كتاب الله ـ سبحانه ـ حيث قطع صلة ورابطة القرابة والأهلية بين نوح ـ عليه السلام ـ وابنه الذى هو من صلبه، لأن ذلك الابن قد كفر وأصرَّ على كفره، وهذا بين أنه لا صلة بين المؤمنين بعضهم مع بعض إلا صلة الدين، وأن أية صلة سوى ذلك صلة مرفوضة لا ينبغى للمؤمنين أن يقروها أو يعترفوا بها ـ يقول الله ـ عز وجل ـ :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧ ﴾ [هود: ٤٥ ٤٧].

رابطة الإسلام هذه التى قامت على أساس منها العلائق بين المسلمين، رغم تعدد

قومياتهم وأوطانهم، طالما كانت شوكة فى حلوق أعداء الإسلام والمسلمين، وقذىً فى عيونهم، ولم يفتأ هؤلاء الأعداء ـ على اختلافهم ـ يحاولون القضاء على تلك الوحدة الإسلامية، وإحلال روابط أخرى مكان الرابطة الإسلامية.

وقد تفتقت حيلهم، ومكرهم، وخبثهم عن الدعوة إلى القومية العربية، ليجعلوها مكان الوحدة الإسلامية، والرابطة الإيمانية، فقام بتلك الدعوة هؤلاء النصارى الذين أنشئوا ما سمى "حزب البعث" والذى أسسه النصرانى "ميشيل عفلق"، وقد سماه بذلك زعمًا منه أن العرب تحت رابطة الإسلام إنما هم موتى أو نيام، وسيأتى بعثهم من خلال دعوته إلى القومية العربية، ولم يكتب لهذا الحزب أن يترك أثرًا إلا لدى بعض الحاقدين على الإسلام والمسلمين من نصارى الشام، وبعض مرضى النفوس من الذين يزعمون الإسلام.

ثم انتقلت الدعوة إلى القومية نقلة أخرى على يد دعاة من مصر وغيرها، وقد قويت تلك الدعوة فى فترة الخمسينات والستينات من هذا القرن. ثم آل أمرهم إلى ما آل إليه أمر كل باطل قام يدعو إليه المبطلون، وما يزال هناك من يتشدق بتلك الدعوة الباطلة لكنها رقصة الذبيح قبل أن يهوى ويطويه الفناء ـ بحول الله ـ سبحانه ـ.

رابعًا: أسانيد القومية وركائزها عند الدعاة إليها.

يعتمد الدعاة إلى القومية العربية على أسانيد واهية، وركائز زعموا أن من شأنها أن تجعل من العرب أمة واحدة تقوم على العروبة بصرف النظر عن الدين والوطن؛ أى: زعموا أن الدين الذى يدين به العرب أجمعون فى المنطقة العربية ـ إلا قلة منهم نصارى ـ زعموا أن الإسلام سوف يذوب فى القومية، وهذه الأسس التى زعموها للقومية:

١ ـ اللغة المشتركة؛ أى: اللغة العربية:

وقد نسى هؤلاء أو تناسوا ـ أخزاهم الله ـ أن العربية لغة القرآن والسنة، وأنه لولا القرآن لاندثرت العربية منذ قرون طويلة، كما اندثرت كل اللغات القديمة

وقامت على أثرها اللهجات المحلية، وصارت هى بدورها لغات لأصحابها بعد اندثار اللغة الأم القديمة.

٢ ـ التاريخ المشترك.

وأى تاريخ لدى العرب له وزن سوى تاريخهم الإسلامى، حين نصر الله ـ تعالى ـ دينه، وأعز جنده، ومن على هذه المنطقة فدخلها العرب فاتحين، داعين إلى دين الله الإسلام، الذى اختاره الناس طواعية دون أدنى ضغط أو جبر؛ فإن الفاتحين المسلمين لم يكرهوا الناس؛ تحقيقًا لقول الله ـ تعالى ـ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهل كانت هذه المنطقة عربية إلا بذلك التاريخ الإسلامى الذى دفع بالعرب إلى هذه المنطقة ليفتحوها محررين أصحابها من رق العباد وعبودية العباد؛ ليكونوا عبادًا لرب العباد، لله رب العالمين.

٣ ـ الثقافة المشتركة.

وليس للعرب إلا الثقافة العربية، وأين تكون تلك الثقافة العربية لعربى مسلم؟ إلا أن تكون ـ أولاً ـ من خلال الثقافة الشرعية: تفسير، حديث، فقه، أصول، لغة عربية وآدابها.. وكل ذلك من الإسلام خرج وإلى الإسلام يعود.

٤ ـ المصالح المشتركة.

وهذه ـ لعمرى ـ هى مكمن الخلاف، وكاشفة الطوايا، وفاضحة النوايا، فما تلك المصالح المشتركة التى تجمع العرب سكان المنطقة العربية بأسرها؟ إن كل رئيس فى دولة يريد أن يستولى على ما عند الآخر، وكلهم ـ إلا من رحم الله ـ يتعامل من خلال مصالحه الخاصة، وما أكثر الخلافات التى قامت ـ وما تزال ـ بين دولة وأخرى حول ما يسمى المصالح الخاصة، فأين تكون المصالح المشتركة إن لم يجمعها دين الله الإسلام، وتكون المصلحة كامنة فى نصرة دين الله والتمسك به؟ فبه وحده تكون النصرة على الأعداء، وبه وحده يتناسى الجميع الإقليميات الضيقة والمصالح الخاصة، ويعملون للمصلحة المشتركة ـ فعلاً ـ وليس كما يزعمون.

٥ ـ الآلام والآمال، أو آلام الماضى وآمال المستقبل. ـ كما يقولون ـ:

وإنما قصدوا بذلك الآلام الناتجة عن استعمار المنطقة العربية، ووقوعها أسيرة الاستعمار الإنجليزى، والفرنسى، والإيطالى، ويقصدون بآمال المستقبل الخلاص من الاستعمار كلية، واحتلال مكانة من القوة والعزة لا تمكن المستعمر من احتلال أراضيهم مرة ثانية.

وهل ضعفت المنطقة إلا حين تخلت عن الإسلام، وأخذت بنظام العلمنة؟ وهل ذل المسلمون إلا حين ضعف الإسلام فى قلوبهم، وابتعدوا عن هدى الله ونبيه ﷺ؟ ثم هل هناك من سبيل للخلاص من ذلك الضعف، وتلك المهانة، والذلة، والاستكانة، إلا بالعودة إلى دين الله الحق الإسلام، إذ هو مناط القوة، وسبيل العزة والمنعة، إنه لا سبيل إلا هو وإن عميت الأبصار، وختم على القلوب، وضل الناس الطريق إليه.

٦ ـ الأصل المشترك.

وآخر هذه الركائز كان حقه أن يوضع أولاً؛ إذ أنه مناط القضية، وأصل الدعوة، فهم يدعون إلى "القومية العربية"، فالدعوة ـ إذًا ـ قائمة على أساس الأصل العربى المشترك لدى ساكنى المنطقة العربية.

لكنهم جعلوه آخرًا، بل وأحيانًا يهملونه تمامًا، ويضربون عنه صفحًا، وذلك لأسباب أهمها: أن القول بالعروبة يدفع بهم دفعًا إلى الإسلام، ويقربهم منه بصورة واضحة؛ إذ إن المنطقة ما صارت عربية إلا لأن العرب جاءوها فاتحين داعين إلى الإسلام، ولو لم تكن الدعوة إلى الإسلام لظل العرب فى بلادهم التى نشئوا فيها، وظلت تلك البلاد لأعراقها القديمة وعلى دياناتها الباطلة.

ثم إن القول بالأصل المشترك، قد يحيى نعرات طائفية لدى كل قوم يتذكرون أعراقهم القديمة، وهكذا وقع فعلاً، فقد قامت دعوات إلى الانفصال عن العروبة، والرجوع إلى الأصول القديمة التى ما يزال بعض آثارها موجودًا

ومن ثم فقد قام من يدعو اللبنانيين إلى قومية فينيقية.

وقام من يدعو العراقيين إلى قومية أشورية.

وقام من يدعو فى تركيا إلى قومية طورانية.

وقام فى مصر من يدعو إلى العودة إلى الأصول الفرعونية.

وكانت النتيجة التى تمخضت عنها الدعوة إلى "القومية العربية" بحجة أنها ستؤدى إلى وحدة بين العرب أقوى من الوحدة والرابطة الإسلامية، أن تفتت العرب، وتقطعت أوصالهم إلى قوميات كثيرة، ونعرات جاهلية عديدة، وما ذلك إلا لأن الدعوة إلى "القومية العربية" فى حقيقة الأمر لم يقصد بها إلا ضرب الرابطة الإسلامية، والقضاء على الوحدة الإسلامية التى هى قدر الله للمسلمين ـ بحوله ومشيئته ـ سبحانه ـ وإن أجل الله لآت وهو السميع العليم.

ودعوة القومية على أنها رابطة، هى دعوة بشرية إلى رابطة بشرية وشأنها مثل كل الروابط التى هى من خلق البشر وصنعهم، فيها من الضعف والوهن ما فى صنعة البشر وأفعالهم، ومثل هذه لا ينبغى أن تكون بديلة لرابطة الإسلام التى تقوم عليها الوحدة الإسلامية التى هى من صنع الله ـ سبحانه ـ الذى أتقن كل شىء، والذى فرض على المؤمنين رابطة الإسلام، ووحدة الأمة؛ يقول عز وجل: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

* * *

الخاتمة

الحمد لله أولاً.. الحمد لله آخرًا، ثم الحمد لله على كل حال.

أما بعد؛

فهذا ما يسر الله ـ سبحانه ـ القيام به فى موضوع على جانب كبير من الأهمية والخطر.

ولعل القارئ الكريم قد لاحظ أننا لم نستوعب بالدراسة والنقد جميع المذاهب والنظريتات، حيث إن ذلك فوق ما يطيقه مؤلَّف واحد. لذلك آثرنا أن نتناول فى مؤلَّفنا هذا أهم تلك المذاهب وأخطرنا إن فى مضونها، وإن فى صلاتها الوثيقة وآثارها اللصيقة بمجتمعاتنا الإسلامية.. على نية أن نستدرك ما خلقناه من هذه المذاهب بمؤلَّف آخر نجمع فيه شتاتها دراسة ونقدا.

والله سبحانه ـ هو الموفق والهادى سواء السبيل.

سبحانك اللهم وبحمدك ـ أشهد أن لا إله إلا أنت ـ أستغفرك وأتوب إليك

أ. د/ محمود مزروعة

فهرس المحتويات